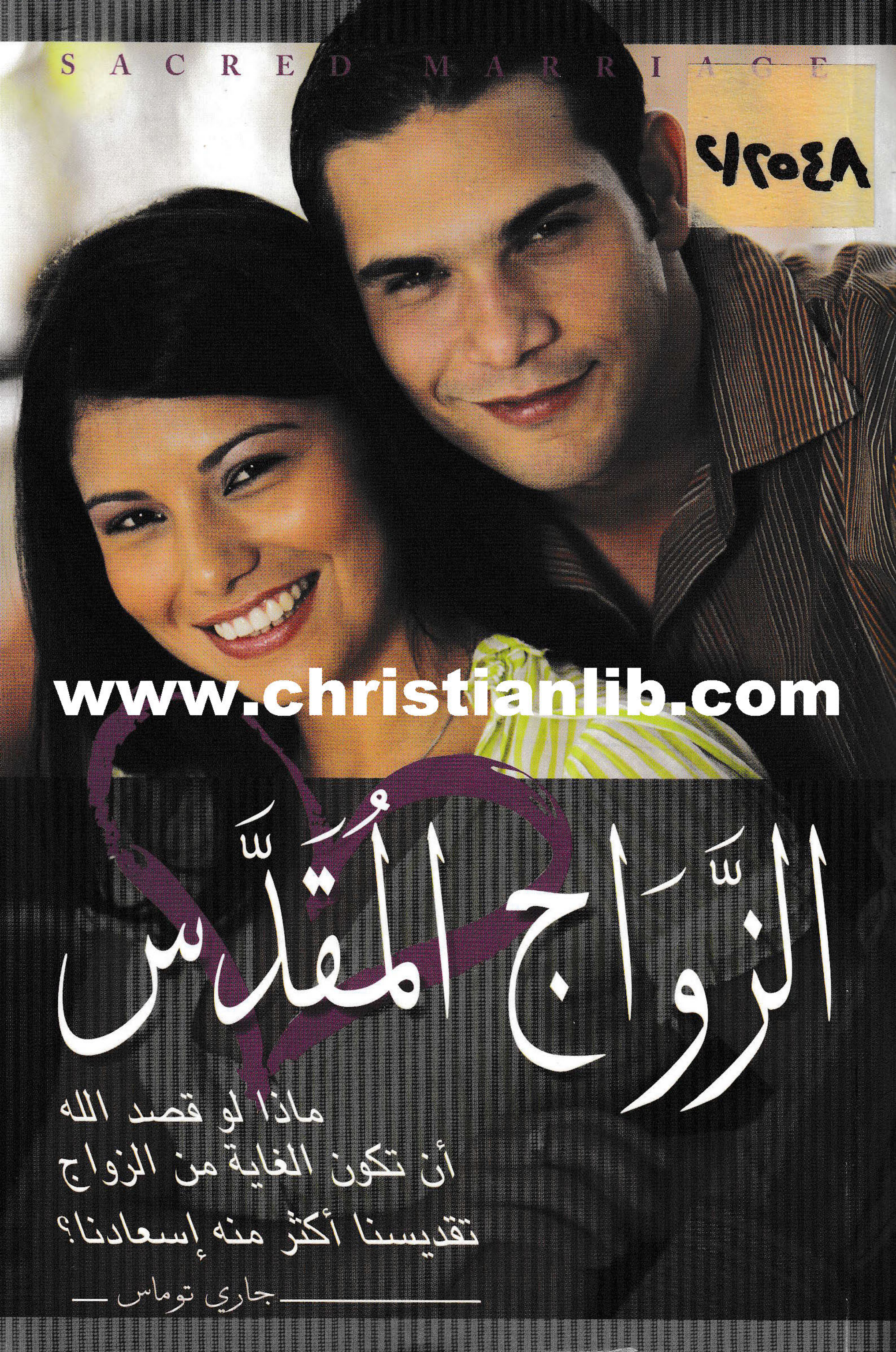

SACRED MARRIAGE
٢/٢٠٤٨
www.christianlib.com
الزَّوَاجُ المُقَدَّس
ماذا لو قصد الله
أن تكون الغاية من الزواج
تقديسنا أكثر منه إسعادنا؟
جاري توماس

الزواج المُقدَّس

ماذا لو قصد الله
أن تكون الغاية من الزواج
تقديسنا أكثر منه إسعادنا؟

—— جاري توماس ——



Sacred Marriage
By: Gary Thomas

الزواج المقدس
© الناشر: مطبوعات إيجلز
ص . ب ٨٢١٦ مدينة نصر
١١٣٧١ القاهرة – مصر
طبعة أولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠٨٥١/٢٠١٣
الترقيم الدولي: 978-977-387-087-4
الترجمة: جوزيت الشعَّار مشنتف – لبنان
التحرير والمراجعة، والإعداد الفني: إيجلز جروب
طبع في مصر: مطابع آلوكس– المنطقة الحرة

أهدي هذا الكتاب إلى ليزا

كلمة تقدير

باديء ذي بدء، أود أن أشكر كل مَنْ ساهم بمشاركة قصته ضمن هذا العمل. وبما أن بعضكم فضَّل عدم ذكر اسمه لأسبابٍ خاصة، وبما أن قسم الشؤون القانونية بدار النشر فضَّل ألا تُذكَر أسماء البعض منكم لأسبابٍ تخصّهم، لن أتمكَّن من شكركم فردًا فردًا، غير أنني ممتن جدًا لكم.

لقد قدَّم لي دار نشر Zondervan أحسن خدمة على الإطلاق في كتابة هذا الكتاب. وقد قام «جون سلوان» بعمل مدهش من خلال التركيز على الكتاب وترتيبه على أفضل ما يمكن. وقدم لي «ديرك بورسما» أفضل جودة في التحرير والمراجعة. أقدِّر كثيرًا موهبته في توجيهي إلى اختيار الكلمة الأدق، وتصميمه على الحفاظ على تعابيري الخاصة. وقد شجَّعني مدير التسويق «جون توبليف» على نحوٍ كبير.

كذلك، أريد أن أشكر وكيلي «سكوت واكسمان» لتعريفي بدار النشر؛ وأشكر «روب» و«جيل تايكمورا» لأجل صداقتهما- العملية والروحية (لا أعلم كيف كنا سنتعامل ليزا وأنا مع الحياة إذا لم نسكن قريبًا جدًا منكما). وأقدِّم الشكر للدكتور «بوب ستون» راعيَّ الذي لا يزال تشجيعه وتعليمه مصدر إلهام وتحدٍ لي. وأشكر «كارولين ماكولي» من الـ «بي دي آي» مقدِّرًا توصياتها ومقدماتها وصداقتها أعلى تقدير. وأشكر «جين بريتنباك» لتعليقاته العميقة، ولصبره مع كاتب أبعد من أن يكون خبيرًا في التكنولوچيا يحاول أن يعيش في عالم يجتاحه الإنترنت تدريجيًا. كذلك أشكر أولادي -«أليسون» و«جراهام» و«كيلسي»- لأوقات الضحك، والمعانقة، والصلوات، وتعليقاتهم التي تضيء حياتي (ولسماحهم أن يستمتع الآخرون ببعض قصصهم).

أخيرًا، لقد عشت هذا الكتاب إلى جانب امرأةٍ لا نظير لها. لقد امتحنتها وامتحنتني، وأخطاتُ تجاهها وطلبت مغفرتها، وضحكت معها، وبكيت معها، وصليت معها، وأنجبتُ أطفالاً منها. ليزا، أنا أهيم بحبك كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله.. لا يمكنني أن أتخيَّل الحياة من دونك. شكرًا لأنكِ شاركتِ هذه الحياة معي. قد أضافت شخصيتك بهجة كبيرة على زواجنا، وإيمانكِ جعله مقدسًا. أنتِ حقًّا كنز لا يُقدَّر بثمن!

المؤلف

المحتويات

الفصل الأول

التحدّي الأعظم في العالم

دعوة للقداسة أكثر منها للسعادة

في كل الأحوال تزوَّج! فإذا وجدت زوجةً صالحة تصبح سعيدًا،
أما إذا وجدت زوجةً سيئة تصبح فيلسوفًا.
– سقراط

ككل الأمور التي لا تُعتبر نتيجةً تلقائية لعاطفةٍ عابرة، بل ثمرة الوقت والإرادة، يبقى أي زواج، ناجحًا كان أم فاشلاً، أكثر إمتاعًا من أي قصة غرامية، مهما كانت مفعمة بالعواطف.
– دبليو. إتش. أودن

سأقوم بشق هذه الجثة!

لا يعرف المؤرخون على وجه التحديد هُوية الطبيب الأول الذي راودته هذه الفكرة وقام بتنفيذها، إلا أن هذه الممارسة أحدثت ثورةً في عالم

الطب. إن الاستعداد لشق جثةٍ ما، وسلخ الجلد عن العظم، وفصل فروة الرأس عن الجمجمة، والتشريح وصولاً إلى العظام، وانتزاع الأعضاء الموجودة داخل الجثة بالفعل، وفحصها، ودراسة تفاصيلها برسومات توضيحية، قد شكلت خطوة أولى وضرورية نحو اكتشاف كيفية عمل الجسم البشري فعليًا.

ظل الأطباء لآلاف السنين يخمّنون ما يجري داخل الجسم البشري، غير أن التردد وحتى الاشمئزاز حيال التشريح الفعلي لجثةٍ ما كانا غالبين. وقد أحجم البعض عن القيام بهذه الخطوة بسبب معتقداتهم الدينية، بينما لم يستطع البعض الآخر التغلب على الخوف من شق القفص الصدري. وفيما كان التوغل داخل جثة بشرية مغامرة يقوم بها رائد جريء بين الحين والآخر، لم يبدأ الأطباء الأوروبيون بتشريح الجثث البشريّة على نحوٍ روتيني قبل عصر النهضة (تقريبًا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر).

وعندما فعلوا ذلك، تلاشت المفاهيم المغلوطة السابقة. ففي القرن السادس عشر، أُعطي «أندرياس فيزاليوس» كل ما يطلبه من جُثَث المجرمين ليعمل على تشريحها؛ الأمر الذي أتاح له أن يدحض على نحوٍ قاطع الافتراضات الخاطئة حول التركيب التشريحي لجسم الإنسان.. تلك الافتراضات التي لم تكن موضع تساؤل لما يقرب من الألف سنة أو أكثر. وأصبحت رسومات «فيزاليوس» ذات قيمة بالغة، غير أنّه لم يكن ليرسمها لو لم يكن في المقام الأول مستعدًا للقيام بعملية شق الجثة.

إنني أود من خلال هذا الكتاب القيام بالشيء ذاته- ولكن من جانب روحي.. سنقوم بتشريح العديد من الزيجات، وتحليلها، واكتشاف ما الذي يجري فعليًا في الأعماق؛ ومن ثَمَّ نستكشف كيف يمكننا أن نكتسب معنى، ونموًا، وعمقًا روحيًا من خلال التحدّيات الموجودة فيها.

إننا لا نلتمس أجوبة بسيطة.. مثل: ثلاث خطوات لمزيد من التواصل الحميم، ست خطوات لحياةٍ عاطفية مثيرة؛ لأن هذا الكتاب لا يهدف إلى إخبارك بكيفية الحصول على زواجٍ أكثر سعادة.. إنه كتاب يتناول كيفية الاستفادة من التحديات، والأوقات السعيدة، والصراعات، والمناسبات الزوجية للتقرُّب أكثر إلى الله، وللنمو في الحياة المسيحية.

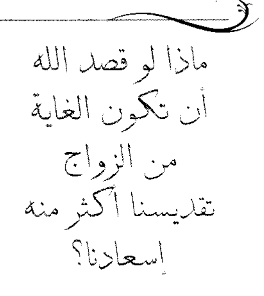
إذًا، نحن ننشد ما كتب عنه الكاتب المسيحي العظيم «فرنسيس دو سال» في القرن السابع عشر. ولأن «دو سال» كان مرشدًا روحيًا موهوبًا، كان الناس يراسلونه كثيرًا بشأن مخاوفهم الروحية. ذات مرة كتبت له سيدة في ضيق شديد، وأخبرته أنها تتمزَّق لأنها ترغب بشدة في الزواج، غير أن صديقة لها كانت تشجّعها على البقاء بدون زواج، وتصر على أنّ اعتناءها بوالدها، وتكريس نفسها في حياة البتولية للرب بعد وفاة والدها سيكون "أكثر قداسة" بالنسبة لها من أي قرارٍ آخر.

إنه كتاب يتناول كيفية الاستفادة من التحديات، والأوقات السعيدة، والصراعات، والمناسبات الزوجية للتقرُّب أكثر إلى الله، وللنمو في الحياة المسيحية.

هدأ «دو سال» من روع السيدة القلقة بقوله إن الزواج، بعيدًا عن كونه نوعًا من التنازل، قد يكون من جهة أخرى الخدمة الأصعب على الإطلاق التي يمكن أن تأخذها على عاتقها. وقال: "إن الزواج حالة تتطلب الفضيلة والثبات أكثر من أي حالةٍ أخرى، كما أنه تمرينٌ دائم لإماتة الذات... ولعلكِ تكونين قادرة أن تستخرجي من عصارة نبتة الزعتر المرّة، عسل حياة مقدسة."[1]

لاحظ أن «دو سال» يتكلَّم عن "الطبيعة المرة" في بعض الأحيان لـ "عصارة" الزواج.. لذا إن أردنا الاستفادة روحيًا من الزواج علينا

أن نكون صادقين، أي علينا أن ننظر إلى الإحباطات التي مررنا بها، ونعترف بمواقفنا البغيضة، ونتواجه مع أنانيتنا. كذلك علينا أن نتخلَّص من فكرة أنه بإمكاننا تخطي صعوبات الزواج بمجرد تكثيف صلواتنا، أو تعلّم بعض المبادئ البسيطة. لقد اكتشف معظمنا أن هذه "الخطوات البسيطة" لا تفلح سوى على مستوى سطحي. تُرى ما السبب في ذلك؟ يرجع السبب في ذلك إلى مسألةٍ أعمق يجب التطرُّق إليها، وهي تتعدّى فكرة كيفية "تحسين" زواجنا، ألا وهي: ماذا لو أدركت أن الله لم يقصد أن يكون الزواج أسهل مما هو عليه؟ ماذا لو كان في فكر الله غاية تتعدى سعادتنا، وراحتنا، ورغبتنا بأن نُفتَن ونَسعَد وكأن العالم جنّة عدن؟



ماذا لو قصد الله أن تكون الغاية من الزواج تقديسنا أكثر منه إسعادنا؟ ماذا لو كان علينا أن نقبل "العصارة المُرة" لأننا -كما يشير «دو سال»- قد نتعلم كيف نستخرج منها الموارد التي نحتاج إليها لصناعة "عسل الحياة المقدسة"؟

خدعة المذهب الرومانسي

قد تبدو وجهة نظري عن الزواج غريبة ومتطرفة بعض الشيء، إلا أنه علينا أن نتذكَّر أن مفهوم "الحب الرومانسي" ذاته الذي تُروِّج له بكثرة الأفلام، والأغاني، والروايات الرخيصة، كان في الواقع غير معروف لدى القدماء. بالطبع كانت هناك بعض الاستثناءات -على سبيل المثال يحتاج المرء أن يقرأ فقط سفر نشيد الأنشاد؛ لكن بشكل عام المفهوم الذي يفيد

بأنّ الزواج يجب أن يتضمّن العاطفة والإشباع والإثارة هو تطور حديث نسبيًا على مجرى التاريخ البشري. وقد شهدت أواخر القرن الحادي عشر بداية انتشار هذا المفهوم بين عموم الناس.[2]

يشرح «سي. إس. لويس» –الذي رأى معاصروه أن زواجه من سيدةٍ مريضة خطوة «غريبة» بعض الشيء– أن أي تحول هائل في الثقافة العامة، كتطور مفهوم الحب الرومانسي "نادر جدًا.. وقد سجل التاريخ ثلاثة أو أربعة تحولات من هذا النوع. غير أنني أؤمن بحدوثها، ويُعتبر [الحب الرومانسي] إحدى هذه التحولات."[3]

هذا ليس معناه أن الرومانسية في حد ذاتها، أو الرغبة في المزيد من الرومانسية، هي بالضرورة أمرٌ مشين.. الزيجات الناجحة تتطلب جهدًا للحفاظ على قدر من الرومانسية. لكن فكرة أن الرومانسية وحدها كافية كي يستمر الزواج، أو أن المشاعر الرومانسية أهم من أي اعتبارات أخرى عند اختيار شريك الحياة، قد حطّمت سفنًا زوجية عديدة.

لقد شهد المذهب الرومانسي نهضة كبيرة على يد شعراء المدرسة الرومانسية في القرن الثامن عشر من أمثال «وردزوُرث»، و«كولريدج»، و«بلايك»؛ وقد حذا حذوهم من خَلَفَهُم في الأدب أمثال «بايرون»، و«شيلي»، و«كيتس». نادى هؤلاء الشعراء بقوة أنه لجرم كبير يرتكبه المرء في حق نفسه إذا تزوج لأي سبب آخر غير "الحب" (الذي كان يُحدد في الأغلب بناءً على المشاعر والعواطف)، وقد كانت حياة كثير منهم عبارة عن صورة مَمْسوخة من اللامسؤولية والمآسي.

ومن الكُتّاب الذين اعتنقوا هذا الفكر الرومانسي في غيرة وحماس الروائي «دي. إتش. لورانس»، الذي كان شعاره "إن كلمتي «لابد» و«يجب» لا مكان لهما في قاموس حياتي!" وقد وقع لورنس في حبّ سيدة متزوجة تُدعى «فريدا ويكلاي»، وسعى إلى التودّد إليها خفيةً من وراء زوجها– كما

فرض عليه "حبُّه" أن يفعل. وكجزء من مخططاته غير النبيلة، أرسل إلى «فريدا» رسالة يُعلِن فيها أنّها أروع سيّدة في إنجلترا كلها.

إن الحب الرومانسي لا يتصف بأي نوع من المرونة، وغير قابل إطلاقًا للتمدد؛ فهو يتحطّم بسهولة.

وحيث إن السيدة «ويكلاي» كانت متزوجة وأمًا لثلاثة أبناء، وقد سبق وأن عانت من علاقات خارج الزواج؛ فقد رأت ما وراء مشاعر «لورانس»، وأجابت بفتور أنه من الواضح لها أنّه لم يلتقِ بالكثير من سيدات إنجلترا.[4]

في أوائل القرن العشرين، عبَّرت «كاثرين آن بورتر» عن حسرتها لأن "الحب الرومانسي تسلل خلسةً وببطءٍ شديد، عبر قرون عدة، إلى فراش الزوجية، حاملاً في طيّاته مفاهيم غريبة عن الحب على أنه ربيع أبدي، وعن الزواج على أنه مغامرة شخصية الغرض منها تأمين السعادة الشخصية". إن واقع الحالة البشرية، كما تراه «بورتر»، (وأنا أوافقها الرأي) هو أنه علينا "أن ننقذ فتات السعادة" من بين مخالب آلام الحياة التي لا مفر منها.

وتستكشف «بورتر» بدقة قمم ووديان الحياة الزوجية في مقالها المدهش والعميق عن الزواج الذي كتبته في الأربعينيات (تحت عنوان مثير: «عدو لا مفر منه»)، مسجلةً الملاحظات التاليّة عن عروسٍ شابة:

> تجد هذه السيدة الشابة والعصرية جدًا نفسها أمام المعضلة الأقدم والأقبح عن الزواج، فيجتاحها الرعب والذعر، كما يملأها الشعور بالذنب والتشاؤم؛ لأنها تكتشف شيئًا فشيئًا أنها قادرة على أن تكره زوجها الذي تحبّه بإخلاص.. فبإمكانها أحيانًا أن تشعر تجاهه

بالكُره الشديد وغير المبرر، على نحوٍ يُشبه إلى حد كبير الكُره الذي كانت تكنه كثيرًا تجاه والديها وإخوتها وأخواتها (الذين تحبهم الآن) عندما كانت بعد صغيرة في السن...

لقد ظنت أنها تخلَّصت من هذه الأمور كلها، وإذا بجانب من طبيعتها الشخصية يظهر من جديد، ولم يسعها السيطرة عليه، أو تخشى من عدم التمكُّن من ذلك. وقد كان عليها أن تُخفي عن زوجها، إن استطاعت ذلك، نفس الجانب من مشاعرها الذي كانت تخفيه عن والديها، وبكل تأكيد لنفس السبب المُشين والأناني: إنها تريد الاحتفاظ بحبه.

الأهم من كل شيء أنها تريده أن يكون واثقًا كل الثقة من أنها تحبه؛ لأن هذه هي الحقيقة الخالصة، مهما بدت غير منطقيّة، ومهما خانتها مشاعرها الشخصية في بعض الأحيان؛ فهي تعتمد بكل كيانها على حبّه.

تُحذر «بورتر» أية سيدة شابة لا تعتمد سوى على النظرة الرومانسية للزواج من أنّها قد تفقد "راحة بالها.. فهي تخشى أن ينهار زواجها لأنها... أحيانًا تشعر بكراهية مؤلمة تجاه زوجها، ولا يمكنها الإقرار بحقيقة هذا الشعور؛ لأن مثل هذا الاعتراف قد يُفسد نظرتها لما يجب أن يكون عليه الحب."[5]

إن الحب الرومانسي لا يتصف بأي نوع من المرونة، وغير قابل إطلاقًا للتمدد؛ فهو يتحطم بسهولة. بينما الحب الناضج، وهو النوع الذي يتطلبه الزواج الناجح، يجب أن يكون قابلاً للتمدد؛ لأن طبيعتنا البشرية الخاطئة تجعلنا كلنا نحمل مشاعر متضاربة. وتشرح بورتر أن "كُره هذه الزوجة الشابّة حقيقي، كما أن حبّها أيضًا حقيقي".. وهذا

هو واقع القلب البشري، الذي لا يستطيع تجنبه شخصان لهما طبيعة ساقطة يتعهدان بالعيش معًا، مع كل عيوبهما، لبقية حياتهما.

يدعونا يوم الزفاف إلى مثالياتنا الأعلى والأفضل، بل المستحيلة في واقع الأمر.. فهذه هي الطريقة التي نرغب أن نعيش طبقًا لها! غير أن الزواج يذكِّرنا بالواقع اليومي الذي نعيشه كبشرٍ ذوي طبيعة ساقطة في عالمٍ مفكك تمامًا. نحن نطمح إلى الحب، لكن غالبًا ما ينتهي بنا الأمر بالوقوع في شباك الكراهية.

إن أي نظرة ناضجة وروحية للزواج لابد أن تُبنى على أساس الحب الناضج عوضًا عن الرومانسية. لكن هذا يضعنا فورًا في اتجاه مُعاكِس للثقافة السائدة.

يسخر الكاتب «سي. إس. لويس» في كتابه الكلاسيكي «رسائل خُربر» *(The Screwtape Letters)* من هوس مجتمعاتنا بالرومانسية. فنقرأ أن الشيطان «خُربر» يتأمل في شماتة قائلاً: "يتراجع البشر الذين لا يملكون القدرة على [الامتناع عن العلاقة الجنسية خارج الزواج] من اللجوء إلى الزواج كحلٍّ لمشكلتهم؛ لأنهم، لا يجدون أنفسهم واقعين في الغرام، وبفضلنا نحن تبدو فكرة الزواج لأي دافعٍ آخر فكرة مبتذلة ومضحكة. نعم، إنهم يفكرون هكذا؛ فهم ينظرون إلى الرغبة في الإخلاص لشراكة ما بهدف التعاون المتبادل، والحفاظ على العفة، والتناسل، على أنها أقل شأنًا من الفوران العاطفي."[6]

أعتقد أن معظمنا ممن مضى على زواجهم زمن طويل ندرك أن نشوة الرومانسية في فترة التعارف والخطوبة تخمد في النهاية وتصل إلى مستويات ثابتة يتخللها من حين لآخر بعض اللحظات الاستثنائية. وعندما يحدث هذا يتجاوب الأزواج بطرقٍ مختلفة.. فالعديد منهم ينسحب من العلاقة ويحاول من جديد تأجيج مشاعر الرومانسية مع شخص

آخر؛ بينما ينجرف آخرون إلى معارك زوجية، في صراع للقوى سلبي وعنيف يُلقي فيه كل شريك اللوم على الآخر لعدم شعوره الشخصي بالرضا، أو الافتقار إلى الإثارة. بينما تقرر مجموعة أخرى من الأزواج "التأقلم". لكن هناك البعض الآخر الذي يبحث عن معنى أعمق، عن حقيقة روحية مخبأة بين طيات الحميمية في واقع الحياة الزوجية.

يدعونا يوم الزفاف إلى مثالياتنا الأعلى والأفضل، بل المستحيلة في واقع الأمر.

يمكننا الهروب من وجه تحديات الزواج كما فعل الأطباء تجاه الجسم البشري، عندما رفضوا تشريح الجثث والاطلاع على ما يجري في داخلها؛ أو يمكننا أن نعترف أن كل زواج يواجه هذه التحديات، ويتطلّب منّا التعامل معها وجهًا لوجه. وإذا وجدنا أن نفس الأنواع من التحديات تواجه كل زواج، يمكننا أن نستنتج أن الله قَصَد من هذه التحديات ما يتسامى عن شيء بهذا القدر من الخداع كالسعادة.

نشوة الرومانسية في فترة التعارف والخطوبة تخمد في النهاية وتصل إلى مستويات ثابتة يتخللها من حين لآخر بعض اللحظات الاستثنائية.

يبحث هذا الكتاب عن هذا القصد المعنى.. كيف يمكننا أن نجد في تحديات الزواج الفرص كي نتعلّم أكثر عن الله، وننمو في فهمنا له، ونتعلّم كيف نحبه أكثر؟

لقد شارك العديد من الأزواج بانفتاح عن حياتهم في هذا الكتاب، لذا أعتقد أنه من العدل أن يخضع زواجي أنا أولاً للتشريح.

ارتباطٌ غير مُتوقَّع

«ليزا» وأنا نتساءل كثيرًا عما كان سيحدث لو قالت لي "نعم".

أثناء الفترة الحرة من ظهيرة يومٍ من أيّام خلوةٍ روحية نظمتها خدمة الطلبة والجامعيين، عندما كنّا «ليزا» وأنا لا نزال نتواعد، طلبتُ منها أن تنضمّ إلى مجموعتنا لنلعب الفريسبي جولف.

فأجابتني «ليزا»: "كلا، فأنا أُفضِّل الذهاب للتمشي."

كانت «ليزا» قد رجعت للتو من رحلة إرسالية إلى المكسيك دامت طوال فصل الصيف، وكان من المفترض أن تكون هذه الخلوة وقتًا لإعادة التواصل بيننا من جديد. كان يعرف أحدنا الآخر منذ أيام المدرسة الثانوية، وكنا نتواعد منذ سنةٍ تقريبًا، وكانت العلاقة قد بدأت تصبح "جادة". لم تكن «ليزا» تعلم أنني طلبت من صديقي العزيز «روب تاكيمورا» أن يصلي من أجلي كي أعرف ما إذا كان يجب أن أطلب يد «ليزا» للزواج. ولم أكن أعلم أن «ليزا» أمضت مع والدتها بعد ظهر يوم السبت من الأسبوع السابق بين محال فساتين الزفاف "في حال احتاجت «ليزا» إلى واحد.

تضايقت بعض الشيء لأن «ليزا» لم تكن متعاونة، وقلت لها: "حسنًا، أنا أيضًا لن ألعب الفريسبي جولف" فقالت: "يمكنك الذهاب للّعب، فأنا لا أمانع أن أتمشى بمفردي."

فأجبتها: "كلا، سأرافقكِ." وفي ذلك الوقت لم يدرك أي منا أن هذا التحوُّل في الأحداث سيغيِّر مجرى حياة كلينا.

مشينا على ضفاف النهر، ثم جلسنا في وادٍ ساحر في محيط «جلاسيه ناشونال بارك»، وتحادثنا لمدة خمسة وأربعين دقيقة تقريبًا.

وفجأةً، توقفتُ عن رمي الأحجار على سطح المياه، وفعليًا ومن دون أية مقدمات، قلتُ لليزا: "أريد الزواج منكِ."

فتحت ليزا فمها مندهشة.

وسألتني في ذهول: "هل أنت تطلب يدي للزواج؟"

أومأت برأسي إيجابًا وكلي ذهولٌ مثلها تمامًا؛ فنهضت «ليزا» عندئذٍ وعانقتني.

سألتها: "هل هذا يعني أنكِ موافقة؟" فأومأت ليزا برأسها إيجابًا.

وبعد لحظات قالت: "يا للهول! تخيل لو وافقتُ على المشاركة في الفريسبي جولف."

ضحكنا على الأمر، ومن ثم اختبرنا أحد الأوقات الأكثر عاطفية في حياتنا؛ وشعرنا بروحينا تمتزجان على نحوٍ غريبٍ وغامض، لم يختبره كلانا من قبل. كان شيء ما يحدث في داخلنا، ومن حولنا، ومن خلالنا.. شيء كان يفوق أي اتصال جسدي. كان هذا الأمر، بطريقةٍ ما، أكثر عمقًا ومعنى، وأكثر روعة من أي شيء آخر اختبرناه من قبل.

وفي الأشهر التسعة التالية، وكأي خطيبين بدأنا في وضع الخطط.. تحدثنا عن الإرساليات، والعائلة، ودراسة اللاهوت، وخدمة الله- وكل ما قد يخطر في بالكم. كان وقتًا مكثفًا، وكثيرًا ما كنا نصلي قائلين: "يا رب، نحن لك، وجِّهنا كيفما تريد، واستخدمنا كما تريد."

لم نمارس الجنس إطلاقًا قبل ليلة الزفاف، وبالتالي كان شهر العسل اختبارًا مثيرًا وساحرًا! ولكن بمجرد أن انقضى شهر العسل حتى ألقى الواقع بثقله تمامًا كما يُثقل الضباب الكثيف سماء ولاية «سياتل».

حيث إنني كنتُ أخطط لادخار بعض المال لمصروفات دراسة اللاهوت،

قضينا الأشهر الأولى من زواجنا في منزلٍ صغير جدًا قدمه لنا صديق للعائلة بدون أن ندفع أي مقابل. وبعد يومين من عودتنا توجهت أنا إلى العمل، بينما أصبحت «ليزا» فجأة متروكة في مجتمعٍ صغير لا تعرفه؛ فراحت تبكي.

وفي يومٍ مشمسٍ، اتصلت بي «ليزا» في مكان عملي، وسألتني ما إذا كان بإمكاني العودة إلى المنزل مبكرًا كي نذهب للتنزه عند البُحيرة. ظننتُ أنها فقدت عقلها، وأجبتها باستياءٍ: "لا يسعني ترك العمل ببساطة لأن الطقس جميل، بالإضافة إلى أنني قد بدأت العمل للتوّ!"

فاشتكت قائلةً: "ما جدوى الزواج إذا كنتُ الآن أراك لوقتٍ أقصر من الوقت الذي كنا نمضيه معًا في فترة خطبتنا؟"

فعلاً ما الجدوى من ذلك؟

ما جدوى الزواج إذا كنتُ الآن أراك لوقتٍ أقصر من الوقت الذي كنا نمضيه معًا في فترة خطبتنا؟

لننتقل بالزمن عشر سنوات إلى الأمام.. أصبح لدينا ثلاثة أطفال صغار، اثنان منهم كانا لا يزالان يرتديان الحفاضات. كنت أعمل في خدمة مسيحيّة، وكان لا يزال دخلنا المادي يكفينا بالكاد، وقد استقرينا في بيتٍ في المدينة في شمال ولاية «فيرجينيا». ذات يوم كنا على وشك أن نبدأ روتين ليلة الجمعة.. غسل الملابس ومشاهدة فيلم ڤيديو.

بينما كنت ألتقط مفاتيحي متوجهًا نحو الباب سألتُ «ليزا»: "ما الذي تودين مشاهدته الليلة؟"

فأجابتني: "ما رأيكَ في فيلمٍ رومانسي كوميدي؟"

فامتعضت؛ لأن الأفلام الثلاثة الأخيرة التي شاهدناها معًا كانت

رومانسية كوميدية؛ حتى إنني شعرتُ أني سأنفجر إذا شاهدتُ مرة أخرى شخصين فاتنين يلتقيان في ظل ظروفٍ غير واقعية، ويقعان في الغرام، ومن ثم يتشاجران، وبعدها يمضيان الدقائق الستين المتبقية وهما يقعان في الغرام من جديد.

تنهدتُ، واستدرتُ، ونظرتُ إلى «ليزا»، وقلتُ لها: "أنا آسف، لم أعد أحتمل، عليَّ أن أرى على الأقل مبنًى واحدًا ينفجر أو سيارةً تتحطم. سأحاول أن أجد أحد أفلام الأكشن، ولكن يتخلله بعض الرومانسية."

متى تغيَّرت صلاتنا من: "أرجوك يا رب غيِّر العالم من خلالنا" إلى السؤال: "هل نشاهد فيلم لأرنولد شوارزنيجر أم چوليا روبرتس؟

خطوتُ ثلاث خطوات خارج الباب، وفكَّرتُ في نفسي: "متى تغيَّرت صلاتنا من: 'أرجوك يا رب غيِّر العالم من خلالنا' إلى السؤال: 'هل نشاهد فيلم لأرنولد شوارزنيجر أم چوليا روبرتس؟'" لا أذكر أني صادفتُ في الطريق أي علامة أو لافتة مضيئة تشير إلى ذلك، ولكن بطريقةٍ ما، وفي مكانٍ ما، حدث ذلك.

تذكّرتُ مشاعري المتأججة في تلك الليلة التي ارتبطنا فيها، وكذلك الاستكشاف المليء بالبهجة في شهر العسل، وعندما ملأنا الاستمارة التمهيدية للانضمام إلى إحدى الإرساليات، وعندما أتينا بأول طفلٍ لنا إلى المنزل! غير أنه الآن، وبعد مرور عشر سنوات، "تطورنا" حتى أصبحنا نمضي مساء الجمعة ونحن نشاهد أشخاصًا آخرين يقعون في الحب بحسب مقاييس سيناريوهات هوليوود الخادعة.

لم أجد أي جواب في تلك الليلة، غير أن نظرةً صادقة مني إلى ما

وصلت إليه جعلتني أهتز متنبهًا.. ما هذا الذي ندعوه الزواج؟ كيف انتهى بي المطاف هنا؟ هل هذه هي الغاية الوحيدة من الزواج؟

«فحسنٌ للرجل أن لا يمس امرأةً»

لقد بدأت علاقتي بالمسيح في سن مبكرة جدًا. لكن في الحقيقة، من الصعب جدًا أن أتذكَّر وقتًا لم يكن فيه الله يشكل حضورًا فعالاً وحيًا في حياتي؛ لهذا السبب شعرتُ بأنني منجذب إلى يسوع منذ صغري.

ما هذا الذي ندعوه الزواج؟ هل هذه هي الغاية الوحيدة من الزواج؟

لكنني كنت أيضًا منجذبًا إلى أمورٍ أخرى بالإضافة إلى يسوع.. أتذكَّر أنني كنت أيضًا منجذبًا إلى الفتيات. كنتُ مغرمًا جدًا بفتاةٍ شعرها داكن اللون عندما كنت في الروضة! والمرة الأولى التي أمسكت فيها فعليًا بيد فتاة كنتُ في الصف الخامس.. انطلقنا «تينا» وأنا حول حلبة التزلُّج، وقد علا الاحمرار وجهينا خجلاً فيما كانت أنغام «كاربنترز» الشجية تعكس حالتنا بأدق تفصيل: "أنا فوق قمة العالم". وبالفعل كان هذا شعوري!

مع مرور السنين، كان هذان الميلان -تجاه الله والفتيات- أحيانًا يولِّدان عندي صراعًا عصيبًا.. أكثر رجلٍ أُعجبت به، والشخص الوحيد الذي كنت أريد أن أبني حياتي على مثاله، والذي كنت أريد أن أقدِّم له التزامي وولائي، كان شابًا أعزب.

وبقدر ما أذكر، كنتُ وقتها مدركًا تمامًا للتقليد الراسخ لحياة البتولية.. حيث يعيش الرهبان والراهبات تكريسهم لله بالامتناع عن الزواج وممارسة الجنس. وتمنى جزءٌ مني أن أعيش هذا التقليد..

أردتُ أن « أُنفِق» حياتي للمسيح، وأثناء دراستي بالجامعة صارعتُ مع كلمات الرسول بولس: «فحسنٌ للرجل أن لا يمسَّ امرأةً (ألا يتزوج)» (١كو ٧: ١).[7]

في الواقع، في بعض الفترات من التاريخ المسيحي كان يُنظر على نحوٍ غير رسمي (وأحيانًا بوضوحٍ تام) للمؤمنين المتزوجين كمؤمنين "من الدرجة الثانية"، ساوموا على نزاهتهم، أو أضعف من أن يكبحوا رغباتهم الجنسيّة. واعتقد أغسطينوس أنه كان رحيمًا عندما كتب مشيرًا إلى الرغبة في الإنجاب: "يُخرج الجماع الزوجي من شر الشهوةِ أمرًا جيدًا."[8] والكتاب المقدس محل ثقة ومعصوم، بينما التاريخ المسيحي ليس كذلك، وأحيانًا يحوي آراء شخصية غير مؤسسة على كلمة الله.

لا شك أن بطرس الرسول، «البابا الأول»، كان متزوجًا. (ما كان يسوع ليشفي حماة بطرس لو لم يكن لبطرس زوجة!) غير أن الكتاب المقدس يحوي أيضًا برهانًا (١تي ٥: ٩- ١٢) أن الأرامل الحدثات السن في القرن الأول كُنّ يأخذن على أنفسهن عهودًا بالامتناع عن الزواج مرة أخرى. وبحلول سنة ١١٠م ميلادية كان البتوليون يأخذون على أنفسهم عهودًا تشبه العهود الزوجية. وأصبحت العهود بحياة البتولية الدائمة أكثر تنظيمًا؛ مما جعلها شائعة بحلول القرن الثالث الميلادي. وفي القرن الرابع، صار يُحتَفل بهذه العهود بإقامة طقس كنسي كامل.[9]

ومع أن المسيحية خرجت من رحم الديانة اليهودية.. حيث يُعتبَر الزواج واجبًا دينيًا (أشار أحد الحاخامات أن الرجل الذي لا يتزوج ليس رجُلاً مكتمل الرجولة)[10]، فلم يمرّ وقت طويل حتى أصبح من النادر الحديث عن فكرة المؤمنين المتزوجين على مدار قرونٍ كُتب فيها عن «اللاهوت الروحي» (دراسة كيف ينمو المؤمنون المسيحيون في إيمانهم، ويتعلمون الصلاة، ويتقربون من الله). إن معظم الكتابات الكلاسيكية المسيحية كتبها

في بعض الفترات من التاريخ المسيحي كان يُنظر للمؤمنين المتزوّجين كمؤمنين "من الدرجة الثانية"، ساوموا على نزاهتهم.

رهبان وراهبات، وكانت موجهة للرهبان والراهبات. أما المتزوجون، فأفضل ما يمكنهم عمله هو محاولة تقليد غير المتزوجين في السعي إلى الله؛ إذ إن فكرة السعي إلى الله من خلال الزواج لم تُؤخذ فعليًا مأخذ الجد، بل كان التركيز على السعي إلى الله على الرغم من الزواج.

وأنا قد حملت بعض هذه الأفكار إلى زواجي الشخصي، لكن بعد قليل انفتحت عيناي على حقيقةٍ مختلفة. أتذكر عندما سألني أخي بعض الأسئلة عن الزواج، وقتها فكرت للحظات وقلت له: "إذا كنت تريد أن تخدم الرب بحرية، لا شك أنه يجب أن تبقى أعزب؛ فالزواج يتطلب الكثير من الوقت. ولكن إن كنت تسعى لتشبه يسوع أكثر، لا أستطيع أن أتخيل طريقًا أفضل من أن تتزوج. فالزواج يُجبرك على مواجهة بعض القضايا المتعلِّقة بشخصيتك ما كنت لتواجهها في أي حالة أخرى."

بالطبع كان يسوع أعزب طوال حياته؛ لذلك قد يبدو قولي بأن الزواج هو السبيل الأفضل للتشبه بيسوع مثيرًا للسخرية بعض الشيء. لكن يسوع عاش فعلاً في عائلة، وكما تشير «بتسي ريكوتشي» إن العيش ضمن العائلة هو كل ما فعله يسوع حتى الوقت الذي أعلن فيه الآب: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت» (مت ٣: ١٧). "ما الذي فعله يسوع لينال مديحًا مثل هذا؟ لا شيء سوى أنه عاش في منزله، وأكرم والديه، وعمل في حرفة والده كنجار. وعلى ما يبدو كان هذا كافيًا لإرضاء الله."[11]

يبدو جليًا أن الحياة العائلية ليست هروبًا من المسؤولية، وبعد مرور فترة على زواجك ستدرك أن التركيز على فكرة البتولية مبالغ فيه قليلاً.

عندما نأخذ بعين الاعتبار كل مسؤوليات وتفاصيل الحياة الزوجية، نجد أن العلاقة الجنسية تحتل جزءًا صغيرًا جدًا من الوقت. لقد كنت أنا أول من تزوج بين أصدقائي، وأتذكّر أن أحدهم سألني مرةً إذا كان لا يزال ممكنًا أن يمر لزيارتنا من دون إعلامنا مسبقًا.

فأجبته بصوت مرتفع لألفت انتباهه: "من الأفضل أن تتصل تليفونيًا مسبقًا، فالزوجان يمضيان اليوم كله في منزلهما عاريين! بالتأكيد أنت تعرف ذلك!"

ولوهلة كاد يصدِّق ما قلته!

إن التغيير الحقيقي الذي يصنعه الزواج يتمثل في الالتزام الذي يأخذه الزوجان على عاتقهما على مدار الأربع وعشرين ساعة وطوال أيام الأسبوع السبعة.. هذه هي البوتقة التي تطحننا وتشكِّلنا لنصبح مشابهين ليسوع المسيح. فعوضًا عن الاستيقاظ في الثالثة صباحًا للصلاة في الدير، يصبح السؤال: "من منا سيستيقظ ليغيِّر حفاضات الطفل؟"

يدعونا الزواج إلى حياةٍ جديدة وخالية تمامًا من الأنانية.. لقد أدركت هذه الفكرة منذ عدة سنوات عندما سافرت «ليزا» واصطحبت معها الأولاد، بينما كان عليَّ البقاء في المنزل والعمل. وبدا الأمر وكأنني لأول مرة أحظى بوقت حر يوم السبت. فبحسب ما أذكر، لقد كنت أستيقظ صباح كل يوم سبتٍ وأتناقش مع «ليزا» عن خطط ومقترحات العائلة لقضاء نهاية الأسبوع؛ وتقريبًا لم أكن أعرف كيف أطرح السؤال: "ما الذي أريد أنا فعله في عطلة نهاية الأسبوع؟" على الرغم من أنّ هذا هو السؤال الذي كنتُ أطرحه فعليًا على نفسي، وأنا أعزب، في كل نهار سبتٍ قبل أن أتزوج.

> هناك قيمة روحية هائلة لأي موقف يدعوني لمواجهة أنانيّتي.

هناك قيمة روحية هائلة لأي موقف يدعوني لمواجهة أنانيتي، وقد بدأت شيئًا فشيئًا أدرك أن الهدف الحقيقي للزواج قد لا يكون السعادة بقدر ما هو القداسة. ليست المسألة أن الله لديه موقف مضاد للسعادة، أو أن السعادة والقداسة بطبيعتهما لا يلتقيان، لكن النظر إلى الزواج من خلال القداسة جعلني أراه من منظور جديد تمامًا.

«لكن لسبب الزِّنا...»

كم من المدهش أنه بعد أن قال بولس الرسول: «فحسنٌ للرجل أن لا يَمس امرأةً» أكمل بالكلمات التالية: «لكن لسبب الزِّنا، ليكن لكلِّ واحدٍ امرأته، وليكن لكلِّ واحدةٍ رجلها» (١كو ٧: ٢).

أكون مُسيئًا إلى النص اليوناني إذا اقترحتُ أن هذا المقطع يشير إلى موضوع آخر غير العلاقات الجنسية. إحدى الترجمات الإنجليزية للكتاب المقدس (NIV) تُقدِّم هذه الآية بشكلٍ أنيقٍ نوعًا ما، ولكن حتى الدراسة السريعة للنص تكشف لنا أن المقصود هنا بوضوح هو الجنس. ومع ذلك، أقترح أن نستخدم المبدأ بشكل أوسع لكشف الحق فيما وراء العلاقات الجنسية. بما أن في داخلنا الكثير من الفساد (ما يشار إليه بكلمة الزنا في الآية) -ليس الشهوة فحسب، بل والأنانية، والغضب، والرغبة في السيطرة، وحتى الكراهية- علينا أن ندخل في علاقة عميقة مع شخصٍ آخر كي نتمكَّن من العمل لتغيير هذه الأمور على ضوء ما ستكشفه لنا علاقة الزواج عن سلوكنا وتوجهاتنا.

> لو كان القصد من الزواج هو ببساطة التمتع بالغرام والشعور بالسعادة فقط، فسيكون عليَّ بالتالي أن أتزوج من جديد كل سنتين أو ثلاث سنوات.

لقد اكتشفت أن في داخلي قدرًا هائلاً من عدم النضج ظهر بوضوح في زواجي، وتمثَّل الحل في ضرورة تغيير نظرتي للزواج. لو كان القصد من الزواج هو ببساطة التمتع بالغرام والشعور بالسعادة فقط، فسيكون عليَّ بالتالي أن أتزوج من جديد كل سنتين أو ثلاث سنوات. لكن لو كنت حقًا أريد أن أرى الله يغيِّرني من الداخل، فسأحتاج أن أركِّز على تغيير نفسي بدلاً من التركيز على تغيير شريك حياتي. في الواقع، يمكنك حتى أن تقول إنه كلما كان شريك الحياة أكثر صعوبة، توفرت لديَّ فرصة أكبر للنمو. يجب أن تكون "تمرينات العلاقات" شاقة بعض الشيء، تمامًا كما يجب أن تكون التمرينات الرياضية للجسم مجهدة إلى حد ما، حتى يُختبر القلب فعلاً في مقدار ما يتحمله من الضغط.

لم أقرر التركيز على تغيير نفسي بهدف الحصول على زواج خالٍ من التوتر، أو كي أصبح أكثر سعادة أو رضًا في زواجي. ولكن بدلاً من ذلك، تبنَّيت فكرة أن الزواج هو أحد مواقف الحياة التي تساعدني أن أشعر بالمعنى والهدف والاكتفاء في الله. لا تستطيع «ليزا» أن تجعلني سعيدًا بالمعنى المُطلَق.. بالطبع نحن نقضي أوقاتًا رائعة معًا، ولطالما كانت «ليزا» زوجةً رائعة فاقت أحلامي- غير أن الأوقات يتخللها (أو أحيانًا يبدو أنها تُدفن بين) المتطلبات، والتحديات، ودفع الفواتير في موعدها، وتربية الأولاد، وتحصيل لقمة العيش، والحفاظ على نظافة المنزل.

أعتقد أن ما أسعى إليه هو إحساس هادئ بالاكتفاء، إحساس أعمق بالمعنى والقيمة، وفهمٌ أكبر للغاية من وراء هذه العلاقة القوية مع شخص واحد مدى الحياة. وكشخص يؤمن أن الهدف الأساسي لحياتي مصدره هو العلاقة مع الله، أريد أن أستكشف كيف يقرِّبني الزواج من الله.

هناك سبب آخر يؤكد على هذا المفهوم: الزواج في ضوء الأبدية واقع مؤقت بالنسبة لنا جميعًا. الحقيقة هي أن علاقتنا «ليزا» وأنا مع

الرب ستعيش أبعد من زواجنا.. على الأرجح سيأتي الوقت الذي فيه سيسبق أحدنا الآخر إلى الأبدية، والزوج الذي سيكون على قيد الحياة يبقى وحيدًا غير متزوج- أو ربما يتزوج من جديد بشخصٍ آخر.

إن الزواج بالنسبة للمؤمنين لا يمثل المحطة الأخيرة في السباق وإنما قبل الأخيرة. لهذا السبب، بإمكان كل منا كزوجين أن يجد حتى معنىً أعمق في الحياة مع الله معًا، وبإدراكنا أنه وحده الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الروحي لنفوسنا. يمكننا العمل على جعل حياتنا العائلية أكثر متعةً وهدوءًا، كذلك يمكننا اكتشاف طرق كي نُبقي علاقتنا الجنسية متجددة وممتعة، وأيضًا يمكننا إحداث تغييرات بسيطة تحافظ على الأقل على مظاهر الاحترام واللياقة؛ ولكن ما يتوق إليه كلانا أكثر من أي شيء آخر هو أن نكون في علاقة حميمة مع الله الذي خلقنا. وإذا كانت تلك العلاقة سليمة، فلن يكون لدينا مطالب عسيرة من زواجنا.. كأن يسأل أحدنا الآخر أو يتوقع منه أن يعوِّضه عن فراغه الروحي.

مع الأسف، كإنسان ذي طبيعة ساقطة لا يمكنني بكل ما بوسعي أن أقدِّر «ليزا» كما يقدِّرها الله، لا يمكنني حتى أن أبدأ بفهمها كما تتوق هي إلى أن تُفهم. كنت سأَمَلُّ من نفسي لو تزوجت نفسي، لذا يبدو منطقيًا أن تَمَل ليزا بين الحين والآخر -أو على الأقل تشعر بالتعب- من العيش معي. لكن الله يُسَرُّ بِكلَينا، ويقدّر صفاتنا الغريبة، ويفهم نوايا قلوبنا حتّى عندما يغضبها ستار تصرّف أحمق جدًا.

ثمّة أمر واحد مُؤكّد: لا يمكن أن تتوقع «ليزا» مني أن أكون الله بالنسبة إليها، وفي كل مرّة أحاول أن أحبها كما يحبها الله تنتهي محاولتي بالفشل. نعم أنا أبذل كل ما بوسعي، غير أني لا أحقق المطلوب كل يوم.

البحث عن الحب في الأماكن الخاطئة تمامًا

علينا أن نُذكِّر أنفسنا بمدى سذاجتنا عندما ننتظر من البشر أمرًا لا يمكن لأحد أن يعطيه سوى الله. لدى أصدقاء مقرَّبين لنا ابن اسمه «نولان»، عندما كان لا يزال في الرابعة من عمره رآني أحمل صناديق ضخمة، فسألني بصدق: "جاري.. أنت الأقوى، أم الله هو الأقوى؟"

ضحك والده كثيرًا لدى سماعه هذا السؤال. وبالطبع نرى نحن الكبار أن من العبث أن نقارن قوَّتنا الجسدية بقوة الله؛ لكن كم شخصًا منا نحن "البالغين" استدار وتساءل، ربما دون وعي: "هل ستكون أنت كفايتي، أم أن الله سيكون كفايتي؟" لسببٍ ما لا يبدو هذا السؤال غريبًا على مسامعنا كالسؤال المتعلق بالقوة الجسديّة، غير أنه يجب أن يكون على درجة الغرابة عينها!

> أنا أؤمن أن معظم عدم الاكتفاء الذي نختبره في الزواج يعود إلى أننا نتوقع الكثير من الزواج.

أنا أؤمن أن معظم عدم الاكتفاء الذي نختبره في الزواج يعود إلى أننا نتوقع الكثير من الزواج. أنا أملك كمبيوتر قديم الطراز؛ وبالتالي أعلم أن ثمّة أمور كثيرة لا يمكنني إنجازها من خلاله.. فسعة الذاكرة فيه صغيرة، إمكانياته أضعف من أن تشغِّل برامج معينة أو تدمج بعض المهمّات. ليست المسألة أن هذا الكمبيوتر رديء، بل ببساطة لا يمكنني منطقيًا أن أتوقع منه أكثر من الإمكانيات المزوَّد بها.

بذات الطريقة، يتوقَّع البعض منا الكثير من الزواج.. نريد أن نحقق أكبر قدر من الاكتفاء من خلال علاقتنا مع شريك حياتنا. وهذا كثير! نعم، بدون شك، يجب أن نتمتّع بأوقاتٍ سعيدة، هادفة، ومشبعة بشكل عام؛ لكن لا يمكن لزوجتي أن تكون الله بالنسبة لي.. أنا قد وُلدتُ بروح

تتوق إلى الله، وكل ما هو دون الله سيُشعرني حتمًا بعدم الاكتفاء.

يتطلع هذا الكتاب ويشير إلى ما هو أبعد من الزواج. والنمو الروحي هو الفكرة الرئيسية، والزواج هو ببساطة السياق الذي يشرح هذه الفكرة. وكما يستخدم المتبتلون الامتناع، ويستخدم النُساك حياة العزلة، يمكننا استخدام الزواج للأهداف ذاتها.. أن ننمو في الخدمة، والطاعة، والصفات الشخصية، والجهاد الروحي، ومحبة الله.

في الأغلب لقد أدركت الآن بالفعل أن ثمّة غاية لزواجك تتعدى السعادة.. قد لا تختار كلمة «القداسة» للتعبير عن هذه الغاية، لكنك فهمت أن ثمة حقيقة سامية تتعدى الرومانسية السطحية التي تصوِّرها الثقافة الشائعة. سنكتشف معًا هذه الغاية، وسنقوم بتشريح العديد من الزيجات، وسنكتشف متى يصبح الالتزام صعبًا، وسنستكشف أين تختبئ التوجهات المُسمَّمة، وسنبحث متى نكون مجبرين على مواجهة ضعفنا وخطيئتنا، وسنتعلَّم كيف ننمو من خلال كل هذا.

> ليست غاية هذا الكتاب أن يجعلك تحب شريك حياتك أكثر، لكن غايته أن يُؤهلك كي تحب الله أكثر.

ليست غاية هذا الكتاب أن يجعلك تحب شريك حياتك أكثر– مع أنني أعتقد أن هذا ما سيحدث بينما تقرأه؛ لكن غايته أن يُؤهلك كي تحب الله أكثر، وأن يساعدك أن تعكس شخصيّة ابنه انعكاسًا أوضح. وعلى أقل تقدير، سيتكوَّن لديك تقدير جديد حيال الشخص الذي انطلقت معه في هذه الرحلة.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) لماذا اخترت الزواج (أو لماذا تريد الزواج)؟ هل أسبابك تتفق مع الكتاب المقدس؟

(٢) في رأيك، كيف يرى معظم المسيحيين الهدف من الزواج؟

(٣) هل تشجَّعت أم أُحبِطت تجاه افتراض الكاتب أن الزواج بوتقة يمكننا فيها تعلُّم الكثير عن أنفسنا وعن الله؟ كيف كان اختبارك في هذا الأمر؟

(٤) ما رأيك في انتقاد الكاتب «جاري توماس» للحب الرومانسي كأساس أو مقياس للسعادة في الزواج؟ هل تغيَّرت مواقفك تجاه الحب الرومانسي مع مرور الوقت؟

(٥) هل توافق الكاتب في أن الأجيال الحالية تطلب «الكثير من الزواج»؟ إذا كنت توافق، بأي طريقة تفعل الأجيال الجديدة هذا الأمر؟

(٦) ماذا كشف لك زواجك عن توجهاتك الخاطئة، وسلوكك الأناني، وعيوب أخرى في شخصيتك؟ برأيك لماذا يسمح الزواج للكثير من الأمور المتعلقة بالشخصية أن تطفو على السطح؟

(٧) يقول الكاتب إن الله هو الوحيد الذي يمكنه أن يكفينا ويشبعنا إلى التمام، وليس شريك حياتنا. إذا كان الأمر كذلك، فما هي الإسهامات التي يقدمها شريك حياتك في حياتك؟

(٨) كيف تتجاوب مع فكرة أن الله قصد من الزواج تقديسنا أكثر من إسعادنا؟

الفصل الثاني

العثور على الله في الزواج

المواقف الزوجية تعلِّمنا حقائق عن الله

[الزواج] يفضح بلا رحمة.. إنه ضوء كشّاف أبيض يسطع على أكثر المناطق ظلمة في الطبيعة البشرية.

– «كاثرين آن بورتر»

في كل سنة يقضي تسعة من أصدقائي إحدى عطلات نهاية الأسبوع معًا خارج المدينة. ومنذ عدة سنوات أخذني أحد أصدقائي جانبًا، وأخبرني بأنه يفكِّر في العودة إلى بيته في تلك الليلة؛ فقد كان يأمل هو وزوجته أن يُرزقا بطفل آخر، وبحسب حسابات زوجته كان هذا الوقتُ ملائمًا.

فشجعته على ذلك، وقلت له: "هيا اذهب! ويمكنك العودة غدًا في الصباح".

فتردد قائلاً: "لا أدري..."

فقلت بمزيد من الإصرار: "هيا قُم"، وأثنى عليّ صديقٌ آخر، وحثه على فعل ذلك.

أخيرًا وافق، وعاد إلى منزله. وفي تلك الليلة حبلت زوجته.

والآن أنظر إلى هذا الطفل وأبتسم، وأتساءل هل سيعرف يومًا كم كان على وشك أن لا يأتي إلى الوجود (وكم يدين لي بوجوده!). من بين الحقائق المذهلة القليلة في الحياة أن نتعاون مع الله في خلق كائن بشري آخر. لو كان صديقي وزوجته انتظرا شهرًا آخر لربما كانا سيرزقان بفتاة، أو بصبي أقصر طولاً، أو بصبي شعره داكن. إنه لأمرٌ مذهل!

إن هذا الجانب من الخبرة الزوجية -أقصد التعاون مع الله ليأتي الأبناء إلى الوجود- يجب أن يكون له بالأحرى مغزى خاص ومتفرد عند المسيحيين (ويشكل سببًا أساسيًا للألم الشديد لدى العديد من الأزواج الذين يواجهون صعوبة في عملية الإنجاب). إن صورة الله كخالقٍ تشكل نقطة ارتكاز لسلطانه، ولطبيعة شخصه، ومقاصده. في الواقع، يرتكز الكتاب المقدس حول حقيقة أن الله هو الخالق. إن أول ما نتعلَّمه عن الله في سفر التكوين هو أن الله خلق السماوات والأرض (تك ١: ١)؛ وآخر مشاهد العهد الجديد تُظهِر الله وهو يخلق سماواتٍ جديدة وأرضًا جديدة. وعندما يقول الله «ها أنا أصنعُ كل شيءٍ جديدًا» (رؤ ٢١: ٥)، يستخدم فعل «أصنع» في

هناك خيط فكري شديد الوضوح على صفحات الكتاب المقدس يقارن علاقة الله بشعبه مع منظومة الزواج البشريّة.

صيغة المضارع- وذلك للتعبير عن عملية مستمرة.. فالله دائم الخلق من الأزل وإلى الأبد.

وهذا مجرد مثال واحد لصور عديدة تربط جوانب عدة من الزواج بمفهومنا عن الله. هناك خيط فكري شديد الوضوح على صفحات الكتاب المقدس يقارن علاقة الله بشعبه مع منظومة الزواج البشرية. وسنستكشف في هذا الفصل كيف تستخدم هذه الصور المختلفة الخبرة الزوجية كي تُعلِّمنا حقائق قيِّمة عن طبيعة الله.. فنحن من خلال خبرة الزواج يمكننا أن نتعرَّف على الله بطرقٍ جديدة.

الرومانسية الإلهية

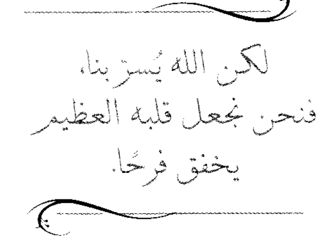
يقودنا هوشع إلى حقيقةٍ مذهلة.. وهي أن الله ينظر إلى شعبه كما ينظر الرجل إلى زوجته: «ويكون في ذلك اليوم، يقول الرب، أنكِ تدعينني: رَجُلي [زوجي]، ولا تدعينني بعد بعلي [سيدي].»... وأخطُبكِ لنفسي إلى الأبد.» (هو ٢: ١٦، ١٩أ). لنتأمل الفرق بين «الزوج» و«السيّد»- وكل الصور التي ستثيرها هذه المقارنة في مخيلتنا. إن الله يريدنا أن نتبعه في طاعة مدعومة بالمحبة والحميمية، وليس بخوف مصدره الذات؛ وبوفاء لعلاقة بين الإنسان والله، وليس تمسكًا أعمى بـ "المبادئ". فالرجل يكنُّ لزوجته شغفًا لا يشعر به السيّد تجاه عبده أو خادمته.

كيف تنظر إلى الله: كزوج أم كسيّد؟

يستخدم إشعياء صورة مجازيّة مستمدة من العلاقة الزوجية ليشدد على فكرة كيف أن الله يفرح بشعبه: «وكفرح العريس بالعروس يفرح بكِ إلهُكِ» (إش ٦٢: ٥). نحن نعيش في عالمٍ يغرق فيه كثير من الناس في أعمالهم ومشغولياتهم حتى إنهم لا يستطيعون الاهتمام بنا؛ لكن الله يُسرّ بنا، فنحن نجعل قلبه العظيم يخفق فرحًا.

كان يسوع نفسه أحيانًا يستخدم هذه الصورة المجازية المستمَدَّة من العلاقة الزوجية مشيرًا إلى نفسه بأنه «العريس» (مت ٩: ١٥)، وإلى ملكوت السماوات بأنه «وليمة العُرس» (مت ٢٢: ١- ١٤). وانتقلت هذه الصورة إلى ذروة أحداث التاريخ الأرضي، إذ يتحدث سفر الرؤيا عن «عُرس الحمل» الذي فيه «امرأته هيَّأت نفسها.» (رؤ ١٩: ٧).

وغالبًا ما يتم تصوير «الخيانة» الروحية أيضًا من خلال التشبيه بالعلاقة الزوجيّة. يقارن النبي إرميا عبادة الأوثان بالزنا: «زنت العاصية إسرائيل فطلَّقتها وأعطيتها كتاب طلاقها» (إر ٣: ٨). وعقَّب يسوع على الصورة نفسها عندما أشار إلى الجيل «الفاسق» (مر ٨: ٣٨). بحسب السياق، لم يكن يسوع يهاجم نقطة الضعف الجنسية عند البشر؛ بل كان يتألم شديد الألم من أجل أمةٍ خائنة روحيًا تدنس زواجها الروحي من الله.



على مر تاريخ المسيحية، استكشف المعلِّمون أوجه الشبه بين الاتحاد في الزواج وأسرار الإيمان المتعددة التي تتضمن اتحادًا معينًا.. فبالإضافة إلى الثالوث نجد اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص الرب يسوع؛ كذلك الإفخارستيا الذي من خلاله يقترن الخبز مع الخمر لتشير إلى جسد المسيح ودمه؛ واتحاد المسيح بكنيسته؛ وأمثلة أخرى مشابهة.

إن اجترار هذه التشبيهات ليس مجرد تلاعب مسلٍّ بالكلام؛ وإنما بالنسبة إلى المؤمنين الذين يسعون لاكتساب بصيرة روحية من خلال زيجاتهم، تقدم لهم هذه التشبيهات المكونات الأساسية لتفكير جاد وتأملي. إن السبب الذي من أجله تجسّد الله هو أن نعرفه، وعلى نحوٍ مماثل لم يخلق الله الزواج لمجرّد أن يعطينا وسيلة ممتعة لإعادة إعمار الأرض بالسكان، أو

توفير مؤسسة اجتماعية ثابتة لمصلحة البشرية؛ لكنه أيضًا غرس منظومة الزواج بين البشر كلافتة أُخرى تشير إلى وجوده الأبدي والروحي.

وكبشرٍ أصحاب عقولٍ محدودة، نحن بحاجةٍ إلى قوة الرمزية لكي نزداد فهمًا. وبواسطة العلاقة بين الرجل والمرأة، يمكن ببساطة لرمز الزواج أن يستحضر فعليًا معاني غير محدودة. وهذا لن يحدث إلا عندما نستخدم زواجنا كوسيلة لاستكشاف ومعرفة الله. إذا كان شغلنا الشاغل أن نشير بالإصبع إلى تقصيرات شريك حياتنا، فستفوتنا الأسرار الإلهية في الزواج، والدروس التي من المفترض أن نتعلمها منه.

> غرس منظومة الزواج بين البشر كلافتة أخرى تشير إلى وجوده الأبدي والروحي.

سنركز في الجزء التالي على تشبيه خاص؛ لنستعرض كيف يمكن لهذه الصور المستمَدّة من الحياة أن توفِّق بين زواجنا وإيماننا، وكذلك تعلِّمنا الغاية من الزواج. وفيما تبدو الفصول القادمة "عملية" أكثر، من المهم أن ندرس ولو بإيجاز العقيدة التي يُبنى عليها الزواج المسيحي، وما الذي يميّز زيجات المؤمنين عن زيجات غير المؤمنين. وقد تَمّ عرض هذا التمايز في التشبيه الفائق لزواج المسيح بكنيسته.

المصالحة

تخبرنا قصة مستمدّة من كتابات اليهود وتعاليمهم القديمة عن كيفية اختيار الموقع الذي بُني فيه الهيكل.. إذ يُحكى أن أخوين عملا في الحقل نفسه وعلى الطاحونة نفسها، وفي المساء كانا يتقاسمان الحبوب التي أنتجاها، وكان كل واحد منهما يأخذ حصته ويعود إلى منزله.

كان أحد الأخوين أعزب، والآخر متزوجًا وله عائلة كبيرة. ورأى الأخ الأعزب أنه من المؤكَّد أن أخاه المتزوج مع عائلته الكبيرة بحاجة إلى كمية أكبر من الحبوب من التي حصل عليها؛ فكان يتسلل خفيةً في الليل إلى مخزن حبوب أخيه ويترك له هناك كمية إضافية. وأدرك الأخ المتزوج أنه ليس لأخيه الأعزب أي أولاد يهتمون به في شيخوخته، وبسبب قلقه بشأن مستقبل أخيه، كان يستيقظ كل ليلة ويضيف بعض الحبوب إلى مخزن أخيه الأعزب.

وفي إحدى الليالي التقى الأخوان في منتصف الطريق، وأدركا ما يفعله الواحد من أجل الآخر؛ فتعانقا.. وتقول القصة إن الله شاهد ما حدث، وقال: "إن هذا المكان مكانٌ مقدس -مكان محبة- وفي هذا المكان يجب أن يُبنى هيكلي." إن المكان المقدس هو ذلك الموقع حيث يعلن الله عن نفسه لشعبه، وهو "المكان الذي يكتشف فيه البشر بعضهم بعضًا في محبة".[1]

بالرغم من تردد آباء الكنيسة الأولى حول ما إذا كان الزواج يعتبر مرتبة أدنى، فقد أدركوا على الأقل أن تشبيه المصالحة هو أعظم هدف للزواج.

يمكن أن يصبح الزواج ذلك المكان المقدس، الموقع لعلاقة تُذيع محبة الله للعالم.. غير أن المفكّرين المسيحيين لم يختاروا دائمًا النظر إلى الزواج بهذه الطريقة. وبالرغم من تردد آباء الكنيسة الأولى حول ما إذا كان الزواج يعتبر مرتبة أدنى، فقد أدركوا على الأقل أن تشبيه المصالحة هو أعظم هدف للزواج؛ إذ أنه رمزٌ لاتحاد المسيح بكنيسته. ويشرح الرسول بولس هذه الفكرة بوضوح في رسالته إلى أهل أفسس (٥: ٢٢- ٣٣).

أشار أغسطينوس.. أحد هؤلاء الآباء الأولين. (٣٥٤- ٤٣٠م)، إلى

أن للزواج منافع ثلاث: النسل، وحفظ الإنسان لنفسه نقيًا (الإخلاص)، والاتحاد السري (السر المقدس). ومن بين هذه المنافع الثلاث فهو يشير بوضوح إلى أن الاتحاد السري (السرائري) هو الأعظم بينها .. والسبب هو أنه من الممكن أن تتزوج من دون أن يكون لك نسل، وهناك من يختار أن يخون الأمانة، غير أنه من المستحيل أن تكون متزوجًا من دون أن تكون في حالة اتحادٍ دائم مع شريك حياتك، وهذا هو ما يشير إليه السر المقدس. طالما كان الشريكان متزوجين فهما يُظهران باستمرار –وإن كان على نحوٍ غير تام– الالتزام المستمر بين المسيح وكنيسته. وبالتالي، يصبح مجرد «تجسيد» هذا الالتزام، في علاقة الزواج، ذا أهمية بالغة.

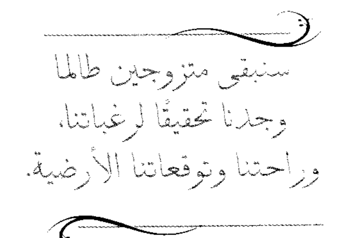
> أشار أغسطينوس (٣٥٤– ٤٣٠م)، إلى أن للزواج منافع ثلاث: النسل، وحفظ الإنسان لنفسه نقيًا (الإخلاص)، والاتحاد السري (السر المقدس).

وبعد أغسطينوس بقرونٍ، تجاوب المصلحون الأنجليكان (الأسقفيون) مع هذه البركات الثلاث بثلاثة "أسباب". كما ورد في كتاب صلوات قديم (عام ١٥٤٩) أن هدف الزواج هو التناسل، والعلاج من الخطية الجنسية، والاستئناس بالآخر[2]. مع الأسف حلَّ هذا العنصر الأخير بدلاً من الجانب السرائري في الزواج (أي تجسيد الاتحاد بين المسيح وكنيسته) مقدمًا بديلاً ينقصه الحماس والرؤية (مجرد علاقة مريحة).

إنه لأمرٌ جوهري أن نعرف لماذا نحن متزوجون، ولماذا يجب أن نبقى متزوجين. هذا يقودنا إلى مناقشة برع في تقديمها راعي كنيسة ولاية ماريلاند «سي. چيه. ماهاني» عبر سلسلةٍ من شرائط الكاسيت حول موضوع الزواج تحت عنوان «حسب الخطة» *(According to Plan)*. السؤال الرئيسي هو: هل سننظر إلى الزواج من خلال منظور يرتكز

على الله، أم من خلال منظور يرتكز على الإنسان؟[3] فوفقًا للمنظور البشري، سنبقى متزوجين طالما وجدنا تحقيقًا لرغباتنا، وراحتنا، وتوقعاتنا الأرضية. بينما وفقًا للمنظور الإلهي، سنبقى متزوجين لأن زواجنا يمجِّد الله ويقود عالمًا ساقطًا إلى خالقٍ يبغي المصالحة.

يجب أن تتجاوز نظرتنا للزواج على أنه استئناس بالآخر، ولكن بالأحرى يجب أن ننظر إليه على أنه صورة لأعظم أخبار وقعت على أذن إنسان- وهو أن ثمّة علاقة إلهية بين الله وشعبه. ويشرح بولس الرسول بوضوح هذا التشابه في رسالته إلى أهل أفسس.. وربما قرأتم هذه الكلمات بالفعل (أو سمعتم مَنْ يقتبسها) عشرات المرات، إن لم يكن مئات المرات: «أيُّها الرجال، أحبوا نساءكم كما أحبَّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها، مطهِّرًا إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يُحضرها لنفسه كنيسةً مجيدةً، لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدَّسة وبلا عيبٍ.» (أف ٥: ٢٥- ٢٧).



ومع أنني من الناحية اللاهوتية على "جانب" البروتستانت، غير أنني يجب أن أقول لإخوتي الأنجليكان الذين عاشوا في القرون الوسطى إنني أرى أنه من المؤسف والمؤلم أن ننتقص من أمر عميق جدًا مثل تجسيد العلاقة بين المسيح وكنيسته إلى مجرد اختبار هذه العلاقة على أنها أمر يساعد على تجنب الخطية الجنسية، والحفاظ على التناسل في العالم، وعلاج الشعور بالوحدة.

في الواقع يستخدم كل من العهدين القديم والجديد الزواج كصورة مركزية.. الاتحاد بين الله وإسرائيل (العهد القديم)، والاتحاد بين

المسيح وكنيسته (العهد الجديد). إن فهم عمق هذه الصور لهو أمرٌ بالغ الأهمية؛ لأنه يساعدنا على تحديد الأساس الحقيقي الذي يجب أن يُبنى عليه الزواج المسيحي. فأنا إذا كنت أؤمن أن القصد الأساسي للزواج هو تجسيد محبة الله لكنيسته، سأدخل هذه العلاقة، وسأحافظ على استمراريتها من منطلق حافز جديد تمامًا.. وهو ما أشار إليه الرسول بولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس: «لذلك نحترصُ أيضًا... أن نكون مرضيِّين عنده.» (٢كو ٥: ٩).

ما الذي يُرضي الله؟

يجيبنا الرسول بولس عن أسئلةٍ كثيرة عندما يقول لنا: «نحترص (ليكن هدفنا) أن نكون مرضيِّين عنده». اسأل عشرة أشخاص على الطريق عن هدفهم في الحياة، وستحصل على مجموعة مدهشة من الإجابات المختلفة.

لم يكن بوسع الرسول بولس أن يكون أكثر وضوحًا من ذلك مع المؤمنين- كما قال أحد المفسرين: إن "طموحه الشديد، القوة المحرِّكة وراء كل ما يفعله"[4] هو إرضاء الله. غير أن بولس لا يذكر ببساطة أن إرضاء الله هو "طموحه الشديد" فحسب، بل يفترض أن هذا سيكون طموحنا نحن أيضًا: «لذلك نحترص (نهدف) أيضًا... أن نكون مرضيِّين عنده.»

عندما يُشكِّل أمر ما القوة المحرِّكة وراء كل ما نفعله، يصبح هذا الأمر القوة الدافعة لكل قرارٍ نتخذه. وبولس شديد الوضوح في هذا الصدد.. فالسؤال الأول الذي يجب طرحه على أنفسنا عندما نقوم بأي شيء هو: "هل هذا الأمر يُرضي الرب يسوع؟"

الغاية الأولى من الزواج هي إرضاء الله.. أكثر من السعادة، أو الشبع الجنسي، أو إنجاب الأطفال، أو العِشرة، أو الرعاية والاهتمام المتبادل، أو أي أمر آخر. وبالطبع، التحدي أن يكون الزواج نمط عيشٍ غير أناني البتة؛ فبدلاً من أن نسأل أنفسنا: "ما الذي يجعلنا سعداء؟" التوصية أن يكون السؤال: "ما الذي يُسعد أو يُرضي الله؟" وفي حالة أننا لم نستوعب الفكرة فورًا، يشدِّد بولس عليها مرة أخرى بعد أعدادٍ قليلة: «وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو ٥: ١٥).

كمؤمنٍ ما من خيارٍ آخر أمامي.. إنني مدين ليسوع المسيح بالعيش لأجله؛ فيصبح هو الغاية العليا والقوة الدافعة في حياتي. ولتحقيق ذلك يجب أن أموت يوميًا عن رغباتي الشخصية، كذلك يجب أن أصلب الرغبة التي تجعلني أقيس كل عمل وكل قرار على ما هو أفضل بالنسبة إليَّ. وهنا تظهر مهارة الرسول بولس في الإقناع إذ يقول: «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظهر حياة يسوع أيضًا في جسدنا.» (٢كو ٤: ١٠).

عليَّ أن أسير نحو الصليب، كما سار يسوع نحوه، مُذكرًا نفسي دائمًا أنني أحمل دائمًا «إماتة الرب يسوع» كي تهيمن حياته الجديدة بكل ما فيها من دوافع، وأهداف، ونعمة على كل ما أفعله.

تدعوني هذه الحقيقة إلى النظر إلى شريك حياتي من خلال منظور مسيحي: «إذًا نحن من الآن لا نعرف أحدًا حسب الجسد.» (٢كو ٥: ١٦)، والسبب واضح: «إذًا إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة: الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدًا.» (٢كو ٥: ١٧). وما يُعتَبر جزءًا من هذه الهُوية الجديدة هو الخدمة الجديدة.. تلك الخدمة المعطاة لكل مؤمن، والمستمدة من شخص يسوع المسيح: «ولكن الكل من الله، الذي

صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة» (٢كو ٥: ١٨).

لنتأمل هذا الأمر، إن طبيعة عمل المسيح تصالحية في حد ذاتها، وتقرِّبنا من جديد إلى الله؛ وبالتالي يجب أن نتجاوب بأن نصبح نحن أنفسنا مُصالحين. يعرِّف «سي. كيه. باريت» المصالحة على أنها: "وضع حد لعلاقة عداوة، واستبدالها بعلاقة سلام ونوايا حسنة."[5]

نرى بوضوح أن بولس يشير هنا إلى حمل رسالة الخلاص، غير أننا لا يمكننا أن نناقش بأي شكلٍ من أشكال الشفافية إنهاء ليل "عداوة" وبزوغ شمس "السلام والنوايا الحسنة" عندما يوصم زواجنا بالطلاق، والمشاجرات، والعداء. فإن كل ما سأتلفظ به وأفعله في حياتي يجب أن يدعم إنجيل خدمة المصالحة، ويبدأ هذا الالتزام بإظهار المصالحة في علاقاتي الشخصية وفي زواجي بشكل خاص.

إذا كان زواجي يناقض رسالتي، أكون قد أفسدتُ هدف حياتي بأن أكون مرضيًا عند المسيح، وأتمّم بأمانة خدمة المصالحة، مُعلِنًا للعالم الأخبار السارة أنه يمكننا التصالح مع الله من خلال يسوع المسيح. وإذا كانت "قوتي الدافعة" كما هي ما يقولها الرسول بولس، فإنني سأعمل على بناء زواجٍ يعزِّز من خدمة المصالحة هذه.. وهذا الزواج، في الواقع، سيجسِّد هذه الحقيقة؛ إذ يضيف إليها لحمًا وعظمًا من خلال بناء علاقة تُظهر الغفران، والحب الباذل، والتضحية.

لا يمكننا أن نناقش بأي شكلٍ من أشكال الشفافية إنهاء ليل "عداوة" وبزوغ شمس "السلام والنوايا الحسنة" عندما يوصم زواجنا بالطلاق، والمشاجرات، والعداء.

إن آخر ما أتمنى تركه في ذاكرة الناس عني هو أنني قررت التوقف عن محبة شخصٍ ما، وأنني أرفض خدمة هذا الشخص بعد الآن، أو أنني

فشلتُ في الوفاء بوعدٍ قطعتُه منذ عدة سنوات. ومع ذلك هذه هي تمامًا الرسالة التي يُعلنها الكثير من المؤمنين من خلال أفعالهم. بحسب مركز «چورچ بارنا» للأبحاث والدراسات، فإن نسبة الطلاق في الولايات المتحدة بين مَنْ يطلقون على أنفسم لقب المسيحيين "المولودين ثانية" أو المؤمنين أعلى من نسبته بين غير المؤمنين (٢٧٪ في مقابل ٢٣٪). أما نسبة الطلاق بين مَنْ يصفون أنفسهم بالمسيحيين "الأصوليين" هي الأعلى بين جميع الفئات الأخرى (٣٠٪).[6] لا يمكننا أن نحمل رسالةٍ معينة بشكل جيد ما لم نعشها أولاً.

كيف لي أن أخبر أولادي أن وعد الله بالمصالحة وعدٌ مضمون في الوقت الذي يرون فيه أن وعودي الشخصية لا قيمة لها؟

كيف لي أن أخبر أولادي أن وعد الله بالمصالحة وعدٌ مضمون في الوقت الذي يرون فيه أن وعودي الشخصية لا قيمة لها؟ قد يتمكنون من تجاوز الأمر، لكنني في هذه الحالة أكون قد قدمت لهم حجر عثرة بدلاً من أن أكون علامة على الطريق نحو الإنجيل.

إن معظم حالات الطلاق تعني أن أحد الشريكين على الأقل، أو ربما كليهما، قد كفَّ عن وضع الإنجيل في المكانة الأولى في حياته.. فهما قد توقفا عن العيش بحسب مبدأ بولس الإرشادي: «لذلك أحترصُ أيضًا أن أكون مرضيًا عنده»؛ لأن الكتاب المقدس واضحُ في تعليمه.. يقول الله: «أنا أكره الطلاق» (مل ٢: ١٦). وإن كان هدف الزوجين إرضاء الله لما سعيا وراء الطلاق.

أنا أعلم أن هناك حالات استثنائية. إن الرسول بولس يسمح بالطلاق عندما يكون الشريك الآخر غير مؤمن؛ ويرى يسوع أن الخيانة الزوجية سبب مقبول للطلاق. بالطبع هناك حالات استثنائية -على الأقل عندما

يتعلق الأمر بالانفصال، على سبيل المثال أن تكون حياة الأولاد معرضة للخطر في ظل العيش مع أحد الوالدين. لكن معظم حالات الطلاق وسط المسيحيين لا تتضمن مثل هذه الأوضاع الاستثنائية، بل على الأرجح سببها يتمثل في زوجين مسيحيين لم يرتبا أولوياتهما في الحياة على النحو الصحيح.

إن أحد الأسباب التي تجعلني مصمِّمًا على الحفاظ على زواجي ليس لأن هذه الخطوة ستجعلني أكثر سعادة (على الرغم من أنني أؤمن أنني سأحظى بذلك)، وليس لأنني أريد أن أوفر لأولادي منزلاً آمنًا (على الرغم من أنني أرغب في هذا)، وليس لأنني قد أتمزق لرؤية زوجتي مجبرة على بدء حياتها "من الصفر" (على الرغم من أن هذا قد يؤلمني جدًا).. السبب الأول الذي يجعلني أحافظ على زواجي هو أن ذلك هو التزامي المسيحي. وإن كانت حياتي مرتكزة على إعلان رسالة المسيح إلى العالم، فلن أفعل أي شيء قد يتناقض مع هذه الرسالة.. كيف لي أن أُعلن المصالحة بينما أسعى إلى الانفصال؟

إن هذا التشبيه الخاص بالمصالحة يحقق أكثر من مجرد توضيح الهدف من زواجنا.. إنه يساعدنا أيضًا على أن نعيش هذا الهدف، حتى عندما "تهب العواصف الرعدية".

عندما تهب العواصف الرعدية

يُبهرني الوقوف في ظل شجرةٍ عمرها سبع مئة سنة. سألتني ابنتي ونحن نتسلق المنحدر الغربي لجبال كسكاد الشمالية في ولاية واشنطن: "ما الأحداث التي وقعت هنا عندما بدأت هذه الشجرة بالنمو؟"

ضحكت قائلاً: "لا شيء يُذكر"، وكنت مذهولاً إذ أدركتُ أن هذه

الشجرة كانت قد بلغت المئتين من العمر تقريبًا عندما وُلد مارتن لوثر.

إن أحد أسباب بقاء أشجار المنحدر الغربي لجبال الكسكاد على قيد الحياة لوقتٍ طويل جدًا بسيط للغاية، ويعود إلى حقيقة أن غابات واشنطن رطبة جدًا، فقلما تتسبب العواصف الرعدية في اندلاع حرائق. في حين أن الغابات التقليدية، إذا تُركت على حالها، قد تواجه حرائق بسبب الصواعق كل خمسين أو ستين سنة، في هذا الجزء من جبال الكسكاد تندلع الحرائق مرة كل مئتي سنة. تأتي العواصف الرعدية والبرق من حين لآخر على هذه الغابات، غير أن تأثيرها لا يكون مدمرًا، وهذا يفسِّر أن الأشجار حظت بوقت أطول كي تثبت جذورها في الأرض وتنمو.

أعتقد أن هذه صورة جيدة عن الزواج المبني على خدمة المصالحة.. فحتى الزيجات المسيحية القوية ستضربها العواصف الرعدية، مثل: الإغواء الجنسي، أو مشكلات التواصل، أو الإحباط، أو التوقعات غير المحققة؛ لكن إذا كانت هذه الزيجات "رطبة" بما يكفي بمياه الالتزام الثابت بإرضاء الله فوق أي شيء آخر، لن تتوفر الظروف الملائمة لاندلاع حريقٍ مدمِّر بعد حدوث رعد أو برق.

إذا كنتُ متزوجًا بقصد السعادة لا غير، وإذا كانت سعادتي تتلاشى لأي سببٍ كان، فإن شرارة صغيرة واحدة ستتسبب بإحراق غابة علاقتي بكاملها؛ لكن إذا كان هدفي أن أعلن خدمة الله للمصالحة، وأُظهرها في حياتي، فستصبح قدرتي على التحمُّل أكثر مقاومة للحريق.

إن ممارسة المعني الروحي للزواج يعني أن أضع علاقتي بالله أولاً. إن المثابرة في القيام بهذا الأمر هو بحد ذاته انتصار، ويخلق نوعًا من المجد. إن موضع الافتخار الوحيد في هذه الغابة المغطاة بالأشجار هو وجود شجرة عمرها سبعمائة سنة. من الناحية الجمالية، لا يمكن للمرء

أن يرى حتى رأس هذه الشجرة في غابة واشنطن.. إن كل ما رأيناه حيث كنا واقفين كان جذعًا مستقيمًا عريضًا جدًا ومغطى بشباك العناكب. كنا نسير في غابةٍ ممتلئةٍ بالأشجار، غير أن "هيئة المنتزهات الوطنية" وضعت لافتة أمام هذه الشجرة لسببٍ واحد، وواحدٍ فقط: ألا وهو أن عمرها يبلغ سبعة قرون. ببساطة لقد قطعت طريقًا طويلاً، ولهذا استحقت الاهتمام.

إذا كنتُ متزوجًا بقصد السعادة لا غير، وإذا كانت سعادتي تتلاشى لأي سببٍ كان، فإن شرارة صغيرة واحدة ستتسبب بإحراق غابة علاقتي بكاملها.

في مجتمع حيث تُهمل العلاقات بشكل منتظم مخيف، يمكن للمؤمنين أن يستحقوا الاهتمام ببساطة عندما يستمرون في زيجاتهم. وعندما يُسألون عن السبب، يمكنهم تقديم برنامج رسالة الله للمصالحة، ويتبعها الدعوة التالية: "هل ترغبون بسماع المزيد عن الأخبار السارة لخدمة المصالحة؟"

في هذا السياق، يمكن لزيجاتنا أن تكون منابر للتبشير، تجذب الأشخاص إلى الحق الذي يشير إلى حقيقة تتخطى حدود هذا العالم وصولاً إلى العالم الآتي. فقط من خلال تجسيد المصالحة في زواجنا، يمكننا بناء نصب تذكاري لمبدأ المصالحة وممارستها.

منذ عدة سنوات، كتب «بول سايمون» أغنية احتلت مراكز البيع الأولى: "خمسون طريقة لترك حبيبك"، غير أن المؤمن يحتاج إلى سبب واحد فقط ليبقى إلى جانب "حبيبه": إنه التشبه بعلاقة المسيح وكنيسته.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) أي جانب من زواجك أو أي حدث أو موقف في زواجك علَّمك أكثر من غيره عن محبة الله لك؟

(٢) كيف يمكن أن يطبِّق زوج/ زوجة محبطًا نصيحة الكاتب «جاري توماس» بطلب الله في وسط الإحباطات بدلاً من الانشغال والتركيز على النواحي التي يقصِّر فيها شريك الحياة؟ ما هي التدريبات التي قد تقترحها لتحقيق ذلك؟

(٣) هل يمكنك التفكير في أمثلة لم يذكرها الكاتب تُظهر كيف يكشف الزواج عن محبة الله للعالم؟

(٤) يقارن الكاتب بين منظور للزواج محوره البشر (نبقى مكاننا طالما يتم تلبية رغباتنا وتوقعاتنا)، ومنظور آخر محوره الله (الحفاظ على الزواج بهدف تمجيد الله وقيادة عالم ساقط إلى المصالحة مع الله الخالق). ما هو أكثر شيء يحفِّزك على الاستمرار بالالتزام بالزواج والمحافظة عليه؟

(٥) من خلال خبرتك بالزواج، هل أكثر ما يحفِّزك هو ما يسعدك أم ما يرضي الله؟ كيف يمكن للكنائس دعم هذا المحفِّز الأخير والأسمى والتشجيع عليه؟

(٦) أي جوانب شخصية الله ترغب بأن يكشف عنها زواجك للعالم؟ وكيف يمكنك تحقيق ذلك؟

الفصل الثالث

تعلُّم الحب

كيف يعلِّمنا الزواج أن نحب

يتطلَّب الزواج التزامًا عميقًا بأن نحب أزواجنا أو زوجاتنا كما هم، في الوقت الذي نتوق فيه لكي يصبحوا ما هم ليسوا عليه بعد. يتّجه كل زواج إمّا نحو تعزيز كرامة أحدنا الآخر، أو نحو تحقير أحدنا الآخر.

– «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان الثالث»

إذا عاملت إنسانًا بناءً على حالته الآن، فسيبقى على حالته؛ ولكن إذا عاملته كما لو كان الشخص الذي ينبغي أو يستطيع أن يكونه في المستقبل، سيصبح إنسانًا أعظم وأفضل.

– «جوهان ولفجانج فون جوتي»

لو كنت رجلاً مؤمنًا يعيش في أيام موسى ويشوع لكانت وظيفتك هي الحرب؛ فقد كان بنو إسرائيل أحيانًا، عند دخولهم لأرض الموعد، يُعاقبون لجبنهم وكسلهم ورفضهم خوض المعارك: «حتى متى أنتم متراخون عن الدخول لامتلاك الأرض التي أعطاكم إياها الرب إله آبائكم؟» (يش ١٨: ٣).

"خوضوا المعركة".. تلك كانت صرخة الله للشعب لفترة طويلة.

أما يسوع فقد أتى بتحدٍ جديد.. تحدٍ أصعب بكثير. سأل أحدهم مرة يسوع عن أعظم الوصايا، فأجابه يسوع أن هناك اثنتين (راجع مت ٢٢: ٣٤- ٤٠). لم يكن يكفي أن تحب الله من كل قلبك ونفسك وفكرك وقوّتك؛ فقد قال يسوع: إن كنت حقًّا تريد إرضاء الله عليك أن تحب الآخرين.

بإمكان الزواج أن يكون «صالة الچمنازيوم» التي يتم فيها تقوية قدراتنا وتنميتها لاختبار محبة الله والتعبير عنها. ولبلوغ هذه المرحلة، يجب أن ندرك أن المحبة البشرية والمحبة الإلهية ليستا محيطين منفصلين، بل مجرى مائيًا واحدًا ذا روافد كثيرة. فنحن نُظهر محبتنا لله جزئيًا من خلال محبتنا لشريك حياتنا من كل القلب.

يخلق الزواج مناخًا يخضع فيه هذا الحب لأعظم امتحان.

لا يمكننا أبدًا أن نحب أحدًا "أكثر من اللازم"، لكن مشكلتنا تكمن في أننا نحب الله أقل من اللازم. وليس الحل في أن نقلل من محبتنا تجاه أي إنسان، بل أن نزيد من تجاوبنا القلبي لفرحنا الإلهي.

يخلق الزواج مناخًا يخضع فيه هذا الحب لأعظم امتحان، لكن المشكلة تكمن في أن هذا الحب يجب أن يُكتسب. كتبت «كاثرين آن بورتر»: "لابد من تعلُّم الحب، وتعلُّمها مرارًا وتكرارًا، من دون توقف. أما البغضة فلا تحتاج إرشادات بل تحتاج فقط إلى إثارتها."[1]

المحبة ليست استجابة طبيعية تتولد بداخلنا تلقائيًا.. هذا قد يحدث في حالة الانجذاب -على الأقل في بداية العلاقة؛ غير أن البغضة مستعدة دائمًا للتدفق بداخلنا كالبركان النشط. من جهةٍ أخرى، المحبة المسيحية لابد من السعي وراءها، والتطلع إليها، وممارستها.

تسيء الثقافة السائدة فهم هذا المبدأ تمامًا. إن واحدة من أكثر الأدوات قساوةً وإدانةً للذات التي سمعتُها تتمثل فيما يقوله الرجال غالبًا عندما يهجرون زوجاتهم لأجل امرأة أخرى: "الحقيقة هي أنني لم أحبكِ قط." ويُقصد بهذا الهجوم على الزوجة.. وهذا يعني بالفعل: "الحقيقة هي أنني لم أجدكِ أبدًا جديرة بالحب." لكن عندما نضع هذا في سياق مسيحي، نرى اعترافًا بالفشل الذريع للرجل بأن يصير شخصًا مسيحيًا حقيقيًا.. إذا لم يستطع أن يحب زوجته فهذا ليس ذنبها، بل ذنبه هو. يدعونا يسوع أن نحب حتى غير المحبوبين- بل وحتى أعداءنا! لذا فالرجل الذي يقول: "لم أحبكِ قط" هو يقول بشكل أساسي: "لم أتصرّف قط كمسيحي."

المحبة المسيحية لابد من السعي وراءها، والتطلع إليها، وممارستها.

عندما نحب من كل القلب، نحن بذلك نُرضي الله. وإدراك هذا الأمر ليس صعبًا.. إن الطريقة الأفضل ليرضيني شخص ما هي أن يكون لطيفًا مع أولادي؛ والمؤمنون جميعهم هم أولاد الله؛ وبالتالي عندما نحب الآخرين، نجلب سرورًا كبيرًا لقلب الآب السماوي.

الرجل الذي يقول: "لم أحبكِ قط" هو يقول بشكل أساسي: "لم أتصرّف قط كمسيحي."

أنا زائر دائم للمكتبات العامة، وكل من يتردد على مثل هذه الأماكن العامة في الولايات المتحدة يلتقي بأناسٍ يعيشون في الشوارع ويلتجئون إلى هذه الأماكن في أيام البرد. في يوم من الأيام بينما كنت متوجهًا نحو أجهزة الكمبيوتر، كان المكان مليئًا برائحةٍ كريهةٍ جدًا تفوح من أحد هؤلاء المشردين. ونظرت بطرف عيني،

فرأيتُ رجلاً منحنيًا فوق منضدة، تدل ثيابه الممزقة وشعره الأشعث على أنه لا يملك مسكنًا يعيش فيه.

هناك رجال وسيدات كرسوا حياتهم من أجل الوصول برسالة الإنجيل إلى أشخاصٍ مثل هذا الرجل. ونجد في مدن كثيرة "إرساليات تبشيرية" تأوي المشرّدين. أحيانًا يقول لي الناس كم "استخدمني" الله في حياة هؤلاء، غير أنني أهز رأسي عندما أفكر في الإرساليات التي تنزل لخدمة هؤلاء في الشارع. من السهل أن "يستخدمك" الله بينما تجلس أمام شاشة الكمبيوتر في منزلك، وتقوم بأمرٍ تستمتع به. ومن الصعب اعتبار الأمر تضحية عندما أسكن في غرفة مفروشة بأجمل الأثاث في الفنادق، وأنتقل بين المدن بالطائرة.

الحب المسيحي يتجلى بشكل أكبر عندما نحب أكثر الأشخاص غير المستحقين للحب. كتب «فيليب يانسي» صاحب أكثر الكتب مبيعًا: "عبر العصور، اختار القديسون المسيحيون أقل الناس قوة وامتيازات وجعلوهم موضع محبتهم."[2] يُعتبر هذا تجاوبًا لدعوة يسوع لنا بأننا عندما نقيم وليمةً يجب ألا ندعو إليها أصدقاءنا؛ لأنه من الممكن أن يقابلوها بدعوةٍ أخرى، وهكذا يردّون لنا ضيافتنا. لكن بدلاً من ذلك، قال يسوع، قدموا الدعوة للعُرج والمقعدين والمساكين والعُمي، هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يردوا لكم أي مقابل (راجع لو ١٤).

هذا هو الجزء الصعب في دعوة يسوع لنا بأن نحب الآخرين.. فمن جهة يَسهُل علينا أن نحب الله؛ إذ لا تفوح منه أي نوع من الروائح التي تزعجنا، والله لا يقابل اللطف بالشر، ولا تصدر منه تعليقات جارحة.. من هذا المنطلق من السهل أن نحب الله. غير أن يسوع صعَّب علينا الأمر عندما ربط محبتنا لله بمحبتنا للآخرين.

وعندما نطبق ذلك على الزواج، لا عذر لنا على الإطلاق؛ فالله يتركنا نختار مَنْ نحب. طالما أننا نحصل على حرية الاختيار، وبعد ذلك نجد صعوبة في ترجمة هذا الحب عمليًا، فعلى أي أساس نفكِّر في التوقف عن الحب؟ لا يأمرنا الله بالزواج، بل يقدِّمه لنا كفرصةٍ. وبمجرد دخولنا العلاقة الزوجية ليس بمقدورنا أن نحب الله من دون أن نحب شريك الحياة أيضًا.

يمثل الطلاق عدم قدرتنا على حفظ وصية الرب يسوع، وهذا يعني التخلي عن الدعوة التي أوكلها إلينا.. إن كنت لا أستطيع أن أحب زوجتي فكيف لي أن أحب الرجل المشرد الذي التقيته في المكتبة؟ وكيف لي أن أحب مدمن المخدرات، أو مدمن الكحول؟ نعم، قد لا يكون سهلاً أن نحب شريك حياتنا في بعض الأحيان، لكن هذا هو الغرض من الزواج: أن نتعلم كيف نحب.

يسهُل علينا أن نحب الله إذ لا تفوح منه أي نوع من الروائح التي تزعجنا، والله لا يقابل اللطف بالشر.

اسمح لزواجك بأن يوسع تخوم محبتك، ويزيد من قدرتك على الحب.. أن يعلِّمك كيف تكون مسيحيًا. استخدم الزواج كميدان للتدريب، حيث تتعلَّم أن تقبل الآخر وتخدمه. ورجاءً لا تحصر هذه "المحبة" بالأمور "الروحية" كالصلاة، والوعظ، والنصح. إن جزءًا من اختبار المحبة يكمن في أن يُبهج أحدنا الآخر بطرقٍ "عملية" جدًا. وهذه أيضًا حقيقة كتابية، كما سنرى في الفصل التالي.

السعادة المقدسة

على الرغم من أن الشباب من بني إسرائيل كانوا مدعوين لخدمة

الله من خلال القتال في الحروب، وضع الله استثناءً واحدًا نجده بين صفحات سفر التثنية: «إذا اتَّخذ رجلٌ امرأةً جديدةً، فلا يخرج في الجند، ولا يحمل عليه أمرٌ ما. حرًا يكون في بيته سنةً واحدةً، ويَسُرُّ امرأته التي أخذها.» (تث ٢٤: ٥)

في كل اللاهوت الذي درسته في الكلية لم أهتم كثيرًا لفكرة أن الله يريدني أن أكرِّس نفسي لإسعاد زوجتي. لقد وقفت زوجتي إلى جانبي فيما كنت أبشِّر، وأدرس الكتاب المقدس، وأعلِّم حديثي الإيمان، وأقوم "بأعمال الخدمة". ووجدتُ فكرة أن الله يريدني أن أخدمه من خلال تركيزي على إسعاد زوجتي فكرة عجيبة.. هل هذا يعني أنه إذا كانت زوجتي غير سعيدة أكون قد خذلتُ الله؟

وعلى الرغم من أن العدد الخامس من تثنية ٢٤ يتحدث فقط عن السنة الأولى من الزواج، فمن المنطقي أن نفترض أنه على كل زوج أو زوجة أن يقضي بعض الوقت وهو يفكر كيف يمكنه أن يجعل شريك حياته سعيدًا، واثقًا من الحقيقة العميقة أنك عندما تجعل شريك حياتك سعيدًا هذا يُرضي الله. من الناحية العملية جدًا، فإن الزوج الذي يخطط لجعل زوجته تضحك من حين إلى آخر فإنه بذلك يخدم الله، والزوجة التي تسعى لإشباع زوجها جنسيًا هي تخدم الله، والزوج الذي يضحي كي تحصل زوجته على وقت الراحة والاستجمام الذي تحتاجه هو بذلك يعبِّر عن محبته لله.

هل هذا يعني أنه إذا كانت
زوجتي غير سعيدة
أكون قد خذلتُ الله؟

عندما قال يسوع «تحب الرب إلهك... تحبُّ قريبك» فهو بذلك وسَّع آفاق المحبة، وحطم الجدران التي تقيدنا. لقد جعل الحب الإلهي و"الدين" أكبر بكثير مما نظن.

هذه كلمة نبوية لعالمنا اليوم.. إذ تصدر كل سنة أعداد هائلة من الكتب التي تعلِّمنا كيف نهتم بأنفسنا. وفيما يتحوَّل مجتمعاتنا إلى مجتمعات مفكك على نحوٍ متزايد، يجتاح أبناءها هوس الاعتناء بأنفسهم، والدفاع عن أنفسهم، وتحسين أحوالهم. وهذا التأكيد على تلبية احتياجاتنا الخاصة قد يصبح سخيفًا؛ فعلى سبيل المثال رأيت كتابًا ذات مرة يُروَّج له تحت عنوان: «الجنس المنفرد. متعة حب الذات».

وبينما أصبح عالمنا خبيرًا بالاعتناء بالذات، يبدو أننا فقدنا فن الاعتناء بالآخرين، وأصبح لكلمة تضحية دلالة سلبية، لدرجة أن الأشخاص أصبحوا يخشون "الاعتماد على بعضهم البعض"، أكثر من خشيتهم أن يرى الآخرون أنهم أنانيون.

لكن الكتاب المقدس يقول: "اجعل زوجتك سعيدة، وابذل ذاتك يوميًا؛ فإنك لن تجد حياتك إلا عندما تخسرها."

قرر أحد الرعاة، واسمه «بريدي بوبنك»، أن يأخذ الآيات الكتابية التي تحث على الحب على محمل الجد. وكان هذا الراعي قد تزوج في عمرٍ متأخر. كمتكلم كان قد اشتُهر بتعليمه عن التلمذة وعن حياة العزوبية، وكان يُطلب منه كثيرًا أن يُلقي محاضرات، وسنحت له فرص وافرة "ليخدم الله" من خلال موهبته في التعليم.

> أصبح لكلمة تضحية دلالة سلبية، لدرجة أن الأشخاص أصبحوا يخشون "الاعتماد على بعضهم البعض" أكثر من خشيتهم أن يرى الآخرون أنهم أنانيون.

عندما طلب «بريدي» من «شيرلي» أن تتزوجه، تغيَّرت حياته على نحوٍ كبير جدًا. كان لشيرلي طفلان من زواجٍ سابق، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ الزوجان يصليان إلى الله أن يرزقهما طفلاً آخر.

تساءل «بريدي» في نفسه: "ماذا يعني لي أن أحب زوجتي في هذه الظروف؟" وفي روح الصلاة، تعهد أمام الله أنه إذا رُزِقت زوجته بطفل آخر لن يقبل طوال العام الأول من حياة الطفل أي دعوة للتدريس أو الوعظ باستثناء ما تقتضيه وظيفته الحالية. وبعد ذلك، حدث أن حبِلَت زوجته، وولدت طفلهما الأول، وأسمياه «ميكا».

بعد عدة شهور، تلقى الراعي فرصة ذهبية ليعظ في سنغافورة. كان «بريدي» دارسًا للتاريخ، ويهوى السَفَر، وكان سفره إلى الشرق الأقصى يُعد فرصة قد لا تتكرر في العمر، فضلاً عن أن ذلك سيتيح له فرصة تعليم مسيحيين من ثقافة مختلفة.

فذهب إلى «شيرلي» ليخبرها بحماس عن هذه الفرصة العظيمة، وفي معرض حديثه تذكر تعهده، فقال بصوتٍ مسموع: "لا يمكنني السفر."

وحاولت «شيرلي» أن تحله من وعده، وقالت: "حبيبي، سافر، وسأكون بخير."

كان من السهل على «بريدي» أن يجد لنفسه مخرجًا "روحيًا" ليبرر لنفسه السفر، واعترف قائلاً: "لقد كان بإمكاني تبرير سفري بفكرةٍ نبيلة، كالوعظ في ثقافة مختلفة؛ لكن لو كانت هذه هي رغبتي الحقيقية، لكنتُ انتقلتُ إلى العيش هناك، واصطحبت زوجتي وأولادي معي."

قد يعتقد البعض أن هذا الراعي قد تخلى عن فرصةٍ ليُرضي الله من خلال توصيل رسالة الإنجيل لشعب آخر، غير أنه أدرك أن بإمكانه إرضاء الله من خلال محبته لزوجته في وقتٍ كانت تحتاج فيه لأي مساعدة إضافية واهتمام أكبر. كان بقاؤه في المنزل والاهتمام بتلبية حاجات زوجته يمثل "خدمة مسيحية"، تمامًا بقدر سفره خارج بلده لتقديم رسالة الإنجيل عندما كان أعزب.

ويؤكد «بريدي» على أن "الفشل في أن أحب زوجتي وأولادي كما ينبغي بحجة انشغالي بمحبة الآخرين كما ينبغي هو رياء وخداع."

«چون بارجر»: تعلُّم الحب

قدم د. چون بارجر خطابًا غير عادي أمام مجموعة من الرجال في ١٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧. وقد تضمن الخطاب اختباره عن كيف تحوَّل من كونه زوجًا متسلطًا إلى زوجٍ خادم. ومع ذلك لم تكن الفكرة الرئيسية لرسالته أن بإمكان الأزواج تأدية مهمتهم بشكل أفضل فحسب.. فنحن جميعًا نعرف ذلك. لكن أكثر ما أثَّر فيَّ من رسالة د. بارجر تصريحه أنه من خلال تعلُّمه أن يُحب زوجته، أدرك بشكل أفضل كيف يمكنه أن يُحِب إلهه.

أود أن أشارك هنا أجزاءً من قصة د. بارجر، والتي تبدأ باعترافه بالطريقة التي ينظر من خلالها العديد من الرجال إلى المرأة:

> من السهل الازدراء بالسيدات، ومعظم الرجال يفعلون ذلك. نرى السيدات ضعيفات جسديًا، يسهل تهديدهن، مقيدات بمهام الأمومة قليلة الأهمية، عاطفيات، وغير منطقيات، وفي معظم الأحيان تافهات. أو نراهن مغرِيات، وبسبب رغباتنا نعبدهن، ونتباهى بهن على صفحات المجلات، ومع ذلك نحتقرهن ونبغضهن بسبب قوتهن الجنسية المسيطرة علينا. غير أن احتقار الرجال للسيدات يؤثّر على كل ناحية من نواحي حياتنا: علاقاتنا مع أمهاتنا، وصديقاتنا، وزميلاتنا في العمل، وزوجاتنا، وأولادنا، والكنيسة، والله نفسه.

لست أتكلم هنا عن مجرد ازدرائكم بالسيدات، بل أتكلم عن نفسي أيضًا. لقد نشأ أقربائي في الشوراع أثناء فترة الكساد الاقتصادي الكبير، واكتسبوا في سنٍّ مبكرةٍ روح الانتقام والاحتقار الذي كان يميز الكثير من الأشخاص في الظروف العصيبة؛ فأفرطوا في شرب الكحوليات، وكانوا ينظرون إلى المرأة إما أداة للجنس أو خادمة... نتيجة لذلك كنت لسنوات متعجرفًا في زواجي، وأحكم حياة زوجتي سوزان وأولادي السبعة بقبضةٍ من حديد، مبررًا امتيازاتي وسلطتي بالاستشهاد بآياتٍ من الكتاب المقدس. فعلى أية حال يوصي الكتاب المقدس بوضوح الزوجات بالخضوع لأزواجهن.

هذه السنوات من التحكم في حياة زوجتي وأولادي ولَّدت داخلهم امتعاضًا وخوفًا مني، وبالرغم من ذلك لم يجرؤ أي منهم أن يتحداني بسبب الغضب الشديد الذي قد ينجم عن ذلك... أبعدت زوجتي وأولادي السبعة عني، وخسرت حبهم، ولم يعد المنزل مكانًا ممتعًا سواء لأولادي أو زوجتي، أو حتى بالنسبة لي. وبحلول عام ١٩٨٣ كانت زوجتي ستهجرني لولا وجود الأولاد، وحتى هذا الرباط كان على وشك أن يفقد قوته.

بعد ذلك توالت العديد من "الأحداث المؤثرة" التي أحدثت تغييرًا عميقًا في حياتي من الناحية الأخلاقية والنفسية والروحية.[3]

كانت أول هذه "الأحداث المؤثرة" عندما شاهد د. بارجر زوجته تقاسي ولادة صعبة. لقد تمزقت مشيمة «سوزان»، وراحت تنزف، ووُلد الطفل ميتًا. ويصف د. بارجر ما حدث:

في تمام الساعة الثانية صباحًا، كنت واقفًا في غرفة الولادة بالمستشفى، وأنا أحمل في يدي اليسرى ابني الصغير الذي فارق الحياة، مذهولاً من وفاته، غير مُصدقٍ ما تراه عيناي... كانت لديَّ القوة لجعل حياة أفراد عائلتي أسوأ حالاً بأن أصب عليهم جام غضبي بسبب وفاة طفلي وعدم محبة زوجتي لي، أو أختار أن أجعل حياتهم أفضل إذا تعلمت كيف أحبهم كما ينبغي. كان عليَّ أن أختار! وكان هذا خيارًا واضحًا، وُضِع أمامي في لحظة بينما كنت أحدق النظر في طفلي الصغير الميت الذي أحمله بيدي. وفي تلك اللحظة العصيبة، وبنعمة الله، اخترتُ الطريق الشاق، الخالي من الإثارة، والمُحبِط.. وهو أن أحاول أن أكون أبًا وزوجًا صالحًا.

لا أملك الوقت... لأخبركم عن المحن التي قاسيناها في الأربع سنوات التالية: مرض أولادي، وفاة والدتي المفاجِئة، خسارتي لعملي كمدرس، ثلاث حالات إجهاض أخرى، وأخيرًا حزن عميق لم يعلمه أحد اخترق قلب كلينا حتى أعماقنا.

في وسط هذه المحن الكثيرة، وجدت أن السبيل الوحيد لأتعلَّم كيف أحب وأتوقف عن كوني مصدر ألمٍ للآخرين هو أن أتألم، وأقاسي، وأجاهد في كل دقيقة كي أمتنع عن الغضب، والامتعاض، والاحتقار، والغيرة، والشهوة، والكبرياء، وغيرها من عشرات العيوب.

بدأتُ ألجم لساني.

بدأت أقر بأخطائي، وأعتذر عن ارتكابها.

توقفت عن الدفاع عن نفسي عندما يدينني الآخرون بقسوة؛ لأن أهم ما في الأمر ليس أن أكون على حق (أو أن يفكر الآخرون فيَّ حسنًا)، بل أن أحب.

وبما أنني جعلت نفسي بالفعل محور اهتمامي لسنواتٍ عديدة مضت، فلم أُسهب في ذكر آلامي وأحزاني، وقصدتُ أن أتعرَّف على آلام «سوزان»، وأحزانها، وأن أساعدها على تحملها.

بصراحة عندما بدأت أستمع إلى زوجتي.. عندما بدأت حقًّا أن أصغي إليها وأشجعها على مصارحتي، روَّعتني كثرة جراحها وأحزانها ومدى عمقها. ومعظمها لم تكن أحزانًا تخص سوزان وحدها، إنما كانت الأحزان التي تشعر بها جميع السيدات.. الأحزان التي تنجم عن التكوين الخاص بفسيولوجية المرأة، ووظيفة الأم التي يترتب عليهن مهام ومسؤوليات صعبة تجعلها في النهاية تعتمد بشكل كامل على الرجل للحصول على سعادتها والدعم الروحي. كذلك الأحزان التي تنجم عن محبتها الشديدة لزوجها وأولادها، وعدم قدرتها على حماية مَنْ تحب من الأذى؛ والأحزان التي تنجم عن واقع مجتمعنا الذي يهدد حتى أكثر النساء تعففًا، وبانتظام، بنظراتٍ شهوانية، وتعليقات وتجاوزات من الرجال؛ والأحزان التي تنجم عن أن مجتمعنا عامةً لايزال يعتبر النساء غبيّات ومتقلبات وتافهات، ولا يعطيهن أي أهمية تُذكر، ولا يُبدي لهن إلا القليل من الاحترام.

إن النساء غالبًا ما يُعانين هذه الجروح، وبدرجة

تفوق أكثر بكثير ما يمكننا نحن الرجال إدراكه. وإذا لم نسألهن هذه الآلام، فهن على الأغلب لا يبادرن بالتكلم عنها؛ ربما لأننا نحن الرجال نصرف النظر عن متاعبهن، ونعتبرها عديمة الأهمية، أو نرى أنهن ببساطة ضعيفات وكثيرات النواح...

هل بإمكان الرجال أن ينزعوا سيف الحزن الذي يخترق قلب كل امرأة؟ لا أعتقد ذلك؛ فمشاكلهن ليست من النوع الذي له حلول، وإنما تشكل نسيج حياتهن اليومية...

أحد أصدقائي عندما وصل إلى منزله في نهاية يوم عمل طويل واجه شكاوى زوجته عن الضجيج، والمشاكل، والأعمال المنزلية التي لا تنتهي؛ فرد عليها بسخطٍ: "هل تريد مني أن أبقى في المنزل، وأقوم بالأعمال المنزلية، وتخرجين أنت إلى العمل؟" أنتم تفهمون ما يريد أن يقوله؛ فهو لم يستطع حل مشاكلها.. فما الذي كانت ترغب أن يقوم به؟

سأخبركم.. أرادته أن يُصغي لها، ويتفهم، ويتعاطف معها. أرادته أن يُخبرها أنه يحبها بالرغم من مشاكلها، وإرهاقها، ومظهرها غير المرتب.. وأن يخبرها أنه يحزن لألمها، وأنه لو كان ممكنًا لبدَّل الظروف من أجلها.

لقد أفلحت جهود د. بارجر الصادقة لتجديد حبه لزوجته، وتحقيق مستوى جديد من التفهُّم. لقد تطلَّب الأمر ثلاث سنوات من "الصبر، والاستماع، وكسب ثقة سوزان"، وقضاء "مئات الساعات فعليًا في التحدث سويًا"، وأخيرًا تبدد غضب سوزان، وتغلبت على الروح الناقدة واللاذعة، الأمر الذي جعلها "أرق وألطف".

بسبب العيش في ظل زواج متجدد، أصبحت الحياة حلوة بشكل غير معتاد. اعتقد د. «بارجر» و«سوزان» أنهما يقفان "على عتبة حياة زوجية طويلة وسعيدة"، إلا أن مأساة وقعت مجددًا.

تمّ تشخيص ورم خبيث في مراحله النهائية لدى «سوزان».

وهكذا بدأت معركة مع المرض دامت ثمانية أشهر، وواجه د. بارجر تحديًا يتطلب منه التعبير عن حبه الجديد بطرقٍ ملموسة جدًا. إن العناية بشخصٍ مريض بمرض عُضال عملٌ شاق للغاية، غير أن د. «بارجر» رحب بهذا المرض كفرصةٍ ليُريها كم كان يحبها فعلاً- على حد قوله.

الشيء الجميل يكمن في تذكر هذا الحب غير العادي، ومعرفته بأنه اختبر أمرًا يشتاق معظمنا إليه ولا نجده.. رفقة حقيقية ومتجذرة في أعماق القلب.

ومع أن «سوزان» حظيت بأفضل عناية، فإن مرض السرطان ربح المعركة، وتُوفيت «سوزان»، ولفظت أنفاسها الأخيرة وهي محاطة بعائلتها وأعز أصدقائها، وممسكة بيد زوجها الحبيب.

نظر «د. بارجر» إلى حياتهما معًا بمشاعرٍ حلوة مختلطة بالمرارة.. لقد تغلبا على جروحهما عندما جدَّدا علاقتهما؛ والآن بعد أن أصبحا أعز الأصدقاء، وبعد أن تعلَّم المعنى الأعمق في الحب الصادق بدلاً من التسلط، تحتم عليه أن يقول وداعًا لشريكة حياته. إلا أن الشيء الجميل يكمن في تذكُّر هذا الحب غير العادي، ومعرفته بأنه اختبر أمرًا يشتاق معظمنا إليه ولا نجده.. رفقة حقيقية ومتجذرة في أعماق القلب.

ويناقش د. بارجر في تأملاته كيف انعكس اختباره هذا مع زوجته على علاقته مع الله:

مارسوا الفضائل التي نصحتكم بالتمتع بها؛ لأنها ضرورية لعلاقة عميقة مع زوجاتكم: الصبر، والإصغاء، والتواضع، والخدمة، والأمانة، والحب العذب. وآمل ألا يكون من الهرطقة أن أقول أن الله في تعامله معنا يتصرف في الكثير من الأحيان كالنساء.

إن النساء قادرات على تحقيق إنجازات رائعة، وأحيانًا يقمن بأعمال مبهرة تكشف عن قوة لا تُصدّق، وتوقظ فينا نحن الرجال رهبةً عميقة، إن لم يكن خوفًا وقشعريرة. ومع ذلك عندما يحببن، يحببن في هدوء، ويعبِّرن وكأنهن يهمسن، ويجب علينا الإصغاء بشدة وبانتباه، لنسمع كلمات الحب الصادرة منهن، ولنفهمهن.

ألا يتصرف الله معنا على هذا النحو أيضًا؟

ألا يتدخل في حياتنا ناطقًا بهمساتٍ تفوتنا إذا لم نستجمع ذواتنا ونولي انتباهًا خالصًا- إذا لم نجتهد باستمرار لسماع همسات الحب الإلهي؟ إن الفضائل الضرورية ليحب الزوج زوجته بحقٍ، ويحصل على الحب في المقابل.. مثل الإصغاء، والصبر، والتواضع، والخدمة، والحب الصادق- هي نفسها الفضائل الضرورية التي يجب أن نتمتع بها لنحب الله، ونشعر بحبه المتبادل. وكما أننا لا نستطيع أن نتسلط على النساء إذا رغبنا في التعرف عليهن وبناء علاقة حميمة معهن، فبالتالي لا

يمكننا أن نتسلط على الله إذا رغبنا في التعرف عليه وبناء علاقة حميمة معه.

لا يمكننا أن ننجح في طلب حب امرأةٍ أو حب الله، وإنما علينا الانتظار. وكما يذوب قلب المرأة عندما تجد فينا ضعفًا مصحوبًا باعترافنا المتواضع به، هكذا يذوب قلب الله.. وهو الأرق والأرحم تجاهنا، عندما يجد فينا ضعفًا مصحوبًا باعترافنا المتواضع به.

بينما تستهدف هذه القصة الرجال، أظن أن المبدأ نفسه ينطبق على النساء. إن هذا الرجل الذي يستحيل عليك محبته، قد يكون جسر عبور لكِ لتتعلمي كيف تحبين الله. وهذه حقيقة يشهد عليها الكتاب المقدس، ويقولها التلميذ الحبيب يوحنا بصراحة: «إن قال أحدٌ: "إني أُحبُّ الله" وأبغض أخاه، فهو كاذبٌ. لأن مَنْ لا يُحبُّ أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يُحبَّ الله الذي لم يبصره؟ ولنا هذه الوصيَّة منه: أن مَنْ يُحبُّ الله يُحبُّ أخاه أيضًا.» (يو ٤ :٢٠ و٢١).

قد يبدو هذا الرجل غريبًا تمامًا عنكِ، أو تبدو تلك المرأة غريبة تمامًا عنكَ؛ ولهذا السبب يبدو صعبًا للغاية أن نحبه أو نحبها. وعندما تفكِّر أنت من ناحية تُفكِّر هي من ناحية أخرى، أو عندما تكونين متأكدة أن وجهة نظركِ هي الأهم، يأتيكِ هو من زاوية مختلفة تمامًا. وتتساءلان أنفسكما السؤال التالي: "كيف يمكنني أن أحب شخصًا مختلفًا كل الاختلاف عني؟"

ولكن فكِّروا، إذا كان بإمكانكم أن تسألوا هذا السؤال بصدق، حاولوا أن تطرحوا على أنفسكم السؤال التالي: "كيف يمكنكم بأي حال أن تحبوا الله؟" هو روحٌ، أما أنت فمسجون في لحم وعظمٍ.. هو أبدي، أما أنت فمحدودٌ في الزمن.. هو قدوس، وكامل، ومن دونٍ خطية؛ أما

أنتم -مثلي تمامًا- فمولودون في الخطية.

أن يحب رجل امرأة أو أن تحب المرأة رجلاً أمرٌ يتطلب جهدًا أقل بكثير من تلك التي يحتاجها الرجل أو المرأة ليحب الله.

وأظن أن الأمر أكثر من ذلك.. أعتقد أن الزواج صُمِّم ليُخرِجنا من ذواتنا، ويعلِّمنا أن نحب الآخر "المختلف" عنا. بوجودنا معًا في أكثر المواقف التي يمكننا تخيلها قربًا.. العيش معًا، مشاركة غرفة النوم نفسها، وفي بعض المناسبات مشاركة أجسادنا مع بعضنا البعض؛ فنحن ملتزمون باحترام وتقدير شخص مختلف جذريًا عنا.

أن يحب رجل امرأة أو أن تحب المرأة رجلاً أمرٌ يتطلب جهدًا أقل بكثير من تلك التي يحتاجها الرجل أو المرأة ليحب الله.

نحن بحاجة لأن نخرج من ذواتنا؛ لأننا في الحقيقة غير كاملين. لقد صنعنا الله هكذا لنجد اكتفاءنا فيه، وهو الآخر المختلف عنا بالكامل. الزواج يُظهر لنا أن العالم لا يتمركز حولنا فحسب، ويدعونا أن نفسح الطريق لشخص آخر ليدخل حياتنا، بل بالأحرى نجد الفرح والسعادة وحتى النشوة في هذا الآخر.

ليس هناك دروس نتعلَّمها عندما يسيطر رجلٌ على زوجته، والزوجة التي تتلاعب بزوجها لا تقدِّم لنا أي مثال مُلهِم. غير أن الحب يكشف عن الأسرار الروحية للكون، ويفتح أمامنا أبواب الأبدية على مصراعيها، لتنهال علينا ببركاتها.

إن المسيحية تتضمن الإيمان بأمور معينة، وهذا أمر مؤكد، غير أن سمتها المميزة ومجدها لا يرجع ببساطةٍ إلى حقائق عقلانية.. إن جمال المسيحية يكمن في تعلُّم الحب، وقليلة هي ظروف الحياة التي تختبر ذلك بشكل مطلق كما يفعل الزواج.

إن جمال المسيحية يكمن في تعلّم الحب، وقليلة هي ظروف الحياة التي تختبر ذلك بشكل مطلق كما يفعل الزواج.

نعم، من الصعب أن تحب شريك حياتك؛ لكنك إذا أردت حقًّا أن تحب الله، فانظر إلى الخاتم (الدبلة) الذي في يدك اليسرى، وعاهد نفسك على استكشاف ما يمثله هذا الخاتم بالنسبة لك مجددًا؛ وأحبب بشغف، وجنون، وثبات ذلك الشخص الذي وضعه في يدك.

قد يكون هذا الأمر من أكثر الأمور الروحية التي قد تفعلها في حياتك.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) قارن بين ما تعنيه ثقافتنا بكلمة حب، وتعريف الكتاب المقدس للحب.

(٢) كيف يبدو الزواج أداة استثنائية تهدف إلى أن نتعلَّم كيف نحب.

(٣) إذا حاول أحدهم وصف محبتك لله من خلال مدى حبك لشريك حياتك، ما الاستنتاج الذي قد يصل إليه هذا الشخص؟ اذكر أمرًا أو اثنين يمكنك أن تقوم بهما لخدمة شريك حياتك، وتقوية زواجك، وإرضاء الله.

(٤) كم من الوقت تقضيه في التفكير في كيفية إسعاد شريك حياتك، بالمقارنة بالوقت الذي تقضيه وأنت تفكِّر إلى أي مدى ينجح شريك حياتك في إرضائك؟ هل تحتاج للقيام ببعض التغييرات في هذا الأمر؟

(٥) ناقش كيف يمكن أن يكشف الزواج مواقف الرجال الرديئة وأحكامهم المسبقة عن النساء، وكيف يمكن أن يسلِّط الزواج الضوء على أفكار السيدات الانتقادية تجاه الرجال. هل يواجه زواجك هذا النمط المعتاد عن الرجال أو النساء، أم لا؟ ما الذي يمكنك فعله لكشف هذه المواقف السلبية ونبذها؟

(٦) إن الله يحبنا على الرغم من عيوبنا.. كيف يعلِّمنا الزواج أن نحب شريك الحياة بالرغم من عيوبه؟

(٧) أنت وشريك حياتك مختلفان في جوانب كثيرة. ما هي الاختلافات

التي أصبحت تقدِّرها؟ وما الاختلافات التي لا تزال تزعجك؟ هل تشكِّل هذه الاختلافات فرصةً لك لتتعلَّم منها؟ كيف يحدث هذا؟

الفصل الرابع

الكرامة المقدسة

يعلِّمنا الزواج احترام الآخرين

نعيش جميعنا في خندق واحد، لكن البعض منا ينظر إلى النجوم.
– «أوسكار وايلد»

لا يجب أبدًا أن نكون ساذجين إلى الدرجة التي نعتبر فيها الزواج
ملاذًا آمنًا من السقوط...
إن أعمق صراعات الحياة تحدث في
أولى العلاقات التي تأثرت بالسقوط: الزواج.
– «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان الثالث»

قال لي «براين» حزينًا: "أنا أعمل طوال النهار، ثم أعود إلى المنزل، وأجهز العشاء، وألعب مع الأولاد، وأغسل الصحون، وأضع الأولاد في السرير ليخلدوا إلى النوم.. وفجأة تدق الساعة التاسعة والنصف، وأجدني شبه ميت من الإرهاق."

فسألته: "ماذا تفعل زوجتك في خلال هذا الوقت؟"

"على الإنترنت تقضي كل وقتها في إحدى غرف الدردشة."

"حقًا؟!"

"نعم، فهي تمضي ساعاتٍ بأكملها يوميًا "تتحدث" مع أشخاصٍ من خلال الكمبيوتر. في الواقع، هي "تتحدث" معهم أكثر مما تتحدث معي أو مع الأولاد.. هذا أمر مثير للاشمئزاز."

بعد مرور ساعتين فقط، كان براين يبدل حفاض رضيعه عندما بدأت «شيريل» زوجته تخبر كيف أن براين يدمر زواجهما بسبب تراكم الديون عليهما، وتخلفه عن اللعب مع الأولاد، وإخفاقه في قيادة العائلة روحيًا، وعدم مساعدته في الأعمال المنزلية.

كانت زوجتي مندهشة لسماع ذلك؛ فقد كانت تعرف براين منذ أن كانا معًا في المدرسة الثانوية ولطالما رأت فيه ذلك النوع من الآباء الذي سيمضي الكثير من الوقت مع أولاده، ويميل أكثر إلى الاقتصاد في المسائل المادية.

لقد صُعقت لسماع قصتين متناقضتين إلى هذا الحد عن الزواج ذاته. وخلال بقية النهار كان كل من «براين» و«شيريل» لاذعين في تعليقاتهما؛ وتحولا إلى خصمين بدلاً من أن يكونا حليفين، وكان جو من الكآبة يسود حولهما.

"احتقر الاحتقار."

وفيما كنت ألعب «الكوتشينة» مع براين، وكان على وشك الخسارة، قالت «شيريل»: "نعم، انتصر عليه يا جاري." لم تكن هذه مزحة ودودة نابعة من حب صادق، بل كانت شماتة لسقوط عدوٍّ.

وعندما تأملت في ذلك اليوم، تذكرتُ أمرًا قرأته ذات مرة.. «فرانسيس دو سال»، كاتب من القرن السابع عشر وصاحب أحد المؤلفات الكلاسيكية بعنوان: «مقدمة لحياة التقوى» (An Introduction to a Devout Life)، كتب في إحدى رسائله. شيئًا بسيطًا لكن قويًا: "احتقر الاحتقار."

لقد كان كل من «براين» و«شيريل» يشعران باحتقار كبير تجاه أحدهما الآخر؛ لدرجة أنهما أمضيا النهار بكامله يعدِّدان إخفاقات بعضهما البعض. ومن الواضح أن أحدهما (أو على الأرجح كليهما) يكذب بشأن وضع البيت، أو لديه نظرة مشوهة تمامًا عما يجري حقيقةً في زواجهما.

يعالج هذا الفصل آداب إظهار الاحترام، وبصفة خاصة لشريك الحياة. لكن الحقيقة المؤسفة هي أن قلة من المؤمنين ينظرون إلى إبداء الاحترام كوصية أو كتعليم روحي؛ كما أننا مهووسون بأن يُبدي الآخرون احترامهم لنا، ونادرًا ما نأخذ بعين الاعتبار التزامنا باحترام الآخرين.

يقول الكتاب المقدس الكثير في هذا الصدد.. فقد أوصينا باحترام الوالدين (لا ١٩: ٣)، والشيوخ (لا ١٩: ٣٢)، والله (مل ١: ٦)، وشريك الحياة (أف ٥: ٣٣؛ ١بط ٣: ٧)، وفي الواقع أوصينا باحترام جميع الناس؛ كما يحثنا بطرس التلميذ المخلص للرب يسوع بقوله: «أكرِمُوا الجميع» (١بط ٢: ١٧).

جميعنا يشعر برغبةٍ عميقةٍ بأن نكون موضع احترام الآخرين، وعندما لا تتحقق هذه الرغبة نميل إلى السقوط في الشعور بالانهزامية. وعوضًا عن الاجتهاد في بناء حياتنا الشخصية كي تستحق الاحترام، نعمل على تحطيم شريك حياتنا في محاولةٍ يائسة لإقناع أنفسنا بأن عدم احترامه لنا لا يعني لنا شيئًا البتة. أما من الناحية الروحية، يتحول هذا الأمر إلى حلقة مُفرغة ومدمرة يصعب جدًا الخروج منها.

الله يملك الحل لهذه المشكلة، والذي إذا طبقناه سنُحدث ثورة في علاقاتنا. بينما يصارع الكثيرون من أجل الفوز بالاحترام، يدعونا الزواج المسيحي لأن نركز جهودنا على تقديم الاحترام للآخرين. نحن مدعوون لإكرام الآخر، حتى عندما نعرف كل المعرفة عيوب شخصيته المترسخة.

نحن مدعوون لبذل جهدٍ كبير لنكتشف كيف يمكننا أن نتعلَّم احترام هذا الشخص الذي عايشناه وألفناه عن قرب. وأثناء هذا الاستكشاف نُنصح بقوة أن "نحتقر الاحتقار."

استكشاف النهر

أحمل بعض الذكريات الحية للأسبوع الأول من زواجنا.. إحدى هذه الذكريات هي عندما نظرت إلى خزانة الأدوية، وتناولتُ هذا الشيء المصنوع من المعدن، والذي يشبه المقص وبه ما يشبه الفك من الأمام؛ وسألت زوجتي: "ما هذا الشيء العجيب؟"

أجابت زوجتي. "أستخدم هذه الآلة من أجل استدارة رموشي." وهذه ممارسة لا نراها كثيرًا الآن، غير أنها كانت شائعة جدًا في أوائل الثمانينات.

فسألتها: "هل حقًا تفعلين هذا؟"

فأجابتني "بالطبع."

فاندهشتُ كثيرًا إذ لم يسبق أن أطلعني أحدٌ على هذا الأمر، ولم يخطر لي أبدًا أن الرموش غير المستديرة تشير إلى إهمال في النظافة.

وسألتها قائلاً: "ماذا تقلن أنتن النساء بينما تَسِرن في المركز التجاري.. 'انظري إلى هذه السيدة؛ لقد نسيت أن تهذب رموشها. ألا تخجل أن تخرج بهذا الشكل أمام الناس'؟"

"لا تكن سخيفًا!" أجابت زوجتي وهي تنتزع آلة استدارة الرموش من يدي.

قد يحفل الزواج باكتشافات مماثلة.. فقد تعتقد أن جميع الناس

يضعون سلة المهملات تحت "حوض" المطبخ من ناحية الشمال، إلى أن تتزوج وتكتشف أن عائلة زوجتك تضعها خارج باب المنزل.

وتعترض قائلاً: "لا يمكن وضع سلة المهملات هنا!"

فتسألك زوجتك الحديثة: "ولمَ لا؟"

"لأن أمي لم تضعها أبدًا هنا!"

لقد تطلَّب الأمر سنوات لأتقبل أن «ليزا» تحب الاحتفاظ ببعض الأدوية في خزانة التوابل. ولو سألتني، سأجيبك أن هناك خطأ واضحًا في وضع الأدوية إلى جانب نكهة الفانيليا، أو الملح.. لكن هذا ما كانت تفعله عائلتها.

لكن مع مرور الوقت، تصبح هذه الألغاز الصغيرة المثيرة للاهتمام مألوفة أكثر من اللازم -عندها يبدأ الاحتقار في التسرب تدريجيًا إلى حياتك.

يروي «مارك توين» قصة واقعية عن استكشافه المتعمق لنهر المسيسيبي الذي كان يحبه كثيرًا.. بعد أن حفظ مارك فعلاً كل منحنيات هذا النهر وأركانه ومنعطفاته، وأبحر في مياهه بإعجابٍ شديد، اغتمَّ إذ استيقظ ذات يوم واكتشف أن النهر فَقَد الكثير من شاعريته. لقد زال سحر وغموض هذا المجرى المائي العظيم، وأستبدل بتوقع يبعث على الملل.. من كثرة حبه لهذا النهر اختنق بكل معنى الكلمة حبه له..

كل زواج يمر بهذه المرحلة.. فالحب المنعم بالبهجة يهدأ متحولاً إلى روتين يمكن توقع أحداثه، ويُستبدل الغموض باعتياد يصل إلى حد الكوميديا.. فتعرف الزوجة بالضبط كيف سيجلس الزوج على الأريكة، ويعرف الزوج بالضبط كيف ستُجيب زوجته على الهاتف.

في أسرة نعرفها قررت الزوجة أن تُهدي زوجها بعض مضارب الجولف

بمناسبة عيد ميلاده؛ فذهبت إلى متجر، وقالت لصاحبه: "إليك ثمن مجموعة مضارب الجولف، وغدًا سآتي إلى هنا مع زوجي في المساء، وسيُلقي نظرةً على المضارب، ثم سيتوجه نحوي ليتناقش معي، وبعد ذلك سيعود إلى مكان المضارب ليلمس تلك التي يعتقد أنها الأفضل. في هذه اللحظة أريدك أن تذهب إليه وتقول له: 'لقد سدّدت زوجتك ثمن هذه المضارب بالأمس. كل سنة وأنت طيب.'"

تعجَّب صاحب المتجر، وارتاب قليلاً، لكنه وافق أخيرًا على الخطة.

في اليوم التالي، اصطحبت صديقتنا زوجها إلى مطعم ملاصق لمتجر أدوات الجولف. وبعد العشاء أشار الزوج (كما كان متوقعًا) بإصبعه إلى المتجر، وقال لزوجته: "أتمانعين إذا دخلنا لدقائق قليلة؟"

فأجابت الزوجة: "لا أمانع على الإطلاق."

تجول الزوج في المتجر، ووقع اختياره على مجموعتين من مضارب الجولف؛ ثم توجه إلى زوجته، وتباحث معها في الأمر. وبعد ذلك عاد، ولمس المجموعة التي رأى أنها الأفضل. عندئذٍ توجه صاحب المتجر نحوه، وأسمعه الكلمات الجميلة المُتَفَق عليها.

عندما يصبح الحب مألوفًا إلى هذا الحد، هل من الممكن أن يؤدي هذا إلى "اختناق" الحب؟

يُقال إن شاعري القرن التاسع عشر العظيمين، «روبرت براونينج» و«إليزابيث باريت براونينج» (كاتبة أحد أبيات الشعر الذي يُقتبس كثيرًا ويُسخر منه كثيرًا: "كيف أحبك؟ دعني أعدد الطرق...")، في الواقع لم يريا بعضهما أبدًا عاريين بالكامل. وكان شغفهما المستمر تجاه بعضهما البعض أسطوريًا.. تُرى هل ترجع هذه الاستمرارية لوقت طويل وبهذه القوة إلى هذا الغموض الجسدي؟

كلما أصبح شريك حياتنا مألوفًا، ونقاط ضعفه مكشوفة أمامنا، أصبح من الصعب تقديم الاحترام له؛ لكن هذا الإخفاق في إظهار الاحترام هو دلالة على عدم النضوج الروحي أكثر من أن يكون نتيجة حتمية الحدوث في الزواج. تأملوا فيما كتبه الرسول بولس لأهل كورنثوس.. لقد كان يخاطب كنيسة تحفل بالخصومات (١كو ١: ١١)، وبالكثير من غير المثقفين والبسطاء (١: ٢٦)، وبأطفال «جسديين» (٣: ١– ٣)، وأشخاص متكبرين وأنانيين (٤: ١٨)، ورجل يزني مع امرأة أبيه (٥: ١)، وأشخاص جشعين يقاضون إخوتهم المؤمنين (٦: ١)، وأشخاص طفوليين في تفكيرهم (١٤: ٢٠)؛ وعلى الرغم من كل هذا استمر في احترامهم بقوله: «أشكر إلهي في كل حين من جهَتِكم...» (١: ٤). لقد عرفهم عن قرب لدرجة أنه كان يعرف عيوبهم كلها، ومع ذلك استمر في تقديم الشكر لله من أجلهم. لماذا؟ نجد الإجابة في القسم الثاني من العدد الرابع: «أشكر إلهي في كل حين من جِهتِكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح.»

يشرح «سي. چيه. ماهاني» هذا باقتدار.. أنه يمكننا أن نكون شاكرين من جهة أصحابنا الخطاة عندما نقضي المزيد من الوقت ونحن نبحث عن "دلائل للنعمة" أكثر من الوقت الذي نقضيه في التفتيش عن عيوبهم. إذا كانت زوجتي تدرك أنني أعرف عيوبها أكثر من إدراكها لمقدار ما أشهده فيها من علامات عمل نعمة الله في رحلة تقديسها المستمر، أكون حينئذٍ زوجًا متزمتًا– أشبه بفريسي. إن إظهار الاحترام التزام، وليس معروفًا نقدمه.. هو فعل يدل على النضوج، وينشأ من فَهمٍ عميق لنعمة الله الصالحة.

تحدي أحكامنا المُسبقة

ذات ليلة، دخلتُ من باب المنزل وإذ بزوجتي «ليزا» تهرع إليَّ فورًا،

وتناولني الهاتف قائلةً: "«جايل» منهارة، و«چيمس» يحتاج أن يتكلم معك."

تناولت الهاتف لأجد أن «جايل» و«چيمس» يمران بوقتٍ عصيب.

قال «چيمس» بشكل ساخرٍ بعض الشيء: "«جايل» تقول أنني أقمعها، وتعتقد إنني لا أحترمها وأنني أستخف بها."

فقلت: "حقًا؟"

"أجل، والآن تريدني أن أقابل المشير الذي تذهب إليه، غير أنني غير مرتاح للأمر."

فسألته: "لِمَ لا؟"

"حسنًا، إن المشير الذي تذهب إليه «جايل» امرأة، وأنا لست متأكدًا أنه يمكنني الوثوق بها.. أنت تفهم ما أعنيه."

فأجبته: "دعني أتحدث معك بصراحة شديدة.. «جايل» تعتقد أنك لا تحترمها كامرأة، وأنت لا تعتقد أن الأمر صحيح؛ غير أنك ترفض مقابلة المشير لأنها امرأة، وأنت لست متأكدًا من أنه يمكنك الوثوق بها؟!"

ثم ساد صمت طويل.

لقد علمتُ أن هذه المواجهة ستحدث حتمًا. في أول مرة قابلتُ «جايل»، علمتُ لماذا اختارها «چيمس».. فهو قد تربى داخل مجتمعٍ ذكوري، وكان يبحث عن امرأة "تابعة" لعقليته الذكورية. وقد تناقشنا عن الفتيات التي كان يواعدهن، و لم أرَ بينهن واحدةً تحدته، أو دفعته للقيام بأمرٍ ما، أو هددته، أو تنافست معه بأية وسيلة كانت. وأكثر ما لاحظته هو أن أغلب أولئك الفتيات عانين الترهيب من قِبل آبائهن، وكنَّ راضيات بالذهاب مع أي زوجٍ أراد أن يحظى بزوجة جميلة، ورشيقة، ومن المفضل أن تكون شقراء، وتعرفُ كيف تبتسم، وتتكلم، وتضحك، وتمارس الحب، وتهتم بالأطفال.

لكن «جايل» أرادت علاقة حقيقية.. لقد نضجت وسئمت أن تكون مجرد تحفة للزينة، وكان «جيمس» أمام أزمة؛ لكنها لم تكن أزمة بسبب غضب «جايل»- كما ظن في بادئ الأمر. في الواقع، كانت الأزمة هي مواجهة «چيمس» لتوجهات قلبه المجحفة تجاه النساء بصفة عامة، وتجاه زوجته «جايل» بصفة خاصة.

لقد أصرَّ الرب يسوع على مواجهة توجهات فكرية مماثلة كانت مخبأة داخل قلوب التلاميذ.. فقد تجاسر وكسر أحد تقاليد الربيين (معلِّمي اليهود) عندما تحدث مع المرأة عند البئر (راجع يوحنا ٤). لم يقتصر الأمر على أنه لم يسبق لأحد الربيين أن تواجد مع سيدة بمفردهما، بل إن مناقشته لأمور لاهوتية معها يُعتبر أمرًا غير وارد على الإطلاق. لقد أجاب أحدهم، عندما استشاره البعض عن تدريس الشريعة للنساء في ظروفٍ معينة، قائلاً: "إذا قام أي رجل بتدريس الشريعة لابنته كأنه قد علَّمها الفسق."[1]

لهذا السبب، في الإشارة إلى رد فعل التلاميذ عندما رأوا يسوع يتحدث مع *المرأة عند البئر (يو ٤: ٢٧) استُخدمت كلمة « يتعجبون»* كترجمة للكلمة اليونانيّة «ثومازو» (Thaumazo)، التي تحمل معنى الريبة: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟" "هل حقًا أرى ما أعتقد أني أراه؟"

لا شك أن تعجب التلاميذ نتج في أغلبه عن انكشاف ثقافتهم المعادية للنساء أمامهم. كانت النساء في فلسطين في أيام المسيح يتعرضن للكثير من أوجه الرفض.. لم يكن يؤخذ عددهن في الاعتبار عند تحديد الحد الأدنى من الناس (عشرة أشخاص) للقيام بالمراسم الدينية في المجمع؛ ولم يكن يؤخذ بشهادتهن في المحكمة؛ ويُنظر إليهن كغير صالحات للتعليم (ورد في التلمود اليهودي: "ستُحرَق كلمات التوراة في النار قبل أن يتم تعليمها للنساء")؛ وغالبًا ما كان يتم عزلهن عن بقية المجتمع، وحبسهن

في منازلهن. إن احتقار النساء يظهر من خلال صلاة مهينة جدًا كان يرددها كثيرًا الرجال اليهود القدماء: "الحمد لله لأنه لم يخلقني أممي؛ الحمد لله لأنه لم يخلقني أمميًا، الحمد لله لأنه لم يخلقني إنسانًا جاهلاً."

لكن الرب يسوع بخطواتٍ جريئة وكلمات شجاعة تحدى هذه التوجهات الفكرية تجاه النساء وواجهها، رافعًا من شأن المرأة، ومشركًا إياها في دائرة المقربين والداعمين له.

لكن الرب يسوع بخطواتٍ جريئة وكلمات شجاعة تحدى هذه التوجهات الفكرية تجاه النساء وواجهها، رافعًا من شأن المرأة، ومشركًا إياها في دائرة المقربين والداعمين له (راجع لو ٨: ١– ٣). لقد كرَّم المسيح النساء، وأراد أن يَبقين بقربه– ومع ذلك لم تظهر أي إشاعة أو إشارة إلى فضيحة ما؛ لأنه كان يسلك بمحبة وبنقاوة حقيقية.

لم يتمكن صديقي «چيمس» من مواجهة آرائه المناهضة للمرأة إلا عندما تزوج؛ فقد كان بحاجة لأن يسمع زوجته تقول: "أنت لا تحترمني لكوني امرأة"، ويقع بكلامه في الفخ: "إنها امرأة، وأنا لست متأكدًا أنه يمكنني الوثوق بها.. أنت تفهم ما أعنيه." قبل ذلك لم يتمكن من رؤية توجه قلبه الشرير.

الاختلاف

كثير من المشاكل الزوجية التي نواجهها ليست مشاكل بين زوجين بعينهما؛ لا بل هي مشاكل بين الرجال بشكل عام، والنساء بشكل عام. وتظهر هذه المشاكل إما لأننا كسالى جدًا، أو لأننا أنانيون جدًا؛ حتى

إننا لا نتعرف على شريك حياتنا عن قرب لنفهم مدى اختلافه عنا.

كان عليَّ أن أتعلم هذا الدرس بالطريقة الصعبة. سأوفر عليكم الخوض في التفاصيل الدامية؛ لكن الذهاب من بيلينجهام بولاية واشنطن إلى مدينة «رالي» في كارولينا الشمالية استغرق مني خمس ساعات من قيادة السيارة، وأربعة مطارات، وثلاث سيارات مستأجرة، ومسافرين مُنهكي القوى تمامًا، وسائق تاكسي مجنون جدًا كان يتصرف وكأنه إحدى شخصيات المسلسل الكوميدي «ساينفيلد».

كنتُ مسافرًا حينها مع ابنتي الكبرى، وكانت آنذاك في العاشرة من عمرها، وكان من المفترض أن أوصلها إلى منزل صديق في شمالي فرجينيا، ثم أُكمل طريقي جنوبًا إلى رالي وبسبب إلغاء إحدى رحلات الطيران، أوصلتُ ابنتي «أليسون» بعد الساعة الحادية عشرة مساءً، ثم قدتُ السيارة حتى الساعة الواحدة صباحًا، حتى حلَّ عليَّ التعب وأجبرني على التوقف.

استيقظتُ في اليوم التالي مبكرًا، وأكملتُ رحلتي إلى مدينة رالي حيث كان يجب أن أعظ ذلك المساء أمام جمعٍ كبير. وقبل الاجتماع كان عليَّ إنهاء حديث عبر الهاتف، وكذلك إرسال بعض التنقيحات إلى أحد الناشرين عبر البريد، ثم أُجري بعض الاتصالات- وفي وسط كل هذا كان عليَّ أن أجد بعض الوقت لأراجع عظتي.

وقبل ساعة تقريبًا من موعد تواجدي في قاعة المناسبات في الفندق، اتصلت بزوجتي لأطمئن عليها. وبعدما تحدثنا قليلاً، بدأت زوجتي في البكاء، والسبب أن برنامجًا في الكمبيوتر الخاص بها لم يعد يعمل جيدًا، وراحت تتساءل ما إذا كان يجب أن ندفع المال لشراء كمبيوتر جديد. كنت قد بذلتُ كل ما بوسعي لأصبح مستعدًا روحيًا لإلقاء كلمتي، وبعد رحلةٍ شاقة شعرتُ أنني بحاجة إلى وقتٍ للتركيز كي أستعد،

وامتعضتُ من دموع ليزا، خاصة في ذلك الوقت بالذات. وأتذكَّر أنني فكرتُ: "ألا يمكنها أن تكون أقوى من هذا في وقت السفر؟ لا يسعني تحمل هذا الآن."

حاولت أن أصلي وسط إحباطي، غير أنني ظللت متوترًا، وفكرتُ: "هائل! يا لا من حالة مزاجية أقابل بها كل هؤلاء الأشخاص!" حاولتُ ألا ألوم زوجتي لجعلي في هذه الحالة، غير أنني لم أنجح أبدًا.

وظللت أقول في نفسي: "إن الرجل الذي يسافر يحتاج إلى زوجة أقوى في المنزل"، لكني ندمت على قولي هذا، ثم عدت مرة أخرى لأجد نفسي أكرر هذا القول بقوةٍ أكبر.

بعد مرور أسبوعين، قرأت في مجلة «واشنطن بوست» قصة واقعية لأحد الأشخاص. كتبت «ليزا موندي» عن مشاركتها في اجتماع خاص بالمحررين، ثم ذعرها عندما وجدت نفسها تبكي. كانت تشعر بالضيق والانزعاج والتعب.. لا يوجد شيء أكثر من المعتاد، لكن الأمور تراكمت فدفعتها إلى البكاء؛ وكتبت التالي: "فجأةً انتقلت حرارة الغضب إلى وجهي، وامتلأت عيناي بالدموع، ورحت أحرك جفوني أملاً في أن تعود دموعي إلى الداخل. غير أن جهودي لم تنجح، والسبب، كما صاغه لاحقًا بطريقة جميلة صديقٌ لي، اختبار البكاء في العمل قائلاً: 'أنتِ ماعدت تبكين بسبب ما يقولونه، بل تبكين لأنك تبكين.'"

وبعد فقرةٍ واحدة تقريبًا، كتبت موندي أمرًا أدهشني: "'لا تهتموا لهذه الدموع، فلا معنى لها. أنا بكامل تركيزي؛ فهذا الحديث لا يزعجني كثيرًا كما يبدو ظاهرًا. أنا ببساطة منهكة، ومتوترة قليلاً، وأشعر بالضيق!' هذا ما كنت أريد قوله آنذاك؛ لأنني أعلم، مثل سائر النساء على الأرجح، أن الدموع أحيانًا لا تحمل أي دلالة أكثر من العرق."

أما بالنسبة لي كرجل فالدموع تعني الضعف، والاقتراب إلى الانهيار.

وأرى أن البكاء في مكان العمل يحتاج إلى حدوث مأساة كبيرة. عندئذٍ فهِمتُ أن الدموع قد تعني أمرًا مختلفًا تمامًا لليزا مما تعنيه لي. وعندما أرى دموعها أعتقد أنها تنهار، بينما تبكي هي فتعتقد أنه مثل العرق على جبينها.

وإذا انفصلتُ عن ليزا لسببٍ أو لآخر، وتزوجتُ بأخرى ظننت أنها «أقوى» عاطفيًا، قد أجد نفسي واقعًا تمامًا في الموقف نفسه. فما أزعجني في «ليزا» قد يكون في الواقع حقيقة تختبرها النساء كافة.. فالمسألة تتعلق بالرجال والنساء بصفة عامة، وليس جاري وليزا وحدهما.

بعد عدة أشهر كنت أراقب «ليزا» يوم الجمعة العظيمة وهي تحاول كبت دموعها. لقد وضعت ابنتنا الصغرى «كيلسي» قميصًا في الغسالة كان عليه مادة لامعة، وبالتالي لم يرجع القميص كما كان؛ فلم تتمكن من ارتدائه لحضور الكنيسة كما كانت تنوي. اتسعت عينا «ليزا» (لقد رأيتُ هذا المشهد يتكرر كثيرًا على مدى أربعة عشر عامًا)، وراحت تحرك جفناها حتى لا تبكي.

كنتُ واقفًا في المدخل أفكِّر.. هل هذه مسألة تستحق البكاء؟! مادة لامعة على القميص؟ هل هذه كارثة؟!

ثم قررت أن أطبق فضيلة الاحترام: "جاري، توقف عن التفكير بهذه الطريقة! فالدموع تعني لها أمرًا مختلفًا. إياك أن تدين زوجتك."

لذلك أبقيت فمي مغلقًا، وبسرعةٍ انحسرت دموعها، وذهبنا إلى الكنيسة من حدوث أي اضطراب.

إن موقف الإدانة لا يكسرني بل ينفخني، يملأني بالتكبُّر.

لاحظ ترتيب الأمور هنا: كان عليَّ أن أتعلَّم أن أفهم «ليزا» بشكل أفضل قبل أن أصير قادرًا على احترامها

بحق، وكان عليَّ أن أحترمها قبل أن أتمكن من أن أحبها بالكامل. هذه عملية روحية علاجية هائلة.. عملية تُفرغني من ذاتي كي أنمو في محبتي تجاه الآخرين.

يشير «تشارلز ويليامز» إلى "هجوم متبادل.. انكسار ذات كل من الشريكين، لكي يتغيَّر كلاهما من خلال الحب الذي يتلقيانه"[2]. بالفعل لقد احتجتُ أن "أنكسر" كي أتغير.

إن موقف الإدانة لا يكسرني بل ينفخني، يملأني بالتكبُّر. عندما أتعلَّم أن أقدم الاحترام، أتغيَّر أثناء هذه العملية.

مساواة روحية

إن الرجل والمرأة متساويان أمام الله، وهذا لا يعني أنهما نفس الشيء، أو أن أدوارهما يجب أن تكون نفس الأدوار. لكن ذلك يعني، بحسب ما يعلِّمنا الكتاب المقدس، أن كلاً من الرجل والمرأة مخلوق على صورة الله. هذا ما يعلِّمنا إياه سفر التكوين ١: ٢٧، وهو تعليم يؤكِّده الرسول بولس في العهد الجديد عندما كتب لأهل غلاطية أنه في المسيح يسوع «ليس ذكرٌ وأنثى...» (غل ٣: ٢٨).

حقيقة أن زوجتي مخلوقة على صورة الله تدعوني إلى أن أتجاوب معها بأقصى تقدير واحترام، أكثر من مجرد الامتناع عن النظر إليها بدونية. من المؤكَّد أنه من غير اللائق على الإطلاق أن أحتقر «ليزا» لأنها مجرد امرأة؛ لكن هناك فرق كبير بين عدم التصرف بازدراء معها، وما تدعوني إلى فعله حقيقة أنها مخلوقة على صورة الله ومثاله.. أعني بذلك إكرامها.

ذات مرة زارت عائلتي المعرض الوطني للفنون لمشاهدة بعض اللوحات

الأصلية للرسام «رامبرانت»، وواحد من أولادي الذي يحب اللمس مد يده ليلمس إحدى اللوحات. فأمسكت زوجتي بيد ابننا قبل أن يتمكن من لمس اللوحة، وقالت له بصوت خافت وصارم: "هذه لوحة لرامبرانت!" وهمست تحت نظر الحارس: "لا يمكنك لمس هذه!"

الله نفسه هو الذي خلق زوجتي؛ فكيف أجرؤ أنا على احتقارها؟ في الواقع، ألا يجدر بي حتى أن أتوقف لبرهة قبل أن أمد يدي لألمسها؟ فهي بكل تأكيد ابنة الخالق!

إن صعوبة إكرام شريك حياتنا تكمن في أن الإكرام يدعونا إلى تبني مواقف وسلوكيات تتخطى بكثير مجرد قولنا إننا لن نقلل من احترامه. وكما يشير كل من «بيتسي» و«جاري ريكوتشي»: "ليس الإكرام أمرًا سلبيًا بل أمرًا إيجابيًا يتطلب جهدًا. نحن نُكرِم زوجاتنا من خلال إظهار تقديرنا واحترامنا لهن، ومدحهن في العلن، والتأكيد على مواهبهن وقدراتهن وإنجازاتهن، والتعبيرعن تقديرنا لكل ما يفعلنه. إن الإكرام الذي لا نعبِّر عنه لا يُعد إكرامًا."[3]

والتحدي الأكبر بالنسبة لي في المحافظة على واجبي الروحي في إكرام زوجتي يكمن في كثرة انشغالي وعدم تركيزي. أنا لا أقصد عدم إكرامها، لكن بسبب شرود ذهني أهمل إكرامي لها بشكل إيجابي.

لقد تعلَّم «سي. چيه. ماهاني»، راعي كنيسة ماريلاند الذي استشهدتُ به سابقًا، إكرام زوجته بشكل فطري تقريبًا. تحكي أخته عن الوقت الذي حمل فيه «سي. چيه» وزوجته أول طفلة لهما. وأعتقد أن عددًا كبيرًا من الوالدين يعرف "عبادة الطفل الأول"، غير أن «سي. چيه» برهن عن نضجه عندما أقبل إليه أحدهم وقال له: "بالتأكيد هذه

الطفلة هي حدقة عينك." فأشار «سي. چيه» إلى زوجته وقال: "كلا، بل هذه هي حدقة عيني."»[4]

والسبب الذي لأجله يُعتبر احترام زوجتي قرارًا روحيًا بقدر ما هو قرار له علاقة بالزواج هو سبب بسيط: لقد اكتشفتُ أنني كلما أكرمتُ زوجتي بشكل خاص، أُكرِم النساء بشكل عام.. والعكس صحيح أيضًا. تكشف العبارة المعروفة: "السبب في ذلك أنها امرأة" مرضًا روحيًا خطيرًا. فمَنْ نقول عنهن كذلك هن مخلوقات على صورة الله. هذه العبارة تقترب جدًا من الافتراء على الخالق الذي خلق النساء على ما عليهن من صفات.

إن احترام الآخرين يُضفي نورًا وحيوية على حياتنا؛ فهو يقودنا في النهاية إلى احترام الله الذي خلقنا، ويشكلنا كما يحسُن في عينيه. يُعتَبر هذا الأمر فضيلة أساسية، ويقدم الزواج فرصًا يومية لنا كي ننمو في هذا المجال.

دعونا نتأمل بعض الطرق العملية التي يمكننا من خلالها أن نبدأ في احتقار الاحتقار ذاته في علاقتنا.

احتقار الاحتقار ذاته

تبني معيار مزدوج مقدس

للأسف لقد أمضيتُ السنوات القليلة الأولى من زواجي وأنا أجمع الإيجابيات والسلبيات من الصفات المختلفة في شخصيتي وشخصية زوجتي. وقد كانت المشكلة بسيطة: لقد كنت أصرف الكثير من الوقت أتأمل في صفاتي الحسنة وصفاتها السيئة، إلى أن قرأتُ فقرة كتبها «چون أوين»، أحد أعظم الدارسين البيورتانيين: "إن الشخص الذي يدرك

الشر الموجود في قلبه هو الشخص الوحيد النافع والمثمر، والثابت في قناعاته وفي طاعته. أما الآخرون فهم يخدعون أنفسهم، وبالتالي يُفسدون عائلات وكنائس وأي نوع آخر من العلاقات، ويُظهرون تناقضًا كبيرًا بين حبهم لذاتهم وإدانتهم للآخرين."[5]

لقد أدركت أنني انخدعت بشعوري ببري الذاتي.. وعوضًا عن تركيزي على ما يمكن أن تحسنه «ليزا» كان يجب أن أجثو على ركبتي وأرجو الله أن يغيِّرني أنا. اتضحت هذه الفكرة أمامي ذات صباح عندما استيقظتُ وبدأتُ أصلي من خلال الكتاب المقدس، وفجأةً أدهشني سؤالٌ ورد على ذهني: "تُرى هل تشعر ليزا وكأنها تزوجت بيسوع؟"

كنت على وشك أن أنفجر من الضحك، إلى أن هزتني فكرة أخرى. إن الكتاب المقدس يخبرني مرارًا وتكرارًا أن واجبي كمؤمن هو أن أكون أكثر فأكثر شبهًا بالرب يسوع. ومع مرور الوقت، ينبغي أن تشعر زوجتي على الأقل بوجود بعض "التشابه العائلي". ومن ثَمَّ أدركتُ كم كنت مقصِّرًا بشكلٍ كبير في مهمة تطوير نفسي لأجل زوجتي.

أرادت ذاتي التي تتصف بالأنانية أن تصرخ: "لحظة، تمهل! ماذا عنها؟" ورحتُ أفكِّر كيف يمكن لزوجتي أن تتحسَّن، وكيف سيعود ذلك على زواجنا بخيرات لا حصر لها، لكنني بعد ذلك تذكرت ما قاله «وليم لو» الكاتب الأنجليكاني العظيم من القرن الثامن عشر:

> إن الكتاب المقدس يخبرني مرارًا وتكرارًا أن واجبي كمؤمن هو أن أكون أكثر فأكثر شبهًا بالرب يسوع.

لا أحد لديه روح المسيح غير الذي عنده حنو شديد نحو الخطاة. وما من دليل أعظم على كمالِك إلا عندما تجد نفسك مغمورًا بالحب والحنو تجاه الضعفاء والبعيدين. من جهةٍ

> أخرى، لن يكون لديك أي سبب أكبر لتكون غير راضٍ عن نفسك من أن تجد نفسك غاضبًا ومستاءً من سلوك الآخرين. كل الخطايا هي بالتأكيد مكروهة وممقوتة أيًا كانت، غير أنه علينا أن نقرِّر أن نقف ضد الخطيئة مثلما نقف ضد الألم والأمراض الجسدية، وذلك من خلال إظهار التعاطف والشفقة تجاه المرضى والمتألمين.[6]

كان من الصعب أن أستوعب هذه الكلمات؛ فالكاتب يقول بشكل أساسي أنه عندما يتحول احترامي إلى احتقار يكون السبب أنني ضعيف وليس لأن زوجتي مقصِّرة. وإن كنتُ ناضجًا حقًا، لكان لي شفقة المسيح نفسها تجاه ضعفها. إن الاحترام فضيلة روحية، والتزام تجاه زوجتي.

أشكر الله أنه حدث تغيير في حياتي ساعدني على رؤية الأمور من منظور مختلف.

اكتساب منظور جديد

في اليوم الذي بدأتُ فيه أعمل لحسابي الخاص دخلنا وزوجتي وأنا في رحلة جديدة في زواجنا. ولتوفير النفقات العامة، قررنا أن أعمل في المنزل، لكن المشكلة الوحيدة آنذاك هي أننا كنا نعيش في بيت وسط المدينة.

وكان لدينا ثلاثة أطفال.

بكلمات أخرى، سوف أعمل في الواقع في غرفة نومنا.

عندما كان يكتشف أزواج آخرون ما كنا نفعله، غالبًا ما كانوا يندهشون جدًا ويسألوننا: "هل ما زلتما متحابين؟"

في الواقع، العمل من المنزل صنع عجائب في حياتنا الزوجية.. للمرة

الأولى عرفت بنفسي كيف تمضي «ليزا» نهارًا كاملاً في المنزل. بالطبع كنت أرى هذا في عطلة نهاية كل أسبوع، غير أن ما يجعل حياتها صعبة ليس ثماني وأربعين ساعة من العمل بالطاقة القصوى؛ بل المسؤوليات المتراكمة بلا انقطاع وعلى الدوام في تربية الأطفال، ومذاكرة دروسهم معهم، بالإضافة إلى تنظيف المنزل، وتحضير الطعام، والاستعداد لدراستها في الكتاب المقدس. وبعد كل ذلك، عندما يعود الزوج إلى المنزل يجب أن يكون لديها ما يكفي من الطاقة المتبقية لتؤدي دور الزوجة.

من جهة أخرى، رأت زوجتي كيف أمضي النهار كله أمام شاشة الكمبيوتر. في بعض الأيام كنت منهكًا، وفي أيام أخرى كنتُ مريضًا، وأحيانًا كان الطقس جميلاً في الخارج غير أنني كنت ألازم وأتابع عملي. كذلك كنت أُجري اتصالات هاتفية لم أرغب في إجرائها، لكن كان عليَّ القيام بها. لقد رأت إصراري وانضباطي، وشاهدَت عن قرب ضغط تسليم العمل في مواعيده، أو قبولي لمهام أعلم أنها صعبة، غير أننا مما لا شك فيه كنا بحاجةٍ إلى المال الذي قد تعود به هذه المهام علينا.

> نحن متزوجان في وسط مسؤوليات عدة تتنافس على استنفاذ طاقتنا.. وقد قادنا هذا الفهم الجديد إلى تعاطف أقوى تجاه بعضنا البعض في وسط ضعفنا وتصرفاتنا الغريبة.

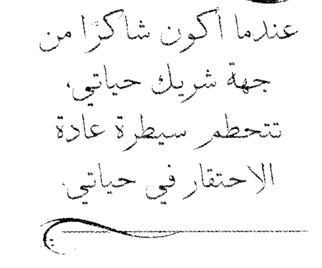
مع مرور الوقت، نما بداخل كل منا تقديرٌ عميق نحو ما يفعله الآخر.. كلانا أصبح يفهمُ الآن بصورةٍ أوضح التحديات التي يواجهها الآخر، والسبب الذي يجعله أحيانًا يجد صعوبة في التصرف كزوج مثالي أو كزوجة مثالية. نحن لسنا متزوجين في جنة عدن حيث لا هموم، نحن متزوجان في وسط مسؤوليات عدة تتنافس

على استنفاذ طاقتنا.. وقد قادنا هذا الفهم الجديد إلى تعاطف أقوى تجاه بعضنا البعض في وسط ضعفنا وتصرفاتنا الغريبة.

ليس عليك العمل من منازلك لتختبر هذا التعاطف؛ لكن بدلاً من توجيه طاقتك إلى الامتعاض من أن شريك حياتك لا يفهمك بما يكفي، ابذل جهدك في فهمه أو فهمها. وكتدريب روحي، حاول أن تكتشف كيف يمضي شريك حياتك يومه.. اسأله/ اسألها اجعله يفصح عما بداخله.. ما الجزء الأصعب في يومك؟ متى تشعر وكأنك تريد الاستسلام؟ هل تشعر أن بعض أوقات نهارك مملة؟ هل من أمرٍ تقلق بشأنه باستمرار؟ اقض وقتًا كافيًا لتُحصي الصعوبات التي يواجهها شريك حياتك، بدلاً من التركيز على نقاط ضعفه وعيوبه.

غرس روح الامتنان

تقديم الشكر امتياز؛ فهو يخلق مركزًا إيجابيًا في حياتي، لكنه أيضًا التزام: «احمدوا الرب لأنه صالحٌ» (مز ١٣٦: ١). «اشكروا في كل شيء» (١تس ٥: ١٨). تذكَّر كيف شكر بولس الله من جهة أهل كورنثوس (راجع ١كو ١: ٤).



عندما أكون شاكرًا من جهة شريك حياتي، تتحطم سيطرة عادة الاحتقار في حياتي؛ فأبحث عن أمورٍ جديدة لأشكر الله من أجلها، وأحاول ألا أعتبر ما اعتادت زوجتي القيام به أمورًا عادية. أنا لا أتناول الطعام في بيت أحد دون أن أشكره على تقديمه هذه الوجبة لي؛ فلِمَ لا أعبِّر لزوجتي عن شكري كما أفعل مع الآخرين؟

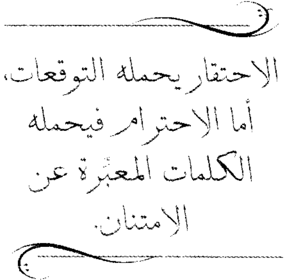
قليلةٌ هي الأمورالتي ترفع من معنوياتي أكثر من سماع زوجتي أو أولادي يقولون لي: "شكرًا لأنك تعمل بجهد لتأمين معيشتنا." من شأن هذه الكلمات القليلة المعدودة أن تزيح عبئًا ثقيلاً جدًا عن كاهلي.

الاحتقار يحمله التوقعات، أما الاحترام فيحمله الكلمات المعبِّرة عن الامتنان. ويمكننا أن نختار أي الأمرين نريد الذي نريده أن يستحوذ على تفكيرنا: التوقعات أم الشكر. سيؤدي هذا الاختيار إلى ولادة؛ وسيُسَمى الطفل إما الاحتقار أو الاحترام.

تذكُّر آثار السقوط

يجب أن نُدرك مدى عمق تأثير السقوط على هذا العالم.. لقد تركت الخطية آثارًا كبيرة في وجودنا. كنتيجة للسقوط، سأعمل بجهد وكد (تك ٣: ١٧– ١٩)، وسترعى «ليزا» أطفالنا، وترتبط بعلاقاتٍ بدوافعٍ مختلطة وأهداف مُحبِطة (تك ٣: ١٦).

وحتى إن وُجِد زواج جيِّد بشكلٍ استثنائي فلا يمكنه أن يمحو بالكامل آثار لعنة الخطية على الأفراد والمجتمع.



كتب «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان»: "يجب ألا نكون ساذجين إلى الدرجة التي نعتبر فيها الزواج ملاذًا آمنًا يقينا من السقوط... إن أعمق صراعات الحياة تبرز في أولى العلاقات التي تأثرت بالسقوط: أي الزواج."[(7)]

تكمن المشكلة في أنه على الرغم من أننا لا يمكننا العودة إلى الوجود المثالي قبل السقوط، فإننا خُلقنا بمنظور عن حالة الأيام التي سبقت السقوط.. بتعبيرٍ آخر، نحن نعلمُ كيف يجب أن تكون العلاقات، غير أننا

غير قادرين على جعلها متناغمة مع هذه الدرجة من المثالية: "إن نفوسنا مخلوقة لما لن نتمتع به قبل استرجاع جنة عدن في السماء الجديدة والأرض الجديدة. لقد تكونًّا وبداخلنا ذكرى جنة عدن."[8]

إن هذا يدعوني لأزيد من لطفي وتسامحي تجاه زوجتي.. أريدها أن تحقق مشيئة المسيح لحياتها، وأتمنى من كل قلبي أن أكون عنصرًا إيجابيًا في سعيها لتحقيق هذا الهدف (والعكس صحيح). لكن أثناء حياتها في هذه الجهة من السماء لن تتمكن أبدًا من تحقيق هدفها بالكامل، وبالتالي عليَّ أن أحبها وأقبلها في واقع حياتنا في عالمٍ ملطخ بالخطية.

إن قبول طبيعة هذا العالم الساقطة بإحباطاته المريرة، ومحدوديته الفيزيائية، وكثرة متطلباته يساعدني على فهم مدى صعوبة حياة زوجتي «ليزا»، الأمر الذي يساعدني بدوره على احتقار الاحتقار والبعد عنه.

في الأيام التي كنتُ لا أزال أعمل بعيدًا عن المنزل، أتذكر بعض الأوقات التي كنا «ليزا» وأنا نخطط فيها مسبقًا لليلةٍ رومانسية.. كنا نخطط لليلةٍ "ساخنة"، ممتلئين بشذى نسيم الصباح. للحظات معدودة سنجعل الأرض تذوب من تحت أقدامنا، ونتمتع بالثمار المباركة للحميمية الزوجية.

بعد ذلك أتوجَّه إلى عملي، وأثناء النهار كنت بين الحين والآخر أفكِّر بالمتع الزوجية التي تنتظرني بعد ساعاتٍ قليلة. غير أنني عندما كنتُ أصل إلى المنزل كثيرًا ما كانت تنتظرني على الباب زوجة لا تريد سوى حمام ساخن بمفردها، والنوم بأسرع وقت ممكن.

وكانت تقول لي: "لكن إذا كنت مازلت ترغب في ذلك، فلا مانع عندي."

وكنت بدوري أفكّر: "هذا ليس عدلاً! فأنا لا أريد زوجة مستعدة فحسب، بل زوجة متحمسة أيضًا!"

غير أنني الآن أرى الأمر.. فعلى أرضية المطبخ بقايا طعام للأطفال تكفي لإطعام عائلة من الفئران لثلاث سنوات متوالية، مع ضغوط إنهاء الواجبات المنزلية في موعدها، بينما لابد من الانتهاء من تجهيز وجبة الغذاء، وغسل الملابس، والاهتمام بتمارين الباليه وكرة القدم، وأيضًا...

وأدركتُ أنه ليس في الأمر أي شيء شخصي ضدي، فالزوجات أحيانًا يعانين من الإرهاق فحسب. هكذا تسير الأمور في عالمٍ ساقط.. لا تريد «ليزا» أن تشعر بالتعب، غير أنها مخلوقة من لحمٍ ودم، فماذا أتوقع غير ذلك؟

في العديد من المحاضرات التي أقودها أشدد على هذه النقطة مرارًا وتكرارًا: أيها الرجال أنتم متزوجون بسيدات ذات طبيعة إنسانية ضعيفة في عالمٍ غير كامل، وأيتها النساء أنتن متزوجات من رجال ذوي طبيعة إنسانية ضعيفة في عالم غير كامل. من المؤكد أن شريك الحياة سيخطئ تجاهك، ويخيب أملك، ويكون لديه محدودية جسدية تُحبطك وتُحزنك. وقد يرجع الزوج إلى المنزل بأفضل النوايا، ومع ذلك يفقد أعصابه. وقد تشعر الزوجة بالرغبة الحقيقية، لكن تعوزها الطاقة.

نحن نعيش في عالم ساقط، لذا دعوني أكرر هذا الأمر: لن تجدوا أبدًا شريك حياة غير متأثر بطريقةٍ أو بأخرى بواقع السقوط. إن كنتَ لا تستطيع احترام هذا الشريك لأنه يقع في ضعفات معينة، فلن تتمكن من احترام أي شريك حياة آخر.

مراعاة بعضنا بعضًا

منذ عدة سنوات، بعد عودتي من إحدى رحلاتي، دخلت من باب

منزلي وجلستُ؛ وإذا بي أشعر وكأنني مشيت الكيلومترات الستمائة والأربعة والأربعين التي قطعتها بالسيارة. لقد ألقيتُ ستة محاضرات في أربعة أيام، وقدتُ السيارة بين أربع ولاياتٍ مختلفة لأصل إلى حيث دُعيت. وعندما اقتربت من المنزل كنت أفكر في نفسي: "أنا متعبٌ جدًا، وكل ما أريد فعله هو أن أشاهد مباراة الكرة القدم." وما أن دخلت من باب المنزل وجدت «ليزا» تفكِّر: "حسنًا، أخيرًا قد وصل! لقد اعتنيتُ بالأولاد بمفردي طوال عطلة نهاية الأسبوع، وهم يدفعونني إلى الجنون."

هذه هي المادة الخام التي تتكوّن منها المشاجرات الزوجية عالية الجودة.

هذه هي المادة الخام التي تتكوَّن منها المشاجرات الزوجية عالية الجودة.. هذه هي الظروف التي تبدو وكأنها أُعدت خصيصًا في جهنم.

بعدئذٍ، ولدهشتي، اكتشفتُ أن «ليزا» وأنا قد نضجنا.. حاولتُ أن ألعب مع الأولاد قدر المستطاع، وأحضرت لهم بعض الفيشار، وكنا نتكلم حول المائدة بينما كانوا يتناولون الطعام. ومع ذلك لاحظتُ أن «ليزا» كانت حساسة جدًا تجاه الإرهاق الذي أشعر به.

لقد قالت: "لابد أنك مرهق.. دعني أهتم بالأطفال هذه الليلة."

إلا أن سماعها تقول هكذا كان يجعلني أرغب في الاهتمام أكثر بالأطفال. وقد أدركتُ أنه بالرغم من وجود سبب وجيه لديها لتكلفني بالمهام الليلية، إلا أنها كانت تقسو على نفسها كي توفر لي الراحة؛ الأمر الذي جعلني أرغب بأن أقسو على نفسي أنا أيضًا وأوفر لها الراحة.

نحن لا نسلك على هذا النحو دائمًا، على الإطلاق، لكن عندما نفعل ذلك يكون الأمر رائعًا. أعتقد أن الرسول بولس، الذي قال عن نفسه

إنه أول الخطاة (١تي ١: ١٦)، يدعونا بشدة إلى هذا الأسلوب في التعامل. لا أعتقد أنه يوجد في الكتاب المقدس وصفة أفضل من ذلك تساعدنا لنكون أزواجًا وزوجات أفضل. إذا افترضنا أن أمام شريك الحياة الدرب الأصعب ليسلكه، وأننا غالبًا ما نخطئ الهدف –نتصرَّف على هذا الأساس– فإننا سنجد مزيجًا متميزًا جدًا.

إن الاحتقار يتولد عندما نركِّز على مواطن ضعف شريك حياتنا. ولكل زوجٍ/ زوجة ضعفاته، وإذا أردت البحث عنها فبدون شك ستجدها، وإذا أردت لها أن تستحوذ على تفكيرك فإنها بلا شك ستنمو لكنك لن تنمو أنت!

يقدم لنا يسوع علاجًا مذهلاً في بساطته ومخيفًا في صعوبته؛ فهو يطلب منا أن نُخرِج أولاً الخشبة من أعيننا قبل أن نحاول أن نُخرج القذى من عين قريبنا (راجع مت ٧: ٣– ٥).

وإذا كنتَ تُفكِّر في نفسك قائلاً: "لكن شريك حياتي هو الذي لديه خشبة في عينه"، فدعني أفصح لك عن سر: أنت من نوعية الأشخاص التي كان يوجه لها المسيح هذه الكلمات بالتحديد.. أنت هو الشخص الذي أراد يسوع أن يتحداه من خلال هذه الكلمات. لا يقوم يسوع هنا بمساعدتنا لحل مسائل قانونية، بل يدعونا لنتبنى روح التواضع. إنه يريدنا أن نتخلَّص من الاحتقار– أن نحتقر الاحتقار– ونتعلَّم السر الروحي للاحترام.

تأملوا في نوعية الأشخاص الذين أحبهم يسوع عندما عاش على الأرض.. يهوذا (الخائن)؛ المرأة التي قابلها عند البئر (سيدة فاسقة)، زكا (مخادع يتآمر للحصول على الأموال)؛ والعديد غيرهم ممن هم على شاكلتهم. وبصرف النظر عن حقيقة أن يسوع كان بلا خطية، وهؤلاء الأشخاص كانوا مغموسين في الخطية، فهو مع ذلك كان يحترمهم. لقد

غسل رجلي يهوذا، وأمضى وقتًا يتكلم فيه باحترام مع المرأة عند البئر، وذهب إلى منزل زكا ليتعشى معه. إن يسوع الإنسان الكامل الوحيد الذي عاش على هذه الأرض تقرَّب من الخطاة؛ وهو يطلب منا أن نفعل الشيء نفسه، بدءًا من الشخص الأقرب إلينا.. شريك حياتنا.

اعملوا على زيادة احتقاركم للاحتقار، وأكرموا مَنْ يستحق الإكرام.. بدءًا من شريك الحياة.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) كيف يؤثر الافتقار إلى الاحترام، أو الاحتقار المستمر لشريك الحياة، سلبيًا على حياتك أو حياة أولادك؟

(٢) هل تميل للبحث عن "براهين عن نعمة الله" في حياة شريك حياتك، أم أنك تنشغل كثيرًا بعيوب شريك حياتك؟ ما هي الخطوات العملية التي يمكنك اتخاذها لإظهار الاحترام لشريك حياتك بدلاً من احتقاره؟

(٣) ما هي دلائل النعمة التي يمكنك رؤيتها في حياة شريك حياتك عندما تقضي وقتًا في البحث عنها؟ وما هي السمات الخاصة التي يتميَّز بها شريك حياتك؟ وما هي الإسهامات التي يضفيها زوجك إلى حياتك، والتي يجب أن تشكر الله من أجلها بانتظام؟

(٤) كم من خلافاتكما الزوجية ترجع إلى الاختلافات الطبيعية بين الجنسين مقارنةً بالاختلافات الشخصية؟ كيف يساعدك تمييز هذه الاختلافات على تحسين علاقتكما؟

(٥) كيف تساعدنا محاولة فهم شريك الحياة -بدلاً من انتقاده- على تطبيق وصية الكتاب المقدس التي توصينا باحترامه؟

(٦) ناقش الطرق التي يمكنك من خلالها إكرام شريك حياتك فعليًا.

(٧) كيف يستفيد زواجك إذا أحرزت أنت وشريك حياتك تقدمًا من ناحية إظهار الاحترام أحدكما للآخر؟

(٨) يقول «جاري توماس»: "لسنا متزوجين في جنة عدن حيث لا هموم. نحن متزوجان في وسط مسؤوليات عدة تتنافس على استنفاذ طاقتنا".. في ضوء هذا الكلام، في رأيك هل تقدم لشريك حياتك ما يكفي من الحرية والتفهُّم؟

الفصل الخامس

عناق النفس

الزواج الجيِّد يُعزِّز الصلاة الجيِّدة

الزواج الرائع لا يبدأ بمعرفة أحدنا للآخر
بل بمعرفتنا لله.

– «جاري» و«بتسي ريكوتشي»

بعد مرور أشهر قليلة فحسب على زواجنا اتفقنا «ليزا» وأنا أن نصنع معروفًا مع أصدقاءٍ لنا ونتبادل الأَسِرَّة مع زوجين آخرين.

كان لديهم مرتبة مائية، وأرادا الانتقال إلى شقةٍ في طابقٍ أعلى حيث لا يُسمح بالمراتب المائية. وبما أننا كنا نعيش في طابقٍ سفلي، فلم يكن لدينا مشكلة مع وزن الفراش المائي؛ فأردنا أن نساعد أصدقاءنا.

لقد قدمنا خدمة سرعان ما ندِمنا عليها.

إن أحد الأمور الأصعب التي واجهتها في زواجي هو أنني في خلال كل سنوات العزوبية كنتُ أتمتع بالنوم بمفردي؛ وكم كان إحباطي عندما اكتشفتُ أن «ليزا» تحب المعانقة والتلامس؛ وتطلب الأمر مني شهورًا كي أتعلَّم النوم مع شخص يلمسني.

ومع وجود الفراش المائي آلت الأمور إلى الأسوأ.. فعندما كان أحدنا يتحرك، بدا وكأننا نحاول النوم على قمة موجة تسونامي. لقد كرهت هذا الوضع! وازدادت الأمور سوءًا؛ لأن ليزا تميل إلى التقلب في الفراش حتى الوصول إلى الناحية الأخرى فيه حيث أنام، وتدفعني حتى الحافة. وفي إحدى الليالي استيقظتُ لأجد وجهي ملتصقًا بالإطار الخشبي للسرير.

فكَّرت قائلاً: "هذا أمرٌ سخيف"؛ فنهضتُ من الفراش، وتوجَّهتُ نحو الجهة الأخرى من السرير، وبهدوء انتقلت إلى جانب «ليزا» الآخر لأتمتع بالثلاثة أرباع الفارغة من مساحة السرير. ويمكنكم أن تخمِّنوا ماذا حدث بعدئذٍ.. استيقظتُ في الصباح التالي لأجد وجهي ملتصقًا بالجانب الآخر من السرير.

فقلت بإصرار: "لابد أن نتخلص من هذا السرير."

ومثلما واجهت صعوبة لأتعلم كيف أنام كرجل متزوج، واجهت صعوبة لأتعلم كيف أصلي كرجل متزوج.. فبين ليلةٍ وضحاها تغيَّر كل شيء؛ وبدا أن طقوسي المألوفة وعاداتي الروحية لم تعد "تتلاءم" مع حياتي الآن. كان عليَّ الاعتياد على أخرى جديدة.

أهمية الزواج بالنسبة إلى الصلاة

كانت حياة الصلاة بالنسبة لي دائمًا أمرًا جادًا، والمبررات قوية.. تشهد كلمات يسوع وتلاميذه، ناهيك عن ألفي سنة من التقليد المسيحي، عن الحقيقة نفسها: إن الصلاة ضرورية بالنسبة إلى الحياة المسيحية. لا وجود للإيمان من دون الصلاة، ولكي نصبح مسيحيين أقوياء علينا أن نكون مصلين أقوياء، وما من سبيل آخر لذلك.

ويحثنا الرسول بولس على الصلاة بلا انقطاع (١تس ٥: ١٧).. وهذا

يضع الصلاة في مستوى أعلى بكثير من مجرد التشفع؛ فهو يُظهر الصلاة على أنها نواة تقوانا، والوعي الدائم بحضور الله، وخضوعنا المستمر لإرادته، وتعبيرنا المتكرر عن إكرامه وتمجيده.

كتب «چون هنري نيومان»، وهو لاهوتي إنجليزي من القرن التاسع عشر وأحد رجال الكنيسة: "إن الصلاة بالنسبة إلى الحياة الروحية هي بمثابة النبض والتنفس للجسد."[1] كما أصر مارتن لوثر أنه "كما أن وظيفة الخيَّاط صنع الثياب، ووظيفة الإسكافي إصلاح الأحذية، فإن وظيفة المسيحيين هي الصلاة."

وأدرك «چيه. سي. رايل» أن "الصلاة هي نسمة حياة المسيحية الحقيقية." ويلخص بشكل جيد «تيري جلاسبي» الكاتب المعاصر كل ما سبق، إذ كتب يقول: "الصلاة عملٌ يجب أن نكرِّس له أنفسنا إذا أردنا أن يكون لحياتنا معنى في ضوء الأبدية."

يعجبني هذا القول الأخير.. الصلاة هي الطريقة التي بها نُعطي معنىً لحياتنا في ضوء الأبدية. الصلاة تساعدنا على استرداد أولوياتنا الصحيحة، وتمييز الحكمة الكتابية، وصنع القرارات الصائبة. وبحسب قول «جلاسبي»، فبدون الصلاة نحن نعيش كأشخاص فانين في ظل قِيَمٍ فانية. إن الصلاة تدفع بالأبدية إلى حياتنا، جاعلةً الله معنيًا أكثر من أي وقتٍ آخر بالأسلوب الذي نعيش به.

المؤمن الذي يغفل الصلاة لن يتمكن من النمو كما يجب، وسيبقى عالقًا في مراهقة روحية دائمة. نستشهد ثانيةً بالكاتب «چيه. سي. رايل»:

> ما السبب الذي يجعل بعض المؤمنين أكثر بريقًا وقداسة من غيرهم بكثير؟ أعتقد أن الفرق، في تسع عشرة حالة من بين عشرين، يرجع إلى العادات المختلفة

المتعلقة بالصلاة الفردية. وأعتقدُ أن الذين لم يتفوَّقوا في القداسة هم الذين يصرفون وقتًا أقصر في الصلاة، أما الذين يتفوَّقون في القداسة فهم الذين يصرفون الكثير من الوقت في الصلاة.

عندما تَفهم مركزية الصلاة في الحياة الروحية المسيحية، قليلة هي الآيات التي قد تدهشك أكثر مما ذُكر في بطرس الأولى ٣: ٧: «كذلكم أيها الرجال، كونوا ساكنين بحسب الفِطنة مع الإناء النسائي كالأضعف، معطين إياهن كرامةً، كالوارثات أيضًا معكم نعمة الحياة، لكي لا تعاق صلواتكم.»

الصلاة هي الطريقة التي بها نُعطي معنى لحياتنا في ضوء الأبدية. الصلاة تساعدنا على استرداد أولوياتنا الصحيحة، وتتميز الحكمة الكتابية، وصنع القرارات الصائبة.

عندما يقول الرسول بطرس إن الرجال يجب أن يكونوا مراعين لزوجاتهم، ويعطونهن الكرامة كي لا يعوق شيءٌ ما صلواتهم، فهو بذلك يربط مباشرة موقفنا تجاه زوجاتنا بالممارسة المسيحية الأساسية.. الصلاة.

إذا كانت الصلاة هي جوهر الروحانية، وإذا كان أي توجه خاطئ في الزواج يُفسد هذه الممارسة، فينبغي على الرجال تحديدًا أن يتنبهوا كثيرًا إلى هذه النقطة.

سرعان ما اكتشفتُ أنني لم أكن الوحيد الذي واجه صعوبة أكبر في الصلاة كرجل متزوِّج.. فقد اعترف «مارتن لوثر» بصراعه مع هذه المعضلة ذاتها، ويشرح لنا العدد ٧ من الأصحاح ٣ من رسالة بطرس الأولى سبب ذلك.. فعندما تزوَّجت تغيَّرت القوانين، ووُضع شرط على صلاتي، وهذا الشرط مرتبط مباشرةً بنظرتي إلى زوجتي وأسلوب معاملتي لها.

لن أتمكن أبدًا بعد الآن من الاقتراب إلى الصلاة "كما لو" كنتُ رجلاً أعزب؛ فالله يراني من خلال زوجتي، وهذا يعني أنني لو أردت النمو كرجل صلاة متزوِّج لا يمكنني أن أتخيل نفسي راهبًا متبتلاً. لا يمكنني ببساطة أن أقلِّد ممارسات علماء اللاهوت في القرون الوسطى الذين كانوا يخاطبون الرجال والسيدات غير المتزوجين في سعيهم إلى الله.

في الواقع، إن الكثير من التعاليم المسيحية فُهمت بطريقة عكسية.. قيل لنا إننا لو أردنا التمتع بزواجٍ أقوى، علينا بتطوير حياة الصلاة التي نعيشها. غير أن بطرس يقول لنا إنه ينبغي أن نُحسِّن زواجنا لكي نتمكن من تحسين صلاتنا. بدلاً من أن تكون الصلاة هي «الأداة» التي تصقل حياتي الزوجية، يخبرني الرسول بطرس أن الزواج هو الأداة التي تصقل من صلواتي!

بطرس يقول لنا إنه ينبغي أن نُحسِّن زواجنا لكي نتمكن من تحسين صلاتنا.

قد يعظ أحد الرجال عظةً ممتازة، أو يؤلِّف كتبًا مُلهِمة، أو يستشهد بآيات الكتاب المقدس من أوله إلى آخره؛ لكنه إن لم يتعلَّم كيف يكون خادمًا لزوجته، وكيف يحترمها، ويراعي مشاعرها، فإنه لا يزال يحبو في حياته الروحية، وصلاته -التي هي شريان الحياة لروحه- ستكون مُزيفة.

إنجازات جوفاء

يميل عالم الخدمة المسيحية إلى تقدير "أصحاب الإنجازات".. أي الأشخاص الذين يُنجزون أمورًا معينة. والخطر في هذا الأمر يكمن في أن شريك الحياة غالبًا ما يدفع الثمن الأكبر لبعض تلك الإنجازات، ويكون من السهل تدهور حياته الروحية كنتيجة لذلك.

في أوائل التسعينيات اكتسب «بيل مكارتني» شهرةً بين ليلةٍ وضحاها في الأوساط المسيحية.. كان مدربًا ناجحًا جدًا في رياضة كرة القدم في الجامعة، وكذلك كان يقود خدمة نشيطة جدًا في ذلك العِقد معروفة باسم «حافظو الوعد» (Promise Keepers). ومع ذلك، وفي هذه الأثناء، كانت زوجته وحيدةً ومجروحةً، وتقول إن "قواها العاطفية كانت مشلولة"، واشتد إحباطها جدًا؛ فخسرت ستة وثلاثين كليوجرامًا من وزنها[2]. كان «مكارتني» مشغولاً جدًا بفريق كرة القدم -والأغرب- بخدمة «حافظو الوعد»، بحيث لم يجد وقتًا ليهتم بها.

وفيما كان نجم «مكارتني» يلمع، قالت زوجته «ليندي» أمرًا مُحزنًا بحق: "لقد شعرتُ أنني كنتُ أضمحل وأضمحل شيئًا فشيئًا." وفي كتاب «مكارتني» تحت عنوان «مُباع» (Sold Out) يذكر التالي: "قد يبدو الأمر لا يُصدَّق، لكن في الوقت الذي كانت فيه خدمة «حافظو الوعد» تُلهمني روحيًا حتى الصميم، كان السعي في تركيز كل جهودي لأجل الخدمة يصرف انتباهي عن أن أكون -بكل ما للكلمة من معنى- «حافظ الوعد» تجاه عائلتي."

ويُحسب لـ «مكارتني» أنه عندما أدرك ما كان يحدث، أخذ خطوة جذرية، واستقال من تدريب فريق كرة القدم.. وهي تضحية لا تُصدق تأثرت بها زوجته تأثرًا عميقًا. وتمكَّنت عائلة «مكارتني» من إعادة إحياء هذا الزواج.

إن جعل شخص آخر يشعر بالصغر كي نشعر نحن بالأهمية يُعتَبر أمرًا مناقضًا تمامًا للإيمان المسيحي، بل ورفضًا تامًا للقيم المسيحية المتعلِّقة بالتواضع، والتضحية، والخدمة. إن يسوع غالبًا ما كان يترك الجموع ليخدم خدمة فردية، في حين أننا نبرِّر تركنا للفرد -بخاصة شريك حياتنا- بهدف خدمة الجموع.

التقوى هي عدم الأنانية، وعندما يتزوج رجل وامرأة فهما يتعهدان بالتوقف عن النظر إلى أنفسهما كأفراد، والبدء في التعامل كوحدةٍ واحدة وكشريكين. وفي الزواج، لا أكون فيما بعد حرًا لأسعى وراء ما يحلو لي؛ فأنا لم أعد أعزب، لكني جزءٌ من فريق، ويجب أن تأخذ طموحاتي وأحلامي وطاقاتي هذا الأمر في الاعتبار.

ويُعتبر كبح جماح طموحي أمرًا قيِّمًا جدًا بالنسبة لحياتي الروحية. والحقيقة أن ملكوت السموات يمكن أن يمتد دون مساهمة أي منا، لكن تصوراتنا حيال الضرورة القصوى ترتكز عادةً على غرورنا أكثر من رغبتنا في أن نكون أمناء. إن مشاركتنا الأمينة بينما نخدم لصالح ملكوت الله لابد أن تدعو الآخرين وتشجِّعهم، لا أن تُضعفهم أو تقلل من شأنهم. يجد الحق الكتابي تحقيقه في المجتمع وفي خدمة المجتمع، وهذا المجتمع يبدأ بالتكوُّن من خلال العلاقة الزوجية. إذا كان الرجل أو المرأة لا حدود لطموحه، ومستعدًا لتجاهل شريك حياته، أو للتضحية به بينما يسعى وراء أجندته الخاصة؛ فبدون شك سيتحرك طموحه بشدة مستخدمًا الآخرين أيضًا لبلوغ غاياته، بدلاً من أن يشركهم في خدمة الملكوت.

على سبيل المثال إذا كان الرجل ينظر إلى زوجته على أنها مجرد شخص تطبخ له الطعام، وتوفر له الشبع الجنسي، وتحافظ على منزلٍ هادئ بينما هو وحده يخدم الله، فإنه سيدفع الآخرين على "مجاراته" بغض النظر عما إذا كان هذا الدور ملائمًا لهم أو لا. وإذا قامت امرأة بترك عائلتها بغرض أن "تخدم" الله، فستُظهِر على الأرجح الافتقار نفسه إلى الشفقة والتعاطف مع الآخرين، كما تفعل مع عائلتها التي تشعر بغيابها بشدة. لقد سبق وشاهدتُ هذا النوع من الشخصيات.. وسواء كان عند الرجال أو عند السيدات، تنمو عندهم داخليًا القساوة،

وروح الإلحاح، والانشغال الشديد بذواتهم يتخلل كل مهمة وعلاقة بينما يسعون نحو التلاعب بالآخرين كي يدوروا في أفلاكهم الخاصة، بدلاً من أن يسعوا لإطلاقهم في فلك الله. كذلك يدّعون التديُّن، وبمجرد أن نعرفهم على حقيقتهم يظهر تدينهم السطحي ودوافعهم الخبيثة والمنفرة.

إننا نُقدِّر الممارسات غير الصحيحة عندما نكتفي بالنظر إلى الإنجازات الظاهرية للشخص. إن علاقاتنا- وبالأخص زيجاتنا- هي جزءٌ لا يتجزأ من خدمتنا؛ وإذا أردنا حقًا أن نُقدِّم شهادة صادقة للعالم ونخدم ملكوت الله باستقامة، سنفعل حسنًا إن حفظنا كلام «رون سيّدر» في قلوبنا: "فكِّر في التأثير الذي كان سيحدث لو كان أول ما فكَّر به دعاة الحركة النسائية عندما تحول الحديث إلى الرجال الإنجيليين هو أنه لديهم السمعة الأفضل من ناحية الحفاظ على عهود زواجهم وخدمة زوجاتهم على مثال تضحية يسوع على الصليب."[(3)]

لقد ارتعبت عندما أدركتُ لأول مرة ما المقصود بالآية في ١بطرس ٣: ٧.. الآن وقد تزوجتُ، على صلاتي أن تمر بامتحانٍ مختلف، ولم يعد ضبط النفس المبني على الإرادة الحديدية يكفي. وإذا أردتُ التمتُّع بصلاةٍ غير معاقة عليَّ إذًا أن أكون مراعيًا لمشاعر «ليزا»، وعليَّ أن أحترمها، وأُدللها، وأُكرمها.

ومع تقدمي في السن، تعلَّمتُ كيف أكتسب مصداقية روحية حقيقية يميزها إلى حد كبير علاقات الشخص أكثر من "إنجازاته" المزعومة. في كنيستي هناك راعٍ يدعى «جيم مورفي» كان يعمل «سبَّاكًا» قبل أن يُطلَب منه الانضمام إلى فريق الرعاة. ومع أنه حضر بعض الكورسات من حين لآخر في كلية اللاهوت، إلا أنه لم يحصل على أي درجة علمية متقدمة. إنه رجل يهتم بالآخرين، ولديه قلب شغوف بعمل الإرساليات. ولعقد من الزمان أو أكثر شغل بأمانة مركزه كمساعد لأحد الرعاة.

وبسبب وجود رعاة آخرين في الكنيسة يشغلون مناصب إدارية، لم يكن «جيم» حتى في «المرتبة الثانية» في الهيكل الوظيفي لكنيسة كبيرة نسبيًا (حوالي ١٥٠٠ عضو). باختصار، لم يكن سيُذكر من بين "القادة المسيحيين الوطنيين البارزين".

لكنه في الواقع واحد من أكثر الرجال الأتقياء الذين التقيتهم في حياتي. لقد تأثرتُ بشدة عندما سمعتُ زوجة «جيم» تقول: "إن جيم قديس بمعنى الكلمة." ولم يكن «جيم» حاضرًا عندما قالت زوجته «بيجي» هذا الكلام؛ ومع أنها قد لا تتذكَّر قولها هذا، فمن خلال كلماتها القليلة عن زوجها قدَّمت هذه السيدة واحدة من أكثر العظات تحديًا لي في حياتي. وأنا لا أزال أحاول أن أحذو حذو «جيم»؛ وأتساءل هل يمكن أن تقول زوجتي يومًا ما: "إن جاري قديس بمعنى الكلمة." هل سيمكنها قول ذلك؟

لا أعتقد.[4]

إذاً، أيها الرجال اسألوا أنفسكم: "هل أنا أحترم زوجتي؟" وإذا كانت الصلاة تمثل مشكلة بالنسبة لك، فهذا قد يكون المكان الأول الذي قد تجد فيه أجوبة تشرح لك سبب مواجهتك للصعوبات. ثم بعد هذه الفكرة هناك سؤال يمكنك طرحه على زوجتك: "هل أنا أراعي مشاعرَكِ؟" اسمح لها، بل وشجعها على أن تكون صادقة. دعها تعبِّر عن مشاعرها حين يسمعك ابنكما تقول لها: "هذا تصرُّف نسائي محض!" ومن ثَمَّ تلاحظ نبرةً حادة في صوت ابنكما عندما يتوجه إليها بالكلام. اسمح لها بأن تفصح عما بداخلها من مشاعر أثناء فترة الدورة الشهرية، عندما تريد أن تهدأ قليلاً، وتأخذ قسطاً

إذا أردت حقًا أن تكون جريئًا، اسألها عن إلى أي مدى تكون مراعيًا لها وقت ممارسة الحب.

أكبر من النوم، وتُدلِّل، بينما الرجل الذي تزوجت به لا يشغله سوى ما إذا كان العشاء سيجهز في موعدِه. إذا أردت حقًّا أن تكون جريئًا، اسألها عن إلى أي مدى تكون مراعيًا لها وقت ممارسة الحب.

إذا أردتَ أن تنمو في علاقتك مع الله، عليك أن تنمو أكثر في حياة الصلاة. وإذا كنت متزوجًا وأردتَ بلوغ حياة صلاةٍ أقوى، ينبغي أن تتعلَّم احترام شريك حياتك ومراعاة مشاعره.

الجنس والصلاة

يوجد في الكتاب المقدس نص آخر يربط الزواج بالصلاة، ويتطرق هذا النص إلى موضوع الجنس بالتحديد. إن بولس من خلال حديثه إلى الأزواج والزوجات يواجه، أو على الأقل يضع موضع تساؤل، ممارسة الزهد بالامتناع عن العلاقة الجسدية في الزواج. (يضع موضع تساؤل الوقفات والفواصل التي تضعها في هذه الآية تمثل أمرًا في غاية الأهمية لتقديم تفسير صحيح- أنا أتبنى التفسير الذي كتبه د. «جوردون في» لرسالة كورنثوس الأولى)[5]. يرى الرسول بولس أن هذا الأمر خطير جدًا، ويقول بشكل عملي جدًا: «لا يسلب أحدكم الآخر، إلا أن يكون على موافقة، إلى حين، لكي تتفرَّغوا للصوم والصلاة.» (١كو ٧: ٥).

كثيرًا ما كانت تُفهم هذه الآية في الماضي على أنها تفترض ضمنيًا أن العلاقة الزوجة الحميمة يمكن أن تبعدنا عن الصلاة. بينما في قراءة أخرى نفهم أنه يمكن للامتناع عن العلاقة الحميمة داخل الزواج أن يبعدنا عن الصلاة (حيث تُقرأ العبارة: "إلا أن يكون على موافقة، إلى حين" كجملة اعتراضية).. فكيف ذلك؟

إن الرجل أو السيدة المتزوج الذي يواجه إحباطًا جنسيًا قد يجد

صعوبة في الصلاة، لأن أفكاره أو أفكارها ببساطة تعجز عن التركيز على الأبديات. من الممكن إشباع الرغبة الجنسية عند الفرد السوي؛ ومن ثم فإن ممارسة الحب مع شريك حياتك قد يحرر قلبك وعقلك ونفسك لبعض الوقت لتطلب الله بقوة في الصلاة بدون تشتيت للذهن. في الأساس يقترح بولس الرسول التالي: "عش الزواج حسب مشيئة الله.. أشبع احتياجاتك الجنسية بممارسة الحب مع شريك حياتك. وبالتالي يكون عقلك ونفسك أكثر استعدادًا للصلاة."

إن ممارسة الحب مع شريك حياتك قد يحرر قلبك وعقلك ونفسك لبعض الوقت لتطلب الله بقوة في الصلاة وبدون تشتيت للذهن.

الرسول بولس يتكلم كراع عملي؛ حيق يقر أن الرغبة الجنسية هي حقيقة بيولوجية. وبالتالي فإنّ ممارسة الجنس في إطار علاقة دائمة مستمرة مدى الحياة تساعد على إزاحة كثير من الإغواء والتشتيت، وإضافة مزيد من الهدوء لنفوسنا. وهذا مهم بشكل خاص في حالة الصلاة التأملية؛ فهذا نوع من الصلاة ينبغي أن يكون فيه العقل خاليًا تمامًا من أي نوع من التشتيت.

قد يبدو ذلك غريبًا، غير أن بولس يقول للأزواج والزوجات المؤمنين إنه باستطاعتهم خدمة شريك الحياة، وفي الوقت نفسه خلق مناخ مناسب لحياة صلاة مشبعة من خلال خدمة أحدهما الآخر جنسيًا. بدون شك ليس من السهل تبني هذا التفسير، ولم يسبق لي قط أن قرأت كتابًا حول الصلاة يتضمن: "إذا كنت متزوجًا، مارس الحب على نحوٍ منتظم"، غير أنه يبدو واضحًا أن هذا ما قصد بولس أن يقوله هنا!

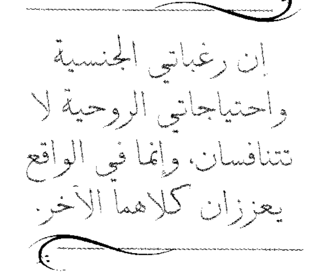
هذا يعني لي أن الله ينظر إلى حياتي على أنها ثوب منسوج

كله بلا خياطة.. أنا لستُ منقسمًا إلى شخصين "جاري القديس" و"جاري الدنيوي"، ولا "لجاري الزوج" مقابل "جاري المؤمن".. إنها ليست مساومة بالنسبة لي أن أرغب في النمو في الصلاة وأن أمارس نشاطي الجنسي.

الله صنعني- وصنعك أنت أيضًا- مخلوقًا بشريًا كاملاً؛ لذا يمكنني أن أسلِّم نفسي بلا خجل وبابتهاج لزوجتي، وفي الوقت نفسه يمكنني أن أسلِّم نفسي لله بلا تحفظ. يمكنني أن أعبِّر عن رغباتي الجنسية في سياق الزواج، وفي الوقت نفسه أحافظ على شغفي تجاه الصلاة. يتفق الأمران مع بعضهما البعض، لا بل الأكثر من ذلك: الأمران يكملان أحدهما الآخر. إن رغباتي الجنسية واحتياجاتي الروحية لا تتنافسان، وإنما في الواقع يعززان كلاهما الآخر.

الصلاة والخصومات

لقد اكتشفتُ أن للزواج جانبًا آخر يؤثِّر على حياة الصلاة التي أعيشها، وقد يكون هذا الجانب أحيانًا مزعجًا إلى أبعد الحدود.. وهو النزاعات العالقة. وبينما لا يشير الرب، يسوع بالتحديد إلى موضوع الزواج في السياق الذي يقول فيه ما يلي، غير أن نصيحته تنطبق على العلاقة الزوجية أيضًا. قال يسوع: «فإن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكَّرت أن لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذٍ تعال وقدِّم قربانك.» (مت ٥: ٢٣- ٢٤).



هنا صورة شخص يقترب إلى الله في الصلاة، وفيما هو يجثو على

ركبتيه تذكَّر أن ثمة أمور عالقة بينه وبين شخص آخر. فقبل أن يواصل هذا الشخص صلاته، يجب أن يوجه طاقته -بقدر ما يعتمد الأمر عليه (راجع رو ١٢: ١٨)- نحو المصالحة مع هذا الشخص.. الذي قد يكون شريك الحياة. إن الله يكره الخصومات (راجع أم ٦: ١٩)، ويقدِّر الوئام (راجع مز ١٣٣: ١).

يستطيع الزواج أن يدفعنا لنكون أشخاصًا أكثر قوة؛ لأننا إذا أردنا الحفاظ على حياة صلاة قوية كمتزوجين، فلابد أن نتعلَّم كيف نسامح.. ينبغي أن نصبح خبراء في المصالحة. حتمًا ستحدث احتكاكات، وقد يتصاعد الغضب أحيانًا؛ لذا يتوجب علينا أن نتعلَّم كيفية التعامل مع النزاع كمؤمنين ناضجين. وإذا لم نفعل، فنحن نخاطر بانهيار حياة الصلاة التي نعيشها بمرور الوقت.

الزواج في الواقع يدفعنا إلى عمل المصالحة.. فمن السهل مسايرة الناس إذا كنت لا تتقرب منهم أبدًا. ومن دون شك يمكنني كرجل أعزب أن أختار أن أحافظ على بعض من عدم النضوج في حياتي، وأختار ألا أواجه أنانيتي وروح الإدانة لديَّ.. وفي الواقع قد فعلتُ ذلك في مناسبات عديدة في الماضي. بينما لا أفتخر بهذا، فيمكنني أن أتذكر شخصًا أو اثنين وجدت صعوبة بالغة في التأقلم معهم؛ وقد اخترت أن أواجه ذلك بعدم التعمُّق في علاقتي معهم. فأنا لستُ مجبرًا على أن أكون على علاقة مع الجميع؛ لذا ما من خطأ أصلاً في "تجنُّب" الأشخاص الذين يسببون لك ارتفاعًا في ضغط الدم.

هذا الخيار غير وارد على الإطلاق داخل إطار الزواج.. فزوجتي وأنا نعيش معًا كل يوم، وحتمًا سنختلف في بعض الأمور، ومما لا شك هو أنني مُلزَم بالحفاظ على علاقتي الحميمة معها. وعندما لا تتحقق توقعاتنا، ويخيِّب أحدنا آمال الآخر، بل وحتى عندما يجرح أحدنا الآخر،

فهل سنسمح للخصام -الذي يمقته الله- بأن يسود الموقف، أم سنقوم بما يلزم تجاه علاقتنا كي نمضي قدمًا نحو الوحدة والترابط؟

إذا أردت حياة صلاة لا يعوقها شيء، عليك أن تنظر إلى السؤال الذي ختمتُ به الفقرة السابقة على أنه سؤال إجابته معروفة ومؤكدة. يؤكد الرب يسوع بوضوحٍ بالغ أنه علينا اختيار الترابط والوحدة إذا ما أردنا الحفاظ على علاقة صلاة مفعمة بالحيوية مع الله؛ فالخصام قاتل أساسي للصلاة. وبالنظر إلى الزواج من هذه الناحية، فقد تم تصميم منظومة الزواج لتدفعنا أن نكون مصالحين بالدرجة الأولى.. هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها نحافظ على حيوية الجانب الروحي في حياتنا.

الزواج في الواقع يدفعنا إلى عمل المصالحة.

من العجيب أن الزواج في هذه الحالة يوجِّهنا بعيدًا عن شريك حياتنا ويدفعنا باتجاه الله. ما الذي أعنيه بذلك؟ استمعوا إلى حكمة الرسول يعقوب، التي تشكِّل إحدى ركائز كنيسة العهد الجديد:

> «من أين الحروب والخصومات بينكم؟ أليست من هنا: من لذاتكم المحاربة في أعضائكم؟ تشتهون ولستم تمتلكون. تقتلون وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا. تخاصمون وتحاربون ولستم تمتلكون، لأنكم لا تطلبون.» (يع ٤: ١ و٢)

في الواقع، تنجم العديد من المشاجرات الزوجية تحديدًا بسبب هذا: «تشتهون ولستم تمتلكون»؛ ويضيف الرسول يعقوب أننا لا ننال ما نشتهيه لأننا نبحث عنه في المكان الخطأ. فبدلاً من وضع المتطلبات على كتف شريك حياتك، الجأ إلى الله ليسدد احتياجاتك.. هكذا يمكنك التعامل مع شريك حياتك بروح الخدمة.

أولئك الذين مضى على زواجهم وقت طويل يميلون إلى نسيان "وهم العزوبية".. وأقصد بهذا الميل لدى بعض الشباب الأعزب (بالطبع ليس الجميع) إلى التفكير بأن ما يحتاجون إليه حقًّا هو العثور على "الشخص المناسب"؛ ومتى وجدوا شريك الحياة، يفترضون أن كل الأمور الأخرى ستنتظم: شعورهم بالوحدة، شعورهم بعدم الأمان، قلقهم بشأن أهميتهم.. كل هذه الأمور وغيرها ستذوب بطريقة غامضة في نيران العشق الزوجي.

ولفترة قصيرة قد يبدو ما سبق وذكرناه صحيحًا.. بإمكان الإعجاب الشديد أن يكون دواءً مخدِّرًا يعالج مؤقتًا بعضًا من ضعفاتنا الداخلية.

لكن الزواج أشبه بضوء كشَّاف يبين لنا أن بحثنا عن كائن بشري آخر "ليكمِّلنا" هو أمرٌ مضلل. وعندما نتحرر من الوهم يظهر أمامنا خياران: إما أن نهجر شريك حياتنا ونُفتن بشخص جديد، أو نسعى إلى فهم الرسالة الكامنة خلف تحررنا من هذا الوهم.. أي السعي لتحقيق أهميتنا، ومعنى حياتنا، وغايتنا لدى خالقنا، بدلاً من اللجوء إلى مخلوق بشري آخر.

> الخصام قاتل أساسي للصلاة. فقد تم تصميم منظومة الزواج لتدفعنا أن نكون مصالحين بالدرجة الأولى.. هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها نحافظ على حيوية الجانب الروحي في حياتنا.

إذا نظرنا إلى الزواج بالطريقة الصحيحة، قد يدفعنا الزواج إلى إعادة تقييم اعتمادنا على أشخاص آخرين في الحصول على الغذاء الروحي، ويقودنا بدلاً من ذلك إلى الاهتمام بعلاقتنا مع الله. لن يتمكن إنسان من أن يحبنا بالطريقة التي نتوق أن نُحَب بها؛ كذلك يستحيل على أي شخص آخر أن يدرك فراغنا الروحي ويملأه، هذا الفراغ الذي وضعه الله في داخلنا جميعًا.

من جهة، يقدِّم لنا الزواج معروفًا كبيرًا من خلال كشف هذه الحقيقة، لكن من جهة أخرى هو يقدِّم لنا خطرًا مُصاحبًا.. ألا وهو الوقوع في شرك الخصام. من الضروري جدًا من أجل صلواتنا أن نعيش في وحدة وترابط، وفي سبيل هذه الوحدة يجب أن تكون اشتياقاتنا ورغباتنا موجَّهة نحو الله.

النمو في حياة الصلاة

نظر إليَّ ابني -وقد كان حديث السن آنذاك- وقال باهتمامٍ شديد بينما كنت أربط سيور حذائي: "إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟"

"إلى ساحة المعركة"

فقال وأضاف وهو ينظر إلى الخارج: "الطقس ممطر إلى حد ما، فلماذا أنت خارجٌ؟"

كنا نعيش في ذلك الوقت مع أولادنا الثلاثة الصغار في منزلٍ في المدينة، وقد تنهدت قائلاً: "ببساطة أنا أصلي بشكل أفضل في الخارج"، فأومأ لي برأسه.

فالزواج -وإنجاب الأطفال- أرغماني على زيادة مساحة حياة الصلاة.. فإذا عزمتُ على إيجاد وقتٍ هادئ لأغلق عينيَّ، وأحني رأسي، وأحصل على ساعة لا يقاطعني فيها أحد، كان عليَّ أن أستيقظ في الرابعة فجرًا. ابنتنا الكبرى تشبه أمها.. شخصية ليلية، وغالبًا ما تخلد إلى الفراش بعد أن أفعل أنا ذلك بوقتٍ طويل. أما ابننا فشخصيته مثلي تمامًا.. يحب أن يستيقظ قبل أن ترسل الشمس أشعتها الذهبية عبر نافذته. وبدون منزل واسعٍ، ليس هناك فرصة كبيرة للحصول على وقت من الخصوصية في أي وقتٍ من أوقات النهار.

لكن هذا الأمر كان سبب بركة في حياتي من نواحي عديدة. مع الأسف اعتدت أن أنظر إلى الصلاة على أنها فقط نشاط هادئ، بل وربما ذهني. إن اختزال الصلاة إلى نشاط يجب على الجميع فيه "أن يحنوا رؤوسهم وأن يغمضوا عيونهم" يحد من قوة ومن نطاق التواصل مع الله. ويمكن للزواج أن يخرج بنا من هذا الإطار الضيق الذي وضعنا فيه الصلاة!

يخبرنا «چاك إلول» في كتابه «الصلاة والإنسان العصري» (Prayer and Modern Man) كيف أن الصلاة الحقيقية "تتخطى بشكل كبير حدود اللغة المنطوقة"، ويضيف أن الأفعال المستخدمة في العهد القديم للإشارة إلى الصلاة هي "أفعال حركة"، على سبيل المثال "يتلامس" أو "يسجد".[6]

إذا ربطنا خبراتنا الزوجية بإيماننا المسيحي، يمكننا أن نتعلَّم قوة الصلاة بطرق جديدة. إن الاختبار الجسدي لما يعنيه أن أعانق زوجتي بلطف وبمحبة، سيمكِّنني على الأرجح من فهم أبعاد جديدة للصلاة. كيف يحب الله أن نتلامس معه؟ هل يمكن أن تكون تسبيحاتي الخارجة من فمي مثل يد حانية تلمس وجهًا؟

> إذا ربطنا خبراتنا الزوجية بإيماننا المسيحي، يمكننا أن نتعلَّم قوة الصلاة بطرق جديدة.

لقد أخذتُ وقتًا طويلاً كي أفكِّر في هذا الأمر.. الجنس يكون غامضًا جدًا بينما لا نزال شبابًا بعد، وكثيرًا ما يكون -على الأقل بالنسبة لي- مرادفًا للشعور بالذنب. وحتى داخل نطاق الزواج، يصعب عليَّ أحيانًا أن أتخيل "الله يمثل جزءًا من هذا الأمر؟!" وقد تريد أحيانًا أن تهتف فرحًا «هللويا» أثناء العلاقة الجنسية، غير أنني لستُ متأكدًا من أن الله يكون دائمًا هو المقصود من هذا الهتاف!

لكن لنستكشف هذا الأمر.. الفعل «يسجد»* المُستخدَم في العهد القديم

يدفعنا إلى التفكير مليًا. ومع أنه لا يجب أن ننزلق أبدًا في عبادة المخلوق، إلا أنه هناك لحظات خاصة جدًا تقودنا فيها وحدة الزواج ونشوة الاتحاد الجسدي للوقوف برهبةٍ أمام الآخر راغبين في تقديم أنفسنا بالكامل له دون أي تحفظ. عندما تقول زوجة لزوجها: "امتلكني، أنا لك بالكامل"، تبرهن بذلك عن ثقتها بأن كل ما سيقوم به زوجها سيكون ثمرة حب واهتمام وحنان حقيقيين. إنها شهادة رائعة عن بذل الذات، وعن البهجة الناتجة عن العلاقة الحميمة.

هذا هو الحب الذي اختبره اثنان من أشهر عشّاق التاريخ «أبيلارد» و«هيلويز» على الرغم من أنهما دخلا علاقة الحب بما دون العاطفة الطاهرة. «أبيلارد» لاهوتي وفيلسوف عاش في القرن الثاني عشر، وكمعلِّم نذر نفسه للعفة، وقد خضع هذا النذر إلى اختبارٍ قاسٍ عندما وجد نفسه مفتونًا بإحدى تلميذاته، «هيلويز». وبما أن التعبير الجسدي عن الحب كان ممنوعًا، والزواج مسألة غير واردة، قاوم «أبيلارد» هذا الحب لفترة، وفي النهاية سقط. وحملت «هيلويز» منه، فتزوجا سرًا. عندما علِمَ عم «هيلويز» بما حدث، انتقم من «أبيلارد» بإخصائه، وتقبل الأخير هذا الاعتداء كقصاص عادل له، وأصبح راهبًا؛ كذلك «هيلويز» أصبحت بدورها راهبة.

ويظهر إخلاص «هيلويز» المتَّقد والمفعم بروح "السجود"* في خطابها الأول لـ«أبيلارد» حين تقول: "يعلم الله أنني لم ألتمس فيك سوى شخصك، ولم أرغب بما لك بل أنت وحدك."

كان حب «هيلويز» قويًا جدًا لدرجة أنها رأت في «أبيلارد» شمس حياتها، واعتبرت نفسها مجرد قمر يعكس نور «أبيلارد». وقادها هذا

* الفعل المستخدم هو Prostrate.. الذي يعني السجود عن طريق الانبطاح الكامل على الأرض أمام الله.

اليقين إلى أن تذل نفسها فعليًا خشية أن تعترض مجد محبوبها، فاعترفت قائلةً: "إن كان لقب «زوجة» يُعتبر أكثر قداسة أو عظمة لي، فإن تعبير «خادمة» كان يحلو لي دائمًا، أو حتى -اسمح لي- تعبير خليلة سرية أو بنت هوى؛ فكلما انتقصتُ من قيمتي قدامك، يكبر أملي بأن أحظى برضاك، وتقل إساءتي إلى مجد سمعتك."

هذه الرغبة في أن تحط من قيمتك لدرجة إذلال نفسك من أجل الآخر، ببساطة أن تنكر نفسك في محضره ومن أجل خدمته، تحمل معنى عبادة السجود التي يتكلم عنها العهد القديم. ولأنني صرفتُ ساعات كثيرة في قراءة الأدب المسيحي الكلاسيكي، فهذا يلفتُ نظري إلى كم يعكس هذا الحس الكلمات المتواضعة التي كثيرًا قالها قديسو الله بينما كانوا يسجلون صلواتهم. هذا هو "الإذلال" المقدس الذي دعم الكثير من الممارسات النسكية بين المسيحيين الأولين مثل: الجلوس لفترات طويلة على عمود طويل، والعيش في قفصٍ ضيق، ترك الطفيليات تعيش على أجسادهم.. كل هذا كمحاولة للتعبير عن تكريسهم ومحبتهم وعبادتهم لله. وأيضًا كان رأينا في هذه السلوكيات، فإن دوافعهم كانت تريد أن تعبِّر جسديًا عن حقيقة روحية هي: "الله هو الكل في الكل بالنسبة إلينا، ونحن لا نساوي شيئًا. وكي نُظهر لله إلى أي درجة هو الكل في الكل ونحن لا نساوي شيئًا، سنعيش على هذا الأساس."

أتساءل ما إذا كان بوسع العلاقة الزوجية أن تجدد في داخلنا مثل هذا التواضع.

أنا لا أقترح أن نعود إلى تلك الممارسات الجسدية، غير أن هذه الممارسات تنطوي على روح تواضع قد ننتفع كثيرًا لو أخذناه بعين الاعتبار في هذا العصر الذي يتسم بالأنانية. أتساءل ما إذا كان بوسع

العلاقة الزوجية أن تجدد في داخلنا مثل هذا التواضع! وإذا كنا نختبر لمحة عن هذا التسليم الكامل أمام إنسان خاطئٍ آخر أثناء ممارسة الحب، ألا نستطيع أن نتعلَّم أن نقدِّم أنفسنا بالمثل وبدون تحفظات لإله كامل في محبته، وجزيل في إنعامه؟

كتب «أبيلارد» بعد ذلك -على نحوٍ ملائم تمامًا لمناقشتنا- أنه "لا يجب أن نحب الله كما أحب «أبيلارد» «هيلويز» بل كما أحبت «هيلويز» «أبيلارد»"، وأضاف أنه "يجب أن نحب الله من أجل كماله، وحتى إلى درجة التخلي عن التطويبات [السعادة أو البركات] التي وعدنا بها."

نحن كثيرًا ما نحب الله بهدف ما سيعود علينا من هذه المحبة، غير أن «هيلويز» تعلمت أن تحب «أبيلارد» لشخصه لا غير. إن هذا الحب المحرَّم لم يجلب لها سوى الألم، غير أنها قد تفضل العار والألم مع «أبيلارد» عن السلام والسعادة من دونه.

هل يمكننا قول الأمر نفسه عن محبتنا لله؟

إن التوجه الداخلي لصلاة الانكسار تطلب تخليًا كاملاً عن كل ما يقدِّمه الله لنا في سبيل التمتع بالله نفسه. وإذا كنت قد اختبرت ولو لمحة من هذا الانكسار والتسليم الكامل في زواجك، فربما تكتسب أبعادًا جديدة في الصلاة. وقد يعلِّمنا هذا الأمر "أن ننكر أنفسنا في الصلاة" مع الله.

في المرة المقبلة التي يسيطر عليك الشوق لزوجتك، فكر كيف يمكنك أن تقدِّم نفسك لله في تسليم كامل.

إن اقتراحي هو أن نربط زواجنا بإيماننا بطريقة تصبح فيها خبرتنا في أحدهما ذات منفعة للآخر. في المرة المقبلة التي تلمس فيها زوجتك فكِّر كيف يمكن لهذا التلامس أن يفتح أمامك سبيلاً

إلى أعماق جديدة في صلاتك. وفي المرة المقبلة التي يسيطر عليك الشوق لزوجتك، فكِّر كيف يمكنك أن تقدِّم نفسك لله في تسليم كامل. لا تخف من استخدام كل جوانب الحياة الزوجية -حتى التعبير الجنسي- للنمو أكثر في حياة الصلاة.

عندئذٍ، يمكننا أن نرى كيف يمكن أن يغذي الزواج حياة الصلاة ويبنيها لدينا بطرقٍ عدة. ومن خلال تعلُّمنا احترام الآخر، وتلبية احتياجات أحدنا الآخر الجنسية، والتغلب على النزاع، والمخاصمات، واستخدام خبرات الحياة الزوجية لتعزيز صلاة أكثر تجديدًا، فإنه يمكننا أن نبني ونحافظ على صلوات حية، ومتجددة باستمرار، وأكثر عمقًا.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) هل تعرف زوجين ناجحين في حياة الصلاة على نحو مبهر؟ ما هو الشيء البارز في صلاتهم؟

(٢) هل سبق وأعيقت صلاتك بسبب مشاعر وتوجهات سلبية كانت لديك تجاه شريك حياتك؟ هل توجد أفكار سلبية تعيق صلاتك اليوم؟

(٣) يقول «جاري»: "قيل لنا إننا لو أردنا التمتع بزواجٍ أقوى، علينا بتطوير حياة الصلاة التي نعيشها. غير أن بطرس يقول لنا إنه ينبغي أن نُحسِّن زواجنا لكي نتمكن من تحسين صلاتنا." كيف يمكنك أن تطوِّر من صلاتك إذا كان زواجك يقترب من قصد الله من الزواج؟

(٤) كيف يمكنك أن تصف تأثير نشاطك الجنسي وحجمه في زواجك على طريقة صلاتك؟ وعلى طريقة صلاة شريك حياتك؟

(٥) قال «جاري»: "الخصام قاتل أساسي للصلاة. وبالنظر إلى الزواج من هذه الناحية، فقد تم تصميم منظومة الزواج لتدفعنا أن نكون مصالحين بالدرجة الأولى. هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها تحافظ على حيوية الجانب الروحي في حياتنا." إلى أي مدى تتقن أنت وشريك حياتك حل الخلافات في الوقت المناسب؟ ماذا يحدث لصلاتك عندما تكون في خلاف مع شريك حياتك؟

(٦) أي الأفكار عن النشاط الجنسي أو عن حياة الصلاة لفتت انتباهك أكثر؟ ما هي بعض النواحي الأخرى من الزواج التي قد تنطوي على دروس "مخبأة" عن الصلاة؟ كيف ساعدك زواجك على النمو في حياة الصلاة؟

الفصل السادس

التنقية عبر الزواج

كيف يفضح الزواج خطيتنا

يعُتبر الزواج أعظم امتحان في العالم... لكنّي الآن أرحب بهذا الامتحان بدلاً من الخوف منه. وهو يتعدّى كونه امتحانًا لحلاوة الطباع– كما يظن البعض، بل هو امتحان للشخصية بأكملها، ويؤثر على كل سلوك.

– «تي. إس. إليوت»

الزواج عملية جراحية يتم من خلالها شفط غرور المرأة ونزع أنانية الرجل بدون تحذير.

– «هيلين رولاند»

أحد أفضل هدايا الزواج التي منحها لك الله هي مرآة طولية تدعى شريك حياتك. ولو وصَلَتْ الهدية مُرفقة ببطاقة لكُتِب عليها: "هذه ستساعدك على اكتشاف نفسك على حقيقتك!"

– «جاري» و«بتسي ريكوتشي»

في الحقيقة، لم يكن هذا موعدًا غراميًا معتادًا.. كانت تزورني في

الكلية صديقة عرفتها منذ أيام الدراسة الثانوية -وكانت وقتها تدرس في معهد مودي للكتاب المقدس. فقررنا أن نمضي نهار السبت في زيارة أحد الأديرة في مقاطعة كولومبيا البريطانية.

رحَّب بنا كاهن ترحيبًا لطيفًا وحارًا، ولمحتُ من وراء كتِفِه راهبًا حديث السن جدًا -لا يتعدى بداية العشرينات من العمر- يقترب منا. وعندما رأى الشابة التي كانت برفقتي غضَّ بصره على الفور، ومر أمامنا برأسٍ منحنية.

أثناء دراستي الجامعية كنتُ متحمسًا جدًا تجاه الله، وعلمتُ أنه لابد أن هذا الشاب متحمس أيضًا، نظرًا للطريق الذي اختاره. لكن سلوكه البسيط في تحويل نظره بعيدًا أظهر لي بوضوح الاختلاف بين طريقتي وطريقته في السعي وراء الله القدير. لقد أمضيتُ يومًا كاملاً بصحبة فتاة ترافقني، بينما هذا الراهب الشاب لم يسمح للمحة خاطفة غير متعمَّدة أن تتحول إلى نظرة تدوم لخمس ثوانٍ. استوقفني هذا الموقف لدرجة أنني لا أزال أتذكر وجه الفتى، ورأسه المنحني، وخطواته المتسارعة بينما يبتعد عنا.

ولأنني أكنُّ في قلبي احترامًا ومحبة كبيرين للتقليد المسيحي، فلا يمكنني أن أنكر أنه، تاريخيًا، فُتِنَت الروحانية المسيحية بفكرة البتولية. وقد قال الكثير من المعلمين: "على أية حال يسوع نفسه كان أعزب. هل نحتاج إلى حجة أخرى؟" وساد في تلك الأزمنة تحيز واضح أنه إذا أراد أحد أن يكون قديسًا بحق، وأن يسعى بجدية في طريق القداسة، عليه أن يظل بلا زواج.

وفي أحيانٍ كثيرة جَرَحت هذه الفكرة مسيحيين مخلصين. وتعترف «ماري آن ماكفرسون أوليفر» قائلة: "في النهاية اتضح لي أنني لمدة ثلاثين سنة غريبة عشت في شراكة حميمة واحدة، وهي حقيقة لها أهمية

كبيرة بالنسبة إليَّ كشخص وإلى حياتي الروحية. ومع ذلك، وبحسب التقليد، لم يكن للزوجية أي وجود فعلي كوحدة لاهوتية وروحية ذات أهمية... وفي النهاية توصَّلت إلى حقيقة بسيطة.. ألا وهي أن الروحانية التي يكتبون ويعلِّمون عنها تقوم في الأساس على البتولية أو الرهبنة، وأنا لم أكن كذلك.»[1]

كنا نحن الثلاثة الذين التقينا ذلك اليوم في الدير نسعى في حياة القداسة، غير أن كل واحدٍ منا كان يسلك طريقًا مختلفًا تمامًا في سعيه. لقد أكمل الشاب حياته كراهب متبتل، أما أنا فقد تزوجت وأصبحت كاتبًا ومعلِّمًا بدوامٍ كامل أعيش في الولايات المتحدة. وبالنسبة إلى صديقتي السابقة، فقد تزوَجَت وعاشت وضعت في مصر. لم يطفئ زواجي شغفي بحياة القداسة (وفي كلية «ريجنت» كانت رسالتي في الماچيستير حول عقيدة التقديس)، ولكن هل كان هناك أية تنازلات؟

إليكم لُب الموضوع.. إن الشاب في الدير اختار البتولية بإرادته كسبيلٍ نحو القداسة. هل من الممكن أن تختار الزواج بإرادتك كسبيل نحو القداسة أيضًا؟ إن كان الأمر ممكنًا، فكيف؟

التقديس في الزواج

مع أن معظم قادة الكنيسة الأولى كانوا ينظرون إلى النشاط الجنسي (باستثناء النشاط الذي يهدف فقط إلى التناسل) كأمرٍ مشكوك في صحته على أحسن تقدير، وكخطة مُهلِكة على أسوأ تقدير، فإنهم (عجبًا) لم يفترضوا أن حياة البتولية أصعب من الحياة الزوجية؛ بل في الواقع اعتبر بعض القدماء أن الحياة الزوجية قد تكون أصعب من حياة العزوبية.

منذ عدة قرون استشهدت في إحدى الكتابات المنسوبة إلى القديس

أثناسيوس بقولٍ لإحدى المعلمات تُدعى «سينكليتيكا»: "لن نضلل أنفسنا بقولنا إن حياة من يعيش في العالم خالية من الهموم. ولو أجرينا مقارنة بيننا وبينهم لوجدنا أنهم يكدحون أكثر بكثير منا نحن. بصفة عامة بالنسبة إلى السيدات الضغينة التي في العالم كبيرة جدًا؛ إذ يَلِدن بصعوبة، ويتعرضن للخطر، ويتحمَّلن إرضاع الأطفال، ويمرضن عندما يمرض أطفالهن؛ ويجتزن كل هذه الظروف من دون أن يحصدن نتيجة تعبهن."[2]

اعتبر بعض القدماء أن الحياة الزوجية قد تكون أصعب من حياة العزوبية.

وكان لدى «أمبروز» أفكار مماثلة: "لنقارن... مميزات المرأة المتزوِّجة مع تلك التي تبقى عذراء... فالأولى تتزوَّج وتبكي. كم عدد العهود التي تقطعها وهي تذرف الدموع؟ تحبل، وخصوبتها تجعلها تشقى قبل أن ترى نسلها... ولماذا ننسى رضاعة الأطفال، وتدريبهم، وتزويجهم؟ هذه هي مآسي هؤلاء السعيدات. للأم ورثة، لكنهم يزيدون من أحزانها."[3]

في إحدى الليالي، في السنوات الأولى من زواجنا، استيقظتُ وذُهلتُ من قدرة زوجتي على التحمُّل. في ذلك الوقت كان لدينا طفلان.. كان وقتًا عصيبًا بالنسبة لي، وقد عدَّلت زوجتي في جدول برامجها وخططت لليلة رومانسية للغاية لتخفِّف من توتري. غير أنه في وقتٍ لاحق في تلك الليلة مرض الطفلان؛ وكان واحد منهما لا يزال رضيعًا، والثاني أصرَّ على أن تعتني به ليزا زوجتي.

كانت ليزا مرهقة؛ فقد سهرت معي لوقتٍ متأخر، وهي تعاني الآن من محاولة إرضاع طفل جائع يحاول امتصاص اللبن من ثدييها رغم نفاذه. وعندما وضعت الطفل الأول في سريره، كان عليها أن تضع في حضنها ابنتنا الصغيرة المرتفعة حرارتها، وتمرِّر يدها على شعرها، وتضع على جبينها قطعة قماش مبتلة بالماء.

رأيتُ زوجتي تُعطي فعليًا كل سنتيمتر من جسدها في سبيل خدمة خالية من الأنانية؛ ووردت فجأة فكرة على بالي: "إنها قديسة!" في تلك الليلة كانت فكرة الراهبة المتبتلة بمثابة حلم لليزا طمعًا في إجازة. كيف يمكن لأحد أن يقول أنها ساومت على حياة القداسة بقبولها لظروف حياتية تدعوها إلى نكران الذات على نحوٍ بطولي؟

في الواقع إذا دخلنا حياة البتولية (العاطفية أو الواقعية) بأنانية، حتمًا ستدمِّرنا تمامًا كالشهوانية الجامحة. كتب سي. إس. لويس عن قلوبنا:

> إذا أردت أن تحرص على الحفاظ على قلبٍ غير مصاب بأذى، عليك ألا تعطي قلبك لأحد، ولا حتى لحيوان أليف. اجعل قلبك محاطًا تمامًا بالهوايات وبالقليل من الرفاهية، وتجنب الارتباطات العاطفية على اختلاف أنواعها، وأغلق عليه جيدًا في تابوت أو في نعش أنانيتك. لكن في هذا النعش -الآمن، والمظلم، والساكن، والخالي من الهواء الطلق- سيتغيَّر قلبك.. لن يتحطم، بل سيصبح غير قابل للكسر أو الاختراق، ولا يمكنك إعادته مرة أخرى لحالته الطبيعية.[4]

إذا تناقشنا حول ما إذا كانت العزوبية أم الزواج السبيل المفضل للقداسة، فعلى الأرجح لن يكون هذا النقاش مثمرًا.. لقد سلك المؤمنون في كل زمان السبيلين بنجاح. المهم هو أن نقبل التحديات التي يُمليها علينا وضعنا في الحياة كمحفز للنمو. إن الرياضي الذي يريد تحسين أدائه لن يبحث عن

إذا تناقشنا حول ما إذا كانت العزوبية أم الزواج السبيل المفضل للقداسة. فعلى الأرجح لن يكون هذا النقاش مثمرًا.

التمرين الأسهل ليقوم به، بل يبحث عن التمرين الذي سيضع أمامه تحديًا أكبر. مما لا شك فيه أن للزواج تحدياته، لكن عندما نواجهها وجهًا لوجه، يستطيع زواجنا أن يعمل على نمو حياتنا الروحية ويُثريها بطرق متنوعة. إحدى هذه الطرق هي كشف القناع عن خطيتنا ومواقفنا الجارحة، وبالتالي التحلي بروح التواضع.

كتب بولس في أفسس ٥: ٢٥: «أيها الرجال، أحبوا نساءكم كما أحبَّ المسيح أيضًا الكنيسة»، وأضاف قائلاً إن المسيح أسلم نفسه لأجلها «لكي يقدسها مطهرًا إياها» حتى تصبح الكنيسة «لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك» (أف ٥: ٢٧).

إن محبتنا لشيء وتنقيتنا له أمران يسيران جنبًا إلى جنب. والزوج الذي يحب زوجته بحق سيشتاق لأن يراها تنمو في حياة النقاوة، والزوجة التي تحب زوجها بحق ستشتاق لأن تراه ينمو في حياة التقوى. كلاهما سيضعان النقاوة والتقوى فوق رغد العيش، وآراء الآخرين، والراحة الشخصية.

إن ما فعله الزواج بي هو أنه وضع مرآة أمام خطيتي

إن ما فعله الزواج بي هو أنه وضع مرآة أمام خطيتي، وهو يرغمني على أن أواجه نفسي بصراحة، وأفكِّر في عيوبي، وأنانيتي، ومواقفي التي تتنافى مع روح المسيحية، ويشجعني لأتقدس وأتطهر وأنمو في التقوى.

كتبت «كاثلين» وزوجها «توماس هارت»: "إن ما يصعب تحمله في السنوات الأولى من الزواج ليس ما نكتشفه في شريكنا بل ما نكتشفه في أنفسنا. ومثلما قالت سيدة شابة متزوجة منذ حوالى سنة: 'لطالما رأيت نفسي شخصًا يتحلى بالصبر والتسامح، ومن ثَمَّ بدأتُ أتساءل ما إذا كنتُ أفكر هكذا لأنه لم يسبق لي أن تقربت من أي شخص. لكن

داخل الزواج، عندما بدأتُ جون وأنا... نتعامل مع اختلافاتنا، رأيتُ كم يمكنني أن أكون أنانية وغير متسامحة. اكتشفتُ قساوةً في شخصيتي لم أعهدها من قبل.'»[5]

لقد اختبرتُ هذه الظاهرة الغريبة نفسها.. عندما كنتُ في الصف التاسع تم اختياري للقب «الصبي الأكثر خُلقًا». ولطالما رأيتُ نفسي صبورًا، ومتعقلاً، محبًا للمحتاجين- وبقيت على هذا التفكير إلى أن تزوجت؛ واكتشفتُ إلى أي مدى أغتاظ عندما أبحث عن مكعبات ثلج في «الفريزر» ولا أجد.

عندما كبرتُ، تربيت على قاعدة بسيطة كانت عائلتي تعيشها: إذا استخدمت مكعبات الثلج املأ مكانها بالماء قبل إرجاعها إلى الفريزر. والآن أفتح الثلاجة ولا أجد فيها سوى نصف مكعب ثلج - أو بالأحرى ما أسميه رقاقة ثلج.

أدهشني كيف أن تفاصيل صغيرة مثل هذه كانت تغيظني. سألتُ ليزا: "إلى أي مدى تحبيني؟"

فقالت: "أكثر من كل العالم".

أجبتها: "لا أحتاج أن تحبيني بهذا المقدار، بل أكثر ما أريده هو أن تحبيني لسبع ثوانٍ."

سألتني: "ما الذي تريد قوله؟"

لقد قمت بقياس الوقت الذي يستغرقه ملء أماكن الثلج الفارغة، واكتشفتُ أنه يستغرق سبع ثوانٍ فقط.

فأجابت: "جاري، هل عدنا للموضوع نفسه ثانيةً؟"

وفجأة اتضح لي أخيرًا أنه إن كان تعبئة إناء الثلج الفارغ يستغرق سبع ثوانٍ من وقت ليزا، فهذا ما سيستغرقه مني أنا أيضًا. هل كنتُ

بهذا القدر من الأنانية حتى أدع سبع ثوانٍ من عدم الارتياح تصبح مشكلة كبيرة في زواجي؟ وهل كانت قدرتي على إظهار المحبة محدودة لهذه الدرجة؟

بالفعل كانت كذلك.

قد يكون تقرُّبنا من شخصٍ ما -الأمر الذي يحتمه الزواج- أعظم التحديات الروحية في الحياة. وليس هناك "استراحة"؛ إذ إنني أكون فعليًا تحت المراقبة على مدار الساعة. لا أقصد القول أن هذا ما تُشعرُني به ليزا- بل ببساطة أصبحتُ مدرِكًا لهذا الأمر.. عندما أذهب لأستأجر فيلمًا أفعل ذلك مع إدراكي أنني سأشاهده وليزا إلى جانبي. كل ساعة أخصصها للترويح عن نفسي ستعلم ليزا بشأنها.. من المؤكد أنها ستعرف أين أتناول غذائي (وماذا أتناول)، وكيف أسير على نظامٍ غذائي معين.. شهيتي، وشهواتي، ورغباتي كلها تحت مرأى ومسمع زوجتي ليزا.

هذا الأمر يستلزم، طبعًا، أن أكون مستعدًا لمواجهة خطيتي.. أن أكون مستعدًا لأسأل ليزا: "في أي من نواحي حياتي ترينني أسلك بغير قداسة؟ أريد أن أعلم، أريد أن أغيِّر ذلك."

هذا يتطلب شجاعة قصوى.. شجاعة أنا أول من يعترف أنني غالبًا ما أفتقر إليها. وهذا يعني الاستعداد إلى سماع ما لا يعجب ليزا فيَّ، كذلك أن أرفض أن يشلني الخوف من فكرة أنها ستحبني بمقدار أقل أو ستتركني، لأن الخطية التي في داخلي فُضِحَت أمامها.

بطبيعتي أنا لا أميل إلى الصراحة والانفتاح اللذين يؤديان إلى التغيير، بل ميولي الطبيعية نحو الخطية تدفعني إلى الاختباء ورسم صورة متألقة عن نفسي. يصف كل من «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان» هذا الانفصام بكلمات مؤثرة جدًا: "الإنسان خُلِق ليكون فنانًا مبدعًا وجريئًا يصوِّر الجمال؛ وعند السقوط أصبح مدافعًا جبانًا وعنيفًا لا يحمي شيئًا سوى

نفسه. لقد استُبدِلت العلاقة الحميمة والانفتاح بالاختباء والبغضة."[6]

ويضيفان أن الزواج هو "أفضل علاقة لكشف الفساد الأخلاقي، وأفضل مكان يمكن أن نعيش فيه ما نرجوه من كرامتنا."[7] ارجعوا بالزمن إلى أيام آدم وحواء.. لقد ارتكبت الخطية الأولى داخل إطار الزواج الأول؛ والنتيجة الأولى الواضحة للسقوط كانت التدهور في العلاقة الزوجية الحميمة؛ ولم يرحِّب كلٌّ من آدم وحواء بحقيقة أن مواطن ضعفهم صارت الآن واضحة مثلما تحاول الفتاة الصغيرة استخدام أدوات التجميل؛ وفجأة شعرا بنوع من الغرابة حيال عُريهما، وراحا يلقيان باللوم على بعضهما البعض.

النتيجة الأولى الواضحة للسقوط كانت التدهور في العلاقة الزوجية الحميمة.

هل تختبئ من شريك حياتك، أم تستخدم ضوء الكشاف الأبيض الخاص بالزواج لتنمو في النعمة؟ يحتاج البعض منا إلى هذا الضوء لنفهم إلى أي مدى حقًّا نحن خطاة.

يحكي «هاورد هندركس» عن إحدى المرات عندما لبث أن أنهى عظته حتى صعد إليه شاب متحمِّس ودعاه بلقب "الرجل العظيم".

وفي طريق العودة إلى المنزل، استدار هاورد نحو زوجته وقال لها: "رجل عظيم.. كم رجل عظيم التقيتِ به في حياتكِ؟"

أجابت: "أقل بواحد مما تظن."

لقد قلتُ مرارًا إنني أعتقدُ أن الله غالبًا ما يعطي الرجال المؤثرين زوجات لكي يُبقين أرجل أزواجهن على الأرض! عندما تكون في موقع شخص ينال تملقًا دائمًا، اعلم أن وجود شخص إلى جانبك يراك على حقيقتك أمرٌ لا يقدَّر بثمن.

كتب «بلايز باسكال»: "لم نصل بعد إلى عمق حقارة الإنسان بصفة عامة، وحقارتنا نحن بصفة خاصة، في حين أننا لا نزال مندهشين من ضعف الإنسان وفساده."[8] ووجودي في علاقة زوجية يُرغمني على إدراك قصوري وضعفاتي، وكذلك يحثني على "اكتشاف" كلٍ من حقارة الإنسان بصفة عامةً، وحقارتي على نحوٍ خاص.

عندما تكون في موقع شخص ينال تملقًا دائمًا، اعلم أن وجود شخص إلى جانبك يراك على حقيقتك أمرٌ لا يقدّر بثمن.

كتمرينٍ روحي، قلَّما نجد ما هو أكثر فائدة من هذا النوع من الفحص. كتب «فرانسوا فينيلون»، وهو متصوِّف مسيحي من القرن الثامن عشر: "القديسون جميعهم مقتنعون أن التواضع الحقيقي هو أساس الفضائل كافةً."[9] ويشاركه هذا الرأي الكاتب الأنجليكاني العظيم «وليم لو»: "[التواضع] ضروري جدًا لصحة نفوسنا، فلا يمكننا أن نبلغ حياة تقوى بدونه. يمكننا كذلك أن نشبه الرؤية من دون استخدام أعيننا أو العيش من دون تنفس بالعبادة التي تخلو من روح التواضع."[10]

وما هو التواضع؟ من ناحية، يقول لنا «فينيلون» إنه "نوع من الصدق، والاستعداد الطفولي للاعتراف بأخطائنا، والرجوع عنها، والخضوع لنصيحة أصحاب الخبرة.. وتُعتبَر هذه الفضائل قيمًا ثابتة ومفيدةً، وتتلاءم مع تقديسنا."[11]

أنا أؤمن أنه من الممكن دخول الحياة الزوجية برؤية أو بهدف التطهير روحيًا، وذلك إن دخلناها باستعداد لقبول الزواج كتدريب روحي. ولتحقيق هذا الأمر لا يجب أن ندخل الزواج بالدرجة الأولى كي نحقق ذواتنا، أو نشبع عواطفنا، أو نثير أنفسنا بالعواطف الرومانسية، بل بالأحرى يجب أن ندخله لنصير متشبهين أكثر بيسوع المسيح. يجب أن نقبل حقيقة أن

عيوبنا ستُكشَف لشريك حياتنا، وبهذه الطريقة تُكشَف أمام أعيننا أيضًا. لا تبدو خطيتنا أبدًا صادمة عندما تُكشَف لنا وحدنا؛ لكن عندما نرى كيف تبدو للآخر، عندئذٍ سنراها بمنظور يجعل حجمها عشر مرات أكبر. بإمكان الأعزب أن "يُخفي" إحباطه عن طريق انسحابه من الموقف، غير أن المتزوجين ليس أمامهم اختيارات.. يصعب الاختباء من شريك حياتك الذي يشاركك الفراش ذاته.

لا يقصِّر الأزواج في محبتهم لبعضهم البعض بقدر ما يقصِّرون في توبتهم.

بريق المواعدة

لديّ نظرية: وراء كل عدم رضا في الزواج خطية لم تتم التوبة عنها. لا يقصِّر الأزواج في محبتهم لبعضهم البعض بقدر ما يقصِّرون في توبتهم. إن الخطية، والتوجهات الخاطئة، والإخفاقات الشخصية التي لا يتم التعامل معها تجعل العلاقة تتآكل تدريجيًا، وتهين بل وفي النهاية تمحو الوعود السامية التي قُطعت في غمرة هيامٍ سابق (وأقل تلوثًا).

يدخل جميعنا الزواج بتوجهات قلب خاطئة، وعندما تظهر هذه التوجهات على السطح، سيكون هناك إغواء بإخفائها، أو الهروب إلى علاقة أخرى تكون التوجهات فيها غير مكشوفة تمامًا. لكن الزواج المسيحي يفترض مقدارًا معينًا من كشف الذات. عندما أقدمتُ على الزواج، تعهدت بأن أسمح لنفسي أن أكون كتابًا مفتوحًا بين يدي ليزا -وهذا يعني أنها ستراني على حقيقتي- بعيوبي، وتحيزاتي، ومخاوفي، وضعفي.

هذه حقيقةٌ قد يكون من المخيف التفكير فيها. فترة المواعدة والخطوبة

تشبه بشكل كبير مقابلة شخصية تحاولُ أن تُظهر فيها أحسن ما عندك- ونادرًا ما يكون هناك تحضير جيِّد لعملية الإفصاح عن الذات التي سيتحتم حدوثها في الزواج. في الواقع، ليست مفاجأة إذا انتهت العديد من الزيجات بالطلاق بصورة عامة لأن أحد الزوجين، أو كليهما، يهرب من ضعفاته، بقدر ما يهرب من ضعفات لا يستطيع أن يحتملها لدى شريك حياته.

هل لي أن اقترح بديلاً عن الفرار؟ استخدم ظهور خطيتك علانية كوسيلة للنمو في فضيلة مسيحية أساسية.. التواضع؛ ويقودك هذا الأمر إلى الاعتراف بخطيتك والرجوع عنها. بعد ذلك انتقل إلى الخطوة التالية، واكتسب الفضيلة الإيجابية المقابلة للخطية التي تخليت عنها. إن كنت قد استغلَّيتَ النساء في الماضي، تدرَّب على خدمة زوجتك. وإذا كنتِ سريعة في انتقادك لزوجكِ، تدرَّبي على تقديم التشجيع له والثناء عليه.

لننظر إلى الزواج كمدخل إلى التقديس، وعلاقة تكشف لنا السلوكيات والتوجهات الخاطئة، وتمنحنا الفرصة لمعالجتها في محضر الله. لكن التحدي هو: لا تستسلم إلى إغواء احتقار شريك الحياة في الوقت الذي تظهر فيه مواطن ضعفك الشخصية. في المقابل امنحه/ امنحها الحرية والقبول الذي يحتاجه؛ كي يتمكن بدوره من مواجهة مواطن ضعفه. وبهذه الطريقة يمكننا الاستفادة من الزواج كوسيلة للارتقاء إلى الأمام، وكمرآةٍ روحية خارقة تهدف إلى تقديسنا ونمونا في حياة القداسة.

لا تستسلم إلى إغواء احتقار شريك الحياة في الوقت الذي تظهر فيه مواطن ضعفك الشخصية.

قبول خطية الآخر

هذه الطريقة للنظر إلى الزواج تشير إلى مبدأ آخر في غاية الأهمية: لن تُكشف خطيتي أنا فحسب، بل أيضًا سأفكِّر في كيفية معاملتي لزوجتي عندما تُكشف خطيتها هي. هل استغل معرفتي بخطيتها لتحطيمها، وتحقيرها، والسيطرة عليها؟ أم أستغل ذلك في قيادتها بلطف ومحبة لتتشبه أكثر بصفات يسوع المسيح؟

إن معرفتي بخطية شخص آخر تمثل مسألة قوية وخطيرة. في مناسبات عدة، أخذني بعض الرجال جانبًا، وشاركوا معي إحباطاتهم بسبب الصعوبة التي يواجهونها في مسامحة زوجاتهم لأنهن أقمن علاقاتٍ غرامية مع غيرهم، وغالبًا ما يكون ميلهم الطبيعي هو التذكير بهذه العلاقة الغرامية كلما سنحت الفرصة. وبمجرد أن تشير زوجاتهم إلى أمرٍ يجب أن يتغير في حياتهم تجدهم يميلون بطبيعتهم إلى الرد عليهن: "هل هذا يعني أنكِ سترتمين بأحضان «جيم» إذا لم أتغير؟" أو: "قد أفقد صوابي أحيانًا، لكنني على الأقل أعرف كي أسيطر على نفسي من الناحية الجنسية!"

إن معرفتي بخطية شخص آخر تمثل مسألة قوية وخطيرة.

يكره الرجال عادة قول هذه الكلمات بقدر ما تكره زوجاتهم سماعها.. فهذه تعليقات قاسية وانتقامية، لكننا أحيانًا نكون أزواجًا قاسين ومحبين للانتقام.

ذات مرة طرحتُ على رجلٍ السؤال التالي: "هل سبق وشاركت مع زوجتك أنك تكره بشدة قول هذه الأمور؟"

فأجاب: "نعم، لقد فعلتُ هذا، ومع أنها تعلم أنني أكره قول هذه الأمور فهي تكره سماعها أيضًا."

إن قاعدة فضح خطيتنا وجعل أنفسنا أشبه بضوءٍ كشَّاف لشريك الحياة تمثل مهارةً ليس من السهل إتقانها.

وكي تنجح هذه القاعدة يجب أن نربطها بقاعدة الغفران (ستناقش في الفصل التاسع). إن قاعدة فضح خطيتنا وجعل أنفسنا أشبه بضوءٍ كشَّاف لشريك الحياة تمثل مهارةً ليس من السهل إتقانها، وتتطلب شجاعة كبيرة، وتحتاج إلى ما هو (بخاصةٍ للرجال) أشبه بمشهد درامي يتصف بالعاطفة الصادقة والجادة. لا يجب أن تكون العلاقة الزوجية تجربة تعذيب وإنما تجربة تعزيز- أي تشجيع أحدنا الآخر في طريق التقديس: «لذلك عزُّوا بعضكم بعضًا وابنوا أحدكم الآخر» (١تس ٥: ١١).

لنتأمل مثالاً من واقع الحياة عن كيف يمكن أن يساعدنا كشف الخطية في حياتنا على النمو من خلال إظهار دوافعنا الحقيقية.

الخطية المسببة للشعور بعدم الرضا

نظر «جريج» إلى زوجته «شارون» (هذه أسماء مستعارة) محاولاً عدم إظهار مشاعره الحقيقية.. كانا يحتفلان بعيد زواجهما الثامن بتناول وجبة عشاء، وكان «جريج» يشعر بالملل الشديد. ولأنه كان لديه هوس شديد بعالم الكمبيوتر فقد شعر بالحزن إذ كان يفضِّل أن يصرف هذا الوقت في التكلم عن الكمبيوتر مع أحد أصدقائه بدلاً من البحث عن شيء يقوله لزوجته.

اختارت «شارون» مطعمًا غير تقليدي، وهو في الوقت ذاته متجر لتحفٍ قديمة. كان «جريج» يهوى جمع لافتات إعلانية معدنية قديمة،

وكان عليه أن يقمع رغبته الشديدة في التجول وسط التحف القديمة. فراح يذكِّر نفسه أن هذا عيد زواجهما، وعليه أن يمضيه مع زوجته بدلاً من التجول وحده لإشباع رغبته.

غير أن «جريج» كان مقتنعًا أن عالم زوجته قد تَقلَّص إلى درجةٍ لا تُحتَمَل؛ فلم يكن لدى «شارون» الكثير لتقوله غير سرد أحداث نهارها المضجرة حدثًا تلو الآخر، على سبيل المثال: "وبعد أن نظفت الأرضية ذهبت لأستحم، وتخيل ماذا حدث؟ أوقعت «ربيكا» صحن البطاطس المسلوقة بأكمله، فداس عليه «بيتر»، وراح يطبع آثار قدميه في البيت كله.. بعد أن كنت قد انتهيت لتوي من تنظيف الأرضية!"

هزَّ «جريج» رأسه وهو يصارع بشدة مع أفكاره الداخلية.. لقد شعر بالحزن لأنه علِم أن زوجته كانت ترغب في الحصول على أمرٍ يظن أنه عاجز عن تقديمه لها؛ فقد كانت تريد شخصًا مهتمًا بتحديات واجباتها المنزلية، ولكن في الواقع المحافظة على نظافة الأرضية كان آخر ما يهم «جريج» سماعه. كان «جريج» يملك خيالاً خصبًا- يحب اكتشاف أي خلل في جهاز الكمبيوتر (يقول إنها "عملية أشبه بلعبة كلماتٍ متقاطعة رقمية")، بينما حكايات زوجته التي يبدو أنها لا تنتهي عن النظافة والنظام تُشعره بالنعاس.

بعد مرور عدة أيام اقترحتُ على «جريج» التالي: "لكن يا «جريج» هذه هي الطريقة التي يمكنك أن تخدم بها زوجتك.. من خلال الاستماع إلى عالمها. أتعتقدُ أن عقل يسوع كان متحمِّسًا لفكرة غسل أرجل التلاميذ والاستماع إلى جدالاتهم السخيفة مرارًا وتكرارًا؟ بالإضافة إلى ذلك، هؤلاء هم أولادك.. وبالطبع ستفكر «شارون» أنك مهتم بما يحدث معهم خلال النهار."

هزَّ «جريج» رأسه بدون حماس وقال: "أعتقدُ أنك على حق. ولكن..." وأوحى لي صمته هذا بأننا وصلنا إلى النقطة الجوهرية في هذه المسألة.. "حسنًا، أنا أعمل مع امرأة، ويمكننا التكلم معًا عن مصطلحات ورموز في الكمبيوتر كلانا يفهمها -لكن هذا أمرٌ لا يهم شارون نهائيًا، ولا شيء يضاهي وصولنا معًا إلى حلول لمشاكل الكمبيوتر. كما أشعر أنني قريبٌ جدًا من هذه السيدة."

وبعد فترة صمت أطول قال: "لم يعد لدينا شارون وأنا أي شيء مشترك."

في هذه اللحظة بالذات، وعند هذه النقطة فُضِحَت الكذبة، فسألته: "أي شيء مشترك؟ ماذا عن «بيتر» و«ربيكا»؟"

"حسنًا، ربما الطفلان هما العنصر المشترك."

"وماذا عن الحمل بهما، واعتنائكما بهما -وهذا يتضمن تنظيف الفوضى التي يسببانها؟ أتعتبر هذا كله أقل أهمية من تجميع بعض الأرقام بهدف كتابة برامج شفرة إلكترونية مع تلك الامرأة؟ أهذا ما تريد قوله؟ هل أولادك أقل شأنًا بالنسبة إليك من ابتكار برنامج إلكتروني جديد لن يستخدمه أحد بعد ثمانية عشر شهرًا؟"

أجابني «جريج» وهو يتنفس الصعداء: "يا إلهي، لا أعتقد أنني فكَّرتُ بالأمر بهذه الطريقة."

أراد «جريج» أن "يعيد كتابة" واقعه كي لا تبدو أفكاره شريرة كما هي حقًا. والحقيقة هي أنه بالفعل كان يقدِّر العمل في برامج الكمبيوتر أكثر من قضاء الوقت مع عائلته، وعوضًا عن الاعتراف وإعادة تقييم هذا الموقف، ألقى باللوم كله على زوجته: "شارون مُمِلة"، "شارون لا تفهمني"، "لقد تباعدنا كثيرا". كانت هذه الاتهامات مريحة أكثر من الاعتراف التالي:

"أنا أناني، ولديَّ مشكلة كبيرة في تنظيم أولوياتي- لدرجة التفكير في علاقةٍ غرامية حتى على المستوى العقلي."

إذا نظرنا إلى الموضوع بالطريقة الصحيحة، ونكون على استعدادٍ للنظر بصدقٍ في دوافعنا الدفينة، يصبح الزواج بمثابة صورة فوتوغرافية.. والنظر إلى الصور ليس ممتعًا في كل الأحوال. أتذكَّر مرةً عندما كنا ننظر إلى بعض الصور التي طبعناها في أحد المتاجر، وأدركتُ للمرة الأولى الزيادة الكبيرة في وزني.. "كم يبدو وجهي ممتلئًا!" والميل الطبيعي هو إلقاء اللوم على زاوية الكاميرا التي أُخِذَت منها الصورة، لكن في الحقيقة الكيلوجرامات السبعة الزائدة كانت واضحة من كل زاوية يمكن أن تلتقط منها الصور!

الأمر نفسه يحدث في الزواج عندما تتعلق الأمر بخطيتنا.. فنحن نستاء من الحقيقة عندما تُفضح؛ فنحاول إلقاء اللوم على شريك حياتنا- كما نفعل مع الكاميرا.

في كتابي «السعي المجيد» (The Glorious Pursuit) أتناول حقيقة أعتقدُ أنه يمكن تطبيقها هنا.. المؤمن الناضج يجد اكتفاءه في العيش بأمانةٍ أمام الله.. أي أن الأمر يكمن في كونه شخصًا ناضجًا، وليس التواجد بجوار شخص بعينه. تنبت معظم جذور عدم الرضا داخل الزواج في تربة كراهية الذات. عندما لا نحب ما أنجزناه، وما صرنا عليه، نسمح لتوجهات أنانية وخاطئة أن تَدُسَّ السُّم في أفكارنا، وتقودنا لفعل سلوك مشين، وفجأةً يصير كل ما نتمناه هو الخروج من المأزق.

لكن التجاوب الناضج ليس الهرب، بل التغيير- تغيير أنفسنا.

عندما يطل الشعور بعدم الرضا برأسه في حياتي الزوجية -كما يحدث في كل زواج تقريبًا- يجب أن أراجع أولوياتي. إن الأوقات التي

أكون فيها أكثر سعادة واكتفاءً في زواجي هي الأوقات التي أنوي فيها اكتساب معنى واكتفاء من زواجي عن طريق أن أصبح زوجًا أفضل عوضًا عن طلب زوجة "أفضل".

لكن التجاوب الناضج ليس الهرب، بل التغيير- تغيير أنفسنا.

إذا كنت مسيحيًا مؤمنًا فالحقيقة من منظور الكتاب المقدس هي أنك لا تستطيع استبدال شريك حياتك بآخر، غير أنه يمكنك تغيير نفسك. ويمكن أن يحقق هذا التغيير الاكتفاء الذي اعتقدت مخطئًا أنك لن تجده سوى بعد تغيير هذا الشريك. فمن ناحية، أجد الأمر مضحكًا: نعم، نحن بحاجةٍ إلى تغيير الشريك، غير أن الشريك الذي يحتاج أن يتغيَّر ليس هو الآخر، بل نحن!

لا أعلم لماذا تنجح هذه الاستراتيجية.. لا أعلم كيف يمكنك أن تكون غير راضٍ في زواجك، وعندما تقدم نفسك لله طالبًا منه إحداث تغييرٍ في حياتك، تجدُ نفسك فجأة أكثر من راضٍ في زواجك مع شريك حياتك ذاته. لا أعلم لماذا ينجح هذا الأمر، كل ما أعرفه أنه فعلاً ينجح. تتطلب هذه العملية وقتًا، وقد يمتد هذا الوقت لسنوات.. لكن إذا كان قلبك مدفوعًا برغبة التقرُّب من الرب يسوع، ستحصد فرحًا بأن تتغير لتصبح أكثر شبهًا به. لن تجد هذا الفرح إذا أقدمت على فعل شيء يسيء إلى الله- كطلب الطلاق، أو الدخول في إقامة علاقة غرامية.

في القرن التاسع عشر، هجرت «ماري داجولت» أولادها لتلحق بأشهر عازف بيانو في أيامها، وهو الملحن والفنان المجري المبدع «فرانز ليزت». وبعد أن خمدت شرارة افتتان «ماري» به، وأحست بحقيقة افتقادها لأولادها، قيل إنها عبَّرت عن الملاحظة التالية: "عندما يسحق الإنسان كل ما حوله، يكون قد سحق نفسه أيضًا."

تقودك الخطية إلى تدمير الذات إذا سمحتَ لها بذلك. والخطية نفسها التي تواجه رجلين مختلفين قد تقود أحدهما إلى فهمٍ أعظم، وبالتالي إلى نضوجٍ ونموٍ أعظم، بينما تقود الرجل الآخر إلى دوامة من النكران، والخداع، والدمار الروحي.

إن الخيار لنا، والخطية هي حقيقة في هذا العالم الساقط، وكيفية تجاوبنا معها يحدِّد ما إذا كان زواجنا سيصبح كارثة تُسجَّل أم تاج نجاح.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) ما هو أكثر شيء أدهشك عن اكتشاف خطيتك في السنة الأولى أو الثانية من الزواج؟

(٢) ما هو انطباعك العام عن فكرة أن الله يقصد أن يستخدم زواجك ليكشف لك عن خطيتك ويساعدك لتتحرَّر منها؟

(٣) هل يشكِّل زواجك مكانًا آمنًا لتُكشَف فيه خطيتك؟ كيف يمكن أن يساعدك زواجك في هذا الصدد؟

(٤) كيف يساعدك تعليق «جاري» الذي يقول: "لا يقصِّر الأزواج في محبتهم لبعضهم البعض بقدر ما يقصِّرون في توبتهم" في إصلاح زواجٍ مضطرب؟

(٥) هل توافق «جاري» قوله: "تنبت معظم جذور عدم الرضا داخل الزواج في تربة كراهية الذات"؟ كيف يمكننا تلافي عقلية "الفرار" -أي الهروب مما فعلناه أو ما أصبحنا عليه؛ وعوضًا عن ذلك نستخدم زواجنا لمقاومة الخطية التي انفضحت؟

(٦) في رأيك، لماذا يخشى الأزواج في أغلب الأحيان من الاعتراف أو البوح بخطاياهم؟ ما التغيير الذي يجب أن يطرأ على زواجنا كي يصبح مكانًا آمنًا لنا فنصبح أكثر شفافية؟ (أو ما هو الشيء الحقيقي في زواجك الذي ساعدك لتصبح أكثر شفافية؟)

(٧) حدِّد أهم نقاط الضعف في طريقة تواصلك مع شريك حياتك.. وما هي الفضائل الأخلاقية والروحية المقابلة لها؟ (مثلاً القسوة

يقابلها اللطف، والانتقاد يقابله التشجيع.) على أي منهما ستعمل في الفترة القادمة؟

(٨) هل سبق واستخدمت معرفتك لضعفٍ يعانيه شريكك لتحرجه أو تعاقبه بطريقة أو بأخرى؟ كيف كان بالإمكان استخدام هذا الموقف لصالح شريك حياتك وتعزيز نموه الروحي؟

الفصل السابع

التاريخ المقدس

اكتساب فضيلة المثابرة

يصعُب على المرء جدًا أن يكون مخلصًا بشكل كامل، حتى تجاه الأفكار والأشياء التي يحبها، وفوق كل شيء الأشخاص الذين يحبهم. فلا وجود للإخلاص الكامل، كما لا وجود للحب الكامل أو الجمال الكامل. ومع ذلك، من الممتع أن نحاول.

– «كاثرين آن بورتر»

والرب يهدي قلوبكم إلى محبة الله، وإلى صبر (مثابرة) المسيح.

– (٢تسالونيكي ٣: ٥)

دخلت «مارتي» الزواج وهي تحمل عبئًا هائلاً.. علاقة سابقة فاشلة (خارج إطار الزواج) تضمنت علاقة جنسيَّة، وانفصالاً مؤلمًا جدًا. ونتيجة لذلك، كانت تصارع مع مشاعر عدم الثقة بالنفس، حتى بعد أن تزوجت؛ فهي لم تتمكَّن من تخطي فكرة أن "النزاع يؤدي إلى الانفصال، والانفصال يؤدي إلى ألم شديد."

وبعد عدة سنوات من الزواج، بدأت «مارتي» وزوجها يتشاجران بسبب أمور مادية، أدت إلى أسابيع من المناقشات الحادة (تخللها في بعض الأحيان نوبات من الصراخ)، ولكن دون الوصول إلى نتيجة. وبلغ الشجار حدته، حتى ظهر التوتر واضحًا في علاقتهما الزوجية. كانت أوقات الفرح قليلة، وحلَّ مكانها القلق والإحباط.

وفي العقل الباطن تسللت مجددًا إلى «مارتي» المشاعر التي نشأت عن علاقتها الفاشلة السابقة. ولأنها لا تزال تتألم من انفصام هذه العلاقة، فقد عاشت قلقًا شديدًا حول ما إذا كان زواجها سيتخطى هذه المحنة أم لا. ففي الماضي، كانت القضايا صعبة الحل بالنسبة إليها تعني انفصالاً حتميًا، لذلك بدأت تنوح في نفسها على علاقة لم تَمُت بعد.

في إحدى الليالي، وبعد مناقشة حادة أخرى بدون حل، قام زوج «مارتي» بعمل رائع يتسم بالعمق والبصيرة لن تنساه «مارتي» طوال حياتها. فيما هي تخبر القصة كان الفرح يملأ عينيها نظرًا للاهتمام الرقيق الذي أبداه زوجها تجاهها: "غمرني بيديه وقال: «مارتي» أريدك أن تعرفي أنه مهما حدث، فأنا لن أتخلى أبدًا عن هذا الزواج. وحتى لو اضطررنا إلى العيش في هذا التوتر لبقية حياتنا، فأنا لن أتركِ أبدًا."

فقد وجدا معنًى عميقًا في حقيقة بسيطة وهي أن زواجهما سيستمر.

وبينما كانت «مارتي» تروي هذه القصة، انخرطت في البكاء. وعلى الرغم من وجود خلاف شبه دائم في زواجها، فهي لم تُرد أن تنتهي هذه العلاقة، والآن وعدها زوجها بأنها لن تنتهي.

اتفقت «مارتي» وزوجها في اعتبار تاريخهما معًا شيء مقدس؛ فقد وجدا معنىً عميقًا في حقيقة بسيطة.. وهي أن زواجهما سيستمر. وفجأة،

بدت المشكلة الأساسية مشكلة عابرة، وكانت بكل المقاييس أقل أهمية من حقيقة أن تاريخهما معًا لا يمكن انتهاكه.

نحن نعكس النعمة المذخرة في الزواج عندما نفهم قدسية بناء تاريخ معًا. لقد اعتبر الفيلسوف الألماني «فريدريك نيتشه» أن الزواج هو "محادثة طويلة"، ويحثنا لذلك على الزواج من صديق. إذا كان هذا الأمر صحيحًا، سيكون الزواج ليس أكثر من ظل محادثة أخرى سبقت محادثتنا الخاصة.

إله إبراهيم

طُلِب من أحد اللاهوتيين المشهورين مرة أن يقدِّم أفضل إثبات عن وجود الله؛ فأجاب بدون تردد: "الشعب اليهودي".

فعلى مدى تاريخ من العنف والقلائل، تمسَّك الشعب اليهودي أحيانًا بأرفع الخيوط عندما أراد أحد الطغاة أو الأعداء القضاء عليه نهائيًا. ومع ذلك، وعلى مر القرون، تمكَّنوا من البقاء على قيد الحياة؛ فتاريخهم تاريخٌ مأساوي ومؤثِّر.

وتكمن في هذا التاريخ حقيقة لاهوتية.. يظهر الله في العهد القديم متفردًا في ارتباطه بشعبٍ. طوال آلاف السنين، كان الناس يعبدون إله التلال، أو إله الوادي، أو إله البحر، إلا أن فكرة وجود إله إبراهيم وإسحق ويعقوب –إله للشعب– كانت فكرة جديدة!

وما يثير الدهشة أكثر هو الخط المباشر لهذه العلاقة.. من آدم وحواء إلى إبراهيم وسارة، ومن إبراهيم وسارة إلى داود وبثشبع، ومن داود وبثشبع إلى مريم ويوسف. لقد كان هذا التاريخ مقدسًا! والمعنى مُستمد من حقيقة أن الله كان مع الآباء والأجداد وآباء الأجداد، وآبائهم وأجدادهم من قبلهم.

هذه العلاقة بين الله وشعبه لم تكن سهلة على الإطلاق.. فقد مرَّت عليهم فترات من الفرح العارم والاحتفال (لاحظ علاقة الله الغرامية مع شعبه عندما قام سليمان بتدشين الهيكل)، وفترات أخرى من الإحباط والغضب (عندما سمح الله للطغاة الأجانب بإذلال شعبه)، وأوقات من العصيان والارتداد (عندما سعى بنو إسرائيل وراء آلهة آخرى)، وفترات مؤلمة من الصمت (بما فيها مدة أربع مئة سنة بين العهدين القديم والجديد).

والآن، خذ هذه الأمثلة وتأمل في تفاصيلها، مفكرًا فيها في إطار أضيق. مرَّت فترات من الفرح العارم والاحتفال، والإحباط والغضب، والعصيان والارتداد، وفترات موجعة من الصمت.. هل يبدو الأمر مشابهًا لأي علاقة تعرفها؟ زواجك مثلاً؟

من هذا المنظور، تتيح لنا العلاقة الزوجية اختبار التماثل مع الله وعلاقته بشعب إسرائيل. هل عرف زواجك فترات من الفرح العارم والاحتفال؟ بإمكان الله أن يشعر بك وأن يفرح معك. هل اختبرت مثلاً مرارة الخيانة وعدم الإخلاص؟ أو الإحباط الناتج عن الصمت الموجع؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنت لست وحدك، وقد أُعطيتَ المواد الأولية التي يمكنك أن تبني من خلالها علاقة أكثر حميمية مع الله.

إن صفة واحدة تجعل تاريخ الله مع شعب بني إسرائيل متماسكًا- ألا وهي المثابرة. عندما هجر شعب إسرائيل الله، لم يتخلَّ الله عنهم.. قد يكون تراجع عنهم لفترة، إلا أن التزامه الكامل نحوهم بقيَ ملموسًا وصامدًا.

أُشير بشكل خاص إلى فترة الصمت بين العهد القديم والعهد الجديد، والتي استمرت لما يقرب من أربع مئة سنة. كثيرًا لا تكون القضية أن زواجنا جيد أو سيئ- فالمركب تسير على أية حال؛ نحن نتعب من الروتين

والرتابة، وأحيانًا تفتر حماستنا تجاه بعضنا البعض. «كاثلين» و«توماس هارت» يصوِّران الأمر بهذه الطريقة: "يُعتَبَر الزواج نُزهة طويلة يقوم بها شخصان معًا. أحيانًا تكون الطريق مثيرة للاهتمام، وأحيانًا تكون مملَّة بعض الشيء. في بعض الأوقات تكون النزهة شاقة للشخصين معًا أو لأحدهما. أحيانًا تكون المحادثة مثيرة، وأحيانًا أخرى لا يُقال الكثير. لا يعلم المسافران تمامًا إلى أين يتوجَّهان ولا متى يصلان."[1]

من هذا المنظور، تتيح لنا العلاقة الزوجية اختبار التماثل مع الله وعلاقته بشعب إسرائيل.

يزيد من تأثير «الرتابة» حقيقة أن هذه النزهة هي بالنسبة إلينا أطول مما كانت عليه بالنسبة إلى أجدادنا. ففي القرون السابقة، كانت زيجات كثيرة تنتهي لأن النساء كنَّ غالبًا ما يَمُتن خلال مخاض الولادة. إن «توماس كرانمر»، رئيس أساقفة «كانتربيري» بين سنتي ١٥٣٣ و١٥٥٣، فَقَد زوجته في السنة الأولى من زواجهما. و«جيريمي تايلور» (١٦١٣– ١٦٦٧) أسقف وكاتب إنجليزي فَقَد زوجته بعد أقل من ثلاثة عشر عامًا من الزواج. وزوجة «چون كالفن» لم تصمد حتى السنة العاشرة لزواجهما، بينما «آن» زوجة «چون دون» تُوفِّيت بعد مرور ستة عشر عامًا فقط على زواجهما.[2]

كذلك لم يكن الرجال يعيشون لمدة طويلة كما يعيشون اليوم. منذ عهدٍ قريب، في عام ١٨٧٠، لم تكن المرأة تستطيع أن تعتمد على بقاء زوجها على قيد الحياة عندما يكون أصغر أبنائها قد ترك البيت. في عام ١٩١١، كان متوسط مدة الزواج ثمانية وعشرين عامًا؛ وبحلول عام ١٩٦٧ ارتفع هذا المتوسط إلى اثنين وأربعين عامًا.

اليوم، يمكن تعريف الزواج فعليًا عبر استخدام لغة المثابرة على أنه

اليوم، يمكن تعريف الزواج فعليًا عبر استخدام لغة المثابرة على أنه المحافظة على علاقة طويلة الأمد.

المحافظة على علاقة طويلة الأمد. ومع تطور المجال الطبي وارتفاع متوسط الأعمار، بات اليوم من الضروري أن تحتفل بعيد زواجك الستين أو السبعين قبل أن تظهر على شاشات التليفزيون وصفحات الجرائد.

هذه الظاهرة الحديثة نسبيًا، أي الزواج لمدة ستة أو سبعة عقود، يمكن أن تضيف مكاسب إضافية إلى حياتنا الروحية ونموها. يُساعدنا الزواج على اكتساب شخصية الله ذاته عندما نبقى مع شريك الحياة في الأوقات الحلوة والمرة. كل زفاف يلد تاريخًا جديدًا، بداية جديدة. ويكمن المعنى الروحي للزواج في المحافظة على هذا التاريخ معًا.

في الواقع، يقترح بعض الخبراء أن الزوجين يحتاجان إلى ما بين تسعة وأربعة عشر عامًا كي "يخلقا ويشكِّلا كيانه" بحق.[3] عندما أسمع أن زوجين انفصلا بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات فقط على الزواج، أشعر بالحزن لأنهما لم يبدءا بعد في اختبار معنى الزواج الحقيقي. الأمر مشابه لتسلُّق جبل حتى منتصف الطريق، ولكن دون التمكُّن من مشاهدة المناظر التي يطل عليها؛ فأنت في وسط المهمَّة، وتضع كل كيانك في النضال، إلا أنه من المبكر جدًا الحصول على المكافآت الكاملة. إن تقييم زواجك في وقت مبكر يشبه محاولة أكل كعكة نصف مخبوزة. أن يُصبح الزوجان شخصًا واحدًا -بالشكل

إنها رحلة لا تنتهي أبدًا فعليًا، إلا أن معنى الحميمية يحتاج على الأقل إلى عشر سنوات ليظهر فعليًا في العلاقة الزوجية.

الأعمق والأقصى حميمية- أمر يتطلب وقتًا. إنها رحلة لا تنتهي أبدًا فعليًا، إلا أن معنى الحميمية يحتاج على الأقل إلى عشر سنوات ليظهر فعليًا في العلاقة الزوجية.

فضيلة المثابرة

نحن نعيش في عالم مليء بالانهزاميين.. فالموظفون يتركون وظائفهم حالما تصبح ظروف العمل صعبة، ويتخلى أصحاب العمل عن موظفيهم حالما تنخفض أرباحهم. ويتخلى الناس بشكل معتاد عن كنيستهم، ويتوجهون إلى جماعة أخرى لدى تعرضهم لأي نوع من الاستفزاز. بل ويحذر الكتاب المقدس من أن البعض سيتخلون عن إيمانهم أيضًا (راجع ١تي ٤: ١).

يتكلم الرب يسوع عن الرغبة في التخلي عن الإيمان في مَثَل الزارع، الذي يمكن تسميته بشكل أدق مَثَل أنواع التربة، لأنه يدور فعلاً حول هذه الفكرة. في إنجيل لوقا الأصحاح الثامن، يحذِّر الرب يسوع من أن البعض سيسمعون كلام الله ويؤمنون إلى حين، «وفي وقت التجربة يرتدُّون» (ع ١٣). وآخرون يؤمنون، إلا أن إيمانهم يختنق «من هموم الحياة وغناها ولذاتها، ولا ينضجون ثمرًا» (ع ١٤). غير أن يسوع يطوِّب الذين «يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح، ويثمرون بالصبر (المثابرة)» (ع ١٥).

> نحن نعيش في عالم مليء بالانهزاميين.

لطالما أكدت الروحانية المسيحية الحقيقية على المثابرة: «أما الذين بصبر (مثابرة) في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية. وأما الذين هم مِنْ أهل التحزب، ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم، فسخطٌ وغضبٌ.» (رو ٢: ٧ و٨).

البِر -أي القداسة الحقيقية- يظهر بمرور الوقت من خلال مثابرتنا. من السهل نسبيًا "التودد" للآخرين مظهرًا البِر.. كأن تكون أحيانًا مهذبًا مع السائقين الآخرين (إذا كان مزاجك جيدًا)، وأن تساعد شخصًا بفتح الباب له (إذا كان لديك الوقت)، وأن تترك بعض المال في صندوق التقدمات (طالما لا تحتاج إليها). إلا أن هذا التصرف هو في الحقيقة بِر سطحي؛ فما يبحث عنه الله هو بِر دائم.. التزام دائم باتخاذ القرار المناسب، حتى ولو شعرت أن شيئًا ما يشدك في الاتجاه المعاكس. القداسة أبعد بكثير من أن تكون مجرد ميل للقيام بأعمال رأفة أو خير أحيانًا؛ إنها التزام بالتسليم الدائم أمام الله.

على الرجال المتزوجين أو السيدات المتزوجات الذين يجدون أنفسهم "يقعون في حب"، أو بالأحرى ينجذبون إلى، شخصٍ آخر أن يختاروا باستمرار ألا يتصرفوا بشكل غير ملائم، وأن ينتبهوا إلى ما يقولونه. فالأمر يتطلب أكثر بكثير من قرار لمرة واحدة للحفاظ على نزاهتم؛ عليهم أن يثابروا في حياة البِر.

ولأن الزواج محادثة طويلة جدًا، فإنه يمر بالكثير والكثير من المراحل، وتكون بعض المراحل أصعب من غيرها. بالطبع، تشكل تربية الأولاد الصغار تحديًا كبيرًا أمام تعزيز الحميمية والمرح.. إنها عملٌ مضنٍ فعلاً. يشير الباحثان، «وليام چيه. ليديرير» و«دون دي. جاكسون» إلى أنهما "لم يلاحظا أبدًا وجود انسجام دائم وشامل بين أي زوجين خلال فترة تربية الأطفال."(4)

في الحياة لابد أن نقابل بعض الأوقات التي -بكل صراحة- علينا تحمُّلها. فيما نربي أبناءنا، نختبر أوقاتًا ممتعة على نحوٍ عجيب؛ إلا أن جوانب أخرى من حياتنا كزوجين -بما فيها وقت خلوتنا معًا- ستمر بالتأكيد بصعوبات ومعاناة. إنها مجرد فترة زمنية قصيرة، ومن الحماقة

أن نتخلى عن مثابرتنا في وقت يجب على أي زواج أن يتأقلم ويعيد تقييم التوقعات السابقة.

ما الذي يدفعنا إلى التخلي عن زواجنا؟ مع أن الرب يسوع لم يكن يقصد في مَثَل أنواع التربة بشكل خاص العلاقة الزوجية، فإن المثل يشمل معظم أسباب فشلنا في المثابرة في الزواج. البعض منا يستسلم عندما يأتي «وقت التجربة» (لو ٨: ١٣).. كنا نظن أن الزواج أمر سهل، لكن عندما تتعقد الأمور ننسحب.

يستسلم البعض الآخر عندما يختنقون من «هموم الحياة» (لو ٨: ١٤). يخبرنا المشيرون المتخصصون في الزواج أن المشاكل المادية حطَّمت الكثير من الزيجات أكثر من أي شيء آخر. كذلك فإن أنانيتنا وخطيتنا كلتيهما قادرتان على تلويث حب كان في السابق حبًا غاليًا.

وما الذي يمدنا بالقوة للمثابرة في فعل الخير؟ يشير الرسول بولس بالإجابة في رسالته إلى رومية الأصحاح الثاني، في النص المذكور أعلاه.. فهو يشير إلى أننا في إصرارنا نطلب «المجد والكرامة والبقاء» (رو ٢: ٧). تشير هذه الكلمات إلى تاريخ متعاقب، إلى حياة بعد الموت (في نهاية الأمر لا وجود للخلود في هذا العالم).. لا معنى للإصرار إلا إذا كنا نعيش بإحساس عميق بوجود الأبدية. سنتوسع في هذه الفكرة في الفصل التالي، لكن لابد من ذكر هذه الحقيقة ولو بإيجاز في هذا الفصل أيضًا.

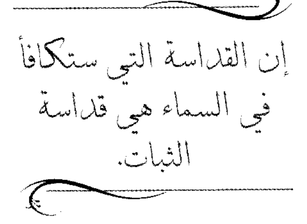
> لا معنى للإصرار إلا إذا كنا نعيش بإحساس عميق بوجود الأبدية.

قد يحتاج الأشخاص الذين يصارعون مع مشاعر الافتتان بشخص غير شريك حياتهم إلى اتخاذ قرار قد يجعلهم على المدى القصير أقل فرحًا وأقل سرورًا (مع أنني أعتبر أن هذا القرار سيجعلهم في كل الأحوال

أكثر اكتفاءً على المدى البعيد). يرتكز الصبر المسيحي على فكرة وجود حياة أخرى، تُعرف عادة بالسماء، وهي حياة أبدية، وعالمنا هذا هو مجرد إعداد لها. إن العالم الآتي مليء بالمجد والبهاء، بحيث يستحق التضحية الآن لنيل المجد والإكرام والحياة الأبدية هناك.

حول أي عالم تتمركز حياتك؟ سيُظهر زواجك في نهاية المطاف الجواب على هذا السؤال.. إذا كان لدينا آفاق أبدية، فإن التحضير للأبدية عبر الاستمرار في زواج صعب يبدو أكثر منطقية من تدمير عائلة للحصول على الراحة بطريقة سهلة وسريعة. تتسم معظم حالات الطلاق بتصرفات شخص يهرب من بضعة عقود صعبة على أبعد تقدير؛ ومن أجل هذه الراحة يتخلى عن المجد والإكرام اللذين يدومان إلى الأبد. إنها مقايضة رخيصة جدًا!

إن القداسة التي ستكافأ في السماء هي قداسة الثبات. اقرأ الكتاب المقدس بأكمله، وأنا أضمن لك أنك لن تجد فيه أي ذكر لـ «إكليل في السماء» يُقدَّم إلى الشخص الذي أمضى حياة "أكثر سعادة" على الأرض. بكل بساطة، لا وجود لتلك المكافأة. كذلك لا وجود لنيشان سماوي للمؤمنين الذين شعروا بأقل قدر من الألم.



إن أولوية التاريخ المقدس هي أولوية أبدية؛ والزواج تذكير رائع وفعال بهذه الحقيقة. من بين أكثر العبارات شاعرية في الكتاب المقدس واحدة أتمنى لو يضعها كل زوج وزوجة في مكان بارز في منزلهما، وهي موجودة في العدد الخامس من الأصحاح الثالث من رسالة تسالونيكي الثانية: «والرب يهدي قلوبكم إلى محبة الله، وإلى صبر (مثابرة) المسيح.»

هذا هو تمامًا ما أريد أن يملأ قلبي: محبة الله ومثابرة المسيح. هذه

هي أفضل وصفة في الكتاب المقدس للقداسة ولحياة "ناجحة" هنا على الأرض. آه، كم أرجو أن يتوجه قلبي أكثر فأكثر نحو محبة الله! آه كم أود أن أتعلم المثابرة من المسيح نفسه!

والبديل مشروح في الفصل الثاني من رسالة بولس إلى أهل رومية؛ بدلاً من المكافأة السماوية، سيحصل البعض على «سخط وغضب». ومن هم هؤلاء؟ «الذين هم مِنْ أهل التحزُّب (الأنانية)، ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم» (رو ٢ : ٨). وهل من أنانية أكثر من تجاهل ما هو الأفضل لأولادك- أي منزل سليم وآمن، ومن التخلي عن زواجك لأنك تعبت من شريك حياتك، حتى ولو كان هذا الأمر سيُضعف كثيرًا من خدمة المصالحة التي ناقشناها في الفصل الثاني؟

أتمنى لو أن الرجال بشكل خاص يدركون مخاطر الطلاق.

أتمنى لو أن الرجال بشكل خاص يدركون مخاطر الطلاق، على الأقل من وجهة نظر المرأة. فقد تفتحت عيناي على هذا الأمر بطريقة جديدة تمامًا في أحد الأيام عندما رأيت خطر تحطيم تاريخ الزواج إلى الأبد.

مستقبل غير مضمون

إن أحد أكبر مخاطر تحطيم تاريخ أي زواج يتمثل في حقيقة عدم قدرتنا على معرفة المستقبل.. سأشرح هذا الأمر من خلال قصة حدثت بالفعل.

ظهرت أنانيتي بأبشع أشكالها عندما أقلتني من المطار في أحد الأيام سيدة من المجموعة التي دعتني لألقي كلمة أمامها. وقد أرشدتني

للجلوس في الجزء الخلفي من سيارتها إلى جانب ابنها، ولكن بمجرد أن فُتح الباب حتى صعقت؛ فقد كانت الشاحنة قذرة للغاية. كنت أرتدي سروالاً (بنطلون) من القماش وسترة (چاكيت)، حيث كان عليَّ أن أحاضر في وقت لاحق من ذلك النهار، وكنت حذرًا جدًا من الجلوس في ذلك المقعد بالأخص، لأنني كنت متأكدًا تمامًا أنني سأجد نوعًا من الطعام ملتصقًا بملابسي من الخلف عندما أخرج.

إن أحد أكبر مخاطر تحطيم تاريخ أي زواج يتمثل في حقيقة عدم قدرتنا على معرفة المستقبل.

ولأنني لم أكن أرغب في إهانة السيدة، بذلتُ جهدي لأنظف في هدوء أكبر قدر ممكن من الطعام والقذارة قبل أن أجلس، لكن ابنها ورائي لم يسهِّل عليَّ هذه المهمة؛ إذ كان يحثني على أن أجلس بسرعة.

وقد اجتاحتني أفكار أنانية رهيبة..

"كيف سمحت أن تُبقي السيارة على هذه الحالة وهي تعرف أنها ستُقلني؟"

في غضون ساعات اتضح لي أن هذه السيدة مُطلقة، ولذلك ترعى أولادها بمفردها. وقلت في نفسي: "هذا يفسر قذارة السيارة.. فلديها ما يكفيها من الواجبات لتقوم بها."

لاحقًا، عندما سنحت لنا فرصة التعارف أكثر، أخبرتني أنها تخضع لجلسات من العلاج الكيميائي. وقد أضعفها العلاج لدرجة أنه لم يعد بوسعها العمل لأكثر من يوم واحد فقط في الأسبوع كنادلة في أحد المطاعم، وكانت تقضي الأيام الستة الباقية تخزن ما يكفي من القوة لتعود إلى المطعم من أجل الحصول على مئة دولار. كانت تتقاضى مبلغًا لا يُذكر، وتحاول تربية ثلاثة أولاد بمفردها، وتتحمل العلاج الكيميائي، ومع ذلك ضحَّت بوقتها وطاقتها ومالها (فالوقود ليس مجانيًا بالطبع)

لتأخذني في جولة في المدينة، متطوعة بوقتها من أجل هدف صالح.

لقد كانت بطلة بحق، وكنت مغتاظًا من نفسي؛ فقد استأت من مقعد قذر بسبب احتمالية أن أتعرض للحرج لدخولي إلى مكان جديد وثيابي متسخة وهو أمر تافه بكل ما في الكلمة من معنى مقارنةً بالتحديات الحياتية الحقيقية التي كانت تواجهها هذه السيدة.

وبعدما ندمت ورحت أفكِّر كخادم بدلاً من نجم مشهور، اتجهت أفكاري نحو زوجها.. كيف يمكن أن يسمح رجلاً مسيحيًا مؤمنًا لسيدة حملت منه أولاده الثلاثة أن تجتاز هذا العذاب بمفردها؟ حزنتُ كثيرًا من أجل هذه السيدة، وانفطر قلبي عليها. فاتصلتُ هاتفيًا بزوجتي، وأخبرتها تفاصيل هذه القصة التعيسة؛ وصحتُ قائلاً: "أي نوع من الرجال لا يسارع فورًا لمساعدة شخص في هذه الحالة وهو قد تعهد من قبل أمام الله وأمام جمع من الناس في الكنيسة أن يبقى معها «في الصحة والمرض»؟ إلى أي درجة كان قلبه متحجرًا كي لا يتأثر بألم شخص أحبَّه في السابق؟"

عندما طلَّق هذا الزوج هذه السيدة، بالطبع ما كان ليتنبأ أنها ستصاب بالسرطان، ولكن لهذا السبب تمامًا نحن نبني تاريخًا مقدسًا.. فلا أحد منا يستطيع أن يعرف بدقة ما يخبئ له المستقبل. هذه السيدة تخلت عن مهنتها، ولم تصقل أي مهارة مهنية جديرة بالذكر، لأنها كانت تربي أولاد هذا الرجل الثلاثة.. لقد أضعفت نفسها من أجل مصلحته هو. وبعد ذلك، أي بعد أن بنى مسيرته المهنية وكانت هي لا تزال تحمل مسؤولية تربية أولادها الثلاثة، فسخ تاريخهما معًا وتركها مُعدمة تقريبًا.

عندما تطلِّق شريك حياتك، إنك لا تملك أدنى فكرة عما يخبئه المستقبل

له أو لها. ويمكن أن يؤدي هذا الموقف إلى فوضى -وهذا ما يحدث غالبًا؛ لأن الاحتمالات تقول إن أحد الزوجين على الأقل سيحتاج إلى رعاية في القريب العاجل. بالتأكيد، هذا النوع من التجاهل يعبِّر عن «التحزب»، أي الأنانية، التي يقول بولس الرسول إنه يؤدي تلقائيًا إلى «سخط» الله «وغضبه».

كذلك يحل غضب الله على هؤلاء الذين «لا يطاوعون للحق».. من الواضح أن بولس يتكلم هنا عن حقيقة الخلاص، ولكن ينبغي استنتاج حقيقة أخرى من هذا النص.. ألا وهي حقيقة إرادة الله ونواميسه.

يعرف معظمنا أن الله يكره الطلاق لأن الكتاب المقدس يذكر الأمر بوضوح: «لأنه يكره الطلاق؛ قال الرب إله إسرائيل» (ملا ٢: ١٦). وقد استفاض الرب يسوع في هذه النظرة عن الطلاق، وقال لتلاميذه «إن مَنْ طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومَنْ يتزوج مطلقة فإنه يزني» (مت ٥: ٣٢). إن السبب الوحيد الذي سمح الله من أجله بالطلاق في العهد القديم هو قساوة القلوب، وهو ما ذكره الرب يسوع أيضًا في موضع آخر (راجع مت ١٩: ٨ و٩).

عندما تطلِّق شريك حياتك، إنك لا تملك أدنى فكرة عما يخبئه المستقبل له أو لها.

هذه، هي الحقيقة يا أصدقائي. ويحذِّر الرسول بولس في الأصحاح الثاني من رسالته إلى أهل رومية من أن رفض هذه الحقيقة يثير سخط الله وغضبه. أتعجَّب من الرجال المسيحيين القادرين على ترك زوجاتهم وأولادهم مُعدمين ماديًا، كي يسعوا وراء علاقة جديدة، مُصرين في الوقت ذاته على وهم أن يسوع المسيح لا يزال سيدًا على حياتهم.

مؤخرًا اتصل أحد أصدقائي المقربين برفيق له من الجامعة، فأجابت

زوجته قائلة: "آسفة، جريج ليس هنا."

سأل «مايك» بدون قصد: "أين هو؟"

أجابت: "لقد رحل."

وكان في صوتها نبرة توحي بأن فكرة أنه "قد رحل" مروعة ومؤلمة.

كان رفيق الجامعة هذا لديه ثلاثة أبناء صغار. وقد صرَّح «مايك» أنه أراد أن يمسك صديقه ويهزه بقوة، ويقول له: "هل لديك أدنى فكرة عن بشاعة تصرفك الشرير؟"

إلا أن عالمنا لا ينظر دائمًا إلى الطلاق أو الانفصال على أنه أمر شرير، أليس كذلك؟ إنه لأمر "رومانسي"، إنه خطوة "شُجاعة"، إنه "من أجل الأفضل على المدى البعيد."

عندما نبني تاريخًا مقدسًا معًا فهذا يعلمنا أن نثابر في عمل الصلاح، حتى عندما نريد أن تعمل شيئًا آخر. إن هذا الالتزام بالمثابرة يعلمنا نكران الذات، وهو من أساسيات الإيمان المسيحي. وفي السياق نفسه، علينا أن نرفض الأنانية.. «التحزب»، وعوضًا عن ذلك علينا أن نفكر في المستقبل.. مستقبل يتخطى هذا العالم إلى العالم الآتي. إذا كنت لا تؤمن بالسماء، فإن الطلاق قد يبدو أمرًا منطقيًا. لكن حالما تصبح السماء طرفًا في المعادلة، يصبح ثمن الطلاق- سخط الله وغضبه، والمخاطرة بالمستقبل بالتوجه الأناني- ثمنًا باهظًا جدًا.

> إذا كنت لا تؤمن بالسماء، فإن الطلاق قد يبدو أمرًا منطقيًا.

مثاليات

لقد بلغنا مرحلة متقدمة ويمكننا إبداء وجهة نظر قوية. يُعرِّف الطلاق، أنه فشل.. في الحب، والتسامح، والصبر؛ أو (على الأقل) هو نتيجة اختيار غير صائب لشريك حياة صعب المراس من الأساس. ولكننا كلنا فاشلون بشكل أو آخر.. كلمات الرب يسوع كثيرًا ما تكون قاسية؛ فبحسب متى ٥: ٢٨، أنا وكل رجل على قيد الحياة لابد أن نُعتبر من الزناة.. فبنظرة شهوانية واحدة يتم الأمر! بتعبير غاضب واحد.. «يا أحمق!» وأكون، بحسب قول يسوع، معرضًا للهلاك في نار جهنم (راجع مت ٥: ٢٢).

يقدم الرب يسوع عددًا من الوصايا المتشددة والصارمة في ظاهرها، والتي تتعلق بالطريقة التي ينبغي أن نعيش وفقًا لها؛ وما من رجل أو امرأة على قيد الحياة لم يخالف بعض هذه الوصايا. ولكن انظروا إلى حياة المسيح، فإنكم ستجدون فيها الكثير من الرحمة.. فهو لم يُدِن المرأة الزانية، بل طلب منها بكل بساطة ألا تعود إلى حياة الخطية (راجع يو ٨: ١١). وقد قال الرب يسوع في إحدى المرات إنه إذا وضعنا يدنا على المحراث ونظرنا إلى الوراء، فإننا لا نصلح لملكوت الله (راجع لو ٩: ٦٢)، لكنه عاد وقَبِل بطرس بفرح ومحبة بعد أن أنكره ثلاث مرات (راجع مر ١٤: ٦٦- ٧٢).

إذا كنت تقرأ هذا بعد أن
مررت بتجربة طلاق،
فأنت لا تخدم أحدًا،
وبالأخص لا تخدم الله؛
إذا جلست تحملق في شيء
لا يمكنك إبطاله الآن.

إذا كنت تقرأ هذا بعد أن مررت بتجربة طلاق، فأنت لا تخدم أحدًا، وبالأخص لا تخدم الله؛ إذا جلست تحملق في شيء لا يمكنك إبطاله الآن. لهذا السبب وُجدت النعمة والغفران.. من أجل انطلاقة وبداية جديدة.

لقد اخترتُ أن أؤكد على مثاليات عالية بهدف تشجيع الأشخاص المنغرسين في حياة زوجية صعبة ليتشبثوا بهذه المثاليات. ومع أننا قد

نُفرغ ما قلناه للتو من معناه، فعلينا أن نتحلى بالصدق.. إننا نذهب بعيدًا جدًا إذا ساوينا التخلي عن شريك الحياة بالتخلي عن الإيمان. بالطبع، في كل مرة نرجع عن تعهد أو وعد تحدث تداعيات روحية خطيرة، وما يجعل الطلاق أكثر خطورة من الناحية الروحية هو أن عهد الزواج يمثل وعدًا يتحطم بمرور الوقت. فبدلاً من أن يكون الطلاق خطية ناتجة عن الشهوة –وهو أمر نقوم به لكن نندم عليه مباشرة– فإنه قرار مدروس، يحمل الكثير من الفرص لإعادة التفكير ورفضه. وهذا الأمر يجعله، في أحسن الأحوال، خيارًا خطيرًا جدًا على حياتنا الروحية.

لكن أحيانًا يكون الطلاق هو الاختيار الصحيح.. يُسجِّل متى استثناءً، وهو حالة الخيانة الزوجية (راجع مت ١٩: ٩)؛ وبولس يقدم استثناءً في حالة الزواج من شخص غير مؤمن يرفض الاستمرار في الزواج (راجع ١كو ٧: ١٥).

قد تكون السعادة بعيدة عنهم بحق، لكن النضوج الروحي ليس ببعيد عنهم.

لابد أن كل شخص متزوج لفترة من الوقت يفهم إلى أي مدى يمكن أن يكون الزواج صعبًا، وكيف، حتى بين المؤمنين، تحتدم الخلافات ويتعمق الجُرح إلى درجة تتطلب فيها المصالحة طاقة أكبر بكثير مما يمكن أن يتخيل أي من شريكي الزواج أنه يمتلكها لو عاش عمره عشر مرات. في كثير من الحالات، يستطيع الله أن يمنح هذه الطاقة، وهذا ما يفعله؛ لكن في حالات أخرى، لا يرغب الناس في استقبالها.

قبل أن يُصبح الطلاق هو الحل الوحيد، أميل عادةً إلى تشجيع الأشخاص على الصمود، والمثابرة عبر الألم، وأن يحاولوا أن ينموا فيه ومن خلاله. قد تكون السعادة بعيدة عنهم بحق، لكن النضوج الروحي ليس ببعيد عنهم.. وأنا أقدِّر الشخصية أكثر بكثير من أية

مشاعر عاطفية. إذا كانت السماء رجاءنا المستقبلي، والنمو الروحي واقعنا الحالي، وفي كثير من الحالات الأطفال الذين علينا أن نضحي من أجلهم؛ فإن الزواج المتماسك هو الحل الأمثل الذي يستحق أن نحارب من أجله. لكن هذا لا يعني أنه علينا أن نعامل أولئك الذين تحطَّم زواجهم على أنهم مسيحيون من الدرجة الثانية.. لقد تكلم الرب يسوع عن المثاليات والكمال، إلا أنه أحب الناس وقبلهم بنعمته.

بالطبع، يُفرَض الطلاق أحيانًا على أحد الشريكين من طرف واحد.. كانت هذه حالة سيدة أعرفها تدعى «ليزلي». شجع الكثير من المعارف والأصدقاء المسيحيين «ليزلي» على الاستسلام، وعلى عدم الصمود، وعلى مواعدة الرجال حتى قبل أن يصبح الطلاق نهائيًا. ولو كانت «ليزلي» تهتم بصحتها النفسية وسعادتها الخاصة فحسب، لكانت اتبعت نصيحتهم في الحال. إنما اليوم، وحتى بعد المرور بتجربة الطلاق الشاقة، تقربت «ليزلي» أكثر من الرب عندما احترمت تاريخها المقدس مع زوجها السابق. إنه ليس تاريخًا سعيدًا، إلا أنه تاريخ أثمر مكاسب روحية هائلة.. وهذا هو جمال القيام بالأشياء على طريقة الله. حتى لو أساء أحدهم إلينا، يمكننا أن ننمو عبر هذه التجربة بنعمة الله.

هذا هو جمال القيام بالأشياء على طريقة الله. حتى لو أساء أحدهم إلينا، يمكننا أن ننمو عبر هذه التجربة بنعمة الله.

التاريخ المحطَّم: «ليزلي»

"ليزلي، أنا سأتركك."

تراجعت «ليزلي» غير مصدقة؛ فلم تظن يومًا أنها ستسمع هذا الكلام. وكأي فتاة شابة، كانت تتخيل ثوب زفاف أبيض، وزوجين سعيدين، ومنزلاً مليئًا بالأطفال. وفي أحلامها لم يوجد مكان للقشعريرة المدمرة التي حملتها هذه الكلمات التي أتت على لسان رجل ائتمنته على حياتها، وجسدها، وأعمق أسرارها وخصوصياتها؛ والآن يقول لها إنه لم يعد يحتمل التواجد بقربها بعد الآن.

في تلك الفترة كانت «ليزلي» و«تيم» مؤمنين ملتزمين. وعلى الرغم من أنهما عاشا معًا قبل الزواج، فقد قدَّما حياتهما مجددًا إلى الرب قبل أن يتزوجا، وأخذا ينموان في إيمانهما. كانا يحضران حلقات لدراسة الكتاب المقدس، وكانا يصليان معًا بانتظام. في السنوات الأولى من علاقتهما، غالبًا ما كانا يسمعان الناس يقولون: "سيكون زواجكما رائعًا"، وكان الزوجان يجيبان بتواضع: "إنه عمل الله، لا عملنا."

بدأت التصدعات الأولى تظهر بعد ست سنوات على زواجهما عندما اعترف «تيم» أنه أقام علاقة عابرة لليلة واحدة. وقد أخبر «ليزلي» أنه نادم من كل قلبه، وأنه مستعد لطلب المشورة. وبعد دموع كثيرة، تمكنا من وضع هذه المسألة خلفهما.

كان على «ليزلي» أن تعالج بعض المسائل المتعلقة بالثقة، لكن الأوقات السعيدة ما لبثت أن عادت. مرت خمس سنوات، وكان «تيم» يتدرب ليصبح شيخًا في الكنيسة، بينما كانت «ليزلي» تعمل بدوام كامل في إدارة إحدى الخدمات المسيحية. كانا يعانيان الألم بسبب العقم، إلا أنهما تخطيا القلق ليشرعا في إجراءات تبني طفل. في الواقع، كانا قد نجحا في المرحلة الأولى من إجراءات التبني، ويستعدان الآن للمرحلة الثانية. وكانت «ليزلي» تأمل أن تصبح أمًا في وقت قريب.

ثم شعرت «ليزلي» أن «تيم» ينزلق بعيدًا. في البداية، بدت هذه المخاوف غير منطقية.. مجرد هاجس ليس أكثر، إلا أن البراهين المؤكدة قد توفرت بكثرة. وباتت الهوة بينهما أكبر عندما سافرت «ليزلي» مع «تيم» لحضور مؤتمر كبير. شعرت «ليزلي» بالإهانة وبأنها محطَّمة عندما كان «تيم» يتركها لفترات طويلة من الوقت وحدها، ثم يعاملها بخشونة عندما يلتقيان. غضبت «ليزلي» بشكل هستيري، وهو أمر تخجل منه اليوم، وهو ما دفع «تيم» إلى الابتعاد أكثر.

في البيت، أفضت «ليزلي» بسرها إلى شريكتها في الصلاة قائلة: "لو لم أكن أعرف «تيم» جيدًا، لكنت اعتقدت أنه يتهيأ ليتركني".

فأجابتها شريكتها في الصلاة مطمئنة إياها: "هذا كلام فارغ"

ذهب «تيم» بعد ذلك في رحلة عمل لثلاثة أسابيع، وكان يُفترض أن يعود بعد ظهر يوم السبت. خشيت «ليزلي» ألا يرجع إلى البيت في الوقت المحدد؛ فقد أرادت أن يكون مستعدًا للمرحلة الثانية من إجراءات التبني، والتي كان محددًا لها صباح الاثنين.

لم يعد «تيم» إلى البيت بعد ظهر يوم السبت (ولا حتى في المساء)، كما كان يُفترض. رفعت «ليزلي» أطباق العشاء وذهبت لتنام، متوقعة أن يأتي «تيم» في وقت لاحق في تلك الليلة. ثم استيقظت متسائلة إذا ما كان «تيم» ينام بجوارها أم لا، لكنه لم يكن قد وصل بعد إلى البيت. توجهت «ليزلي» إلى الكنيسة صباح ذلك الأحد، مقتنعةً أنها سترى سيارة «تيم» في الجراچ عند عودتها، إلا أن الجراچ كان فارغًا.

بدأت «ليزلي» تخور في قلبها، ثم في وقت لاحق من ذلك المساء سمعت «ليزلي» ضجة صادرة من الجراچ. وعندما فتحت الباب، وجدت «تيم» يضع مضارب الجولف في صندوق السيارة.

سألته: "ماذا يجري يا «تيم»؟" لقد كان غائبًا لثلاثة أسابيع، ومن المؤكَّد أنه لم يكن ينوي لعب الجولف في الصباح.

ثم أتت هذه الكلمات- هذه الكلمات الثلاث التي شلَّت وجدان «ليزلي» ومزقت حياتها إربًا: "ليزلي، أنا سأتركك."

"ماذا؟"

"أنا سأتركك."

كادت «ليزلي» أن تنهار في مكانها؛ وقالت منتحبةً: "لا يمكنك أن تتركني."

"لا، بل سأفعل.. ما عدت أحبك، لم أعد أحبك منذ فترة طويلة."

شعرت «ليزلي» بأن الهستيريا تسيطر عليها مجددًا، وبدأ الذعر يسيطر على قلبها. وهي تتذكَّر: "أجبرتُ نفسي على البقاء هادئة، لأنني كنت أعرف أني إذا تجاوبت بحالة هستيرية فلن يقنعه هذا بالبقاء. كذلك، لم أكن أريد أن يتذكَّرني في هذه الحالة الهستيرية."

ثم نظرت «ليزلي» إلى يد «تيم»، وشعرت بأن قلبها يكاد يتوقف.. لم يكن «تيم» يرتدي خاتم الزواج.

"أنت لا تضع خاتم الزواج.. هل هذا يعني أنك ستبدأ في مواعدة امرأة أخرى؟"

"نعم."

وشعرت «ليزلي» كأن صاعقةً ضربتها! فقد جاء رده السريع، والهادئ، والعابر، ليخطف أنفاسها.

"ومَنْ تكون تلك المرأة؟" بدأ الخوف يتصاعد.. فهل كانت فعلاً تريد أن تسمع الجواب؟

”نعم، ولكنني لا أتركِك من أجل شخص بعينه. ببساطة أنت وأنا لا نناسب بعضنا البعض. لقد كنت أعيش في كذبة طوال هذه السنوات، وقد ضقت ذرعًا بذلك.“

”أرجوك «تيم»، هلا بقيت لهذه الليلة؟ ليلة واحدة فقط؟“

”لا يمكنني ذلك.“

بدأت «ليزلي» تشعر بأنها تفقد السيطرة على نفسها. لم تتصرف بهستيرية، لكن عينيها اغرورقتا بالدموع وبدأت تفقد هدوءها. وقد تماسكت حتى رحل «تيم»، ثم بدأت حالة هستيرية صعبة.

لقد انهمرت في البكاء، وأخذت تشهق بأنفاس سريعة وعميقة. وأخيرًا، ركعت «ليزلي» لتصلي، لكن الألم كان في داخلها لا يزال موجعًا جدًا. وببساطة، لم تقدر أن تصلي وحدها. فوقفت، ومشت بخطوات متعثرة نحو الهاتف، واتصلت ببعض صديقاتها المقربات. همست وهي تذرف الدموع، وقالت: ”لقد تركني «تيم».. هلا أتيتن لزيارتي؟“

كانت ممتلئة بالامتنان الآن لأنها في ذلك الوقت لم تكن تدرك ما كان ينتظرها.

بكت «ليزلي» مع صديقاتها، وصلوا، صلوا وبكوا.. وبكوا وصلوا مجددًا. وبعد ساعات من الصراع الروحي، شعرت «ليزلي» أخيرًا بشيء من الراحة وبنوع من السلام.

سألتها إحدى صديقاتها: ”أتودين أن أقضي الليلة هنا؟“

فأجابت «ليزلي»: ”لا، سأكون بخير.“ وقد كانت ممتلئة بالامتنان الآن لأنها في ذلك الوقت لم تكن تدرك ما كان ينتظرها.

إعلان الخبر

لأن «ليزلي» كانت تدير خدمة مسيحية، عرفت أنها ستضطر إلى أن تُطلع فريق عملها بما جرى. وقد أظهروا الكثير من الدعم، وساندوا «ليزلي»، إلا أنه بطريقة غير متوقعة، كان من الصعب عليها تحمل طريقة تجاوبهم معها.

واعترفت «ليزلي»: "كان من الصعب عليَّ أن أتقبل هذا الدعم والمساندة. لقد كان الله يواجه بحق كبريائي. لقد كنتُ دائمًا تلك التي عليها أن تعطي وتعطي، لكن الله أراد أن أجتاز مرحلة من الضعف."

وفيما كانت «ليزلي» تصلي خلال الأسبوع الذي أعقب رحيل «تيم»، شعرت أن الله يطلب منها أن تُخبر قصتها للكنيسة، وتطلب الصلاة لأجلها. لم تتصور «ليزلي» أن بإمكانها أن تفعل هذا، وظنت أنه عليها أن تتظاهر بالقوة لأنها تعمل في مجال الخدمة.. فتجادلت «ليزلي» مع الله، وقالت: "يا رب، سيظنون أنني لم أكن زوجة صالحة.. فكيف لي أن أكون الشخص المناسب لإدارة خدمة الرب؟ إذا كنتُ غير قادرة على المحافظة على زوج، فكيف لي أن أحافظ على سير عمل الخدمة؟"

وفي خلال الخدمة الصباحية ذلك الأحد، قام قائد التسبيح بأمر لم يسبق له أن قام به من قبل أو بعد ذلك اليوم؛ فقد طلب من جماعة المصلين أن يشاركوا بطلبات للصلاة والتسابيح. تنهدت «ليزلي»، ثم وقفت. كانت كل الأنظار في الكنيسة منصبة عليها. استجمعت قواها بصعوبة، ثم قالت: "أريد أن تعرف الكنيسة أن «تيم» هجرني الأسبوع الماضي..."

وقد أعقب ذلك الكثير من التنهد، لكن «ليزلي» واصلت الحديث: "«تيم» وأنا نحتاج بشدة إلى صلواتكم كي يتعافى زواجنا."

كانت فكرة أن تكون «ليزلي» هي الشخص الأضعف مؤلمة جدًا بالنسبة

لها، إلا أنها "فتحت الأبواب على مصراعيها" في كنيستها أمام الزيجات الأخرى التي كانت تتصدع وفي طريقها إلى السقوط. وقد كانت «ليزلي» ممتنَّة لذلك، وفي الوقت نفسه كانت تنتظر شفاء زواجها.

الرجاء الباطل

الشيء الذي ساعد «ليزلي» على تخطي الأشهر الأولى من الانفصال هو ثقتها في عودة «تيم».. كانت ترجو أنه عندما تفهم السبب الذي دفع «تيم» إلى هجرها والخطأ الذي ارتكبته، ستتمكن من "إصلاح" كل شيء، وسيعود زواجها إلى حالته الطبيعية. إلا أن الأمور لم تكن على ما يُرام، ولم تكن ستصبح كذلك. فقد كان «تيم» يواعد امرأة أخرى بالفعل، ولا يُظهر اهتمامًا كبيرًا بالعودة ومصالحة زوجته.

وكانت المرارة عدوًا مُلحًا، لكن «ليزلي» قاومتها؛ من ناحية لأن الله بدأ يُظهر لها بعضًا من أخطائها، وأولها برها الذاتي التي عاملت زوجها به، وكيف كانت تتوقع الكثير من نفسها ومنه.

للمرة الأولى، تمكنت «ليزلي» من رؤية قيود النزوع إلى الكمال التي كانت تقيدها لسنوات طويلة. تذكَّرت كيف أنها، قبل أن يتركها «تيم»، احتدت في قلبها عندما أشار إليها القس قائلاً إنها خاطئة. "أين ترى الخطيئة في حياتي؟ فقط قل لي فأتخلَّص منها."

وتعترف ليزلي وتقول: "رأيتُ أنه ما من نعمة أو رحمة في حياتي المسيحية" ومرت الشهور، ثم السنوات- حتى أتى اليوم الذي أخبر «تيم» فيه «ليزلي» أنه سيتزوج بشخص آخر.

الآلام المشتركة

أحيانًا كان اليأس يتسلل إلى «ليزلي»، جالبًا معه قدرًا كبيرًا من الخوف، خاصة مع اقتراب يوم زفاف «تيم». لكن حسب وصف «ليزلي» كان الرب يمسك وجهها بين يديه ويقول: "«ليزلي»، انظري إليَّ!"

وعندما بدأ يتَّضح أن الانفصال سيكون دائمًا، بدأت «ليزلي» تحزن من جديد. أحيانًا كانت توبِّخ نفسها، وتلوم نفسها، وتفكِّر لو أنها قامت بشيء ما بطريقة مختلفة ما كان «تيم» ليهجرها.

لكنها شعرت أن الله يقول لها: "هذا ليس صحيحًا؛ فأنا أحببته بطريقة مثالية، وتركني أنا أيضًا."

بكت «ليزلي» لهذه الفكرة، وبدأت تشعر بعلاقة قرابة جديدة مع الرب. بطريقة ما، كانت «ليزلي» تشاركه آلامه.. كانا يمران في هذه المحنة معًا.

وراح بعض أصدقاء «ليزلي» المؤمنون من أصحاب النوايا الحسنة يسألونها ما إذا كانت بدأت تواعد شخصًا آخر. وفعلت «ليزلي» كل ما بوسعها لتُخفي صدمتها، وتجيب بلباقة. كانت لا تزال تضع خاتمها، وفيما رأى بعض المؤمنين أن عليها أن "تنسى الأمر"، كان الخاتم علامة على عهد قطعته «ليزلي» ليس مع زوجها «تيم» فحسب بل مع الله أيضًا. وعلى الرغم من أن «تيم» تخلى عن العلاقة، كان الله لا يزال جزءًا منها.. أي أن طرفين من أصل ثلاثة كانا لا يزالان صامدين.

وتقول «ليزلي»: "لم يعد خاتم الزواج يمثل حبي لـ «تيم» بعد الآن.. ذاك الحب القديم قد مات. لكن الخاتم يمثل التزامي أمام الرب الذي قلت أمامه ذات يوم.. 'حتى يفرق بيننا الموت'."

وحتى اليوم الذي تزوج فيه «تيم» من جديد في عام ١٩٩٨، أبقت

«ليزلي» خاتم زواجها في إصبعها، وظلت تصلي من أجل أن يعود الوفاق بينهما. وعندما ظلت أمينة وسط الخيانة، تفتحت عيناها إلى حضور الله في حياتها بطريقة جديدة. وقالت ليزلي: "إخلاص شعب إسرائيل وإخلاص الله، فضلاً عن إخلاص هوشع وإخلاص جومر، أوحوا لي بالكثير"، وأضافت: "ساعدتني هذه التجربة برمتها على التعرف إلى الله بطريقة أفضل وأكثر عمقًا.. لقد تلامست مع الحب الرائع غير المشروط الذي يمثله هذا العهد. في كل مرة كنت أطلب أن يسمح لي الله لأنزع خاتمي وأخرج في موعد غرامي، كان يكلمني أكثر عن الوعد الذي قطعه في عهده."

عندما ظلت أمينة وسط الخيانة، تفتحت عيناها إلى حضور الله في حياتها بطريقة جديدة.

باختصار، هذه هي إحدى الرسائل الأساسية لهذا الكتاب.. حتى عندما يُفرض علينا أمر مأساوي، كالخداع، والخيانة، وطلاق غير مرغوب فيه، يمكن الاستفادة من هذه التجربة روحيًا. عندما ظلت «ليزلي» أمينة مع نفسها واحترمت قدسية تاريخها مع «تيم»، على الرغم من أنه لم يعد يحترم ذاك التاريخ، تعلمت دروسًا روحية قيمة، وتقربت أكثر من الله في الوقت نفسه.

لكن «ليزلي» كانت رائدةً بشكل خاص.. لم يتمكَّن معظم أصدقائها المؤمنين من فهم لماذا لا "تستسلم" الأمر ببساطة. تقول «ليزلي» إنه كان بإمكانهم أن يفهموا لماذا يقبل الناس ابنًا متمردًا.. تمامًا كما في قصة الابن الضال، إنما في حالة زوج وزوجة، لا يرى الكثير من المؤمنين إمكانية حدوث أمر مماثل.

لكن «ليزلي» الآن ترى الله في نور جديد تمامًا.

الله كزوج

تقول «ليزلي» اليوم: "إن الله هو الزوج المثالي؛ فقد سدد احتياجاتي حتى قبل أن أتوقعها. أنا لا أتكلم عن الأشياء الكبيرة فحسب، لكنه سدد احتياجاتي الصغيرة والشخصية بحنوٍ بالغ."

قبل أسبوعين من عيد القيامة في عام ١٩٩٨ -أي قبل أشهر من زواج «تيم»- طُلب من «ليزلي» أن تتحدث في كنيسة مزينة بزهور عيد القيامة الجميلة. منذ الطلاق، عاشت «ليزلي» بدخل أقل من الطبيعي. وهي تعتقد أن الله أرادها أن تغفر لزوجها «تيم»، لا أن تسعى حتى "يدفع ثمن" هجرها؛ لذا عاشت في ظل ظروف مادية ضيقة للغاية. وقد فكَّرت أن شراء زنبقة عيد القيامة سيكون "إنفاقًا تافهًا"، لكنها وجدت نفسها تصلي بتوق: "يا رب، إنها أزهار جميلة بالفعل. كم أود لو أحصل على واحدة." لقد كانت صلاة صامتة، ولم تخبر أحدًا بطلبها هذا.

> لا يزال الرب يستطيع أن يُحيي زواجي، ولكن حتى لو لم يفعل، فسيبقى هو الله.

في اليوم السابق لعيد القيامة، توجهت «ليزلي» إلى العمل، ووجدت زنبقة عيد القيامة على مكتبها. توقفت «ليزلي»، وحدَّقت بها، ثم أجهشت بالبكاء. وعلى الرغم من أن الزهرة كانت من أحد الأصدقاء، فقد قبِلتها كهدية من الله، الذي سمع صلاتها، واشترى زهرة لـ "زوجته" بمناسبة عيد القيامة.

تقول «ليزلي» بيقين شديد: "عندما خسرت زوجي الأرضي، تقرَّبتُ أكثر من زوجي السماوي؛ فهو زوجي، ومن يعولني، وضامني." ومع أن علاقة «ليزلي» مع الله كانت ترتكز على "الإنجاز"، فقد علمتها هذه الفترة من الوجع والألم كيف تفتح يديها لتأخذ من الله.

تكلمتُ مع «ليزلي» قبل أقل من أسبوعين من زواج «تيم»، وقالت لي: "لا يزال الرب يستطيع أن يُحيي زواجي، ولكن حتى لو لم يفعل، فسيبقى هو الله." صمتت وهي تبدو حزينة، وانهمرت الدموع من عينيها.

وقالت: "جاري، لقد شكَّلت هذه الفترة بالنسبة إليَّ فترة ثمينة جدًا من الناحية الروحية؛ وما كنت لأستبدلها بأي شيء في الدنيا."

فسألتها: "فكري في هذا الأمر للحظة يا «ليزلي».. هل تعنين ما تقولين حقًا؟"

فأجابت: "نعم، أعنيه.. ومن كل قلبي. لقد كان اختبارًا غنيًا للغاية، غيَّر حياتي جذريًا. بالطبع لا أقول إني سعيدة بانهيار حياتي الزوجية، لكنني سعيدة بالثمرة التي أنتجها."

لقد دخلت «ليزلي» عالمًا جديدًا.. لقد أيقنت السر أنه بغض النظر عما يفعله الآخرون لنا -حتى ولو خانونا بكل ما تحمله الكلمة من معنى- فبمقدور الله استغلال هذه الفرصة ليقربنا أكثر إلى قلبه. ومن ثَمَّ، بمقدور الله استغلالها ليقرب الآخرين إليه أيضًا.

لقد باركها الله بركة خاصة عندما اتصل بها والدها هاتفيًا بعد سنتين من هجر «تيم» لها، وقال لها: "لقد رأيتُ ما مررتِ به.. ورأيت رد فعلكِ، وأريدُ أن أتمتع بما عندك."

لقد كانت هذه المحادثة مؤثِّرة للغاية بالنسبة إلى «ليزلي»؛ لأن والدها، تمامًا مثل «تيم»، خان زوجته (أي والدة «ليزلي»)، تاركًا «ليزلي» تكبر مع آلام تحطم أسرتها. لكن الألم برمته زال عندما قرأت «ليزلي» ووالدها نبذة عن طريق الخلاص من رسالة رومية في غرفة في فندق، وركع والدها، وصلى ليقبل يسوع المسيح ربًا ومخلِّصًا وهو في الثانية والستين من العمر.

هناك حقيقة مجيدة وراء هذه التوبة.. ما جرى فعليًا هو أن «ليزلي»، عندما ظلت أمينة لزوج خائن، أظهرت حقيقة الله الذي يبقى أمينًا مع شعب خائن. كان والدها قد سمع الأخبار السارة مرات عديدة، لكنه لم يقبلها لنفسه إلا بعد أن رآها متجسدة في حياة «ليزلي».

وقد عادت الابتسامة إلى وجه «ليزلي»، وهي تسألني: "كيف لا أشكر الله؟" بصراحة، أنا على استعداد أن أصلي وأقول: 'يا رب، يمكنك أن تأخذ زواجي إذا كان هذا يعني خلاص عائلتي.' «تيم» إنسان مؤمن، وأنا أعرف هذا، لذا سيذهب إلى السماء. وإذا كان هجره لي يقود آخرين لله، فأنا مستعدة أن أتحمل هذا."

ما جرى فعليًا هو أن "ليزلي"، عندما ظلت أمينة لزوج خائن، أظهرت حقيقة الله الذي يبقى أمينًا مع شعب خائن.

قبل أن ننتهي من قصة «ليزلي»، أريد مشاركة ملاحظة أخيرة. منذ فترة ليست ببعيدة، اتصل رجل بها طالبًا المساعدة؛ فقد تركته زوجته، وكان ينحدر نحو الشعور بالمرارة والغضب، لكن «ليزلي» أرشدته في اتجاه مختلف.

قالت له «ليزلي»: "يمكن أن تكون هذه الفترة من حياتك مثمرة جدًا من الناحية الروحية إذا استثمرتها لتتيح لله أن يشكلك من جديد. نحن نبحث دائمًا عن الخطأ الذي ارتكبه شريك حياتنا، لكن الله يريدنا أن ننظر إلى قلوبنا أولاً."

احكِ القصة

إذا كنا جادين في السعي من أجل نمونا الروحي من خلال الزواج،

إذا كنا جادين في السعي من أجل نمونا الروحي من خلال الزواج، علينا أن نُقنع أنفسنا بالامتناع عن طرح السؤال الخطير على حياتنا الروحية، وهو: "هل تزوجتُ بالشخص "المناسب"؟"

علينا أن نُقنع أنفسنا بالامتناع عن طرح السؤال الخطير على حياتنا الروحية، وهو: "هل تزوجتُ بالشخص «المناسب»؟" بعد أن نتبادل عهودنا، فإننا نجني القليل من الفوائد الروحية إذا ظللنا نكرر هذا السؤال في عقولنا.

والبديل الأفضل من التشكيك في خيارنا هو تعلُّم كيفية العيش مع هذه الخيارات. في رواية «كوكب مختلط» *(A Patchwork Planet)* للكاتبة «آن تايلر»، تُدرك إحدى الشخصيات هذا الأمر بعد فوات الأوان. مرَّ الراوي البالغ من العمر ثلاثين عامًا بتجربة الطلاق، ويعمل الآن في مهنة يحتك فيها بكبارٍ في السن. وبمراقبته لزيجاتهم الصامدة لوقت طويل، وصل إلى حقيقة عميقة:

> بدأت أشك أنه لا فرق إذا كانوا قد تزوجوا بالشخص المناسب أم لا.. ففي نهاية المطاف، أنت مع الشخص الذي أنت معه فحسب. لقد تعهدتَ بإكمال الطريق معه، وأمضيتَ معه نصف قرن، وكبرتَ في معرفته تمامًا كما تعرف نفسك أو حتى أكثر من نفسك، وبات الشخص المناسب، أو الشخص الوحيد الأكثر ملاءمة. ليت أحدهم أخبرني بهذا الأمر من قبل. كنت لأصمد؛ أقسم أنني كنت لأصمد، وما كنت أجبر «ناتالي» على تركي أبدًا.[6]

فنصف المعركة يدور حول الإبقاء على "قصتنا" على قيد الحياة.

في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، نشرت «روث بيلي جراهام» كتابًا للأطفال تحت عنوان «قصتنا في عيد الميلاد» *(Our Christmas Story)*. وقد كتب زوجها «بيلي جراهام» في مقدمة الكتاب ما يلي:

> عندما اقتُرح علينا أن تُخبر «روث» قصة عيد الميلاد للأطفال في كل مكان، غمرنا الفرح. لكننا حذرنا الناشر من أن قصة عيد الميلاد "الخاصة بنا" ستكون مختلفة عن مشهد المذود التقليدي الذي يعني عيد الميلاد بالنسبة لكثيرين. بالطبع، إن مشهد المذود هو جزءٌ مهم من الميلاد في بيتنا.. ذروة الحدث المبهجة والغالية. لكن هذا مجرد جزء من القصة؛ في الميلاد لا يبدأ في الإسطبل في بيت لحم، ولا يبدأ في إنجيل لوقا، إنما يبدأ في سفر التكوين.

هذا أمر صحيح؛ فعشية الميلاد وصبيحة الميلاد هما ببساطة ذروة قصة طويلة الأمد بدأت قبل قرون عديدة. إنها قصة رائعة، قصة يسير الله فيها بمحبة الزوج، وبألم الصديق المخدوع، وبخيبة الوالد الحكيم، وبمنظور الرب والملك الحزين. من غير المنصف أن نحكم على هذا التاريخ في نقطة واحدة منه؛ لأنه تاريخ الله وشعب إسرائيل -عروسه وزوجته- على مدار السنوات الطويلة هو الذي يخبر القصة الكاملة.

إن تعلُّمي تقدير تاريخي المقدس مع «ليزا» شكَّل إحدى أكثر الممارسات الروحية معنىً في حياتي. فقصتنا غير عادية، تعود إلى الفترة التي كنا فيها لمدة أسبوعين "حبيبين في الجامعة". لقد أنشأنا معًا تاريخًا مثمرًا، ومليئًا بالمعاني، ومفعمًا بالشغف. نعم، كان علينا أن نمر ببعض المنحدرات والوديان لنصل إلى ما نحن عليه.. نعم، مرت أوقات بدا فيها التاريخ مهددًا، ولكن حتى وإن تخللت الرحلة صعوبات، فإن المشاهد على طول الطريق والوجهة التي كنا نسير إليها كانت تستحق العناء.

يشجِّعنا الكاتب المعروف «چيري چنكنز» على أن نجد فرحًا بالغًا في قصة زواجنا. ويكتب ما يلي:

> أخبر قصة [زواجك].. أخبرها لأولادك، ولأصدقائك، ولإخوتك وأخواتك، ولكن بشكل خاص لبعضكما البعض. فكلما ترسَّخت قصتك في عقلك، شكَّلت حاجزًا ضد القوى التي لا تُعد ولا تحصى، التي تسعى إلى تحطيم زواجك. اجعل قصتك مألوفة إلى درجة أن تصبح جزءًا من نسيج كيانك. ينبغي أن تُصبح أسطورة تتوارثها الأجيال بينما تنمو شجرة العائلة التي تتحدى كل العراقيل، وتفتخر -زواجًا بعد الآخر- بالاستقرار، والقوة، والاستمرارية.[7]

لا تقلل من قيمة اختبار السير يدًا بيد مع الله القادر على التعامل مع كل صراع يواجهك في مجال علاقاتك.

لا تضيع تاريخك مع شريك الحياة الذي دعاك الله إلى أن تحبه. لا تقلل من قيمة اختبار السير يدًا بيد مع الله القادر على التعامل مع كل صراع يواجهك في مجال علاقاتك.

«والرب يهدي قلوبكم إلى محبة الله، وإلى صبر (مثابرة) المسيح.»

أسئلة للتفكير والحوار

(١) كيف يمكن أن يساعد فهم تاريخ بني إسرائيل مع الله (أوقات الاحتفال، والغضب، والخيانة، والصمت) الزوجين كي ينموا في مراحل الزواج المختلفة؟ ما هي الدروس التي تعلَّمتها والتي ستساعدك على مواجهة أوقات "الغضب" و"الصمت"؟

(٢) هل توافق «جاري» رأيه أننا "نعيش في عالم مليء بالانهزاميين"؟ كيف يمكن أن تعلِّم الكنيسة بشكل فعَّال أكثر عن مكاسب المثابرة في مواجهتها لثقافة سائدة؟

(٣) ماذا ترى في العلاقة بين المثابرة والقداسة الشخصية؟ ما هي "الرسائل" التي تبعث بها الحياة العصرية، والتي تُعتبر معادية للمثابرة والقداسة؟

(٤) كيف يمكن أن يساعدك مبدأ المثابرة والإصرار لتعمل على النمو الروحي لشريك حياتك؟

(٥) ما الذي تخسره إذا انتهى التاريخ المقدس لزواجك؟ ما الذي قد يفقده شريك حياتك؟ وأولادك؟ وكنيستك؟

(٦) اصرف بعض الوقت في التكلُّم مع شريك حياتك عن القصص التي يجب أن يتضمنها تاريخكما المقدس، لتخبرا بها أولادكما وعائلتيكما وأصدقاءكما.

(٧) ناقش كيف يمكن أن يشكِّل احترامكما لتاريخ زواجكما المقدس ومشاركته مع الآخرين تشجيعًا لأزواج آخرين تعرفانهم.

(٨) كيف يمكنك أن تجعل من فكرة الأبدية ومكافآتها دافعًا عمليًا للمثابرة في عملية الصقل اليومي التي ينطوي عليها الزواج؟

(٩) كيف تريد أن يصف الآخرون زواجك عندما تحتفل باليوبيل الذهبي له؟

الفصل الثامن

الصراع المقدس

قبول الألم من أجل بناء الشخصية

عندما تصبح رجلاً متزوجًا، يا صموئيل، ستفهم الكثير من الأشياء التي لا تفهمها الآن، ولكن مسألة ما إذا كان الخضوع للكثير من التجارب لتعلم القليل أمرًا يستحق العناء، فكما قال الصبي اليتيم عندما وصل إلى نهاية الأبجدية.. إنها مسألة تذوق.

– تشارلز ديكنز

أحدهم لم يتزوج أبدًا، وهذا هو جحيمه؛
وآخر تزوج، وهذا هو ابتلاؤه.

– روبرت بيرتون، قس إنجليزي

يحلمان في الخطوبة، ولكن يستيقظان عند الزواج.

– ألكسندر بوب

لأن الزواج يعكس، أكثر من أي علاقة أخرى، ارتباط الله معنا ويزيد إمكانية جذب قلوبنا نحو السماء، يمكنه كذلك بسهولة أكثر أن يعطينا فكرة عن الجحيم.

– «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان الثالث»

قليلة هي العجائب الطبيعية التي يفوق جمالها قمة جبل إفريست، أعلى بقعة على سطح الأرض. يعتقد الچيولوچيون أن جبال الهيمالايا نشأت من ارتطام القارة الهندية بقارة أوراسيا. وكلمة "ارتطام" هي مبالغة من الكاتب.. في الواقع، تتحرك القارتان تجاه بعضهما البعض بنسبة حوالى عشرة سنتيمترات في السنة، لكن هذا يحدث ببطء وانتظام. وفيما تستمر الهند بالتحرك إلى الداخل، وهي تضغط وترفع جنوب أوراسيا، ينشأ باستمرار كنز طبيعي مذهل.

ولو لم يكن هناك هذا التصادم بين الهند وأوراسيا، ما وُجدت جبال الهملايا. ولولا القوة المغيِّرة لتحرُّك القارات، لكان العالم أفقر من الناحية الجمالية.

بنفس الطريقة، يمكن أن تنشيئ "تصادمات" الحياة الزوجية علاقات فائقة الجمال.. فغالبًا ما يولد الجمال من رحم الصراع. قد لا تكون نقاط التصادم "ممتعة" في الواقع، وقد تُشعرنا وكأننا نتمزق، لكن هذه العملية يمكن أن تجعلنا أكثر قوة، وتبني شخصياتنا، وتعمِّق إيماننا.

كتب المخرج والكاتب الروحي العظيم «فرنسوا فينيلون»: "كلما خشينا الألم، كنا بحاجة إليه." فالألم يمثل جزءًا من الحياة المسيحية، وقد جسَّد ذلك يسوع المسيح بنفسه، وهو الذي تألم بلا حدود في سبيل طاعته لله.

> إن الميل لتفادي الصعوبات هو فشل روحي خطير يمكنه –وهذه هي الحال غالبًا– أن يبقينا في طفولة روحية دائمة.

وقد كتب «ديتريش بونهوفر» أنه إذا لم يكن فينا شيء من الزهد، سنجد صعوبة في اتباع الله.

ومع ذلك فإن معظم الذين يتركون الزواج، ويحطِّمون تاريخه المقدس، يقومون بهذه الخطوة تحديدًا لأن الزواج

صعب. بينما نادرًا ما تجد أُناسًا يتركون الزواج لأنه سهل جدًا! إن الميل لتفادي الصعوبات هو فشل روحي خطير يمكنه -وهكذا يكون الحال غالبًا- أن يُبقينا في طفولة روحية دائمة. وقد حذَّر الكُتَّاب الروحيُّون العظماء من أن هذه الحياة صعبة، ونصحونا باستغلال الصعوبات لبناء شخصياتنا.

يسأل «وليم لو»، وهو كاتب أنجليكاني من القرن الثامن عشر: "كم قديسًا دخل السماء بسبب المحن؟ وكم خاطئ أغرقه الغنى في شقاء أبدي؟" «چون كليماكوس»، الذي كتب الأدب الكلاسيكي الشرقي عن الإيمان المسيحي في القرن الخامس، يسخر من رغبتنا بأن يكون كل شيء سهلاً، وتجنبنا وهروبنا من الصراع بقوله: "لا أعتبر أي روحانية ذات شأن إذا كانت تريد أن تمر بعذوبة وسهولة، وتهرب من التمثل بالمسيح."

وعدنا يسوع بأن «كل واحد يُملَّح بنار، وكل ذبيحة تملَّح بملح» (مر ٩: ٤٩).. إن الرغبة في السهولة، والراحة، والعيش الخالي من الضغوط، هي رغبة غير مباشرة في الاستمرار في العيش كمسيحي "غير مملَّح"، وغير ناضج. الصراع يجعلنا أقوى، ويصقلنا، ويعمِّق إيماننا؛ لكن هذه النتيجة لا تتحقق إلا عندما نواجه الصراع مباشرة، لا عندما نهرب منه. يشير «جاري» و«بتسي ريكوتشي» إلى التالي: "لقد رتب الرب في علمه الأزلي أن تتم عملية تهذيبنا حين نمر عبر الضيقات، وليس حين ندور حولها. الكتاب المقدس مليء بالأمثلة عن أولئك الذين انتصروا عندما اجتازوا الصحراء، والبحر،

الصراع يجعلنا أقوى، ويصقلنا، ويعمِّق إيماننا؛ لكن هذه النتيجة لا تتحقق إلا عندما نواجه الصراع مباشرة، لا عندما نهرب منه.

وأتون النار، وأخيرًا الصليب. لا يحصن الله المؤمنين ضد المشكلات، بل يساعدهم على اجتياز مشكلاتهم في انتصار."[1]

إذا كان زواجك يمر بظروف صعبة، اركع على ركبتيك وأشكر الله لأنه أعطاك فرصة لتنمو روحيًا بطريقة لا مثيل لها. لديك الإمكانية المبدئية للنهوض في حياتك الروحية وطاعتك المسيحية.

تقدير الصراع

بصفتي عدَّاء في سباقات المدن، فإن أكثر الانتصارات التي تفرحني هي تلك التي استنفذت فيها كل ذرة من طاقتي. أما السباقات التي ربحتها بسهولة، مع أنها أقل ألمًا، فقد كانت أقل إسعادًا لي في نهاية المطاف. أذكر سباقًا تنافسنا فيه مع مدرسة أصغر من مدرستنا.. خضت السباق بقوة، ولكن ليس بقوة هائلة، وتخطيت أسرع عدَّاء لهم في الميل الأول من السباق. ثم أبطأت لأتيح لعدَّائنا الثاني أن يلحق بي، وسرنا بتمهل لبقية السباق معًا؛ حتى أنني كنت أتحدث مع صديقي بينما كنا نجري في الطرق المألوفة.

لقد كان سباقًا ممتعًا، لكنني لم أكن فخورًا بأدائي. ولأنني لم أخضع للاختبار، فلم يكن هناك ما يستحق الافتخار.

ولكن كان هناك سباق آخر، اشتركت فيه ست مدارس ثانوية مختلفة. كان الطقس حارًا بالنسبة إلى ولاية واشنطن، وانطلقت بخطى متهورة، وكدت أودي بنفسي إلى المستشفى. في ذاك السباق الذي امتد على ثلاثة أميال، اضطررت لعشر مرات أن أتخذ قرارًا واعيًا بألا أترك السباق فيما كان عدَّاء آخر يناضل من أجل أن ينافسني على الصدارة.

وأخيرًا عندما وصلت منهارًا إلى خط النهاية، كنت متعبًا جدًا، ولم

يكن فيَّ قوة للاحتفال بالفوز. وارتفعت حرارتي كثيرًا في تلك الليلة، ومرضت لثلاثة أيام؛ لكن حتى تحت وطأة ذلك الألم، علمت أنني بذلت كل ما في وسعي، وهذا ما جعلني أشعر بشيء من الرهبة. لم يكن الأمر مسليًا بأي شكل من الأشكال، لكنه حمل الكثير من المعاني.

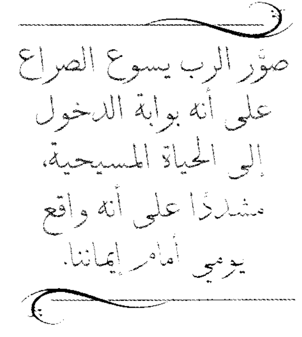
ينجح الصراع في أن يولِّد فرحًا أعمق وأكبر عن الحياة الخالية من المتاعب. ذات مرة كنت أتصفح إحدى المجلات، ووجدت بين صفحاتها إعلانًا لأحد المشاهير، وقد أُخذت له صورة وهو يرتدي رداء الحمام وخفين، خارجًا من منزل فخم يُطل على منظر مبهر، ومع ذلك لم تجذبني هذه الصورة على الإطلاق. في الواقع، لقد أثارت اشمئزازي. إن نمط الحياة الذي كانت الصورة تعكسه هو نمط خالٍ من المسؤولية أو العمل، وغارق في الوفرة.. نعم، قد يكون جميلاً لمدة أسبوع أو أسبوعين كل سنة، لكنه كأسلوب حياة بدا لي مهينًا وغير مغرٍ للحياة.

> ينجح الصراع في أن يولِّد فرحًا أعمق وأكبر عن الحياة الخالية من المتاعب

لقد خلقنا الله بطريقة تضطَّرنا إلى الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة. إن التحدي هو ما يُبقينا مملَّحين. ولكن كي يكون الصراع مُربحًا، ينبغي أن يكون له غاية، وأن يكون مثمرًا. إن شخصين يتشاجران طوال الوقت في زواجهما، ويجعل كلٌّ منهما الآخر بائسًا لا يقومان بتدريب روحي مفيد. لكننا عندما نضع الصراع في الإطار المسيحي لنمو الشخصية وبذل الذات، فإنه يكون نافعًا ومثمرًا.

وقد صوَّر الرب يسوع الصراع على أنه بوابة الدخول إلى الحياة المسيحية، مشددًا على أنه واقع يومي أمام إيماننا: «إن أراد أحدٌ أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم، ويتبعني» (لو ٩: ٢٣).

بالنسبة إلى الكثير من المسيحيين الغربيين، قد تبدو هذه الآية دراماتية مثيرة! عندما أنظر إلى حياتي بأمانة، عليَّ أن أقر بأنها من نواحٍ عديدة سهلة بشكل غير معتاد.. فلا أحد يسخر من إيماني، ولست مضطهدًا بسببه، إنما في الواقع، بصفتي كاتبًا ومحاضرًا مسيحيًا، فإن لإيماني أثرًا ظاهرًا وإيجابيًا في إعالة عائلتي.



إن السهولة النسبية لحياتي كمسيحي تمثل امتيازًا لم يختبره الكثير من الأجيال قبلنا. لقد شهد الطب تقدمًا غير مسبوق أتاح للكثيرين منا قضاء حياة خالية من الألم فعليًا. لدينا ماكينة لغسل الثياب، وأخرى لغسل الصحون، وسيارات تنقلنا بسرعة ١٠٠ كم في الساعة من مكان إلى آخر.. يمكنني أن أستيقظ في «سياتل» وأتناول العشاء في «نيويورك» في نفس اليوم.

حياتنا سهلة لدرجة أننا بدأنا نجد صعوبة في النوم، ونظن أن الحياة ينبغي أن تكون سهلة، أو أنها ستكون دائمًا سهلة. وبمجرد أن تصبح صعبة بعض الشيء، نستميت محاولين جعل حياتنا مريحة من جديد. ولكننا بهذه الطريقة، نفقد فرصة روحية عظيمة.

عندما قرأنا ليزا وأنا عن المحاولات المتعددة لتسلُّق قمة جبل إيفرست، علمنا أن متسلقي الجبل غالبًا ما يتراجعون أمام منعطف أو بروز صعب بشكل خاص، ويتشاورون حول كيفية تجاوزه. يكمن الجزء الأكبر من المتعة في هذه الرياضة في مواجهة التحديات، ومعرفة كيفية التغلب عليها. ولو كان تسلُّق الجبال أمرًا سهلاً، لفَقَد جزءًا كبيرًا من جاذبيته.

يمكن النظر إلى علاقاتنا بنفس الطريقة.. فبدلاً من أن نفكِّر مباشرة

كيف يمكننا أن نستقل هليكوبتر لنصل إلى القمة، يمكننا أن نعتمد طريقة المتسلِّق ونفكِّر: "إنه لأمر صعب بالفعل. إنه تحدٍ، بدون شك. كيف أستمر في حب هذا الشخص في ظل هذا التحدي؟"

لقد أشار «توماس الكمبيسي» إلى أنه "بقدر ما يفنى الجسم بالضيقات، تتقوى الروح أكثر بالنعمة الداخلية. وأحيانًا يتعزى بطلب المحنة والشدة حبًا في التشبه بصليب المسيح، إلى حد أنه لا يتمنى أن يكون بدون حزنٍ أو محنة."

اطرح على نفسك هذا السؤال: هل أُفضِّل أن أعيش حياة سهلة ومريحة وأبقى غير ناضج في المسيح، أم أنني أريد أن أُملَّح بالألم لأنني عندما أفعل ذلك أتمثل بصورة المسيح؟

إنه أمر غيرواقعي أن نفترض أن عهد الإخلاص الزوجي سيكون عهدًا "يسهل" الحفاظ عليه. يشير «أوتو بايبر» إلى أن "عقد الزواج يتضمن دائمًا عنصر عدم الثقة."[2] فالسبب في أننا نتعهد بأن نحب بعضنا البعض "حتى يُفرِّق الموت بيننا" هو تحديدًا لأن عالمنا يعي أن عهدًا مثل هذا سيختبر بقوة– وإلا لما كان هذا العهد ضروريًا! نحن لا نقطع عهودًا أمام الناس بأننا سنُغذي أجسادنا بالطعام، أو سنشتري لأنفسنا الملابس اللازمة.

كل من يدخل في الزواج يصل إلى مرحلة تبدأ فيها العلاقة في "السير" بشكل معاكس.. ومن أجل هذه الأوقات تحديدًا يُقطع العهد. وإذ توقع الله حدوث الصراع أوجد علاجًا، وهو الالتزام بعهودنا.

في هذا الصراع نصبح أشخاصًا أكثر نبلاً. إن أحد أكبر التحديات التي نواجهها فيما نشجِّع المؤمنين على النمو هو أننا مهووسون بتربية أبنائنا الذين يحتاجون إلى تعلُّم الآداب، بينما نفترض أن شخصياتنا

نمَت بالكامل. والحقيقة أنها لم تصل لذلك.. أنت وأنا يمكننا أن نواصل النمو في مجالات متعددة. وليست الشهامة، والتضحية، وعدم الأنانية سوى بعض منها.

المعاناة الممتعة

يُدرِك المؤمن الناضج ويقدِّر الجانب الممتع من المعاناة والألم، دون أن ينحدر ليصبح مازوخيًا* يتلذذ بالألم بشكل مرضي. كتبت تريزا الأفيلية: "يارب، كيف لك أن تُبلي مُحبيك! لكن أي شيء يبدو تافهًا مقارنة بما تكافئهم به بعد ذلك." وقد اختبر «چون كليماكوس» الواقع نفسه، وكتب قبل تريزا بقرون عدة يقول: "إذا خضع الأفراد بإصرار لحمل الصليب، وإذا قبلوا بلا تردُّد المحن وتحملوها في كل شيء من أجل الله، سيكتشفون فيها جميعًا راحة وعذوبة لا توصف."

إن هذا التعليم يعكس ببساطة كلمات الرسول بولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ٤: ١٧: «لأن خِفة ضيقتنا الوقتية تُنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقَل مجدٍ أبديًا.»

ولأننا لدينا رجاء في الأبدية؛ فلا نصبح "قصيري النظر" ونطلب راحة مؤقتة يمكن أن تقلل من ربح على المدى البعيد. يُظهر طلبنا للراحة والسهولة ما نقدِّره بحق.. إنه الدليل القاطع عما إذا كنا نعيش من أجل ملكوت الله وخدمته، أو من أجل راحتنا الشخصية وسمعتنا.

إن بطل الملاكمة من الوزن الثقيل الذي يتهرب من مبارزة المنافسين المماثلين ليتبارى باستمرار مع المنافسين الأضعف يُهزأ به ويُسخر منه- وهذا حقيقي. إن المؤمنين الذين يتجنبون الصراعات الجدِّية، ويسعون

* المازوخية هي اضطراب نفسي يتجسد في التلذذ بالألم الواقع على الشخص نفسه.. أي التلذذ بالاضطهاد عامًا.

بطريقة واعية إلى وضع أنفسهم في أسهل المواقف والعلاقات إنما يفعلون الشيء نفسه.. إنهم ينحدرون، وهذا الانحدار سيحدِّد سماتهم في نهاية المطاف -بل الأسوأ من ذلك سيشكلهم.

إنه الدليل القاطع عما إذا كنا نعيش من أجل ملكوت الله وخدمته، أو من أجل راحتنا الشخصية وسمعتنا.

إذا كان هناك أمر واحد يحتاج شباب المخطوبين لسماعه، فهو أن الزواج الجيد ليس شيئًا تجده، إنما تعمل للوصول إليه.. إنه يتطلب صراعًا. عليك أن تصلُب أنانيتك. عليك أحيانًا أن تواجه، وأحيانًا أخرى أن تعترف. وممارسة الغفران أمر أساسي.

إنه لعمل دؤوب بدون شك! لكنه في النهاية يؤتي ثماره. في النهاية، يخلق علاقة من الجمال، والثقة، والدعم المتبادل.

من الجيد أن ننظر إلى صراعاتنا في ضوء ما تقدمه لنا روحيًا، بدلاً من أن ننظر إليها في ضوء ما تأخذه منا عاطفيًا. يُعتبر حل الخلافات أمرًا شاقًا؛ لذا أُفضِّل القيام بملايين الأشياء بدلاً من بذل الوقت والجهد للتغلُّب على عراقيل أمام العلاقة. إذا كنت في زواجي أبحث عن الاستقرار العاطفي، فمن المرجح أنني لن أظل متزوجًا طويلاً. ولكن إذا كنت أظن أن زواجي يؤدي إلى ثمار روحية، سيكون لي أسباب كثيرة كي لا أكون متزوجًا فحسب، بل أتصرف كما يليق بزوج أو زوجة.

يضع «أوتو بايبر» أمامنا تحديًا بقوله: "إذا كان الزواج... تجربة مُخيِّبة للآمال بالنسبة لكثير من الناس، فالسبب يعود إلى قلة إيمانهم. يرفض الناس حقيقة أنه لا يمكن الحصول على بركات الله والتمتع بها إلا عندما يسعون

الزواج الجيِّد ليس شيئًا تجده، إنما تعمل للوصول إليه.

إليها بإصرار (مت ٧:٧؛ لو ١١: ٩).. لذلك، فالزواج هو عطية لكن في نفس الوقت مهمة ينبغي إنجازها."[3]

لا تهرب من صراعات الزواج، بل تَقبَّلها بسرور، رحِّب بها، واعمل على النمو فيها، والتقرُّب إلى الله بسببها، ومن خلالها ستعكس روح يسوع المسيح أكثر. واشكر الرب أنه وضعك في موقف قُصد به أن تنمو روحك نحو الكمال.

لنُلقِ نظرة عن كثب إلى شخصين صارعا بقوة في زواجهما، لكنهما نتيجة لذلك باتا مؤثرين بشكل رائع.

المحرر العظيم[4]

يُمكن أن نستنتج أن أبراهام لنكولن كان رجلاً صاحب مبادئ بشكل استثنائي، وذلك في الطريقة التي انتهجها في الخطوبة، ناهيك عن الزواج.

في عام ١٨٣٦، وافق لنكولن على الزواج بامرأة لم يكن قد رآها منذ ثلاث سنوات، وهو أمر محفوف بالمخاطر في أحسن الأحوال، وخادع في أسوأ الأحوال. وكان أمامه الكثير من الوقت ليندم على وعده. وعندما التقى أخيرًا وجهًا لوجه بزوجته المرتقبة، غاص قلب لنكولن في أحشائه. وقد كتب: "لم تبدُ كما تصورتها في مخيلتي."

بالفعل لم تبدُ كذلك! وقد أقرَّ قائلاً: "كنتُ أعلم أنها بدينة، لكنها بدت الآن الشريكة المناسبة بالنسبة إلى چون فالستاف." وعندما نظر إلى وجهها قال لرعبه: "لم أتمكَّن أن أمنع نفسي من التفكير في والدتي". وهذا يعود جزئيًا إلى صفتين: "نقص الأسنان" لديها، وتقييم لنكولن لعمرها بشكل مشابه لتقييمه لعمر الشجرة: "لا يمكن أن يبدأ شيء في

حجم الطفولة، ويصل إلى حجمها الضخم الحالي في أقل من خمسة وثلاثين أو أربعين عامًا."

قال باختصار: "إجمالاً، لم أكن سعيدًا بها على الإطلاق."

لكن بعد ذلك، قام لنكولن بأمر يصدم أحاسيسنا الآن في عصر ما بعد الحداثة.. فلأنه أعطى كلمته، كان قراره الزواج بها. عاش معها فترة الخطوبة، ثم جثا على ركبة واحدة وطلب يد هذه المرأة للزواج.

وقد تبع ذلك مشهد هستيري.. انتهى الأمر برفض المرأة له. في البداية، ظن لنكولن أنها ببساطة تتصرف بأسلوب مهذب، فاستمر بحسب العادات المقبولة في الإلحاح عليها لإعادة التفكير، إلى أن أدرك أنه لم يكن لها أي ميل أو نية في أن تصبح زوجة له.

استنتج لنكولن: "هناك رجال آخرون تعرضوا إلى الهزء على يد الفتيات؛ إنما لا يمكن أن يُقال هذا عني. لأن في هذه الحالة، بكل تأكيد، أنا الذي جعلت من نفسي أضحوكة."

قد تظن أن لنكولن أصبح بعد ذلك أكثر حذرًا لدى اختيار خطيبته التالية، لكن «ماري تود» بالكاد كانت من نوع النساء اللواتي يمضي معهن المرء أمسية هادئة. فقد كانت في الواقع امرأة كثيرة الاندفاع، وصاحبة طباع حادة؛ ومع هذا، فإن ما يثير السخرية أن هذا الطبع ساهم بشكل ما في انجذابها إلى هذا الرئيس القادم. وقد وصفها لنكولن بأنها "أول مخلوق أُنثَوي يلمع بشراسة" يلتقيه في مسيرته.

بعد زواجهما بفترة قصيرة، لم تعد ماري راضية عن بيتهما، وقالت للنكولن إن "الأشخاص الرفيعي المستوى" في مجتمعهم يعيشون في منزل مؤلَّف من طابقين. لجأ لنكولن إلى حيلة يستعملها الكثير من الأزواج.. ألا وهي الموافقة على الفكرة، ولكن دون تخصيص المبلغ المطلوب لتحقيق

المطلب. وبدلاً من إطالة الجدال، كما كانت تفعل الكثير من النساء في عصرها، انتظرت ماري ببساطة مغادرة لنكولن البلدة في رحلة عمل لعدة أسابيع، وتعاقدت مع نجار ليبني طابقًا آخر.

ومع مرور السنين، تعلَّم لنكولن الصبر بطرق متنوعة. وقد صعَّبت نوبات غضب ماري كثيرًا من الحفاظ على الشغالات لديهم؛ وكان رد فعل لنكولن إعطاء الفتيات دولارًا إضافيًا في الأسبوع. بعد أحد الخلافات الحادة جدًا بين ماري وإحدى الخادمات، ربّتَ لنكولن على كتف الفتاة وقال لها: "ابقي معها، يا ماريا. ابقي معها."

عندما اتصل مندوب للمبيعات بالبيت الأبيض وتعرَّض لهجوم لفظي حاد من ماري، توجَّه مباشرة إلى المكتب البيضاوي -كان الحال مختلفًا في تلك الأيام.. وراح يشتكي للرئيس لنكولن عن طريقة تعامل السيدة الأولى معه. استمع لنكولن إليه بهدوء، ثم وقف وقال بلطف: "يمكنك أن تتحمَّل لمدة خمس عشرة دقيقة ما أتحمَّله منذ خمسة عشر عامًا."

وقد عانى لنكولن الكثير من الإهانات على يد زوجته، والتي تراوحت من إلقاء القهوة في وجهه أمام الناس إلى التبذير في الإنفاق. في تلك الأيام، لم يكن الرؤساء أغنياء كما هم اليوم، لكن ماري واصلت حفلات الإنفاق الغريبة، حتى إنها اشترت مئات الأزواج من القفازات دفعة واحدة.

عندما خسرت عائلة لنكولن الابن «ويلي» -وهو الابن المفضل لماري- بدأ الحزن الذي تلا ذلك في تحطيم المعنويات الهشة للسيدة لنكولن؛ وبات من الصعب عليها أكثر فأكثر أن تسيطر على أعصابها، وفي بعض الأحيان لم يساعدها لنكولن نفسه كثيرًا. في إحدى المرات أخذ زوجته إلى نافذة، وأشار إلى مصحة نفسية، وقال لها: "أيتها الأم، هل ترين هذا المبنى الأبيض العريض على التلة هناك؟ حاولي أن تسيطري على حزنك، وإلا ستصابين بالجنون، فنضطر إلى إرسالك إلى هناك."

وفي أعقاب هذا الحزن الأليم (بسبب فقدان ابنه)، والتشويش (بسبب رؤية زوجته تنهار أمامه) طُلب من لنكولن إلقاء الخطاب الذي كان سيميزه على مدى الأجيال. وقد كانت حياة لنكولن السياسية في تلك المرحلة غير مستقرة تمامًا كحياته المنزلية. وفيما طالت الحرب الأهلية، إنهارت شعبية لينكولن السياسية. عندما قالوا لأحد زملائه السياسيين إن الرئيس سيخطب في الجماهير المحتشدة في جيتيسبرج -لإحياء ذكرى الضحايا من الجنود- سخر قائلاً: "دعوا الموتى يدفنون موتاهم."

كانت حياة لنكولن السياسية في تلك المرحلة غير مستقرة تمامًا كحياته المنزلية.

وقُبيل مغادرة لنكولن إلى جيتيسبرج، مرض ابنه «تاد» الأمر الذي فاقم هياج ماري؛ إذ تذكرت مجددًا الابن الذي فقدته منذ أقل من سنتين. ومع كل الخلافات في منزله، بالكاد تمكَّن لنكولن من تدوين بعض الملاحظات في طريقه إلى بنسلفانيا.

في تلك اللحظة الحساسة، يمكننا أن نغفر للنكولن إلقاءه كلمته بلهجة أقل من تلك التي تُميِّز فن الخطابة. وقد وصف أحد المراسلين إلقاء لنكولن أنه "صوت حاد، غير موزون، ويفتقر إلى العمق". وقد كان التصفيق مشتتًا ومقتضبًا، إلى حد أن لنكولن اعتقد أنه أخفق بشكل مثير للشفقة؛ فانحنى وقال لأحد الأصدقاء: "إنه لفشل ذريع، وقد خاب أمل الناس."

لكن الكلمات كانت حقيقية وصادقة، وكانت مؤثرة وفعالة.. وفيما دونتها الصحف بدون أن تلونها كآبة لنكولن المفهومة، كانت مصدر إلهام للأمة بطريقة لم تشهدها من قبل. إن جيتيسبرج هي إحدى أشهر الخُطب

لقد لمع بأبهى صورة عندما كانت حياته الشخصية أكثر إظلامًا.

التي أُلقيت على الأراضي الأمريكية، وقد حُفرت هذه الكلمات في نهاية المطاف على حجر، ورافقت لنكولن إلى أجيال من بعده. قد تكون العبارة التالية محفوظة، لكنها لا تزال صحيحة: لقد لمع بأبهى صورة عندما كانت حياته الشخصية أكثر إظلامًا.

إن الربط بين زواج لنكولن ومهمته ليس بالأمر الصعب.. من السهل رؤية كيف أن رجلاً قد يتخلى عن زواج صعب لا يتمتع بالشخصية القوية ليحافظ على تماسك أمة منهارة. وقد كان لنكولن مهووسًا بالفعل بإنقاذ الاتحاد (الولايات المتحدة).. ترى أي ميدان آخر يُعد أفضل من الزواج الصعب ليتدرب على هذا القدر المطلوب من التماسك؟

من المهم ملاحظة أن زواج لنكولن الصعب لم يعطله عن الوصول إلى العظمة فحسب، بل على العكس يمكن القول إنه في الواقع ساعد في إعداده لهذه العظمة. فقد تم اختبار شخصية لنكولن وصقلها بشكل يومي، بحيث أنه عندما أتى الاختبار الحقيقي استطاع أن يقف على أرضية صلبة.

لو كان لنكولن مهووسًا بالسعادة، ما كان ليملك القوة الكافية ليتحمل ماري، أو ليُبقي الأمة متماسكة. لقد شعر بنداء القدر، نداء لشيء يتخطى في ذهنه راحته الشخصية، وطاعته لهذا القدر هو ما صنع تاريخ العالم.

في معظم استطلاعات الرأي التي تُقام حول الرؤساء، يأتي لنكولن في المراتب الأولى؛ وقد اعتبر بعض المؤرخين أنه ربما كان أكثر رؤساء أمريكا نجاحًا على الإطلاق. ومن المثير للاهتمام أن استطلاعًا للرأي قام به مؤرخون في عام ١٩٨٢ وضع «ماري تود لنكولن» في أدنى مرتبة كسيدة أولى.

تفضح هذه القصة الكذبة وراء تفكير الراعي الذي يقول: "كان بوسعي أن أفعل شيئًا لو لم أتزوج تلك المرأة"، أو الزوجة التي تقول في نفسها: "فقط تخيَّل كيف سيكون حالي لو لم أكن مرتبطة بمثل هذا الفاشل." كان أحد أعظم رؤسائنا، بكل تأكيد، متزوجًا بامرأة من أصعب السيدات الأولى.

من الملائم أن نقول إن أبراهام لنكولن ينبغي أن يُعرَّف بـ "المحرِّر العظيم". في إحدى المرات، عندما كان يمر هو وزوجته عبر حشد من الرقيق اللاجئين، سألته زوجته ماري عن عدد الأولاد الذين يحملون اسم أبراهام لنكولن، فأجاب الرئيس بصدق وبلا مفاخرة: "لنرَ.. نحن في أبريل (نيسان) ١٨٦٣. أعتقد أنه من بين كل هؤلاء الأطفال الذين يبلغون أقل من سنتين من العمر ربما يحمل ثلثاهم اسمي."

> ربما يمكن لقدوة أبراهام لنكولن أن تحرِّرنا من عبودية ملاحقة السعادة دون جدوى.

إن كلمة «محرِّر» تعني مخلِّصًا من العبودية والقمع.. ربما يمكن لقدوة أبراهام لنكولن أن تحرِّرنا من عبودية ملاحقة السعادة دون جدوى. ربما يمكنه أن يحرِّرنا من فكرة أن الزواج الصعب سيقيدنا بدلاً من أن يعدنا لمهام حياتنا. ربما يمكنه أن يقطع القيود التي تُلزِمنا بالبحث عن حياة خالية من التوتر على حساب بناء حياة لها معنى وحياة تبني شخصياتنا.

الطيّار العظيم[5]

تصوَّري أنكِ شابة جامعية في عشرينيات القرن العشرين؛ تحبين الكتب، وتحلمين بأن تصبحي كاتبة أو شاعرة. والدكِ سفير للولايات

المتحدة، وعائلتكِ ثرية وذات صيت حسن. تَربيتِ على تقدير الذوق والسلوك الراقي و"التربية العالية".

وعبر عتبة منزل والدك يدخل رجل ملفت للانتباه، يمثل كل شيء تعلَّمتِ ألا تحترميه: مغامر لا يهوى العلم، رجل يعمل بالمحركات بدلاً من الكلمات.. من أصول متواضعة، إلا أن رحلته الجوية عبر الأطلسي من نيويورك إلى باريس منحته شهرة لا نظير لها تقريبًا في تاريخ البلاد.

هكذا تبدأ قصة زواج «آن مورو لندبرج».

فيما كنت أكتب سيرة حياة أحد أبطال سباق السيارات، أرسل لي الناشر دليلاً يضم عناوين المشاهير؛ وهي تضم المشاهير جميعهم من الأمير ألبرت ولي عهد موناكو، وصولاً إلى تايجر وودز ورينيه زيلودجر (ممثلة صاعدة يُتوقع لها النجاح). البنط المستخدم كان صغيرًا جدًا، والكتابات مقسمة على عامودين بحيث تتسع إلى ما بين ١٤٠ و١٥٠ اسمًا في الصفحة الواحدة. والدليل مكوَّن من ٧١ صفحة. احسب الأرقام، وستُدرك ما هو عدد "المشاهير" اليوم.

كانت بدايات هذا القرن مختلفة عن الآن، ولاسيما قبل الحرب العالمية الثانية.. ساهمت رحلة «تشارلز لندبرج» الجوية الناجحة عبر الأطلسي في تصنيفه في مرتبة خاصة به فقط؛ فلم يكن أحد في شهرته. أما اليوم فيصعُب انتقاء الشخصية المشهورة "المفضلة"؛ فأسماء من يدخلون إلى القائمة ومن يخرجون منها تتغير مع العدد الأخير في السنة من مجلة "People".

لكن «لندبرج» كان بدون شك، لفترة من الزمن، الرجل الأكثر شهرة وشعبية في الولايات المتحدة.. وربما في العالم. تصوَّر أن يُعلق العمل في بورصة «وول ستريت» بمناسبة موكب يُقام على شرفك.. هذا الموكب

الذي جذب ٤,٥ مليون شخص! وقد وصلت شعبية «لندبرج» إلى حد أن النساء كن يحجزن غرف الفندق التي يكون قد غادرها للتو كي يستحممن في مغطسه وينمن في سريره. وقد اكتشف «لندبرج» أنه ما عاد باستطاعته إرسال قمصانه إلى المغسلة؛ لأنها لم تكن ترجع. وكان «لندبرج» يواجه صعوبة بشكل خاص في رصد حساب دفتر شيكاته؛ لأن معظم الناس كانوا يرفضون أن يصرفوا شيكاته، بل كانوا يفضلون الاحتفاظ بها للذكرى.

عندما التقت «آن مورو» بـ«تشارلز لندبرج»، كانت مستعدة أن تكره تمامًا هذا الطيار الشهير. وكونها امرأة متعلمة في جامعة سميث، وتلقت تربية جيدة، ومولعة بالكتب والمطالعة، لم تكن لتُغرم بما أطلقت عليه "كل هذا الشيء الذي يُسمى بطلاً شعبيًا". وقد كتبت في يومياتها: "ما كنت بالطبع لأعبد «ليندي» (هذا الاسم البغيض، على أية حال)." وقد هزأ أستاذها بـ«ليندبرج» قائلاً: "إنه ليس أكثر من مجرد ميكانيكي... ولولا رحلة النسر الجوية التي قام بها بمفرده، لكان الآن مسؤولاً عن محطة وقود في ضواحي سانت لويس."

على الرغم من اعتزام «آن» على ألا تسمح لهذا المغامر العظيم أن يسيطر على عواطفها، فوجئت بشدة عندما وجدت نفسها متيمة بحبه بعد أن التقت به. فبطريقة ما، أصبح هذا الرجل الذي يحمل ذاك الاسم "البغيض" فجأة "قويًا، وذكيًا، ومتقدًا، وصاحب رأي في مختلف القضايا." وقد سكبت «آن» كلماتها بحرارة على دفتر يومياتها، وكانت هذه الكلمات تشير إلى فتاة مراهقة أضناها الحب أكثر من شاعرة طموحة: "قوة الحياة تشتعل كنار ساطعة في عينيه. لقد تركَّزت الحياة فيه.. عندما يركِّز هو حياته، وطاقته، وقوَّته على أي شيء، تحدث أشياء مذهلة."

وبسبب شهرة «ليندي»، تسببت مواعدتهما في عدد من المشكلات..

فحالما شُوهد برفقة شابة، تداولت الصحف الصور، وبدأت تتكهن حول خطوبة مرتقبة. وفي وقت سابق، حذَّر «ليندي» «آن» قائلاً: "لا تقلقي من شهرتي؛ فهي تتبعني على أية حال. لقد اعتدت عليها، لكنني لا أريدها أن تسبب لكِ الإحراج."

عرفت «آن» كيف تتعامل مع الوضع.. فعندما كانت تكتب لأخواتها، كانت تستخدم الاسم المستعار «روبرت بويد» بدلاً من «تشارلز لندبرج»؛ خشية أن يتم العثور بأي شكل على الرسائل وتسريبها إلى الصحافة.

ولما كان «ليندي» من أوائل الطيارين، في الأيام التي سبقت فكرة استئجار الصحف الشعبية للهليكوبتر لتغطية الأحداث، فقد كان لذلك الكثير من المزايا. أحيانًا كان «ليندي» يأخذ «آن» بطائرة إلى حقل بعيد في «لونج أيلاند»، حيث كانا يستغلان الفرصة للتحدث سويًا بهدوء وخصوصية. وفيما تعرَّفت «آن» أكثر فأكثر على «ليندي»، أحست بمشاعر متناقضة. فمن جهة كانت منبهرة به، ولكن من جهة أخرى أدركت كم هما مختلفان بشدة. لقد كانا كلاهما، المغامر والشاعرة، ثنائيًا غير متجانس على الإطلاق. وقد سكبت أفكارها في رسالة إلى أختها: "كما ترين، أنا ضائعة تمامًا، وسعيدة تمامًا، ومضطربة تمامًا. إنه أعظم وأكثر رجل مثير للاهتمام التقيته في حياتي، ومع ذلك لا يبدو أنه يلمس حياتي من أي جانب، حقًا."

> لقد أظهر كل منهما، المغامر والشاعرة، ثنائيًا غير متجانس على الإطلاق.

«لا تتمنَّ لي السعادة»

عندما تمَّت الخطوبة، عرفت «آن» أن الحياة مع «ليندي» لن تكون سهلة. فالمنزل الريفي الهادئ، والحياة السهلة نسبيًا، والفخامة، والحميمية

التي كانت تحلم بها، لن تكون ممكنة مع «ليندي». وقد كتبت في رسالة إلى صديق: "كورليس، إذا راسلتني وتمنيتَ لي السعادة التقليدية فلن أسامحك أبدًا. لا تتمنَّ لي السعادة؛ فأنا لا أتوقع أن أكون سعيدة. ولكن، بطريقة ما، تخطى الأمر ذلك. بالأحرى تمنَّ لي الشجاعة، والقوة، وحس الفكاهة؛ لأنني سأحتاج إلى ذلك."

لقد فسدت سعادة «آن» في يوم زفافها جزئيًا بسبب التفاصيل السخيفة التي اضطرت هي وزوجها الجديد للمرور بها من أجل الهروب من الأنظار.. فلكي تتسلل من حفل الزفاف، استقلت «آن» سيارة مستعارة، متخطية الحشد المعتاد من المراسلين المجتمعين أمام بوابة منزل والديها. بعد ذلك غيَّرت هي و«ليندي» السيارات، وذهبا إلى «لونج أيلاند»، وانتقلا في زورق بمجاديف إلى مركب كان راسيًا في المياه في انتظارهما.

وقد أثمرت جهودهما؛ فقد استمتع العروسان بيومين هادئَين استثنائيين، حتى تمَّ التعرُّف عليهما بينما كانا في محطة للوقود. وقد تمت ملاحقتهما ومراقبتهما طوال الفترة المتبقية من شهر العسل.

وفيما كان الجميع يتكلمون بحماسة بالغة عن كيف كانت «آن» "محظوظة" لتفوز بأكثر أعزب مرغوب فيه في العالم -وهو تصور أغضبها لأنه يفترض أن «ليندي» ليس محظوظًا بالإرتباط بها- فلقد كافحت المرأة الشابة لتعتاد على شهرتها المفاجئة.

بعد عدة سنوات، استغرقت في الذكريات: "من الصعب تصديق أو حتى تذكُّر كم افتقدنا الخصوصية بشدة، وكيف كافحنا بشراسة لنكون معًا بمفردنا. في مدينة مكسيكو، كان المراسلون ينتظروننا على بوابات السفارة، وكانت سياراتهم وآلات التصوير جاهزة للحاق بنا. في منزل العطلة [الخاص بوالديَّ]... كان المصورون المغامرون يتسلَّقون الأسطح والشرفات ليصورونا في حديقتنا. كنا نتسلل من الأبواب الخلفية،

متنكرين، ونذهب إلى منازل أصدقائنا، ونغيِّر سياراتنا، ونهرب إلى صحراء المكسيك، التي كانت تُعتبر خطرة في تلك الفترة بسبب وجود قطاع الطرق. كنا نذهب بالطائرة.. فهنا على الأقل لا نكون ملاحقين. بعد تخطي وابل من آلات التصوير في ساحة الطيران، كنا نُقلع ونترك الحشود وراءنا، ونهبط على التلال لنستمتع بنزهة.. بمفردنا أخيرًا."

كان لهذا الهروب من المصورين والصحفيين ثمن غالٍ. وكما تشير «آن» نفسها، "العزلة التامة ليست بالحياة الطبيعية تمامًا كما هو حال الظهور العلني التام. لقد كنا نتجنب الظهور أمام الجمهور معًا، نتخفى مثل المجرمين أو العشاق الهاربين، وكان علينا أن نمتنع عن مصادر البهجة اليومية كالسير بمفردنا في الشوارع، والتسوُّق، وزيارة معالم المدينة، وتناول الوجبات في المطاعم، أو المشاركة في المناسبات العامة. وحتى المناسبات الاجتماعية في السفارة أو في منزل والديَّ في «إنجل وود» في «نيو جيرسي» لم تخلُ من التطفل.. كانوا يعطون رشوة للخدم، وتتم سرقة الرسائل وتسريب البرقيات، وكان المراسلون يتحدثون إلى ضيوف أو أصدقاء مستأمنين، وينشرون حكايات محرَّفة عن حياتنا الخاصة، أو إذا لم تتوفَّر لهم المعلومات، كانوا ببساطة يختلقون القصص."

وعلى الرغم من أن «آن» كانت نافذة البصيرة، ولديها طموح أدبي كبير، كان عليها في المرحلة الأولى من علاقتها مع «تشارلز» أن تقلِّص هذا الجزء من طموحات حياتها. وقد حذَّرها «تشارلز» من "ألا تقول شيئًا قد يصير على ألسنة الناس كلها، وألا تكتب شيئًا لا تود أن تراه مكتوبًا على الصفحة الأولى من الجريدة."

تُعبِّر «آن» عن وجهة نظرها قائلة: "كنت مقتنعة بأنه عليَّ أن أحميه وأن أحمي نفسي من أي تطفُّل يمس حياتنا الخاصة، ولكنها تضحية كبرى ألا أتكلم أو أكتب بعمق وصراحة! أنا التي لا تنتهي التجربة من

وجهة نظرها حتى تُكتَب وتُشارَك. أنا التي قلت في الجامعة إن أكثر الأمور إثارة في الحياة هو التواصل... جاءت النتيجة محبِطة بالنسبة إلى نوعية حياتي الداخلية. توقفتُ تمامًا عن الكتابة في دفتر يومياتي لمدة ثلاث سنوات. وبما أن الأحرف كانت غير آمنة أيضًا؛ حاولت الكتابة بحذر، أو بلغة لا يفهمها الجميع، أو من خلال الدعابة."

وعلى الرغم من أن "آن" كانت نافذة البصيرة ولديها طموح أدبي كبير، كان عليها في المرحلة الأولى من علاقتها مع "تشارلز" أن تقلّص هذا الجزء من طموحات حياتها.

حاول أن تتخيل كيف تكون الحياة وسط كل هذا الفضول الشديد من عامة الناس. وحتى في الأوقات الأكثر حميمية للزوجين «ليندبرج»، كان لديهما مَنْ يحرسهما: "بالطبع، عندما تزوجنا بات بإمكاني التكلم بحرية مع زوجي، ولكن فقط على متن طائرة، أو في الصحراء، أو في غرفة النوم. وحتى في غرفة الفندق، عليَّ أن أتأكد من أن النوافذ والشبابيك الداخلية على الطرقات مقفلة في وجه المتصنتين."

إن "الحياة الخيالية" التي كَتَبَت عنها الصحف بحماسة فائقة لم تخلُ من جانب مظلم؛ وقد تحسَّرت «آن» قائلةً: "لم يكن لدينا حياة خاصة، بل حياة عامة فحسب... لم يكن لدينا منزل؛ كنا نعيش في الفنادق، والطائرات، ومنازل الآخرين؛ وكنا نسافر باستمرار."

هذه الحياة لا يتصورها شخص "وُلِد للكتابة"، وهذه ليست البيئة أو أسلوب الحياة الذي يختاره شاعر هادئ ومولع بالتأمل والتفكير. تأثرت «آن» بشدة بهذه الحياة ذات السرعة المحمومة؛ وفي صرخة يائسة للحصول على التعاطف، ناحت على أمها قائلةً: "لا يمكننا أبدًا أن نفاجئ الحياة؛ فهي دائمًا تنظر إلينا."

تحرر من خلال الحزن

في عام ١٩٣٢، اتخذت الشهرة منعطفًا قاسيًا ومؤذيًا.. فقد خُطف «تشارلز ليندبرج جونيور»، ابن «ليندبرج» البالغ من العمر ثمانية عشر شهرًا، من مهده في منزلهما في نيو جيرسي. وقد ترك الخاطفون رسالة موجزة على عتبة النافذة يطلبون فيها فدية مقابل عودته سالمًا. دامت المفاوضات ستة أسابيع، دُفعت من بعدها الفدية، لكن الطفل لم يُرَدّ. وبعد أربعة أسابيع مؤلِمة -أي بمجموع عشرة أسابيع- وصلت المحنة إلى نهاية حزينة عندما وُجدت جثة الطفل الصغير مُلقاة في الغابة، على بُعد بضعة كيلومترات من منزل «ليندبرج».

وبصفتي أبًا لثلاثة أطفال، ليس بوسعي أن أتصور تجربة أكثر صعوبة من فقدان طفل. فلابد أن الخطف.. الشك، والانتظار، ثم إيجاد الطفل.. كانت تجربة ذات وقع مدمر بالتأكيد. أن تَسرِق الشهرة أشعارك أو الأمل في حياة هادئة أمر، أما أن تسرق الشهرة مولودك الأول وتُودي بحياته فهو أمر مختلف تمامًا.

ولأن الصبي طُرح في الغابة؛ نالت منه الحيوانات، وأخذت السلطات الرسمية وقتًا للتعرُّف على هوية صاحب الجثة. وقد اقتحم بعض المصورين المشرحة، ونشروا صورًا لجثة ابن «آن» المشوهة ليراها الجميع، مساهمين بالتالي في إضافة الإهانة القاسية إلى الجُرح المؤلم.

إنه أسوأ كابوس لأي والدين، لكنه كان مضاعفًا خمسين مرة. ومع ذلك، ولسخرية القدر، فإن هذه المأساة هي التي دفعت «آن» لتكتب مجددًا. لقد سمحت لسخافة الشهرة أن تُدخِل جزءًا من كيانها في سُبات عميق، لكن شيئًا ما في حجم هذه المأساة وَلَّد حياة جديدة.. تمامًا كما ينبت العشب الأخضر بعد حريق مدمر للغابة.

كتبت «آن»: "كنت بدأت أتيقَّن من وجود ما هو أهم من حرية التصرف أو حتى الخصوصية.. وفيما كنت أكتشف النبع التالي، وفي عمق المأساة، احتجت إلى العودة إلى مصدر أعمق. كان عليَّ أن أكتب بصراحة. لذلك، ربما يمكن القول إن الحزن لعب دورًا في تحريري من قيودي."

فكروا بهذه الجملة: "الحزن لعب دورًا في تحريري من قيودي." اليوم، في كثير من الأحيان، الحزن يمثل أمرًا ينبغي تفاديه بأي ثمن. الحزن هو العدو، المضطهِد، والإحساس المخيف. إذا تواجد الحزن في زواجنا، علينا أن نترك زواجنا.. فكيف يُتوقَّع مني أن أبقى في زواج تعيس؟! وبينما قلة من بيننا قد يملكون (أو ينبغي أن يملكوا) الشجاعة لاختيار الحزن بكامل إرادتهم، فإننا عندما نجد أنفسنا فيه، إذا هدَّأنا نفوسنا -أي إذا تعلَّمنا أن نطفو فوق الحزن بدلاً من أن نتذمر كضحية تغرق فيه- قد نجد، كما فعلت «آن»، أنه يمكن أن يُستغل ليحرِّرنا.

وبينما قلة من بيننا قد يملكون (أو ينبغي أن يملكوا) الشجاعة لاختيار الحزن بكامل إرادتهم، قد نجد، كما فعلت "آن"، أنه يمكن أن يُستغل ليحرِّرنا.

لا تتحدث «آن» هنا بعاطفية، بل هي صريحة ومجروحة.. إذ تقول: "ما أقوله هو ليس ببساطة الحقيقة البديهية البيوريتانية القديمة بأن "الألم يعلِّم".. لا أعتقد أن الألم المطلق يعلِّم. فلو كان الألم وحده يعلِّم، لكان العالم بأجمعه حكيمًا، بما أن الجميع يتألم. لابد يُضاف إلى الألم، الحزن، والتفهم، والصبر، والمحبة، والانفتاح، والاستعداد لأن نبقى معرضين له."

«آن» محقة بالطبع. إن زواجًا صعبًا، في حد ذاته، قد لا يتيح لنا أن ننمو؛ بل علينا أن ندرب أنفسنا على التفهم والحب والصبر.. أي علينا

أن نُلزم أنفسنا بالسعي وراء الفضيلة -داخل هذا الزواج الصعب. لا يمكننا أن نتحكَّم في طريقة تصرُّف شريك حياتنا، أو في طريقة تصرُّف العالم، لكن يمكننا أن نتحكَّم في تصرفاتنا وردود أفعالنا.

لا يمكننا أن نتحكَّم في طريقة تصرُّف شريك حياتنا، أو في طريقة تصرُّف العالم، لكن يمكننا أن نتحكَّم في تصرفاتنا وردود أفعالنا.

يضعنا هذا المنظور أمام عجلة القيادة؛ فلا نستمر في أن تتقاذفنا فكرة أننا "ضحية للحزن"، بل نصبح مهندسي شخصية جديدة. إما هذا، أو فقدان السيطرة والسماح لفوران المرارة السام أن يلوِّث أرواحنا.

قد يبدو أمرًا رجعيًا أن نتكلم عن السعي وراء "الفضيلة" في عالم اليوم، لكن السبب في ذلك يعود إلى أننا لا نفهم تمامًا ما تمثِّله الفضيلة في الحقيقة. كلمة الفضيلة تعني في أساسها "القوة"، وهي في اللغة الإنجليزية (virtue) مرتبطة بكلمة "virile"، التي تحمل هذا المعنى بطريقة مباشرة. الفضيلة هي القوة.. القدرة على فعل الحق؛ القدرة على القيام بالخيار المناسب؛ القدرة على التغلب على ضعف الخطية، والخيارات السيئة، وإحساس الضحية، ورثاء الذات.

تقول الأسطورة إن بوذا أخبرها أن كل ما عليها القيام به لتُشفى هو الحصول على حبة خردل واحدة من أسرة لم تعرف الحزن أبدًا.

بعد سنوات، عندما تأملت «آن ليندبرج» في عملية الخطف، قالت إنها وجدت تعزية في تعليمين: أحدهما مسيحي والآخر بوذي. وقد كتبت: "بلا شك، إن الدرب الطويل للألم، والبصيرة، والشفاء، أو الولادة الثانية يتمثل على أكمل وجه في الديانة المسيحية من خلال آلام المسيح، وموته، وقيامته."

تتعلَّق القصة الأخرى بأم تقربت إلى بوذا بعد فقدان طفلها. وتقول الأسطورة إن بوذا أخبرها أن كل ما عليها القيام به لتشُفى هو الحصول على حبة خردل واحدة من أسرة لم تعرف الحزن أبدًا.. ربما يمكنك تخمين النهاية. تجولت الأم من باب إلى آخر، ومن عتبة إلى أخرى، ولم تتمكَّن أبدًا من إيجاد عائلة واحدة بدون حزن. لم تجد أبدًا حبة الخردل التي كانت تبحث عنها؛ لكنها في المقابل وجدت الفهم، والحق، والحكمة، والبصيرة.

ما من غرفة نوم مشتركة في هذه البلاد لا يتصاعد فيها التوتر في بعض الأحيان أو في أحيان كثيرة.

يُمكننا الوصول إلى الاستنتاج ذاته حينما نتحدث عن الزواج.. لكل زواج أحزانه، ولكل زواج تجاربه. ما من غرفة نوم مشتركة في هذه البلاد لا يتصاعد فيها التوتر في بعض الأحيان أو في أحيان كثيرة؛ وقد شكَّل عدد كبير من الوسادات وعاء وحيدًا لدموع عميقة سُكبت في وقت متأخر من الليل أو حتى على طول النهار. ليس أمامنا فرصة اختيار للأحزان أو المحن التي علينا أن نتقبلها، ولكن علينا أن نتحملها.

القوّة المحرِّرة

على الرغم من أن «تشارلز ليندبرج» كان مشهورًا، وبحسب معظم الروايات كان رجلاً كريمًا، فقد كانت بعض الجوانب من شخصيته تجلب الكثير من الأسى لزوجته «آن».. «تشارلز» بعقليته الرواقية دفعته إلى اعتبار البكاء ضعفًا. ووفقًا لذلك، أصرَّ على أنه لو أرادت «آن» البكاء، فلتفعل ذلك بمفردها وفي غرفتها. لكنه عاد وسمح باستثناء وحيد؛ فبعدما وُجد الطفل ميتًا، سمح لـ «آن» أن تنتحب دون أن يوبخها.

لاحقًا في خلال زواجهما، تحوَّلت شهرة «تشارلز» إلى سمعة سيئة.. فقد قام «ليندبرج» بست رحلات إلى ألمانيا، وعارض بشراسة دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. وبعد فترة قصيرة تعرض للسخرية بنفس درجة القوة التي هُتف له بها.

وقد كتبت أخت زوجته: "تصوروا أنه في غضون خمسة عشر عامًا تحوَّل من يسوع إلى يهوذا."

بالاضافة إلى ذلك، أصبح رجلاً مسيطرًا وغريب الأطوار إلى حد ما. وقد أخبرت إحدى بناته أحد كُتَّاب السير الشخصية: "كانت هنتاك طريقتان فقط للقيام بالأمور: إما طريقة أبي، أو الطريقة الخاطئة." عندما أخبرت «آن» زوجها أنها تريد موقدًا جديدًا، أصرَّ على أن تنتظر حتى يتمكنوا من مناقشة عملية الشراء من وجهة النظر "الشخصية، والاقتصادية، والعسكرية." وفي إحدى المرات، فيما كان «تشارلز» يتهيأ للذهاب في رحلة، طلب من «آن» إلغاء مواعيد أولادهما مع طبيب الأسنان، خوفًا من اندلاع الحرب مع الاتحاد السوفيتي (الأمر الذي قد يقود العدو إلى تسميم مخزون المياه).

لا يمكن إنكار أن هذه هموم ثانوية إلى حد ما؛ إلا أن الشهرة، والمأساة، وكيف كان «آن» و«تشارلز» مختلفين بشكل جذري عن بعضهما البعض- كل هذه الأشياء ولَّدت توترًا هائلاً وخطيرًا. ولو كانت «آن» ركَّزت على هذه الصعوبات، وتركتها تسيطر عليها، لأصابها الشعور بالمرارة، وانسحبت سريعًا، ووجدت نفسها وقد ضاقت بها الحياة. لكن بدلاً من أن تصبح مدمنة على الكحوليات، أو تلجأ إلى الطعام للحصول على اللذة، أو تنفس عن غضبها بتوبيخ أولادها وإيذائهم؛ اختارت «آن» أن تطبِّق الفضيلة على الألم، وتوسِّع بذلك تخوم حياتها بشكل ملحوظ.

وبسبب هذه الحالة الزوجية الصعبة، باتت «آن» امرأة صاحبة إنجازات هائلة.. فهي أول امرأة في الولايات المتحدة تحصل على رخصة طيار لطائرة شراعية. وعلى الرغم من أنها تفضِّل الكتب والتحادث أكثر من المغامرة، فقد تعلَّمت «آن» استخدام اللاسلكي، وباتت تتقن على نحو ملحوظ استعمال شفرة المورس.

عندما كان ابنهما الثاني «چون» صغيرًا، توجَّهت «آن» برفقة «تشارلز» في رحلة مسح جوية في شمال الأطلسي شملت أربع قارات، ودامت لمدة ما يقرب من ستة أشهر. لقد حظى عمل «آن» كمساعدة طيار ومسؤولة عن اللاسلكي أثناء المسح على تقدير جمعية «ناشونال جيوجرافيك»، التي منحتها في عام ١٩٣٤ ميدالية «هابيرد» الذهبية لتميُّزها في مجال الاستكشاف، والبحث. وقد كانت أول امرأة تُمنح هذه الجائزة!

عندما هدأت حياتها قليلاً، تمكَّنت «آن» أخيرًا من بذل المزيد من الجهد في الكتابة. وقد كتبت العديد من الكتب –حقق الكثير منها أفضل المبيعات– في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. ويضم «يوجين بيترسون» كتاب «آن» الذي حمل عنوان «هدية من البحر» *(Gift From the Sea)* إلى لائحته الانتقائية من الكتب التي "تبني الإنسان روحيًا في الحياة المسيحية"، وقد اعتبره "رواية ثاقبة عن مدبِّرة منزل/ وأم/ وزوجة تذهب إلى شاطئ البحر لبضعة أيام، وتجد استعارات بين أصداف البحر تربط بين وجود الله ومعنى الروح في خضم العالم اليومي لربة المنزل."[6]

ليس بوسع الزواج أبدًا
أن يزيل المحن، ولكن حتى
الزيجات الصعبة
مع رجال أقوياء البأس
يمكن أن تمنح النساء
القوة كي يصبحن نساء
حسب مشيئة الله.

لم يقيِّدها زواجها الصعب، بل حرَّرها. وتروي «آن» التالي: "بصفتي امرأة متزوجة، كان زوجي بجواري، وبنيت الثقة من جديد. أشعر دائمًا بأنني واقفة منتصبة الظهر عندما يساندني."

هذا ما يفعله زواج جيد وصعب. ليس بوسع الزواج أبدًا أن يزيل المحن، لكنه في الواقع غالبًا ما يولِّد محنًا جديدة. ولكن حتى الزيجات الصعبة مع رجال أقوياء البأس يمكن أن تمنح النساء القوة كي يصبحن نساء حسب مشيئة الله. (والأمر ينطبق كذلك على الرجال المتزوجين بنساء قويات البأس.)

في إحدى يومياتها، تتطرق «آن» إلى ما يلي: "إن الوقوع في الحب هو بالطبع قوة محرِّرة عظمى، وأكثر تجربة شائعة للشباب أنها تحرر- أو يبدو أنها تحرر... إن حقيقة أنني وجدت نفسي واقعة في الحب كانت لا تُصدَّق وغيَّرت حياتي كلها، وشعوري تجاه الحياة وتجاه نفسي. لقد ازدادت ثقتي بنفسي، وقوتي، وكأنني حصلت على شخصية جديدة. فالرجل الذي كنت على وشك الزواج به آمن بي وبما يمكنني فعله، وبالتالي وجدتُ أن باستطاعي القيام بأكثر مما كنت أُدرك، حتى في ذلك العالم الخارجي الغريب (أي الطيران) الذي سحرني، لكنه بدا أنه لا يمكن بلوغه. لقد فتح لي الباب أمام "الحياة الحقيقية"، وعلى الرغم من أنها أخافتني، فقد أغرتني أيضًا، فكان عليَّ أن أنطلق."

لو جلس أحدهم مع «آن» قبل أن توافق على طلب «ليندي» الزواج بها، وأخبرها ماذا ستكون عليه الشهرة في الحقيقة، وكم من الصعب بالنسبة إلى امرأة مولعة بالكتب أن تصبح مساعدة طيار مغامرة (فقد أصرَّ «ليندي» على أن تصبح زوجته شريكًا حقيقيًا)، ومقدار الألم الذي ستجلبه الشهرة عندما اختُطف طفلهما- تُرى هل كانت ستوافق على الزواج في هذه الحالة؟

ربما كانت ستوافق.. لا يمكننا أن نعرف على نحو أكيد، لكنني أظن من خلال القوة الظاهرة في كتابات «آن» أنها كانت ستقبل. تتكلم «آن» في مجموعة رسائل وكتابات في يومياتها تحت عنوان «ساعة من الذهب، ساعة من الرصاص» حول كيف يمكن "تحويل "ساعة من الرصاص"– أي الأوقات الصعبة والمرهِقة– إلى "ساعة من الذهب".

وكتبت «آن»: "بعد عقد من الزمن، عندما باتت مأساتنا وراءنا، تدفنها الحياة الجديدة وتغشيها، كتبتُ قصيدة تصف هذا التحول كما اختبرتُه. كانت واحدة من تلك القصائد التي تخترق الكيان كله، كسهم ناقد البصيرة، من مستوى لاشعوري عميق."

انثر الحب ثانية

لِمَنْ لم يُعطِ الحليب من الثديين
عندما يكون الطفل قد رحل؟
لمن لديه الحب مخبأ في القلب
متروك وحده؟
تلك الغلة الذهبية
التي توزعت مرة، وغمرت حقلاً صيفيًا في أغسطس،
المدروسة بألمٍ على بيدر سبتمبر،
وهي الآن مخزونة عاليًا في مخازن..
حطِّم الباب المُحكم الإغلاق؛
مزِّق، انثر، واسكب
الحبوب على الأرض القاحلة
حيثما توجد الشقوق في التربة.
ما من حصاد للقلب وحده..

فبذور الحب يجب
أن تُزرع مجددًا إلى الأبد.

طالما أن ألمنا، وحكمتنا، ودروسنا "مخبأة في القلب" أو "مخزونة في المخازن"، تبقى عقيمة وغير مخصبة. فلكي ننمو في خضم الصعوبات، علينا أن "نمزِّق" أكياس الحبوب والبذار، وننثرها حيث نرى أرضًا خصبة. هذا هو موضوع الموت والولادة الثانية الكلاسيكي في المسيحية، الذي يفيد بأن "بذور الحُب يجب أن تُزرع مجددًا إلى الأبد." هذا هو جوهر الزواج ذي المعنى الروحي.

مجرَّد متاعب

قد يفكِّر البعض منكم: "إن زواجي أسوأ بكثير من معظم الحالات الأخرى. أنتم لا تفهمون صعوباتي." علينا أن نتقبَّل أمرًا معينًا هنا إذا كنا نريد ألا نغفل الرسالة: غالبًا ما لا نستطيع اختيار المحن التي نواجهها.

عندما عدنا من فرچينيا إلى ولاية واشنطن، كان عليَّ أن أجدِّد رخصة القيادة الخاصة بي، وكان تجديدها يشمل فحصًا طبيًا للبصر. طُلب مني أن أنظر في جهاز وأقرأ الأحرف. وعلمت أنني بالتأكيد اقترفت خطأً عندما قالت السيدة: "من فضلك ابدأ بقراءة الأحرف في العمود الشمال."

فقرأتها مجددًا.

فقالت: "هذا هو العمود الأوسط." نظرت من جديد في الجهاز، وسألت: هل تعنين أن أمامي ثلاثة أعمدة؟"

فسألتني: "هل أنت بخير؟"

كان بإمكاني الإجابة على هذا السؤال بطرق متعددة، لكني فضَّلت

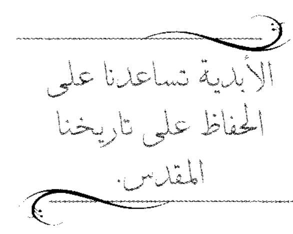
التزام الصمت. في الواقع، إنني أعاني مما يُسمى «القرنية المخروطية» في عيني اليسرى، وهذه المشكلة تضعف نظري بشكل خطير، وتقريبًا تلغي رؤيتي الطرفية؛ لذا لم أكن حتى مدركًا لوجود عمود ثالث.

سألني بعض الناس إذا كان هذا الأمر يزعجني، ولكن كل من أعرفهم تقريبًا يعانون مرضًا جسديًا.. ألمًا في الظهر، أو حساسية شديدة، أو الصداع النصفي، أو التهاب المفاصل. ليس بيدنا أن نختار أي عضو من جسدنا يفقد وظيفته، لكن معظمنا سيواجه خللاً في عضو ما بينما نتقدم في العمر.

أظن أننا نحتاج أن ننظر بنفس الطريقة إلى الزواج.. نختبر جميعنا بعض الأمور الخاصة بشريك حياتنا قد يكون من الصعب علينا تقبُّلها. أعرف رجالاً كانوا متزوجين بسيدات مدمنات للكحوليات، وسيدات كُنَّ متزوجات بطغاة ومتسلطين لم يُظهروا أي تقدير أو احترام.

ولكن هنا تصعُب الأمور بالنسبة إلى معظمنا؛ إذ نغفل الدروس التي تعلَّمناها من خلال «لنكولن» و«ليندبرج». قد يقول البعض، "أن يكون المرء مشهورًا ليس بالأمر السيئ"، ويتمنون لو بوسعهم استبدال مشكلاتهم بمشكلات «آن». وقد يقول آخرون: "لا أمانع أبدًا أن أكون متزوجًا بسيدة مشاكسة إذا كان بوسعي أن أكون رئيس الولايات المتحدة!"

بالنسبة لأولئك الذين يعيشون بيننا حياة "مجهولة" تقريبًا؛ بالنسبة لأولئك الأزواج والزوجات الذين يحزنون في صمت بسبب محنهم الشخصية والخاصة؛ بالنسبة لأولئك الذين يبدون ضائعين في زواج صعب ولا يرون أن "رسالتهم" في الحياة لها معنى.. الذين ربما يعملون في مصنع ويتساءلون ما هي رسالتهم في الحياة



بالضبط.. بالنسبة لهؤلاء جميعًا تبدو المحن وكأنها تأخذ حجمًا مضاعفًا. في حالات مثل هذه، لا تبدو المحن بالنسبة إلينا كمعلِّم، بل على العكس تبدو كأنها متسلط، وطاغية، وعبء ثقيل.

في الفصل السابق، تطرقنا بإيجاز إلى أهمية وجود منظور أبدي؛ فالأبدية تساعدنا على الحفاظ على تاريخنا المقدس، وهي تساعدنا كذلك على تحمُّل الصراع. تذكَّروا كلام بولس في رسالته إلى أهل رومية: «أما الذين بصبرٍ في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية. وأما الذين هم مِنْ أهل التحزُّب، ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم، فسخط وغضب.» (رو ٢: ٧ و٨)

إذا كنا نعيش بدون منظور أبدي، تصبح المحن الأرضية أكبر من الحياة. بدون الرجاء في السماء والشعور بأهمية تنمية شخصياتنا وتنقيتها، فليس هناك شيء نعد أنفسنا له، وما من شيء للتطلع إليه.. فالأمر يشبه التدرُّب مرارًا وتكرارًا، ولكن بدون التمكُّن من المشاركة الفعلية في المباراة. حينئذٍ تصبح الحياة مُملة، وجافة، ومُتعبة.

> بدون الرجاء في السماء والشعور بأهمية تنمية شخصياتنا وتنقيتها، فليس هناك شيء نعد أنفسنا له، وما من شيء للتطلع إليه.

إذا كنا نسعى إلى المجد، والبهاء، والحياة الأبدية مع الله؛ فإن المثابرة اليومية والصامتة، والإخلاص، والطاعة يشكلون الطريق للوصول إلى هناك. يُخبرنا يسوع أن الألم في الخفاء هو فعليًا أفضل أنواع الألم.. وإلا، قد يعرف الآخرون ويمتدحوننا، وهذا في حد ذاته سيكون مكافأتنا (راجع مت ٦: ١٦- ١٨).

لا تبدو المسيحية منطقية بدون حقيقة السماء. لم يتخلَّ أعظم الكتَّاب الكلاسيكيين عن هذا الرجاء في السماء؛ فالأبدية طبعت فعليًا كل كلمة

تفوهوا بها. يقول بولس الرسول نفسه إن كان لنا رجاء في هذه الحياة فحسب «فإننا أشقى جميع الناس» (١كو ١٥: ١٩).

إذا أخذنا إيماننا على محمل الجَد، واجتزنا في طريقنا عبر زواج صعب، ونحن نسعى إلى أن نشهد عن محبة الله التي تأتي بالمصالحة في عالم خاطئ، يصبح الزواج الصعب جزءًا من تدريبنا لتجهيزنا للسماء. بالطبع، لن يهتم محرِّرو مجلة "People" البتة لسعينا هذا، ولن يدخل تهذيب شخصياتنا ضمن صفحات مجلات «سبورتس إيلاستريتد» أو «فايتي فير»- لكن السماء ستلاحظ، والله سيلاحظ، وفي نهاية المطاف سيتحقَّق وعد يسوع: «هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين» (مت ١٦: ٢٠).

لا تبدو المسيحية منطقية بدون حقيقة السماء.

أشعر بالأسف على المؤمنين الذين يحاولون أن يعيشوا حياة الطاعة دون أن يُبقوا السماء نصب أعينهم. إن التأمل في الحياة التالية هو أحد أفضل التمارين الروحية التي أعرفها.. إنه يقوِّيني بصفة شخصية أكثر من أي تعليم روحي آخر. أقول لنفسي: "يمكنني أن أتحمَّل هذا لأن الحال لن يبقى هكذا دائمًا."

سيقول الساخرون إنني أقع في فخ «ماركس».. فكما تتذكرون، لقد اعتبر ماركس الدين "أفيونًا" للشعوب. ومع ذلك فإن ماركس فسَّر الأمر بشكل معاكس، على الأقل فيما يخص كلماته المتعلِّقة بالمسيحية. الأفيون يقتل الحواس؛ بينما المسيحية تُحييها. بإمكان إيماننا أن يملأ زواجًا متعثرًا بالمعنى والهدف والشبع الذي يأتي من رأفة الله. لا تتركنا المسيحية في سُبات مجرَّدين من الشعور، بل تقيمنا وتقيم علاقاتنا من بين الأموات! إنها تضفي الحماس والقوة والهدف إلى حياة ضائعة.

لا يعدنا الله أبدًا أن يزيل كل المحن على هذه الأرض، بل على العكس

تمامًا.. وعدنا بأن في كل محنة هناك معنى ومغزى. إن شخصيتنا تكتمل، وإيماننا يُبنى، و"مكافأتنا السماوية" تزداد.

فسّر "ماركس" الأمر بشكل معاكس، على الأقل فيما يخص كلماته المتعلّقة بالمسيحية. الأفيون يقتل الحواس؛ بينما المسيحية تُحييها.

أخجل بشكل ما أن أقر أن أحد مشاهد فيلم «حرب الكواكب» لا يزال يمزقني حتى اليوم.. فبعدما أنقذ «لوك سكاي واكر»، والأميرة «ليا»، و«هانز سولو» القوات المتمرِّدة، تم تكريمهم أثناء دخولهم لقاعة كبرى. لقد مشوا في ممر طويل، والجميع يحدِّق بهم، ثم صعدوا بعض الدرجات العالية، حتى كرَّمهم قائد القوات المتمرِّدة أمام الجميع.

أعتقد أن السبب وراء تأثري الشديد بهذا الأمر هو أنه يرمز إلى حقيقة سماوية أتوق إليها.. لم يطلب منا الرب يسوع أبدًا أن نقتل طموحنا، لم يطلب منا أبدًا أن نتجنب التفكير في المكافآت، لكنه قال لنا أن نتحوَّل عن الطموح الأرضي ونتجنب المكافآت الأرضية. لقد قال الرب يسوع في الواقع: "ضع نفسك في المقام الأخير هنا على الأرض، وستكون الأول في السماء." إنها مقايضة، وليست نكرانًا تامًا للذات! ذاك العطش للمجد الذي تشعر به في قلبك هو جزء من تكوينك الإنساني، لكن الرب يسوع يريد أن نركِّز اهتمامنا على السماء، وأن نبحث عن مكافأتنا هناك.

عندما نؤمن بهذه الحقيقة، فهذا لا يعني أن ننتظر حتى تأتي السماء. لقد اكتشفتُ أن طاعة الله تحقق اكتفاءً تامًا في الحاضر؛ فحتى في خضم المحن التي نمر بها نجد شبعًا روحيا. قد لا يكون هذا مسلكًا "رائعًا" بقدر السعادة العارمة، لكنه أقل تعرضًا للتقلبات المزاجية، ويؤدي إلى مسلك أكثر ثباتًا.

ذاك العطش للمجد الذي تشعر به في قلبك هو جزء من تكوينك الإنساني، لكن الرب يسوع يريد أن نركز اهتمامنا على السماء، وأن نبحث عن مكافأتنا هناك.

إن زواجًا صعبًا لا يُصدر حكم الإعدام على حياة ذات معنى، وإنما يطرح بكل تأكيد عددًا من التحديات، وكذلك يقدِّم فرصًا رائعة للنمو الروحي. انظر إلى زواجك من هذا المنظور: ما الذي أتعلَّمه؟ كيف يساهم هذا في نموي الشخصي؟ ما الذي سيعود عليَّ من منظور أبدي؟ واكتشف ما إذا كان هذا سيخفف الحِمل، نوعًا ما على الأقل. الأهم من ذلك، قارن بين كيف أن زواجك يقرِّبك من الله ويشكلك على مثال يسوع المسيح، وكم يقرِّبك من سراب السعادة والحياة الخالية من الهموم. انظر إلى حالتك من خلال عدسة الأبدية، العدسة التي استخدمها بولس الرسول:

> «فإن كنا أولادًا فإننا ورثة أيضًا، ورثة الله ووارثون مع المسيح. إن كُنا نتألم معه لكي نتمجد أيضًا معه. فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا.» (رو ٨: ١٧ و١٨)

أسئلة للتفكير والحوار

(١) مَنْ هم الأشخاص الذين ينالون إعجابك بأسلوبهم في التعامل مع الصعوبات التي تواجه زواجهم؟ وما أكثر ما يعجبك في هؤلاء؟

(٢) ما الفرق بين الخلاف الزوجي المُثمر والنافع روحيًا، والخلاف الزوجي الهدَّام؟ كيف يمكن أن تثمر الصعوبات التي تواجهها في زواجك عن نتائج روحية إيجابية؟

(٣) كيف أجبتَ على سؤال «جاري» توماس التالي: "هل أُفضِّل أن أعيش حياة سهلة ومريحة وأبقى غير ناضج في المسيح، أم أنني أريد أن أُملَّح بالألم لأنني عندما أفعل ذلك أتمثل بصورة المسيح"؟

(٤) يقول «جاري توماس» إن الزواج الجيد "يتطلب صراعًا. عليك أحيانًا أن تصلُب أنانيتك. عليك أحيانًا أن تواجه، وأحيانًا أخرى أن تعترف." هل تعتقد أن هذا الوصف مبالغٌ فيه؟ وهل هناك استثناءات؟ كيف يمكن أن توجه هذه الفكرة لزوجين يمران بأوقاتٍ صعبة؟

(٥) بحسب ما كتبت «آن مورو لندبرج»، كيف يمكن أن "يحررنا" الحزن؟ كيف يمكننا أن نشجِّع بعضنا بعضًا لنضيف إلى خيبة أملنا وحزننا العميق "التفهم، والصبر، والمحبة، والانفتاح، وقبول الألم"؟

(٦) برأيك هل كان بإمكان «أبراهام لنكولن» و«آن مورو لندبرج» إنجاز

ما قاما به لو كان ينعمان بزيجتين "سهلتين" نسبيًا؟ لماذا نعم، أو لماذا لا؟

(٧) كيف يمكن أن يشجِّع إيمان المسيحيين بالسماء الزوجين على المثابرة؟

(٨) برأيك كيف يمكن أن يستخدم الله صعوبات معينة في زواجك ليصقل شخصيتك ويُعدك لخدمة مستقبلية؟

(٩) لماذا تُعتَبر الصعوبات والمعاناة أمرًا لا مفر منه في كل زواج؟ ماذا يحدث إذا اخترنا الفرار منه؟ وماذا يحدث إذا واجهناه وجهًا لوجه؟

(١٠) هل تواجه أنت وشريك حياتك الصعوبات بطرق مختلفة؟ ما الذي يمكنك تعلُّمه من أسلوب شريك حياتك في مواجهة الصعوبات؟ ما الذي يمكن أن يتعلَّمه شريك حياتك من أسلوب مواجهتك للصعوبات؟

الفصل التاسع

السقوط إلى الأمام

الزواج يعلِّمنا أن نغفر

يختلف الزوجان عن الفرد.. فعلى الزوجين أن يعملا للحفاظ على سلامتهما عن قصد أكثر بكثير من الفرد الواحد. قد يفكِّر الفرد في الانتحار، لكن نادرًا ما ينسى أن يأكل؛ في حين أن الزوجين كثيرًا ما ينسيان أن يغذيا علاقتهما.

– «ماري آن ماكفرسن أوليفر»

الحب قلبٌ يتحرك... الحب يتحرك بعيدًا عن الذات وفي اتجاه الآخر.

– «دان آلندر» و«ترمبر لونغمان الثالث»

إن مجرد الإخلاص لشريك الحياة يعتبر شهادة جيدة في هذا المجتمع. لكن إذا ذهبت أبعد من ذلك، وأظهرت الحب لشريك حياتك على نحوٍ ثابت، وخلَّاق، وبلا حدود سيلاحظ العالم حتمًا.. وبذلك تكون قد أكرمت الله.

– «جاري» و«بتسي ريكوتشي»

عندما تتزوج الفتاة تستبدل اهتمامها التي كانت توليه لكل الرجال الذين تتعامل معهم باهتمامٍ توليه لشخصٍ واحد.

– «هيلين رولاند»

قصة حقيقية:

أفسح أحد رجال الأعمال المكان قليلاً بينما شقَّ شاب طريقه ليجلس في المقعد المجاور له في الطائرة، ثم أحكم كلاهما حزام الأمان. وسأل رجل الأعمال بلطف للترفيه؛ الشاب ما إذا كان مسافرًا في رحلة عمل أو بقصد الترفيه.

أجاب الشاب: "فأنا في شهر العسل."

فسأله رجل الأعمال في حيرة: "أنت في شهر العسل؟ أين هي زوجتك إذًا؟"

فأجاب: "جالسة في مقعد في الصفوف الخلفية.. الطائرة كانت محجوزة بالكامل؛ فلم نتمكَّن من حجز مقعدين مجاورين."

وكانت الطائرة لم تُقلِع بعد؛ فقال رجل الأعمال: "يسرني أن نتبادل أنا وزوجتك المقاعد حتى تتمكنا من الجلوس إلى جانب بعضكما البعض."

فأجاب الشاب: "لا عليك؛ فقد قضيت الأسبوع كله وأنا أتكلم معها."[1]

وجد أحد الباحثين أن الزوجين العاديين يتواصلان بشكل فعَّال في المتوسط لمدة سبع وعشرين دقيقة فقط أسبوعيًا؛ ويتبادلان أكبر قدر من الكلام في موعدهما الغرامي الثالث، وفي السنة التي تسبق الطلاق.[2]

> وجد أحد الباحثين أن الزوجين العاديين يتواصلان بشكل فعَّال في المتوسط لمدة سبع وعشرين دقيقة فقط أسبوعيًا.

إن أحد أعظم التحديات الروحية لأي مؤمن هو البعد عن الانغماس في الذات.. فنحن قد خُلِقنا بميلٍ قوي للتمحور حول ذواتنا. في نفس الوقت يدعونا درب الزواج المسيحي إلى المفهوم المسيحي للمشاركة، والتمتع بحياة الشركة بطريقة حميمة وفريدة. إن الإبقاء على الاهتمام

بشخصٍ آخر والتعاطف معه ليس بالتدريب السهل بأي حالٍ من الأحوال- غير أنه تدريبٌ حيوي، ومهارة يجب اكتسابها.

منذ سنوات عديدة احتفلتُ مع بعض الأصدقاء المقرَّبين بتخرُّجنا من المدرسة الثانوية بالتسلُّق على جبل «رينييه». وقبل أن أحاول عبور جدول ماءٍ سريع الجريان، أسدى لي أحد أصدقائي نصيحة: "تأكَّد من أن تدفع بنفسك إلى الأمام عندما تسقط." أخذتُ نصيحته على محمل الجد.. وبالرغم من إلا أنني لم أقم بالقفزة، لأنني كنت محافظًا على قوتي في دفعها إلى الأمام، لذا لم يتمكَّن تيار النهر من سحبي.

بَقيت هذه النصيحة في ذهني على مر السنوات؛ إذ أنني أؤمن أن الزواج المسيحي يرتبط كذلك بتعلُّم السقوط إلى الأمام. تظهر العقبات، وفجأة يزداد الغضب حدةً، ويجعلُ الإرهاق مشاعرنا وحواسنا متبلِّدة. عندما تحدث هذه الأمور يكون رد فعل الشخص غير الناضج روحيًا هو الانسحاب، ويصبح فاترًا في علاقته مع شريك حياته، أو قد يفكر في البدء في علاقة جديدة مع شخصٍ "أكثر إثارة". في النهاية يحدث النضوج من خلال التحرُّك إلى الأمام لنتجاوز بعيدًا عن الألم واللامبالاة. لا يمكن تجنُّب السقوط؛ لأننا لا نستطيع التحكُّم في الأمر، غير أنه بإمكاننا التحكم في اتجاه سقوطنا.. إما نسقط في اتجاه شريك الحياة، وإما بعيدًا عنه.

> نقيض المحبة بحسب الكتاب المقدس ليس الكُره بل اللامبالاة.

في لُغة هوليوود، تظهر الرومانسية على أنها نشاط سلبي.. فغالبًا ما يقول الزوجان إنهما "وقعا" في الحب، أو ربما يتحدثان عن "انزلاق أرجلهما" في العلاقة. وأحيانًا يقول الشخص عندما يتطور الأمر إلى علاقة جنسية: "لم أستطع السيطرة على نفسي؛ لقد حصل الأمر تلقائيًا!

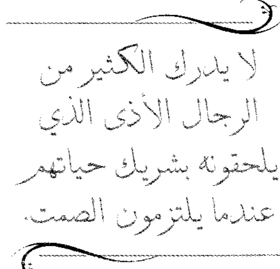
" إن هذه السلبية بعيدة عن الحب المسيحي بُعد القمر عن الأرض. يُعتبر الحب المسيحي حركة إيجابية والتزامًا مقصودًا.. في الواقع نحن نختار أين نضع عواطفنا.

كتب «دونالد هارفي»: "إن العلاقات الحميمة، على عكس التجارب الحميمة، هي ثمرة التخطيط؛ فهذا النوع من العلاقات يتم بناؤه. إن الشعور بالوحدة والانسجام الذي يرافق التقارب الروحي الحقيقي لا يكون وليد الصدفة، بل إذا تواجد هذا الشعور هو نتيجة قصد أكيد ومتابعة من جانبك. أنت مَنْ يختار أن يستثمر ويقوم بذلك، فالأمر ليس متروكًا للصدفة أو الحظ."[3]

تطلَّب الأمر سنوات كي أفهم أن عليَّ التزامًا مسيحيًا أن أستمر في التحرُّك تجاه زوجتي.. لقد كنتُ أعتقد أنني مادمت لا أهاجم زوجتي ولا أوجه لها كلماتٍ قاسية، فأنا أُعتبَر زوجًا "لطيفًا"، غير أن نقيض المحبة بحسب الكتاب المقدس ليس الكُره بل اللامبالاة. وتوقُّفنا عن التقرُّب من شريك الحياة هو بمثابة توقُّفنا عن محبته.. وهذا يعني التراجع عن غاية الزواج الأساسية.

حفلة الذكور التنكُّرية

تجنبًا لإزعاج أي من القراء الأعزاء؛ لابد من الإشارة إلى أن هذا الجانب من الحياة الروحية قد يكون أكثر صعوبة بشكل عام لدى الرجال عن السيدات. أولاً، يتصف الرجال بشكل عام بأنهم أقل قدرة على التواصل، وغالبًا لا يدركون أن هذا الأمر قد يعبِّر



عن اللامبالاة. فأن تفكِّر في أشياء جميلة تجاه شريك الحياة أمر، وأن تعبِّر عنها هو أمر آخر تمامًا. لذا لا يدرك الكثير من الرجال الأذى الذي يلحقونه بشريك حياتهم عندما يلتزمون الصمت.

ثانيًا، يميل الرجال إلى اعتبار الاستقلالية كعلامة قوة، ونضوج، و"رجولية". أما الاعتمادية المتبادلة فهي أكثر من مجرد مصطلح صعب.. فبالنسبة للرجال هي دواء مُر المذاق، بل وأحيانًا علامة على الضعف.

وفي حين أن هذا الفكر عن الاستقلالية قد يلقى حفاوة من المجتمع، فهو لا يمثل حقيقة كتابية؛ ويجب نقده ومناقشته في إطار فهمنا لطبيعة الله. بينما يجب أن نكون مستعدين وغير خائفين من الوقوف وحدنا، إذا دعت الحاجة إلى ذلك (تأمَّل يسوع على الصليب)، فالحقيقة الأكبر تقول إن تحرُّك الله يمثل خطوة تجاه العالم، بل وتجاه الخطاة. والسبب الذي من أجله وقف يسوع وحده هو لكي يدنو الآخرون من الله.. في الواقع، وقف وحده ليجمع أولاده من حوله. إن فعله الفردي هذا تعبير قاطع عن أهمية الشركة. إذا كنا نرغب بأن نتجدد على صورة الله، فإننا سنتشكل بطريقة تجعلنا نتحرك تجاه الآخرين.

في الواقع معظم الرجال يعتبرون الفرار من الآخرين فعلاً يعبِّر عن الجبن وليس الشجاعة. رجل لا يستطيع تحمُّل مسؤولية علاقة ناضجة مع امرأة في مثل عمره، فيطلِّق زوجته ويتزوَّج بفتاة من عمر ابنته في محاولة خائبة أن يصون سلطانه. رجل آخر غير مستعد لمواجهة حقيقة أن زوجته ليست "والدته" بل شريكةً له تتوقع أن تأخذ تمامًا كما تعطي؛ فيستاء الرجل، ويتوقف عن مخاطبة زوجته بدلاً من الاعتراف بشعوره بالاحتياج. كذلك نرى رجالاً آخرين يكونون غير مستعدين

هذه ليست لمحات من حياة رجال شجعان؛ بل معالم تشير إلى عار الرجال.

للاشتراك في "الأخذ والعطاء" الذي تتطلبه علاقة تكاملية؛ فيتجاهلون زوجاتهم ويدمنون عملهم؛ حيث يكونون دائمًا في موضِع المسؤولية، ويكون على مرؤوسيهم الانصياع لإرادتهم.

هذه مواقف بعيدة تمامًا عن الشجاعة؛ بل وتشير إلى خزي الرجال.

عندما يدعوني الرب إلى التقرُّب من زوجتي باستمرار، فهو في الواقع يدعوني إلى تشكيل نفسي على صورته هو.

انحسار المشاعِر

إن أحد الأمور التي تجعل "السقوط إلى الأمام" صعبًا يتمثل في حقيقة المشاعر المتضاربة. كتبت «مادلين لونجل» قصيدة بسيطة تعبِّر بشكل رائع عن ذلك.[4] وتوجه كلماتها في هذه القصيدة إلى الله، غير أنني أعتقد أن هذه الكلمات تنطبق على كل شخص نقيم معه علاقة حب:

عزيزي الله،
أنا أكرهك.
مع محبتي، مادلين.

هل سبق واختبرت هذا الواقع المحبط حيث شعرت أنك مشمئز من شخصٍ معين بينما في الوقت عينه أنت تعلم أنك تحبه بشدة؟ تبدو «لونجل» صادقةً من جهة إحباطها تجاه الله، غير أن الكلمتين اللتين ختمت بهما تُحدِثان فرقًا كبيرًا.. فعلى الرغم من أنها غاضبة من الله الخالق، فقد تعهَّدت بالتحرُّك في اتجاهه. وبالتالي، تصبح الخاتمة "مع محبتي، مادلين" الجزء الذي يُحدث فرقًا.

> حتى في أوقات الغضب، والخيانة، والغيظ، والإساءة، نحن مدعوون للسعي وراء الآخر، وقبوله، والنمو في معرفته.

وبغض النظر عن سبب الغضب، ومهما كانت درجة الإحباط التي بلغتها مادلين عالية جدًا، فقد اتسمت علاقتها مع الله بهذا الحب الراسخ.

وهكذا يجب أن تكون الحالة في حياتنا الزوجية.. حتى في أوقات الغضب، والخيانة، والغيظ، والإساءة، نحن مدعوون للسعي وراء الآخر، وقبوله، والنمو في معرفته، والسماح لحُبنا بأن يعيد توضيح مشاعرنا من اللامبالاة، والإحباط، وحتى الكراهية.

نبض الحياة في الزواج

إن هذه الدعوة إلى "السقوط إلى الأمام" تركز على أخذ المبادرة لبناء الحميمية. نحن نقلل من قيمة الزواج إذا اختزلناه إلى ما هو ليس أكثر من سلبية "أوافق على ألا يكون لي علاقة جنسية مع أحد غيرك"؛ فالزواج يوجِّه أنظارنا إلى التضحية بالذات، والتي تتعدى عدم الخيانة الزوجية.. وتدعو «ماري آن أوليفر» هذا الأمر "التغلغل في كيان الآخر". أحب هذا التعبير! إن الزواج هو الاتفاق على النمو معًا، ومعرفة أحدنا الآخر، لتمتزج نفسينا فعليًا؛ لنشترك سويًا في رابطة فريدة ونادرة من نوعها. عندما نكُف عن القيام بهذا الأمر نكون قد خدعنا شريك حياتنا؛ لأننا قطعنا عهدًا ونحن غير مستعدين للعيش وفقًا لهذا العهد.

يمكن لهذا "التغلغل" أن يشكِّل اختبارًا رائعًا.. لا بل وممتعًا. فقد مضى على زواجنا ليزا وأنا خمسة عشر عامًا تقريبًا، ومنذ ثلاث سنوات بدأنا نُردد نفس الأمور بطرقٍ لم نعهدها سابقًا. في خلال إحدى مباريات كرة القدم التي كان يشارك فيها ابننا، توجَّهتُ نحو صديقة وقلتُ لها: "لو حصل فريقنا على نصف نقطة لكل فرصة ضائعة لكنا فزنا فوزًا ساحقًا."

فتحت «چيل» عيناها وهي مندهشة وقالت: "هل سمعت ليزا تقول نفس الشيء للتو؟"

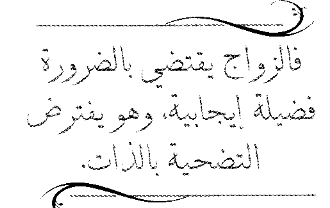
"كلا."

"لقد قالت لي ليزا نفس الشيء منذ عشر ثوانٍ."

وبدأ هذا الأمر يحدث بانتظام، إلى حد أنه قد يبدو أحيانًا غريبًا. وقد اختبر العديد من الأزواج هذه الظاهرة عينها؛ فقد تشكَّل كل من تفكيرنا وصياغتنا للجمل من خلال تواجدنا مع الآخر حتى صرنا أشبه بشخص واحد.

تشير عملية "التغلغل في كيان الآخر" هذه إلى حقيقة تتعدى علاقة الجنس الحصرية بين الزوجين. فالزواج يقتضي بالضرورة فضيلة إيجابية، ويسبقه التضحية بالذات. كتب «كاثلين» و«توماس هارت»: "بإمكان المرء أن يقوم بأعمال كثيرة خارجية تعبِّر عن الحب، في حين يمتنع عن تقديم العطية الثمينة حقًا.. الكيان الداخلي. ولا يمكن تقديم هذه العطية إلا من خلال التواصل."[5]

بالتالي يصبح التواصل بمثابة الدم الذي يسري في شرايين الحياة الزوجية حاملاً معه الأكسچين الحيوي إلى قلب الرومانسية. في البداية، يبدو التواصل رائعًا إلى أبعد حد. وفي ذروة الإعجاب الشديد، يبدو الشخص الواقف أمامنا وكأنه غير محدود في بهائه، وجماله، وعمق تفكيره، وقدرته على خلق إحساس بالمتعة الخالصة في داخلنا. وبعد بضعة أشهر أو ربما بعد مرور سنوات، من المدهش كم يهبط هذا "الملاك" من سمائه ويبدو محدودًا للغاية!



جزء من هذا يعود ببساطة إلى وضاعة بشريتنا. أشار «چي. كيه. شسترتون» ذات مرة إلى أنه إذا كان هناك أمر أكثر سخافة عند البشر

من حقيقة أنه لديهم ساقان، هو أنهم أحيانًا يفتحون فتحة في وجوهِهم ثم يُسقِطون في هذه الفتحة أجزاءً من العالم الخارجي (هو بالطبع يصف العملية المسماة بالأكل). ومهما بدت الشابة فاتنة، ومهما بدا الشاب لطيفًا، في نهاية المطاف ستظهر العيوب البشرية، وستصدر عنا جميعًا أصوات وروائح مُضحكة. إنه اكتشاف هذه الحقائق التافهة هو الذي غالبًا يدفعنا إلى "التراجع" وكأن الشخص الآخر خدعنا.

بالإضافة إلى التواصل الشفهي يأتي التواصل الجسدي- اللمس. وهذا يتضمن التعبير الجنسي، لكن كذلك اللمسات غير الجنسية. عادةً، أنا لا أطيق أن يلمس أحدهم وجهي، غير أن زوجتي لا تشبع من أن ألمس وجهها. وقد تطلَّب مني الأمر سنوات كي أفهم كم هو مهم بالنسبة إلى ليزا أن أداعب وجنتيها. تُحِب ليزا أن تُلمَس خاصةٍ عندما تعلم أن هذه اللمسة لن تقود إلى أمرٍ آخر.

وفي حين أن العديد من الرجال قد يحتاجون إلى مَنْ يذكِّرهم بمدى أهمية اللمسات المتكرِّرة غير المتعلِّقة بالجنس، على العديد من الزوجات أن يتعلَّمن أنه إذا لم تسعَ الزوجة وراء زوجها من الناحية الجنسية، فقد لا يلاحظ أي خطوة أخرى تقوم بها تجاهه. كتبت «چيل رينيتش»: "تستطيع الزوجة أن تُبرهِن عن حبها بطرقٍ لا تُحصى ولا تُعَد، غير أنه سيبطُل مفعول حبها بسبب رفضها للعلاقة الجنسية وعدم تمتعها بها. قد تكونين ربة منزل عظيمة، وخبيرة في الطبخ، وأمًا رائعة لأولاد زوجكِ، غير أنكِ إذا كنتِ تقابلين زوجك بالرفض باستمرار في غرفة النوم، فمعظم الوقت سيبطُل مفعول كل تلك الأمور الباقية. فبالنسبة إلى الرجل، يُعتبر الجنس التعبير الأعمق عن الحب والشعور بالقيمة."[(6)]

في فيلم قديم لـ «وودي آلن» هناك مشهد كلاسيكي يخضع فيه كل من الزوجين على حدة لأسئلة من مشير متخصص في المشورة الزوجية،

ويطلّع المشاهد على أجوبتهما المختلفة. يسأل المشير الزوجة أولاً: "ما مدى ممارستكما للجنس؟"

تجيب الزوجة: "تقريبًا دائمًا.. حوالي ثلاث مرات في الأسبوع."

ثم نرى المشير يطرح على الزوج السؤال نفسه: "ما مدى ممارستكما للجنس؟"

يجيب الزوج: "لا نمارس الجنس تقريبًا.. حوالي ثلاث مرات فقط في الأسبوع."

بشكل عام هذا اختلاف بين الرجل والمرأة، لكن أحيانًا تنعكس الأدوار، وتصير الزوجة هي من تشكو من عدم المواظبة في العلاقة الجنسية. الاختلاف الشائع الآخر هو، بالطبع، رغبة الزوجة في التحدث في حين يفضل الزوج التزام الصمت. هذه المسألة تُفسح المجال لكلا الطرفين للنمو في معرفة أحدهما الآخر بدون أنانية، بغض النظر عما إذا كانا يجدان أنفسهما في الأدوار التقليدية للرجل أو المرأة.

إن التغلغل في نفس الآخر واجب محتَّم على كل زوج وزوجة.. فالبعض منا يميل بشكل طبيعي نحو الرغبة في الجنس، والبعض الآخر يميل إلى التواصل الشفهي؛ لكن على كل حال لدينا التزام أن نلبي احتياجات شريك حياتنا. في نفس الوقت، لدينا التزام مسيحي ألا نطلب أكثر من اللازم من شريك حياتنا.. على الزوجة أن تعرف كم من المحادثات يستطيع زوجها أن يحتمل؛ وعلى الزوج أن يعرف أن فكرة العلاقة الجنسية اليومية قد لا تكون مغرية كثيرًا لمعظم الزوجات.

إن الالتزام بالتغلغل في كيان الآخر يعلِّمنا أن نتنازل عن احتياجاتنا الخاصة، وفي نفس الوقت نتوق إلى تسديد احتياجات شريك حياتنا. وإذا قام كل من شريكي الزواج بهذا الأمر على نحو مثالي، ستكون النتيجة

النهائية بمثابة تنازل عجيب ومفرح. لكن عادةً، لا تكون الأمور على هذه الدرجة من السهولة؛ إذ يُضحي أحد الشريكين أكثر من الآخر بكثير.. وهذا هو السبب الذي يؤدي إلى انهيار الزواج.

لكن ماذا لو وَجد هذا الشريك "المعطاء" حافزًا آخر غير رغباته الخاصة؟ ماذا لو نظر هذا الشريك إلى تلبية احتياجات شريكه الآخر على أنها جزء من تشكيله الروحي؟ وبدلاً من أن يقول الزوج: "لماذا أتحدث معها، أو أكون حنونًا عليها، وهي لا تريد أبدًا أن تمارس الحب معي؟" قد يقول: "بغض النظر عن عدد مرات ممارستنا للجنس سويًا، وبدافع الرغبة في إرضاء الله والنمو روحيًا وداخليًا، سأكون مستعدًا للتحدث طويلاً مع زوجتي".

إن الالتزام بالتغلغل في كيان الآخر يعلِّمنا أن نتنازل عن احتياجاتنا الخاصة، وفي نفس الوقت نتوق إلى تسديد احتياجات شريك حياتنا.

وتصف كتب الزواج عادة هذا المشهد على الشكل التالي: "عندما يقوم الزوج بهذا الأمر، سيجد أنه تولَّد لدى زوجته فجأة رغبة جديدة في مرافقته في الفراش!" غير أن هذا فيه مبالغة شديدة. أنا لستُ أقترح أن يلبي الزوج احتياجات زوجته بهدف أن تُلبي هي احتياجاته على نحوٍ أفضل، أنا أقترح أن يقوم بهذا الأمر كتمرينٍ روحي. وكلما صَعُب الأمر، زادت استفادته منه! إذا ردَّت زوجته له الجميل على الفور بطريقةٍ جسدية، قد يخلد إلى فراشه والابتسامة مرتسمة على وجهه، لكنه سيكون قد حصل على الأرجح على تدريب روحي أقل.

يمكن للزوجين الناضجين أن ينموا بسرعةٍ فائقة روحيًا بينما يتعلَّمان التنازل والتحرُّك تجاه الآخر. لكن غالبًا ما تكون الحالة أن أحد الزوجين غير مهتم بنموه الروحي؛ وقد يستغرق بالكامل في رغباته الخاصة

وإحساسه بالاحتياج. وبينما قد يؤدي هذا الوضع إلى زواج أقل إشباعًا وأقل سعادة، إلا أنه قد يشكِّل إطارًا جيدًا للنمو المسيحي.. المسيحي المخلص لا يعتمد أبدًا على ردود أفعال الآخرين كي ينمو روحيًا، إنما قرارات قلوبنا هي الأهم.

بالتالي، يُعتبر الكلام واللمس اثنين من أهم الوسائل التي يمكننا من خلالها أن نهب أنفسنا لشريك حياتنا؛ ورفضنا أن نقدِّم ذواتنا قد يكون في بعض الأحيان مدمرًا. في أحيانٍ أخرى قد لا يقوم الشريك "بالامتناع" عن تقديم ذاته عن قصد، وإنما نستفيق ببساطة يومًا ما، وندرك أننا لم نبذل أي جهد للاستمرار في التحرك نحو شريك حياتنا جسديًا، وعاطفيًا، وروحيًا. في الواقع معظمنا لم ينظر أبدًا لعلاقة الزواج من خلال فكرة أن "اللامبالاة" هي نقيض المحبة المسيحية. وطالما أننا لا نُهين، أو ننتقم، أو نقسو، فقد نعتقد أننا نُتمم التزامنا المسيحي.

> يمكن للزوجين الناضجين أن ينموا بسرعةٍ فائقة روحيًا بينما يتعلّمان التنازل والتحرُّك تجاه الآخر.

لكننا في الحقيقة لا نفعل ذلك!

الحقيقة هي أنني أدين لزوجتي بـ "ذاتي"؛ وعندما أرفض أن أسقط إلى الأمام، وأبدأ في حجب ذاتي، فأنا في الواقع أقول: "لن أستمر في زواجي بك على المستوى الروحي."

التدريب على حياة الشَركة

التعليم الروحي المتضمن في تعلُّم السقوط إلى الأمام يمكن وصفه على أنه "تدريب على حياة الشَركة". بالإضافة إلى الطبيعة العامة لهذا

السعي، فإن هذا التدريب يُعزَّز أكثر من خلال ثلاث ممارسات روحية: تعلُّم عدم الهروب من النزاع، وتعلُّم كيفية التوصُّل إلى تسوية، وتعلُّم قبول الآخرين. هذه الممارسات من شأنها أن تخدمنا في الكنيسة وفي البيت على حد سواء.

تعلُّم عدم الهروب من النزاع

لقد رأيتُ كنائس تتشاجر بسبب أتفه الأمور، ورأيتُ شركاء في الخدمة خدموا معًا لفتراتٍ طويلة صاروا أطرافًا في أبشع المشاجرات على الإطلاق- وفي أثناء ذلك تتمزق الكنيسة. لا يُعتبر التدريب الروحي على حياة الشَرِكة تدريبًا سهلاً.. فإن الخطاة يجرحون بعضهم بعضًا، والأشخاص غير الكاملين يرون الواقع على نحوٍ مختلف، ويجد الأنانيون صعوبة في فهم وجهة نظر شخص آخر.

> إن كل ما يحدث على نحو واسع في دوائر المجتمع يعكس صورةً معينة في الزواج.. الاختلاف في الرأي، والكلمات الجارحة، وتضارب المصالح، والأهداف المتعاكسة، والأحلام المتنافسة.

المشكلة هي أننا جميعًا خطاة، وغير كاملين، وأنانيون.

يوفر الزواج لنا مُختبرًا تجريبيًا مصغرًا حيث يمكننا من خلاله أن نتعلم الاندماج في حياة الشركة الروحية. إن كل ما يحدث على نحوٍ واسع في دوائر المجتمع يعكس صورةً معينة في الزواج.. الاختلاف في الرأي، والكلمات الجارحة، وتضارب المصالح، والأهداف المتعاكسة، والأحلام المتنافسة.

عندما تنشأ النزاعات نميل بطبيعتنا إلى الهروب، وعوضًا عن العمل على حل سوء الفهم (أو مواجهة الخطية) نقوم عادة بالسير في الطريق

المختصر؛ فنبحث عن كنيسة أخرى، أو وظيفة أخرى، أو حي سكني آخر، أو صديق آخر، أو شريك زواج آخر.

يضع الزواج تحديًا أمام هذا الميل إلى "الهروب".. فهو يغلِّفنا بوعدٍ قويٍ كالصخر قطعناه أمام الله يُلزمنا بالعمل على المشكلة حتى نتوصل إلى نوعٍ من الحل.

يُدرك البالغون الناضجون أن أي علاقة لابد وأن تتضمن نزاعًا، واعترافًا، وغفرانًا. ويُبرهن غياب النزاع -إلا إذا كنت تستمتع حقًا بمعاشرة شريك متملِّق ذليل- على أن العلاقة ليست مهمة بما يكفي لتصارع من أجلها، أو أن كلا الشريكين غير واثقين من أنفسهما لدرجة أن يخاطرا بحدوث خلافات.

يُبرهن غياب النزاع على أن العلاقة ليست مهمة بما يكفي لتصارع من أجلها، أو أن كلا الشريكين غير واثقين من أنفسهما لدرجة أن يخاطرا بحدوث خلافات.

يوفر النزاع سبيلاً إلى النمو الروحي؛ فحل النزاع يتطلب بالضرورة أن نتعمَّق في المشاركة في النقاش وليس العكس. وعندما نشعر أننا نريد "توبيخ الآخر"، فنحن مُجبَرون على الصمت والاستماع إلى شكواه. وعندما تبلغ لهفتنا أقصى حدٍّ لها لتوضيح ما نفكِّر به، يجب أن نجتهد في فهم ما يفكِّر به الآخر. وعندما نسعى أن نعرض على الملأ شكوانا، علينا أن نجتهد لفهم جُرح الآخر. وعندما نريد أن نشير إلى الأفكار الخاطئة والسلوك الفاسد عند الآخر، علينا أن نقيِّم بلا رحمة مواقفنا وسلوكياتنا المهينة.

إن هذا التفهُّم الخالي من الأنانية يشرح كيف أن النزاعات التي يتم التغلُّب عليها بنجاح تنشئ في نهاية المطاف رابطة أقوى من السابق. ولقد أصبحت فكرة "ممارسة الجنس كتعويض عن النزاع" فكرة مستهلكة،

غير أن ثمة حقيقة مُخبأة بين طيَّات هذا الفعل. فعندما ينشأ النزاع ويتم التغلُّب عليه، يكون كل طرف من الطرفين قد قام بخطوة تجاه الآخر. لقد "سقطا إلى الأمام"، وسعيا نحو حلٍ، وفي أثناء ذلك أوجدا اشتياقًا مُلحًا لأحدهما الآخر.

إن التستُّر على الخلافات والمواقف والسلوكيات الخاطئة لا يعبِّر عن حياة الشركة؛ بل هو نفاق مهذب. إن الشَركة الحقيقية تدفعنا إلى السقوط إلى الأمام.. أي أن نتقرَّب من الآخر.

إن التستُّر على الخلافات والمواقف والسلوكيات الخاطئة لا يعبِّر عن حياة الشركة؛ بل هو نفاق مهذب. إن الشَركة الحقيقية تدفعنا إلى السقوط إلى الأمام.. أي أن نتقرَّب من الآخر.

كما أن تعلُّم حل النزاع بنجاح سيكون له تأثير مباشر على علاقتنا مع الله؛ لأنه سيأتي وقت نشعر فيه أننا نريد معاتبة الله أيضًا على أمرٍ معين. إن أحد أشهر "الصراعات" في الكتاب المقدس هو الصراع الذي وقع بين الله ويعقوب. لقد تصارع المقاتلان طوال الليل، وغيَّر هذا اللقاء يعقوب لدرجة أن اسمه صار إسرائيل («لأنك جاهدت مع الله»). وعندما أشرفت المواجهة على النهاية، أصر يعقوب على أن «يباركه» الرب (راجع تك ٣٢: ٢٦). في النهاية لبى الله طلب يعقوب، ومن ثمَّ بنى أمة من نسل هذا الرجل المخادع والمحتال.

أحيانًا سنجد أنفسنا نجاهد مع الله أيضًا: "كيف يمكنك أن تأخذ هذا الطفل مني؟" "كيف أمكنك أن تسمح أن يخسر جيم وظيفته في الوقت الذي كنا فيه بأمس الحاجة إليها؟" "كيف يمكنك المكوث في السماء صامتًا لوحدك؟"

إن الادعاء أننا لسنا متضايقين من صمت أبينا السماوي ليس علامة على النضوج الروحي؛ بل الروحانية السليمة تدعونا إلى التقرب

من الله كما نتقرب من شريك الزواج، وليس أقل من ذلك. من المؤكَّد أن هذا "السقوط إلى الأمام" يمثل تجاوبًا ملائمًا، أفضل من حذف الله من قائمتنا، وطرده من حياتنا عند أول إشارة على أنه يقوم بأمرٍ ما لا نفهمه أو يسمح بحدوثه.

قد يَنتُج عن "مصارعتنا" مع الله، كما حدث مع يعقوب، بركة غير منظورة. وقد نَخمَعُ على فخذنا -كيعقوب- لمدى الحياة، غير أن كل تفاعل مع الله سيثبت أنه مفيد، شريطة أن يكون اتجاهنا دائمًا نحو الله.

التسوية

إن الطريقة الثانية لممارسة التدريب الروحي على حياة الشركة داخل الزواج هي تعلُّم التوصل إلى تسوية. للأسف ينظر الكثيرون في مجتمعنا إلى كلمة "التسوية" (أو التنازلات) على أنها كلمة سيئة، لكن عمليًا إن كل علاقة كي تستمر وتنمو يجب أن تشتمل على نوع من المساومة بشكلٍ أو آخر. كما يلفت انتباهنا الكاتبان «وايتهيد» بشدة إلى أن التسوية بعيدة كل البعد عن الانسحاب، وتمثل طريقةً للتعبير عن محبتنا. إنها برهان على أننا مستعدون لتقديم التنازلات ليس لأي سببٍ آخر سوى أننا نقدِّر العلاقة المستمرة أكثر من دفاعنا عن حقوقنا، وأولوياتنا، وأمانينا. تُشكِّل التسوية قاعدة صلبة لحياة الشركة.

لقد كان على العديد من الكنائس أن تتعامل مع تلبية رغبة الأعضاء من الشباب في أسلوب "العبادة المعاصرة"، وذلك دون فقدان "العبادة التقليدية" للأعضاء الأكبر سنًا. بعض الكنائس اختارت القيام باجتماعين للعبادة، والبعض الآخر حاول دمج الطقوس (الليتورجية) مع العبادة غير التقليدية باعت بعض الكنائس الأورغن بسعر، بينما بنى البعض الآخر أورغن أكبر حجمًا، لكن أحيانًا يتركونه صامتًا بينما يعزف أحدهم على

الجيتار. إن الكنائس في كل مكان تتعلَّم فن التسويات.

وبالطريقة نفسها، على الشريكين تعلُّم فن الوصول إلى تسوية على الأمور الدنيوية (أين سنحتفل بعطلة عيد الميلاد؟)، وكذلك القضايا العميقة (كم طفل سننجب؟). ولكي تنجح مثل هذه التسويات يجب أن نقيم العديد من "الجنازات المصغَّرة".. يجب أن نختار أن نموت عن أنفسنا، ونقدم تنازلات، وبالعكس لا نبتهج عندما يقدم الآخر لنا تنازلات.

ولكي تنجح مثل هذه التسويات يجب أن نقيم العديد من "الجنازات المصغَّرة".

القبول والإخلاص

إن المبدأ الثالث في التدريب على حياة الشركة هو تعلُّم قبول الناس على طبيعتهم. غالبًا، عندما يحضر أعضاء جدد في إحدى الكنائس، فإنهم يتكلمون بحماسٍ مفرط عن تعليم الراعي، وقدرة قادة التسبيح على جعل المصلين يشعرون بحضور الله، والروح الرائعة لبقية أعضاء الكنيسة. لكن بعد سنة أو سنتين، وبعد أن سمعوا أفضل قصصٍ لدى الراعي، وملُّوا من الترانيم المفضَّلة لدى قادة الترنيم، وخابت توقعاتهم من أشخاص آخرين لدعوتهم على الغذاء عوضًا عن أن يقوموا هم بدعوتهم، من المدهش كيف تصبح "أفضل كنيسة في العالم" بمثابة "جثة هامدة على فراش الموت."

هذا أيضًا يعكس ما يحدث غالبًا في الحياة الزوجية؛ فالرجل الذي ظنَّت زوجته يومًا أنه واثق من نفسه أصبحت تراه اليوم مغرورًا، والزوجة التي جذبت زوجها "بروحها الهادئة والرقيقة" صار يراها اليوم أنها امرأة ضعيفة غير جديرة بالاحترام.

إن الزواج القائم على الرومانسية المطلقة ينطوي على أكذوبة مثالية (الافتتان بالآخر)، ومن ثَمَّ ينفصل عن الواقع متى كشف عن نفسه.

إن الزواج القائم على الرومانسية المطلقة ينطوي على أكذوبة مثالية (الافتتان بالآخر)، ومن ثَمَّ ينفصل عن الواقع متى كشف عن نفسه. بينما

الزواج القائم على الحياة في يسوع المسيح يدعونا إلى التحرر من الأكذوبة (النظرة المثالية عن شريك الحياة)، وقبول الواقع (شخصان بطبيعة خاطئة يصارعان من أجل الحفاظ على تعهدهما مدى الحياة). وكما يشير الكاتبان «وايتهيد»: "التحدي ليس هو الاستمرار في أن نحب الشخص الذي ظننا أننا سنتزوجه، بل أن نحب الشخص الذي تزوجناه بالفعل!"[7]

يتطلب منا التدريب على حياة الشركة أن نتعلَّم فن الإخلاص. إذا حدث أن دعت الكنيسة المجاورة أحد الرعاة الشباب والمتحمسين ليعظ فيها، فهذا لا يعني أنه علينا تجاهل سنوات من الالتزام والعلاقات السابقة في الكنيسة السابقة، ونذهب كي نستمع "للنجم" الجديد. وإذا حدث أن ظهر في حياتنا سيدة أصغر سنًا من زوجتنا، أو رجل أكثر حساسية من زوجنا، فهذا لا يعني أن نتراجع عن تعهد العمر الذي قطعناه.

الأمر كله يتمركز حول السقوط إلى الأمام. لنقل إنك صادفت شخصًا مثيرًا وجذابًا جدًا، غير أنك تختار أن تضع حدودًا صارمة لهذه العلاقة، وفي المقابل تضاعف جهودك لتُظهر إخلاصك والتزامك لشريك حياتك. وعندما تشعر أنك متألم ومجروح بسبب أنانية شريك حياتك، فإنك عوضًا عن الاستياء والتوقف عن التحدث معه، لابد أن تأخذ المبادرة للتعبير عن مشاعرك بطريقةٍ لطيفة ومحترمة.

العجيب أن السقوط إلى الأمام (التقرُّب من الآخر) يؤدي في النهاية إلى إشباع أكبر في الحياة الزوجية. على الرغم من أن الهدف من هذا الكتاب هو مساعدتنا على الاستفادة من زواجنا للتقرُّب من الله، لكن عندما نتقرَّب منه غالبًا ما نكتشف أن زواجنا تحسَّن أيضًا وأصبحنا أكثر سعادة ورضًا. يعبِّر «دونالد هارفي» عن الأمر باختصارٍ مفيد: "إن الشريكين اللذين يجعلان من علاقتهما الأولوية الأولى، لديهما إمكانية كبيرة في تحقيق مبتغاهما من الزواج، أما أولئك الذين لا يفعلون ذلك لديهم إمكانية ضعيفة. إن الأمر بهذه البساطة."[8]

العجيب أن التقرُّب من الآخر يؤدي في النهاية إلى إشباع أكبر في الحياة الزوجية.

عندما دخلتَ في علاقة الزواج، فإنك تعهدت بمواصلة التقرب من شريك حياتك؛ لذا فإن أي خطوة إلى الوراء، أو توقُّف، أو تراجع يُعتبر خداعًا وكذبًا. تعلَّم أن تخطو تجاه الشخص الذي أعطاك إياه الله بهدف أن يعلمك كيف تحب.

تَبَنِّي الغفران

ماذا نفعل عندما لا يريد شريك حياتنا أن نتقرَّب منه – بل في الواقع عندما يدفعنا بعيدًا عنه؟

يزوِّدنا الكتاب المقدس بإرشاد واضح؛ فالأب سمح لابنه الضال بالرحيل، غير أن المحبة اقتضت عليه أن يظل مستعدًا بذراعين مفتوحتين "للسقوط إلى الأمام" إذا رجع الابن في يوم من الأيام (راجع لوقا ١٥: ١١- ٣٢).

إن سلوك الآخر لا يمكنه أن يُملي علينا سلوكنا. لقد أرسَل الله ابنه إلى عالمٍ كرِهَهُ؛ ولو انتظر الله كي يصبح العالم "مستحقًا" لقبوله، على

أنا أؤمن أن أحد أهداف الزواج الأساسية هو أن يعلِّمنا كيف نغفر.

الأرجح لما كان أتى ابنه على الإطلاق. فوق ذلك تتضمن هذه الحقيقة تدريبًا روحيًا آخر على حياة الشركة، في الواقع أحد التدريبات الروحية الأصعب على الإطلاق- ألا وهو التدريب على الغفران.

إن أكثرنا إقدامًا قد يحاول استخدام خطية شريك الحياة كعذر للانسحاب، غير أن هذا نادرًا ما يُعتبر سلوكًا مسيحيًا، لأننا جميعًا نُخطئ تجاه بعضنا البعض. في الواقع، أنا أؤمن أن أحد أهداف الزواج الأساسية هو أن يعلِّمنا كيف نغفر. إن هذا التدريب الروحي يزوِّدنا بالقوة التي نحتاجها لنحافظ على السقوط إلى الأمام في عالمٍ خاطئ.

الدعوة إلى النعمة

اتَّبع نحَّات في ولاية سياتل توجيهات إحدى الزوجات، وحسب طلبها نَحَت شاهد قبر لزوجها نُقِشَت عليها الكلمات التقليدية:

"أُرقُد بسلام"

وبعد عدة أشهرٍ اكتشفت الزوجة أن زوجها لم يكن وفيًا لها، فعادت إلى النحَّات، وطلبت منه أن يضيف إلى شاهد القبر أربع كلمات، فانصاع النحات إلى طلبها ونقش على الشاهد التالي:

أرقد بسلام...

حتى نلتقي مجددًا١.

ثمة أمر متعلِّق بالخطية داخل إطار الزواج يضربنا في مستوى أعمق عن أي خطية أخرى يقترفها الآخرون تجاهنا.. إذ يُضاف إلى الخطية إحساس بالخيانة، حتى عندما يُخطأ في حقنا نشعر بالإهانة لدرجة أننا

نرغب في مواصلة الشجار داخل القبر.

نحن نتزوج لأسباب مختلفة، وبالطبع سبب "الرغبة في الزواج لأنه يقدِّم لنا فرصة تعلُّم الغفران" لا يحتل قائمة الأولويات عند معظم المتزوجين حديثًا؛ غير أن الممارسة الروحية للتحرك المستمر نحو شخص آخر يوفر إطارًا متميزًا يمكننا فيه ممارسة هذا التدريب الروحي بالغ الأهمية.. الغفران. تمثل الخطية داخل إطار الزواج (من جانب الشريكين في الزواج) واقعًا يوميًا، وصراعًا مستمرًا يهدِّد بإبعادنا عن بعضنا البعض. فلن تجد أبدًا زوجًا/ زوجة بلا خطية، والشخص الذي ستقرر أن تتزوج به سيجرحك في لحظة ما- بل أحيانًا سيفعل ذلك عن قصد؛ الأمر الذي يجعل من الغفران تدريبًا روحيًا أساسيًا.

يقدِّم لنا الرسول بولس كلمات نافعة على نحوٍ رائع في رسالته إلى أهل رومية؛ إذ يذكِّرنا قائلاً: «لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسدٍ لا يتبرر أمامه (أمام الله). لأن بالناموس معرفة الخطية.» (رو ٣: ٢٠).

> الشخص الذي ستقرر أن تتزوج به سيجرحك في النهاية- بل وأحيانًا سيفعل ذلك عن قصد؛ الأمر الذي يجعل من الغفران تدريبًا روحيًا أساسيًا.

ولأنني قرأت هذه الآية ما يقرب من مئة مرة، أو أكثر، فقد أنذرتني خير إنذار، كما تنذرك أنت أيضًا: لن يحقق شريكنا حياةً بلا خطية بحسب "الناموس"؛ فهذا أمر لن يحدث، بل آجلاً أم عاجلاً ستُرتكب خطية تجاهنا وسنُجرح. وعندما يحدث ذلك سيتحتم علينا القيام بخيار: إما الاستسلام للجُرح، والضغينة، والمرارة؛ أو النمو في الحياة الروحية، وتعلُّم درس جديد هام عن الغفران.

لم يضع الله الناموس كي يُطالب شريكا الحياة أحدهما الآخر بمستوى يستحيل بلوغه ليعودا ويستخدماه ليجلد أحدهما الآخر. إن

الزوج/ الزوجة الذي يعيش "البر الذاتي" بغيض، حتى لو ظهر بحسب الناموس ولوقتٍ محدود "غير مُلام" وعلى صواب. في نهاية المطاف، شريك الحياة هذا سيسقط حتمًا في الخطأ.

إذًا في النهاية ما الذي نحن مدعوون إليه؟

يُكمل الرسول بولس حديثه ويقول: «وأما الآن فقد ظهر بِر الله بدون الناموس.» (رو ٣: ٢١).. هذا البِر قائم على «الفداء الذي بيسوع المسيح»، وعلى «الإيمان» (رو ٣: ٢٤، ٢٧).

كثيرًا ما تنهار الزيجات عندما يضيِّق الزوج المتدين الخناق على شريكه الآخر بالناموس. لا أحد منا يمكن أن يعيش بحسب مقاييس الناموس.. سنخالف جميعًا أحكام الناموس. لكن الزواج يعلِّمنا، أو في الواقع يُلزمنا عمليًا، أن نتعلَّم أن نشمل الآخرين الذين أخطأوا إلينا بنعمتنا وغفراننا.

لم يضع الله الناموس كي يُطالب شريكا الحياة أحدهما الآخر بمستوى يستحيل بلوغه ليعودا ويستخدماه ليجلد أحدهما الآخر.

إذا كنت أستطيع أن أتعلَّم كيف أغفر وأقبل شريك حياتي غير الكامل، أُعَد جيدًا لأقدِّم مغفرةً خارج إطار زواجي. أنا مقتنع أن الغفران تصرف غير تلقائي يتطلَّب الكثير من الممارسة لإتقانه.

محبة الخاطي

ظهر صرصور، وكانت ربة المنزل تكره الصراصير. وأسوأ ما في الأمر أن الصرصار أبى أن يموت، فداسته بقدمها، ثم ألقته في المرحاض، ورشَّت عليه عبوة كاملة من مبيد الحشرات حتى توقَّف الصرصور أخيرًا عن الحركة.

وتركت الزوجة الحمَّام راضيةً عن النتيجة.

لاحقًا في هذا اليوم عاد زوجها من عمله. وفيما هو جالسٌ على المرحاض ألقى بسيجارته فيه. وإذا بأبخرة المبيد تشتعل، فأصيب الزوج بحروق خطيرة في منطقة حسَّاسة من جسمه.

اتصلت زوجته على الفور بخدمات الإسعاف، فوصلوا في غضون دقائق، وفحصوا الزوج. ولما رأوا أن الحروق خطيرة بشكلٍ ملحوظ، وتتطلب عناية في المستشفى، وضعوه على النقالة ونزلوا به السلالم.

أن الغفران عمل غير طبيعي يتطلّب الكثير من الممارسة لإتقانه.

لكن بعد أن عرف فريق الإسعاف كيف أصيب الزوج، لم يتمكنوا من كَبت ضحكهم. فكلما حاولوا منع ضحكهم ازداد، وانتهى بهم الأمر بالكثير من الضحك لدرجة أنهم وهم ينزلون الدرج أوقعوا الزوج، وكسروا عظام حوضه وضلوعه.[9]

يُخيَّل إليَّ أن غفران هذا الرجل خضع لاختبارٍ قاسٍ. ولكن حتى في أفضل الظروف لا يكون الغفران أمرًا سهلاً؛ فميولنا الطبيعية تعمل في اتجاهٍ معاكس له.

ذات مرة كنت متكلمًا في خلوةٍ روحية للمسؤولين في كنيسة أسقفية في مركز للخلوات تابع لطائفة الروم الكاثوليك. كانت الكنيسة صغيرة جدًا لكن متميزة جدًا، وتجوَّلت فيها بفضول لوقتٍ قصير بعد وصولي، ووجدت في الخلف كرسيًا للاعتراف.. ففتحت بابه، وكم كانت دهشتي كبيرة لرؤية خزانة لحفظ الملفات.

غالبًا ما يُشبه الزواج هذه الخزانة.. أي أن شريك الحياة يكون قد اعترف بخطاياه وبمواطن ضعفه أمامنا، ونحن أودعنا كل اعتراف في خزانة لحفظ الملفات في أذهاننا؛ بحيث نُخرجه عندما نحتاجه، ونستخدمه في دفاعنا أو في هجومنا. لكن الغفران الحقيقي هو عملية مستمرة وليس

نادرًا ما نستطيع أن نغفر "مرة واحدة" وتحل المسألة.

حدثًا؛ فنادرًا ما نستطيع أن نغفر "مرة واحدة" وتُحل المسألة. في الغالب، يترتب علينا التخلِّي عن مرارتنا في الكثير من المرات، وأن نختار باستمرار أن نُعتِق مَنْ أساء إلينا من دينونتنا.

لذلك يُعتبر الغفران أمرًا في غاية الصعوبة. يذكر «فيليب يانسي» في كتابه «ما هو أعظم شيء في النعمة؟» *(What's So Amazing About Grace?)* التالي:

> أثناء مناقشةٍ حاميةٍ كنا زوجتي [وأنا] نناقش عيوبي بطريقة متحمسة، وقالت زوجتي: "إنه لأمر مدهش حقًا أنني سامحتك على بعض الأفعال الخسيسة التي فعلتها!"... الغفران... ليس مثالية أفلاطونية تنتشر في العالم مثلما ينتشر معطِّر الجو من العبوة؛ فهو أمر مؤلم جدًا، وبعد أن تغفر بوقت طويل يستمر الجُرح -أفعالي الخسيسة- حيًا في الذاكرة. الغفران عمل غير تلقائي، ولقد أرادت زوجتي أن تعبِّر عن اعتراضها على طبيعته غير المنصفة.[10]

إن الفيلم الوثائقي للمخرج «كلود لانزمان» الذي يدور حول محرقة اليهود، واسمه «شواه» (Shoah)، ينقل لحظة مثيرة حيث يتحدث أحد قادة انتفاضة "الجيتو" في «وارسو» عن المرارة الباقية في قلبه قائلاً: "لو أمكنك أن تلعق قلبي، لأُصبت بالتسمم."

ينطبق نفسي الشيء على العديد من الزيجات. إن المشاكل الداخلية والمواجهات الشخصية أصبحت مُرة جدًا لدرجة أنه نمت في داخل الأشخاص قلوبٌ ممتلئة بالسموم. والمأساة هي أن القلب المليء بالسُّم لا يسمم مَنْ يلعقه فحسب، بل يصبح عضوًا فاسدًا يفرز عصارةً مُرةً

في حياة صاحبه. لذا يُعتبر الغفران من هذه الناحية بمثابة دفاع عن النفس، أو ضمادة توقف نزيف الضغينة المميت.

إن أي موقف في الحياة يدرِّب قدرتنا على توسيع نطاق غفراننا هو بمثابة موقف يشكِّلنا أكثر لننمو على شبه المسيح يسوع. أعرف القليل من ظروف الحياة التي تدعونا إلى ممارسة منتظمة للغفران مثل العلاقة الزوجية.

> إن القلب المليء بالسم لا يسمم مَنْ يلعقه فحسب، بل يصبح عضوًا فاسدًا يفرز عصارةً مُرةً في حياة صاحبه.

عرَّف «هنري نوين» الغفران مرةً على أنه "ممارسة المحبة وسط أشخاص ضعفاء في المحبة"، وهذا يلخِّص الموضوع خير تلخيص. أنا ضعيف في محبتي، وأنت كذلك، وجميعنا ضعفاء في محبتنا.. وهذا في الواقع إذا أخذنا يسوع على أنه النموذج الذي يُحسن المحبة. يمكننا أن نوبِّخ شريك حياتنا لأنه أقل من إنسان كامل، أو يمكننا أن نصارع ونفوز ببعض الانتصارات على ذواتنا الشريرة التي تجعل من تقديم الغفران للآخرين أمرًا صعبًا.

في خِضم ممارسة هذا التدريب الروحي يُلزمنا الزواج بتبني أحد أكثر التعبيرات المسيحية استخدامًا: "أبغض الخطية وأحبِب الخاطئ". وهذا أمر مدهش نقوم به، بينما كل خلية بِر ذاتي في داخلنا تدفعنا إلى تحويل النفور من الخطية إلى نفورٍ من الخاطئ نفسه- وبالتالي ننفر من شريك حياتنا. يشجعنا الكاتب «فيليب يانسي» على محاولة سلوك درب محبة الخاطئ، وذلك من خلال أن نفكِّر كيف كان يسوع ليشعر في مثل هذا الموقف. وبما أن يسوع كان كاملاً من الناحية الأخلاقية، فقد كان لديه كل الحق ليشمئز من الخطاة، ومع ذلك لم يوجد مَنْ أحب الخطاة بالعمق الذي أحبَّهم به يسوع.

اعترف الكاتب «سي. إس. لويس» أنه هو أيضًا كان يصارع مع مسألة أن يحب الخاطئ ويبغض الخطية في الوقت عينه. وفي يوم من الأيام، اتضح له الأمر فجأة:

> خطر لي أنني طوال أيام حياتي كنت أتعامل على هذا النحو مع شخص واحد.. هذا الشخص هو أنا. لكن مهما كنت أمقت جُبني، أو غروري، أو طمعي، استمرَّيتُ في محبتي لنفسي. ولم أشهد أدنى صعوبة في ذلك. في الواقع السبب الحقيقي الذي من أجله أبغضتُ هذه الأمور هو أنني أحببت صاحبها. وبما أني كنت أحب ذاتي، كنت حزينًا أن أجد نفسي من بين هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الأمور.[11]

نحن نشمل أنفسنا بهذه الهبة، لذا فالسؤال المُلح الذي يجب طرحه: "لِمَ لا نشمل بهذه الهبة شريك حياتنا أيضًا؟"

نحن نشمل أنفسنا بهذه الهبة، لذا فالسؤال المُلح الذي يجب طرحه: "لِمَ لا نشمل بهذه الهبة شريك حياتنا أيضًا؟" قامت «ميليسا» بهذه الخطوة، وخطوتها هذه غيَّرت مجرى حياتها.

الخيانة العظمى

رأت «ميليسا» في زواجها أنه "التزام وثيق، بحس حقيقي بالشراكة. كان زواجي ملاذًا آمنًا، ومكانًا للشفاء والنمو. لقد أحببتُ زواجي."

وفي عام ١٩٩٧، بعد مضي ٢٥ سنة تقريبًا على الزواج، تزعزعت أركان هذا "الملاذ الآمن".. فقد بدأ زوجها القس «برايْنت» في الانعزال

عنها، مُضيعًا حياته بين غرف الدردشة على الإنترنت. ألحَّ عليه زميلٌ له أن يأخذ قسطًا من الراحة. فوافق «براينت» على الاستراحة لمدة شهرين، ثم أعلن أنه بحاجة إلى سنة كاملة "لإعادة تأهيل نفسه"، وأنه لن يستطيع العودة إلى أداء واجباته الرعوية في الكنيسة. لكن راعي الولاية ألحَّ عليه أن يعيد التفكير في قراره، وأعاد «براينت» التفكير واستعاد منصبه.

بعد ذلك بفترة وجيزة، راحت «ميليسا»، وللمرة الأولى في زواجها، تتساءل عما إذا كان زوجها دائمًا مخلصًا لها. وبدأت تعاني من مشاكل في جهازها التناسلي، وشُخِّصت حالتها بأحد الأمراض التي تنتقل جنسيًا. وكون «ميليسا» مديرة مركز لحالات الحمل غير المتوقَّع، فقد كانت مطَّلعة جدًا على الأمراض التي تنتقل جنسيًا وعلى عواقبها. نظر «براينت» في عيني زوجته، وأكَّد لها أنه غير ممكن أن يكون هو مَنْ نقل إليها هذا المرض.

"لقد تغلَّب آخرون على مثل هذا الأمر، وأتمنى أن أتغلَّب عليه أنا أيضًا."

شاهدت «ميليسا» «براينت» وهو ينهار من الداخل؛ فقد أصبح شديد الانتقاد ومكتئبًا، وأخذ يعاود الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر. وقد لجأ إلى أحد المشيرين ملتمسًا المساعدة، لكن في شهر أكتوبر/ تشرين الأول وجدته «ميليسا» أمام الكمبيوتر، وسألته: "هل لديك علاقة جادة مع إحداهنَّ عبر الإنترنت تجعلك غير راغب في ترك غرف الدردشة؟"

رمقها «براينت» بنظرة خجولة وتنهد، وتقول «ميليسا» بحسب ما تتذكر: "كانت نظرته أشبه بنظرة ولد ضُبط وهو يسرق الحلوى."

وأخيرًا أجاب: "أجل، ولقد تواصلنا قليلاً عبر الهاتف."

رجع «براينت» مرة ثانية إلى مشيره حسب رغبة «ميليسا» وإصرارها. أخذ المشير في التعامل مع خداع «براينت»، وعندما واجهته «ميليسا»

مرة أخرى كان مستعدًا أن يكون صادقًا معها. وسألته: "هل أنا غبية لأصدِّق أنني مصابة بمرض ينتقل جنسيًا من تلقاء نفسي؟" ولم تنلَ جوابًا سوى الصمت.

كانت هذه أبشع فترة صمت عرفتها «ميليسا» في حياتها. وفي خِضم هذا الصمت -كما يقول «براينت» بنفسه لاحقًا- حصلت «ميليسا» على جوابها. كان هذا في ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٧، وهو تاريخ لن يُمحى من ذاكرتها.

في البداية، تجمدت «ميليسا» في مكانها، ثم انسحبت إلى غرفة المعيشة، وتناولت كتابها المقدس، وراحت تقرأ في سفر هوشع. وقالت لنفسها: "إن الله يعرف جيدًا معنى الخيانة وعدم الإخلاص، وأنا بحاجة إلى أن أعرف كيف تعامل الله مع هذه المسألة."

لحق بها «براينت»، غير أنها لم تكن جاهزة بعد لمعالجة الأمر سويًا؛ فقد كان عليها أولاً أن تعمل على بعض الأمور بمفردها، وكل ما كان بوسعها قوله لزوجها آنذاك كان: "لقد تغلَّب آخرون على مثل هذا الأمر، وأتمنى أن أتغلَّب عليه أنا أيضًا."

ظلَّت «ميليسا» متجمدة لعدة أيام، حتى حلَّ نهار السبت حين أرعبها تذكُّر أن عائلة «براينت» ستحضر نهار الأحد للاحتفال بمناسبة خاصة.. الاحتفال بعيد ميلاد والدة «براينت».

كان «براينت» لا يزال راعيًا للكنيسة، و«ميليسا» لاتزال إحدى أعضاء فريق التسبيح؛ فحضر الزوجان المحطَّمان إلى الكنيسة ذلك الأحد بروح حزينة ومثقلة. وحالما بدأت "بروفة" التسبيح للعبادة انهار تقريبًا قرار «ميليسا» بالاستمرار؛ إذ اكتشفت أن «براينت» اختار ترانيم تعبدية تتركز حول "المحبة العميقة والشخصية".

وتعود «ميليسا» بالذاكرة قائلةً: "كنت أتمزّق وأنا أتدرَّب على هذه الترانيم. فركضت إلى غرفة جانبية، وجلست هناك أقول لنفسي.. 'لا أستطيع فعل ذلك'."

استجمعت «ميليسا» قواها، وخرجت من غرفة التمرين، وأول ما وقع نظرها عليه كان الحضور الذي تكوَّن ثلثه من أقرباء «برواينت». وأحد هؤلاء الأقرباء كان أحد إخوة زوجها الذي لم يؤمن بالمسيح بعد، وكان يصارع الموت لإصابته بمرض السرطان.

فعاشت لحظات مؤثِّرة من الألم الشخصي، والغريب أنه كان ممزوجًا بتعاطف عميق نحو القريب الذي كان على حافة الموت. أدى هذا إلى خلق طفرة روحية لدى «ميليسا»؛ فوجدت نفسها تصلي: "يا رب لابد أنك ترتب أمرًا هنا أكبر من معاناتي. أنا أعلم أن هذه الترانيم لا تدور حولي، بل هي تتكلم عنك وعن الضالين."

واستطاعت «ميليسا»، وهي محاطة بعائلة زوجها، المساعدة في قيادة فترة العبادة، ثم استمعت إلى عظة «برواينت». لقد نالت «ميليسا» مكافأتها لأجل قرارها هذا عندما قرر أخو زوجها المريض أن يقبل يسوع المسيح كسيدٍ ومخلِّص لحياته.

"يا رب لابد أنك ترتب أمرًا هنا أكبر من معاناتي."

وتتذكر «ميليسا» قائلةً: "لن أنسى أبدًا مدى عمق هذا الاختبار بالنسبة لي.. على الرغم من أن الألم كان مدمِّرًا، غير أنه لم يكن أعظم من الله."

لقد استفاقت «ميليسا» من صدمتها، وعلمت أن عليها أن تبدأ بالغفران: "أتذكَّر نفسي وأنا أنظر إلى «برواينت» وأقول له 'أنا أعلم أنه يجب أن أسامحك، وسأفعل ذلك'. لم يكن يغمرني حِس عظيم بالغفران، بل واجهت حقيقة أنه عليَّ أن أغفر. كان الغفران بمثابة طريق أسير فيه."

شاركت «ميليسا» صراعها مع أحد الرعاة، الذي أكَّد لها أن الغفران لا يُعيد الثقة ولا يمنحها، وكذلك لا يزيل الألم. وتعلَّمت هذه السيدة أن منح الغفران يمثل أمرًا أساسيًا جدًا لمواصلة حياتها الروحية ولنموها. "علَّمني الله أنها مسألة طاعة.. إذا كنتُ سأُبقي قلبي منفتحًا أمام الله خلال هذه العملية المروِّعة، عليَّ أن أكون مطيعة."

لاحظ أن التركيز الأول لميليسا كان رأسيًا.. كانت مستعدة لمسامحة زوجها لأن هذا ما كان عليها فعله كي تُبقي علاقتها مع الله سليمة. فقد كان الزواج ثانويًا في هذه المرحلة. كانت «ميليسا» مهتمة بالقيام بما هو صحيح روحيًا أكثر من أي شيء آخر.

وكانت أجزاء من هنا وهناك من قصة «براينت» تظهر مع مرور الوقت؛ لهذا السبب أصبح الغفران تدريبًا ملازمًا لحياة «ميليسا». كانت دائمًا تسمع أمرًا جديدًا عليها أن تهضمه وتحاول فهمه. لقد صارعت مع المرارة.. فقد أحبَّت مكانتها كزوجة راعٍ، وكجزء من تلك الكنيسة، وعَلِمَت أن أفعال «براينت» سرقت منها أمرًا مميزًا جدًا.

بعد عدة أشهر، أصبح «براينت» طاهرًا بالكامل، واعترف بكل ما اقترفه، وكشف عن العديد من الأمور المؤلمة.. ومن ضمنها حقيقة أنه كانت له علاقة غرامية أخرى، وظن أنه ربما لا يزال "واقعًا في حب" تلك المرأة.

"لم يكن يغمرني حس عظيم بالغفران، بل واجهت حقيقة أنه عليَّ أن أغفر. كان الغفران بمثابة طريق أسير فيه."

بحسب الكتاب المقدس، علمت «ميليسا» أن لها الحق في طرد «براينت» من حياتها والبدء من جديد، غير أنها لم تفكِّر أبدًا بجدية في هذا الخيار. "كان الغفران هو الخيار الأصعب بكل تأكيد، لكني لم أشعر قط في داخلي أن [الطلاق] كان الاختيار الصائب."

أنا واثق أن هذا هو السبب الرئيسي لنضوج «ميليسا» ونموها الروحي في خلال هذه المحنة المروِّعة. قالت لي «ميليسا»: "لقد عشت حياتي كلها بالإيمان، ولست خائفة من سلوك الدَّرب الأصعب."

وبالتحديد، على دَرب الألم القاسي هذا بدأت «ميليسا» في النمو، وفي تعلُّم الدروس، وفي التقرُّب من الله. إنها لن تختار أبدًا أن تخوض هذا الاختبار مرة ثانيةً، لكن من خلال تبنيها الموقف الصحيح واستعدادها للغفران اختبرت النمو بطرق لم تكن لتختبرها في ظروف مختلفة.

"لقد تعلمتُ أنه حتى عندما نختبر ألمًا كبيرًا، فإننا لسنا معفيين من التفكير في الآخرين، ومن العيش وفق دعوتنا بالشهادة لأمانة الله."

"كان الغفران هو الخيار الأصعب بكل تأكيد، لكنني لم أشعر قط في داخلي أن [الطلاق] كان الاختيار الصائب."

ومع أن «ميليسا» كانت تشعر بأنها متجمدة، فقد تعلَّمت ألا تكون أنانية من خلال التركيز على اهتمامها بأولادها، وبخير الكنيسة، وحتى بنفس «براينت». وبدلاً من أن تصب جام غضبها على زوجها، كانت محطَّمة بسبب العواقب الروحية لأفعاله عليه هو، أكثر من مدى الإهانة التي شعرت بها بسبب هذه الأفعال وكيف أثرت عليها.

بصراحة، هذا يدهشني! عندما استمعت لحديث «ميليسا» شعرتُ وكأني أستمع لحديث قديسة تحت التمرين.. وبالحقيقة هي كذلك!

شكَّل هذا الوقت وقت امتحان غاية في الصعوبة، غير أن اختيار الغفران جعل المرارة والغضب تحت السيطرة. في النهاية أنقذ هذا الخيار زواجها، وقرَّب «براينت» منها، ودفع «ميليسا» أشواطًا في تشكُّلها على مثال يسوع المسيح. لماذا؟ أرجع إلى ما قالته «ميليسا»: "لست خائفة من سلوك الدرب الأصعب."

إن الغفران من طبيعة الله، وقد ظهرت شخصية الله عندما اختبر موتًا قاسيًا لأجل الأشخاص أنفسهم الذين أساءوا إليه. هذا الغفران لا يخرج بشكل طبيعي أو تلقائي فينا، إنما هو أمرٌ يجب تعلُّمه، وتعلُّمه مرارًا وتكرارًا.. على الرغم من أن هذه العملية قد تكون مؤلمة جدًا، وموجعة، ورهيبة. إذا رفضنا أن نسلك "الدرب الأصعب" لأنه أصعب، فلن ننضُج أبدًا.

لقد سألتُ «ميليسا» الأسئلة الصعبة.. لو كانت زوجتي غير مخلصة لي، أعتقد أنه من أصعب الأمور التي يمكن استعادتها العلاقة الجسدية الحميمة. فكيف يمكنك أن تنسى ما فعله شريك حياتك؟

ولكن عندما سلكت «ميليسا» درب الغفران، تشهد أنها هي و«برااينت» دخلا مرحلة "شهر العسل" في زواجهما مرة أخرى- بعد مرور خمسة وعشرين عامًا على زواجهما خمسة وعشرون عامًا! كان عدم إخلاص «برااينت» اختبارًا رهيبًا، والألم الذي خلَّفه كان حقيقيًا ومتواصلاً. من المؤكَّد أن «ميليسا» لن تختار أبدًا خوض هذه التجربة مجددًا. لكن تبني الموقف الصحيح من خلال الغفران قد ساعدها على تطبيق ما قاله «فرانسيس دو سال» لسيدة شابة مرتابة تطلب نصيحة عن الزواج (راجع الفصل الأول): "الزواج حالة تتطلَّب الفضيلة والثبات أكثر من أي حالة أخرى"، كذلك "هو تمرينٌ دائم لإماتة الذات... وقد تكونين قادرة أن تستخرجي وتصنعي من عصارة نبتة الزعتر مُرة الطعم عسل حياة مقدسة."

أُعطيت «ميليسا» عصارة مُرة المذاق، وقامت بدورها بتقديم هذه العصارة لله الذي صنع منها عسلاً روحيًا في حياتها.

لقد رأيتُ أشخاصًا يفعلون العكس. في مؤتمرٍ كنت أعظ فيه التقيت بسيدة منفتحة جدًا بشأن صراعها مع اضطراب الشهية، واعترفت لي بعدم قدرتها على الغفران لزوجها لأجل متابعته في الماضي للصور والأفلام

الإيباحية. أما زوجها فقد كان رؤوفًا، ومتسامحًا، ولطيفًا معها إذ ازداد وزنها ما يزيد عن خمسة وأربعين كيلوجرامًا بعد الزواج، لكن تعاطفها كان قليلاً مع أي رجل يستخدم صور النساء العاريات كما تستخدم هي الطعام. وقد منعها جُرحها وشعورها بالمرارة الشديدة من رؤية التشابه بين صراعيهما، بل كانت تركز بشكل كامل على صراعها، حتى أنها لم تتمكن من التعاطف مع أي شخص لديه صراع مختلف.

إن المفتاح للتدريب على حياة الشركة هو فهم هذه الحقيقة الجوهرية: يواجه الجميع صراعات، وكل واحد منا يواجه حاليًا صراعًا، ولكن لدينا نسبة تقل عن مئة بالمئة من التغلب عليه. إذا كنا متزوجين، فالحقيقة هي أننا متزوجون من شخص يخفق بشكل أو بآخر.

يمكننا التجاوب مع هذه "العصارة المُرة المذاق" بأن نصبح أشخاصًا تملأنا المرارة، أو يمكننا استخدامها كتدريب روحي ونحوِّل ممارسته إلى عسل حياة مقدسة. في هذا العالم الساقط تُعتبر الصراعات، والخطية، وعدم الإخلاص أمرًا مُسلَّمًا به. ويبقى السؤال الوحيد المطروح هو: "هل سيقرِّبنا تجاوبنا مع هذه الصراعات والخطية وعدم الأمانة إلى الله؟ أم أنه سيبعدنا عن أنفسنا، وعن خالقنا، وعن بعضنا البعض؟"

> السؤال الوحيد المطروح هو: "هل سيقرِّبنا تجاوبنا مع هذه الصراعات والخطية وعدم الأمانة إلى الله؟

هل سنسقط إلى الأمام، أم بعيدًا عن الطريق؟

أسئلة للتفكير والحوار

(١) يؤكد «دونالد هارفي» أن العلاقات الحميمة "هي ثمرة التخطيط؛ فهذا النوع من العلاقات يتم بناؤه. إن الشعور بالوحدة والانسجام الذي يرافق التقارب الروحي الحقيقي لا يكون وليد الصدفة." في خلال السنة الماضية كم من التفكير والصلاة والمجهود بذلتَ في بناء "تقارب روحي حقيقي"؟

(٢) ما الذي يجعلك تشعر وكأن شريك حياتك "يسقط إلى الأمام" في اتجاهك؟ ما الذي يجعل شريك حياتك يشعر وكأنك تتقرَّب منه؟

(٣) ما هو الميدان الأصعب بالنسبة إليك كي تنمو باتجاه شريكك: هل هو الحميمية الجسدية، أم الحميمية العاطفية، أم الحميمية الروحية؟ اسأل شريك حياتك ما الذي بإمكانك فعله لتتغلب على هذا الجانب الأضعف.

(٤) ما هي التكيفات التي يمكنك إجراؤها على حياتك الزوجية لتعزيز شراكة وحميمية أعمق؟

(٥) هل توجد "خزانة لحفظ الملفات" في كرسي "الاعتراف" الخاص بحياتك الزوجية؟ ما الذي يجب أن تفعله لتغفر لشريك حياتك وتتخلَّص من هذه الملفات؟

(٦) يتطلَّع الزواج المسيحي إلى أن تهب "ذاتك" شريك الحياة. في رأيك ما هي الوسائل التي يريد شريك حياتك من خلالها أن يستقبلك؟ كيف يمكنك أن تعطي ما هو أكثر من ذاتك من خلال هذه الوسائل؟

(٧) تُعزَّز الشراكة الروحية من خلال ممارسات روحية ثلاث: تعلُّم عدم الفرار من الصراع، تعلُّم صنع التسويات، تقبُّل مواطن ضعف شريك الحياة. أي من هذه الممارسات هي الأقوى عندك؟ وأيها الأضعف؟ ما الذي يمكنك فعله لتنمية نقاط قوتك، والتغلُّب على نقاط ضعفك؟

(٨) أين يقف بين النقيضين: الفرار من الخلافات، والتعامل بقسوة وخشونة في وقت الخلافات؟ كيف يمكنك العمل للتوصُّل لرد فعل أكثر صحة وسلامة؟

(٩) هل ترى نفسك في الماضي شريكًا "يسقط إلى الأمام" أم "ينسحب بعيدًا" عندما يُهان؟ بناءً على ما ناقشناه في هذا الفصل، ما هي الخطوات التي يمكنك أن تتخذها لتتعلَّم أن تسقط للأمام في اتجاه شريك حياتك عند حدوث نزاعات؟ وما الذي يمكنك فعله لتُسهِّل على شريك حياتك السقوط للأمام تجاهك عند حدوث هذه النزاعات؟

الفصل العاشر

اجعلني خادمًا

الزواج قادر أن يخلق داخلنا قلب الخادم

إذًا، ما أعظم القيود التي يفرضها الزواج، التي تُخضع حتى الشريك الأقوى للآخر، إذ من خلال القيود المشتركة بيننا يُرغَم كل واحدٍ على خدمة الآخر. وإذا رغب أحد الشريكين في التنحي لا يمكنه أن يحرر عنقه من النير؛ لأنه خاضع [للرغبات الجنسية]... هكذا نرى كيف أن العبودية الزوجية مُعرَّفة بوضوح

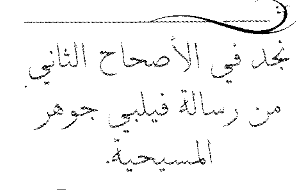
– أمبروز

نجد في الأصحاح الثاني من رسالة فيلبي جوهر المسيحية؛ ففي هذا الفصل نرى الرسول بولس يحثنا على عدم القيام بأي شيء «بتحزب أو بعجب» (هذه الكلمات المطلقة هي التي تجعل الكتاب المقدس مزعجًا) «بل بتواضعٍ، حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم. لا تنظروا كل واحدٍ إلى ما هو لنفسه، بل كل واحدٍ إلى ما هو لآخرين أيضًا.» (في ٢: ٣ و٤).

ثم يتصاعد بولس في هذا التعليم من خلال دعوتنا إلى التمثُّل بيسوع

المسيح الذي مع أنه «كان في صورة الله... أخلى نفسه، آخذًا صورة عبدٍ» (في ٢: ٦ و٧).

أن تكون مؤمنًا يعني أن تكون عبدًا متطوِّعًا. لا يكفي أن نعبِّر ببساطة عن موافقتنا على بعض العقائد، لكننا مدعوون أن نسلك بطريقة ما تجعلنا نضع الآخرين قبل أنفسنا، ويَحظُر علينا بشكل واضح أن نُمجِّد أنفسنا من أجل تعزيز راحتنا أو سمعتنا فقط. أصاب «أوتو بايبر» في وصف مقدرة الزواج على خلق قلب الخادم فينا، عندما وصف الزواج على أنه "الاستعداد المتبادل لدى شخصين لتحمُّل مسؤولية أحدهما الآخر."[1]



إن هذه الدعوة لنكون خُدامًا هي بالتحديد ما يجعل الزواج مفيدًا لحياتنا الروحية- وصعبًا جدًا من الناحية الشخصية. عندما عرضتُ الزواج على زوجتي كنتُ شابًا في الثانية والعشرين من العمر، وكان قراري هذا قائمًا تقريبًا بالكامل على ما ظننتُ أنها ستضفيه إلى الزواج.. لقد كانت حسنة المنظر، وكنا نستمتع بوقتنا معًا، وكانت تحب الرب. وأظن أن أفكارها كانت تتحرك في نفس الاتجاه: هل يستطيع هذا الشخص أن يدعمني؟ هل أجده جذابًا؟ هل سيكون أبًا صالحًا لأولادي؟

ليس من السيئ طرح أسئلة مثل هذه، لكن: بمجرد أن ينتهي حفل الزفاف، إذا كنا حقًا نريد أن نعيش زواجًا مسيحيًا، لابد أن نتحول ١٨٠ درجة، ونسأل أنفسنا: "كيف يمكنني أن أخدم شريك حياتي؟"

لفترة طويلة من القرن الماضي لم يأخذ معظم الرجال المسيحيين هذا السؤال على محمل الجد. كان من المتعارف عليه أن تقوم الزوجة من جهتها فقط بخدمة الزوج فعليًا في كل شيء تقريبًا. وعلى الرغم من أن

ثقافتنا الحالية تتحدى هذا الفكر، فإن ثمة عدد قليل من الرجال لا يزالون يمقتون فكرة خدمة زوجاتهم؛ لدرجة أنهم قرَّروا ترك الولايات المتحدة بهدف إيجاد ما يضاهي الزوجة العبدة.

وكان قراري هذا قائمًا تقريبًا بالكامل على ما ظننتُ أنها ستضفيه على حياتنا الزوجية.

تستغل شركة تحمل اسم «تشيري بلوسُمز» (أي: براعم الكرز) فقر دولة الفلبين (الدخل السنوي للفرد عام ١٩٩٧ كان ١,١٦٠ دولارًا) لتقدِّم خدمات "للزواج" بين رجال أمريكيين بالغين وشابات فلبينيات صغيرات في السن (وأحيانًا صغيرات جدًا في السن). يدفع الرجل مبلغًا من المال مقابل الحصول على "كتالوج" تحت عنوان «براعم الجزيرة» يتضمن صورًا وتعريفًا شخصيًا مختصرًا عن الفتيات المتوفرات. بعد ذلك يكون على الرجل أن يدفع مبلغًا إضافيًا لشركة «تشيري بلوسمز» كي يحصل على عناوين إقامة الفتيات.

يقدِّم الرجال للنساء سبيلاً للخروج من المدن ذات الكثافة السكانية العالية والموحلة التي شُيدت فيها بيوت صغيرة بحجم خزائن الثياب الواسعة. لكن لهذا "الخلاص" ثمن! أرسل رجلٌ عقدًا من صفحتين مكتظتين لزوجةٍ محتملة، إليكم أجزاء منه:

> وظيفتكِ الأساسية في الحياة هي خدمتي... أما وظيفتكِ الثانية فهي أن تكوني أمًا مثالية... ولكن ليس لدرجة أن تتعارض هذه الوظيفة مع اهتمامك بي... ستستيقظين تقريبًا في تمام الساعة السادسة صباحًا، وبعد أن تدخلي إلى الحمام، وتنظفي أسنانكِ وتصففي شعركِ، وتنظفي وجهكِ بمطهِّر، توقظين الأولاد... ويوميًا لدى عودتي إلى

المنزل يجب أن يكون المنزل مرتبًا إلى أقصى درجة... تغسلين وجهكِ ثلاث مرات على الأقل يوميًا... وعندما أخاطبكِ يجب أن تجيبي بالكلام وفورًا... وعند ممارسة الجنس أنتظر منكِ أن تكوني مستعدة لذلك في أي وقت، وتكوني متحمسة لذلك.[2]

أما رجلٌ آخر فبدا وكأنه مصمِّم على العثور على السيدة الأكثر يأسًا، حتى عندما تصل إلى الولايات المتحدة تكون في قمة الرضا لطموحاته الجنسية. وكتب في رسالةٍ وجَّهها إلى سيدة مهتمة بأمره ما يلي: "لقد راسلتني شابتان... ذكرتا أنهما مستعدتان لفعل أي شيء أطلبه منهما... ويتمنيان أن أعطيهما الفرصة لتكون إحداهما شريكتي الدائمة، وبالطبع هذا بالإضافة إلى فرصة المجيء إلى الولايات المتحدة بصحبتي. أخبريني يا «فيلما» ما رأيك بهذا؟... هل ستقومين بأي شيء أطلبه منك؟" ثم يذكر لها نشاطًا جنسيًا معيَّنًا، ويكمل الكتابة: "أنا أفضِّل شريكة مستعدة، وقادرة، وماهرة بما يكفي للقيام بهذا النشاط لأجلي في أي وقت كان."

هذا التوجُّه مُشين جدًا لروح المسيحية وللزواج المسيحي، ولا يعدو أكثر من مجرد دعارة مقننة لمدى الحياة. وبما أن الرجل يملك المال، فهو يريد شراء خدمات المرأة– مدى الحياة، عوضًا عن ليلة واحدة، لكنه يقوم بشرائها على أية حال. ويكون الجنس، في هذه الحالة، شيئًا يتوق الرجل للحصول عليه، وليس شيئًا يخطِّط لإعطائه. وقد لا نستغرب أن زوجة شابة تزوجت عبر شركة «تشيري بلوسُمز» اشتكت ليلة زفافها قائلةً: "لقد شعرتُ وكأنه كان يتم اغتصابي."

يكون الجنس، في هذه الحالة، شيئًا يتوق الرجل للحصول عليه، وليس شيئًا يخطِّط لإعطائه.

> لقد تحدّتني الكلية بطرق متعددة، حتى في الطريقة التي كنت أعامل بها زوجتي.

في الوقت الذي قادتنا فيه بعض الحركات النسائية إلى مواقف أخلاقية شنيعة -كالإجهاض المشرَّع وغير المنظَّم على الإطلاق مثلاً، أو الاستخفاف الرهيب بالأدوار المختلفة للجنسين كمثال آخر؛ التحدي بأنه لا يجب أن يعامل الأزواج زوجاتهم على أنهن خادمات -هل أجرؤ على قول ذلك؟- كان صوتًا نبويًا. للأسف، بدلاً من سماع كل الرجال والسيدات للدعوة إلى خدمة بعضهم بعضًا، غالبًا ما تسمع السيدات الدعوة لتصبحن خادمات لأنفسهن ويتمحورن حول أنفسهن مثل الرجال تمامًا.

يتحدى كلٌ من «جاري» و«بيتسي ريكوتشي» هذا الفكر بقولهما:

> على خلاف الرأي الشائع، لم تُخلَق المرأة لتحقق ذاتها. (وهذا ينطبق على الرجال أيضًا!) لقد خُلِقت لتكون مصدر عون ورعاية، وهذا ليس بمهمة يسهل القبول بها. نحن نميل إلى أن نغضب ونفكِّر: "لابد أن هناك دورًا أكثر أهمية من هذا!" إن السؤال الذي لا تطرحه مدبِّرة المنزل على نفسها بعد أن تقوم بغسل الثياب المتسخة للمرة الخمسين في الأسبوع الواحد، أو عندما تقف على حوض آخر مليء بالصحون المتسخة: "هل من معنى لما أقوم به هنا؟" مع ذلك، في عيني الله ما من أمر يضاهي الخدمة في الأهمية. فالسبيل إلى العظمة الحقيقية يكمن في حياة الخدمة.
>
> إن السعي نحو السلطة أو التقدير أمرٌ طبيعي، بينما الخدمة أمر يفوق الطبيعة. يفوت العديد من النساء في يومنا هذا ما هو فوق الطبيعة؛ لأنهن عالقات في دوامة

"البحث عن التقدير". والمضحك أنه كلما بحثن عن التقدير، شعرن بقدر أقل من الرضا. لماذا؟ لأن التقدير يأتي عندما تَهَب حياتك، وليس عندما تحاول بأنانية أن تجد سعادتك الشخصية.(3)

حب الرجل: التضحية وراء الخدمة

مع أن الكثيرين يتكلمون عن عقم كُليات ومعاهد اللاهوت الحديثة، غير أنني اختبرتُ أمرًا مختلفًا تمامًا في «كلية ريجنت» (في مدينة فانكوفر، في مقاطعة كولومبيا البريطانية في كندا). لقد تحدَّتني الكلية بطرق متعددة، حتى في الطريقة التي كنت أعامل بها زوجتي.

أتذكَّر الفصل الدراسي الذي عملت فيه كمساعد للدكتور «جوردون في». وكان هو وزوجته يقومان بدعوة بعض التلاميذ وزوجاتهم لتناول بعض الحلويات في منزلهما. وكانت «ليزا» آنذاك حبلى في طفلنا الأول- وكان حملها واضحًا. وبعد استماعي إلى محاضرات «د. في» تعلَّمتُ الكثير فيما يتعلق بتقديم عظات مؤثِّرة، ومن خلال كتاباته اكتشفتُ أبعادًا جديدة لرسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس. غير أنني في تلك الزيارة كان عليَّ أن أتعلَّم درسًا كزوج.

بمجرد أن دَخَلت «ليزا» عبر الباب حتى نهض أستاذي على الفور من كرسيه قائلاً: "تفضلي، أنتِ بحاجةٍ شديدة إلى كرسي مريح."

امتلأت كلماته بصدق وباهتمامٍ حقيقيين. فوجئت زوجتي بهذا الاهتمام، غير أنها ذهبت إلى الكرسي وجلست، وأنا جلستُ بقربها. ويالحرجي عندما لاحظتُ أن دكتور «في» كان لا يزال واقفًا.

ثم سألها: "والآن، أتريدين أن أجلب لك وسادةً لظهرك؟"

أجابته ليزا: "شكرًا، أنا مستريحة."

وأضاف قائلاً: "إذًا ما رأيك في كوب من الماء؟ هل يمكن أن أقدِّم لك مشروبًا؟"

ردَّت زوجتي: "أكون شاكرة لذلك."

دخل دكتور «في» إلى المطبخ، ورجع بكوبٍ من الماء، وسألها: "هل حرارة الغرفة جيدة؟ تشعرين بالبرد أم بالحر؟ هل تريدين رفع ساقيك؟"

عندئذٍ احمرَّ وجه «ليزا» خجلاً، وتأثَّرتُ أنا كثيرًا. فلم يسبق لي أن خدمتُ زوجتي بالطريقة التي خدمها بها أستاذي في الكلية. إن مشاهدتي لتعاطفه هذا، وتفانيه لتأمين راحة شخص آخر، ووضع نفسه بالكامل في خدمة زوجتي فتح عينيَّ بشكل أكيد. رأيت فيه قلب الخادم، وأدركتُ أن أمامي دربًا طويلاً لأنضج كزوج.

لكني ازددتُ غمًا عندما وجدتُ أن نضوج لاعب كرة قدم محترف فاق نضوجي كزوج.

إنه لأمر أن يَظهر أستاذي في الكلية أفضل مني، لكني ازددتُ غمًا عندما وجدتُ أن نضوج لاعب كرة قدم محترف فاق نضوجي كزوج.

إن «كريس سبيلمان» اللاعب في بطولة كرة القدم الأمريكية، والذي تم اختياره أربع مرات كأفضل لاعب في مركز الظهير، وقد مارس لعبة كرة القدم الأمريكية لمدة ستة وعشرين عامًا من الثلاثة والثلاثين عامًا التي عاشها. وهو من النوع الذي يتلذَّذ بالمباراة التي يلعبها، وقد يقوم بأمور غريبة ليُعد نفسه لمباراة ما. فمثلاً، لقد نام مرةً عريانًا تحت برودة جهاز التكييف حتى يكون مستعدًا تمامًا لبرد الشتاء القارس الذي يهيمن على ملعب «بفالو ريتش».

في عام ١٩٨٣ تعرَّف على زوجته، وكان ابن السبعة عشر ربيعًا.. وبعد مرور ست سنوات، في عام ١٩٨٩، تزوجا. «ستيفاني» زوجة جميلة، وكانت تعمل كعارضة أزياء قبل أن تتفرغ للعمل كأم، وكلاهما بدءا مشروع زواج ثري. لعب «سبيلمان» لسنوات عدة مع فريق «ديترويت ليونز»، ثم وقع عقدة مع فريق «بفالو بيلز» في عام ١٩٩٦.

وجاء عام ١٩٩٧ حاملاً في جعبته الكثير من التجارب.. مباشرة قبل أن يبدأ المعسكر التدريبي الذي يسبق موسم كرة القدم أسمعهما الطبيب أكثر الكلمات التي يخشى المتزوجون سماعها: سرطان الثدي. اختارت «ستيفاني»، العارضة الجميلة، أن تخضع لجراحة استئصال الثدي، وأعقب ذلك ستة أسابيع من العلاج الكيميائي، وفي هذه الفترة سقط شعرها كله.

كان لأسرة «سبيلمان» طفلان صغيران (كان كلاهما تحت سن الخامسة آنذاك)، وعلِم «كريس» أن العلاج الكيميائي سيستنزف طاقة زوجته؛ فكان عليه أن يتخذ قرارًا. وقد صرَّح «كريس» لمجلة «الناس» (People) قائلاً: "هذا هو الامتحان الذي كان يجب أن أخضع له.. كانت هذه لحظتي الحاسمة."[4]

وحلق «كريس» شعر رأسه تمامًا كعلامة على تضامنه مع زوجته. لكن الأكثر أهمية من ذلك أنه اعتزل كرة القدم.. ليس دائمًا بل لسنة واحدة فقط- إلى أن استعادت «ستيفاني» قواها.

ويوضح «كريس» أنه "لطالما ساندتني «ستيفاني» بكل ما لديها، وكان عليَّ أن أرد لها الجميل."

لم تُرِد «ستيفاني» أن يقوم «كريس» بتقديم تضحية مماثلة، وأقرَّت قائلةً: "لم أبكِ أبدًا من وجع السرطان ومن ألمه، لكنني بكيتُ لما كان يسببه من تأثير على «كريس»."

وبدلاً من أن يشاهد «كريس» مباراة مسجلة، أو يجتمع بالمدربين، كان يستيقظ مبكرًا ليطعم الأولاد (وتعلَّم أن ابنته الكبيرة تكره أن يلامس أي نوع من الطعام نوعًا آخر في طبقها). ثم بعد مرور ساعة تقريبًا، وبعد إعداد الفطور لـ «ستيفاني»، كان يوقظها من نومها، وبعد ذلك يقوم بغسل الثياب، ويصطحب الأولاد إلى تدريب الجمباز، ويحرص على إعطاء «ستيفاني» دواءها.

لا أعلم ما إذا كان «كريس» مسيحيًا أم لا، لكن من الواضح أنه قد تعلَّم معنى العطاء والتضحية تجاه زوجته. بطريقةٍ ما تعلَّم أن يعيش ما كان الرسول بولس يحث الرجال على أن يسعوا وراءه في رسالته إلى أهل أفسس.. إذ يقول للرجال إنه عليهم أن يحبوا زوجاتهم كما أحب المسيح كنيسته، ويشرح لنا بوضوح بالغ كيف أحب المسيح الكنيسة.. فهو أسلم نفسه لأجلها (انظر أف ٥: ٢٥).

أخبر «كريس» مجلة «چي كيو»: "لعشر سنوات تمحورت حياتنا بأكملها حولي أنا. كان عملي في المرتبة الأولى دائمًا، وكانت «ستيفاني» تقدِّم كل تضحية ممكنة لتقف بجانبي بدون شروط... أي نوع من الأزواج أكون لو لم أترك كل شيء من أجل «ستيفاني» عندما كانت مريضة؟ هل أريد أن تُمسِك أختها بيدها عندما تتألم لأنني غير موجود؟ هل أريد أن تكون والدتها إلى جانبها في المستشفى عندما كانوا يحقنونها بالإبر، ويملأون جسدها بالمواد الكيمائية الفظيعة، أم يجب أن أكون هناك معها شخصيًا؟... هذه عائلتي، وهذه مسؤوليتي، وهذا بيتي، وهذا واجبي."[(5)]

يدعو «سي. چيه. ماهاني» الرجال في سلسلة أشرطته السمعية التي تحمل عنوان «بحسب الخطة» (According To Plan) لاستعادة معنى التضحية بهذه الصورة. ويشير إلى أن التضحية لا تُعتبر تضحية إلا إذا كلفتنا ثمنًا ما، ثم يطرح على السامعين سؤالاً، دون أن يقترح إجابة

محددة: "أيها السادة، ما الفعل الذي نقدِّمه يوميًا لزوجاتنا ويتضمن تضحيةً ما؟ ما الذي تفعله يوميًا لزوجتك ويكلفك ثمنًا ما؟"[6]

وكما اعتاد «ماهاني» بأسلوبه الفريد، فهو يقوم بإرساء قواعد القناعة النابعة عن النعمة. ويطرح السؤال التالي: "هل أستغل تقوى زوجتي؟ أم أنني أسعى لأتمثل بذاك الذي أسلم نفسه لأجلي؟"

وكي يُصبح هذا التعليم عمليًا يشرح «سي. جيه.» أن التضحية بالنسبة إليه هي أن "يتطرَّق إلى التفاصيل" في الحديث مع زوجته في المساء.. "عندما ينقضي النهار لا أرغب في استعادة أحداثه، وهذه هي وجهة نظري الأنانية... غير أن [صمتي هذا] لا يلبي احتياجات زوجتي، ولا يخلق علاقة حميمة بيننا."

يحب صديقي «د. كيفن ليمان» أن يشير إلى أنه لم يلتقِ بعد رجلاً بعد يوم شاق في العمل يفكر قائلاً: "ما أحتاجه الآن فعلاً هو قضاء خمسٌ وأربعين دقيقة أتحدَّث فيها مع زوجتي." لكن هذا هو بالتحديد السبب الذي يجعل استعداد الرجل للاشتراك في محادثة مثل هذه يعود عليه بالمنفعة روحيًا؛ فهو يدفع ثمنًا.. إنه يتعلم كيف يضحي.

في سنة ١٩٩٨ طُلِب مني أن ألقي كلمة كرازية في إحدى الجامعات تحت عنوان "يسوع: محرِّر للمرأة أم متحيِّز ضدها؟" إن أكثر أمر كارثي في رأي أحد الطلاب كان عندما تكلمتُ عن "الخضوع المتبادَل". وكان بعض الطلاب مهتمين بشكل خاص بالمبادئ القائلة: "اعتنِ بنفسك، تصرَّف بطبيعتك، اسعَ إلى أن تكون في المرتبة الأولى"؛ لدرجة أن فكرة الخضوع لشخصٍ آخر بدت متطرِّفة أكثر من أي شيء آخر سمعوا به. ببساطة في رأيهم كلمتا "تضحية" و"علاقة" لا يمكن أن تنتميا لنفس الجملة تُعتبر كلمات الرسول بولس متطرفة في نظر عالم اليوم.

لكن الزواج يتيح وضعًا تتحوَّل فيه رغبتنا بأن نُخدم ونُدلَّل إلى رغبة أكثر نبلاً، وهي خدمة الآخر.. حتى التضحية من أجله. وهذه دعوة لكل من الأزواج والزوجات. ويكمن جمال الزواج بأنه يواجه أنانيتنا، ويتطلب خدمتنا على مدار الساعة. وعندما نبلغ ذروة التعب، والإرهاق، والشعور بالأسف تجاه أنفسنا على نحوٍ لم نختبره سابقًا، تسنح أمامنا فرصة لنواجه مشاعر رثاء الذات بأن ننهض ونخدم شريك حياتنا.

الزواج يتيح وضعًا تتحوّل فيه رغبتنا بأن نُخدم ونُدلَّل إلى رغبة أكثر نبلاً.. وهي خدمة الآخر.

سمة الزواج المسيحي

إن مفهوم التضحية والخدمة هذا هو بالتحديد الذي سيساعدنا لاكتساب الروحانية كمتزوجين. كتب «ديتريش بونهوفر» يقول: "يتميز الزواج المسيحي بضبط النفس وإنكار الذات... بالتالي فإن المسيحية لا تقلل من قيمة الزواج بل تقدسه."[7]

من هذه الزاوية، أظهرت الروحانية المسيحية التقليدية ضعفًا. فعل مدار قرون، كانت الروحانية المسيحية مرادفة تقريبًا "لروحانية حياة البتولية"، وهو أمر تشير إليه «ماري آن مكفرسون أوليفر» على أنه أمر منتقص، وفي بعض الأحيان قد يُعتبر أمرًا مدمرًا خاصة للمتزوجين."[8]

عندما يقرِّر شخص ما أن يسلِّم نفسه للرب من دون تحفظات تُعتبر هذه الخطوة جديرة بالثناء.. لكن هل يحظى المرء بثناء أقل لو قرر، بالإضافة إلى تسليم نفسه إلى الله، أن يسلِّم نفسه أيضًا لشخص آخر كشريك في الخدمة لمدى الحياة، ويتفق مع هذا الشخص على تربية الأولاد

وخدمتهم كي يكبروا بدورهم ويحبوا الرب ويخدموه ويحبوا الآخرين ويخدموهم أيضًا؟

والسبب أن هذه الفكرة لم تبدُ بديهية للكثيرين لوقتٍ طويل هو أن غالبية الأشخاص لا يدخلون الزواج بفكرة أن يصبحوا خُدَّامًا. يُنظَر دائمًا إلى الزواج على أنه خطوة أنانية؛ لأن دوافعنا للزواج غالبًا ما تكون أنانية. لكنني أريد إقرار فكرة الزواج كإحدى الحالات القصوى لعدم الأنانية التي يمكن للمؤمن أن يدخلها.

ولكي تتقدس العلاقة الزوجية بالكامل، يجب علينا أن نعيشها معًا كما عاش يسوع حياته.. أي نعيش فضيلة التضحية والخدمة كممارسة يومية.

إن غالبية الأشخاص لا يدخلون الزواج بفكرة أن يصبحوا خُدَّامًا.

علينا أن نضحي بطاقتنا، وأجسادنا، وحياتنا لأجل الآخرين؛ مثلما بذل يسوع جسده من أجلنا.

يقدم «كاثلين» و«توماس هارت» فكرة "لغز الفصح" في الزواج.. أي عملية الموت والقيامة كنمط حياة للمتزوجين. علينا أن نموت كل يوم عن رغباتنا، ونقوم كخُدَّام. ونحن مدعوون كل يوم للتشبه بآلام المسيح على الصليب، ثم نستمد القوة التي نحتاجها من المسيح المقام.. نموت عن توقعاتنا، ومتطلباتنا، ومخاوفنا؛ ونقوم لنتنازل، ولنخدم، ولنسلك بشجاعة.

بهذا المعنى، فإن طلب الزواج المسيحي الحقيقي يمثل عرضًا وليس طلبًا. وعندما نعرض على شخص الزواج، فعوضًا عن القول: "هل تقوم بهذا من أجلي؟" يجب أن يكون السؤال الفعلي: "هل تقبل ما أريد أن أقدِّمه لك؟"

إذا نظرنا إلى الزواج يوميًا من هذا المنظور، فلن يكون لخيبة الأمل

مكان عند كلا الطرفين؛ إذ أن كليهما سيكونان منهمكين في أداء متقن لمهمتهما التي تقتضي خدمة أحدهما الآخر.

«المستحق»

إن الأمر الأهم الذي يجب أن نتذكَّره هو أن الخدمة هي تدريب روحي ندين به لله، ولا يمكننا أن نعيشه إلا عندما نطبِّقه مع الآخرين. تعلَّمت منذ زمن طويل أن الله دعاني كي أخدمه من خلال الأشخاص، بغض النظر عما إذا كانوا يستحقون الخدمة أم لا. وعملتُ لسنوات في خدمةٍ تمد يد العون للنساء اللواتي يحملن حملاً غير مرغوب فيه. وأحد التحديات -على الأقل في عقول بعض الأشخاص- هو التفكير أنه ما دامت هؤلاء النساء بكل بساطة يحصدن ما زرعن، فلماذا نمد لهن يد العون؟

من المؤكد أن العديد من الأشخاص يجدون أنفسهم في أوضاع صعبة ويائسة بسبب خياراتهم أو أفعالهم الخاطئة، غير أن يوحنا ينظر للأمر من زاوية أخرى: «وأما مَنْ كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجًا، وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه؟» (١يو ٣: ١٧). لا يشير يوحنا إلى أخٍ أو أختٍ بلا خطية في احتياج. إن تعليمه واضح إلى أقصى حد؛ يحدد احتياجهم واجبنا تجاههم. إنها مسألة متعلِّقة بمحبة الله، وليس بتقييم بشري أو حكم إنسان.

أنا أمد يد العون للناس لأن الله أحبني وطلب مني أن أحب في المقابل، وليس لأن الأشخاص الذين أقدِّم لهم محبتي "يستحقون" هذا الحب، أو لأنهم سيُعرِبون عن امتنانهم لي في النهاية. وليس من شأني أن أصدر أحكامًا عن مدى "استحقاقهم"؛ ففي كل الأحوال أنا لا أعلم كيف يمكن

أن أعرف مدى استحقاقهم. كل ما عليَّ فعله هو أن أحب الله من خلال محبتي للآخرين.

يستحق الله دائمًا أن نطيعه ونخدمه، فعندما أسلك في طاعة له فليس على الشخص الذي يستفيد من خدمتي أن يكون مستحقًا لها؛ بل الآخر يستفيد مما أدين به أنا لله. نعم، يصعب تطبيق هذه الحقيقة في الزواج حيث تكثر المطالب والتوقعات، غير أنني أحاول أن أذكِّر نفسي بهذه الحقيقة: يستحق الله دائمًا أن نطيعه، وهو يدعوني إلى خدمة شريك حياتي.. بغض النظر عن الطريقة التي يعاملني بها في أوقات معينة، أنا مدعو للتجاوب معه/ معها بروح الخادم.

يستحق الله دائمًا أن نطيعه، وهو يدعوني إلى خدمة شريك حياتي.

إن قدوة يسوع تضع أمامي تحديًا كبيرًا في هذا الصدد.. فما من تلميذٍ من تلاميذ يسوع استحق أن تُغسَل رجليه في العشاء الأخير؛ فجميعهم كانوا سيتخلون عنه بعد بضع ساعات، ومع ذلك قام بغسل أرجلهم (راجع يو ١٣: ١- ١٧). في الواقع، قام يسوع بغسل رجلي يهوذا الذي كان سيسلمه بعد ساعات.

لا يطالبنا الله أن نحب من يستحق المحبة، أو أن نخدم الذين سيخدموننا في المقابل. إذا كنت زوجًا/ زوجة تشعر أنك تعطي بلا انقطاع ولا تأخذ شيئًا في المقابل، فأنا متعاطف معك. يمكنك أن ترى الموقف بشكل مختلف إذا حولت تركيزك إلى الله.. ذكِّر نفسك أنك في وضع يمكنك أن تنمو فيه روحيًا بسرعة فائقة. إذا كانت الخدمة

لكننا بحاجة لأكثر من مجرد قبول على مضض لحقيقة صعبة؛ لأن القيام بالخدمة بروح طيبة يمثل جزءًا من الخدمة حسب المفهوم المسيحي.

تُعتبر جوهر المسيحية، فكل موقف يشكِّل روح الخادم الذي في داخلك يُعد أمرًا يستحق جهدك، حتى وإن كان زواجًا غير متوازن. لكننا بحاجة لأكثر من مجرد قبول على مضض لحقيقة صعبة؛ لأن القيام بالخدمة بروح طيبة يمثل جزءًا من الخدمة حسب المفهوم المسيحي.

روح الخدمة

إن أحد تحديات الفضيلة المسيحية هو العيش وفقًا لتعاليم الكتاب المقدس التي تشدد على دوافعنا الداخلية وراء سلوكياتنا الخارجية. قال يسوع إننا قد نقوم بالأمر الصحيح (على سبيل المثال العطاء) ولكن لأهداف خاطئة (للتباهي)، وفي هذا الوضع نخسر أجرنا (راجع مت ٦: ١ - ٤). مما لا شك فيه أن خدمتنا قد تكون معرَّضة للدوافع الخاطئة.

من الممكن بالطبع أن يقوم شريك الحياة بتقديم معروف كمحاولة لإظهار تفوقه وأفضليته: "إن أصحاب الشخصيات القوية يميلون لتحمُّل مسؤولية زواجهم بالكامل بمفردهم. وبدلاً من أن يطلب هؤلاء من شريك الحياة أن يقوم ببعض المهام، يريدون هم القيام بكل شيء بأنفسهم... وبينما يبدو هذ الحب حبًا مضحيًا، فإنه في الواقع رغبة في السيطرة على الشخص الآخر."[9]

إن خدمتنا قد تكون معرَّضة للدوافع الخاطئة.

تتضمن "الخدمة" السماح لشريك الحياة بأن يُعطي.. هذا بالطبع إذا كان يريد أن يعطي. بتعبيرٍ آخر، لا تقتصر الخدمة على غسل رجلي شخص آخر. في أحيانٍ أخرى، تعني الخدمة أن تسمح للآخر أن يغسل رجليك أنت أيضًا.

جانب آخر من الخدمة الحقيقية يتمثل في القيام بالخدمة عن طيب خاطر.. فالخدمة التي يرافقها الحسد والتذمُّر ليست خدمة مسيحية. أنا شخصيًا لديَّ عادة، ومن المؤكد أن خمسة وتسعين في المئة من الزوجات اللواتي سيقرأن ما يلي سيجدن هذه العادة محبطة جدًا.. أنا أحب مشاهدة التلفاز بالطريقة نفسها التي أقرأ بها الكتب. فعوضًا عن مشاهدة فيلم لمدة ساعتين دفعة واحدة، أقسمه على مدى ليلتين أو ثلاث. أنا أشاهد الثلاثين دقيقة الأولى من الفيلم كي أتعرف على الشخصيات، والخمس وأربعين دقيقة التالية كي أفهم أين سيكون الصراع الدرامي للقصة، والثلاثين دقيقة المتبقية تقريبًا كي أرى حل الصراع. تمنحني هذه الطريقة الوقت لأفكِّر في أحداث الفيلم، كما تجعلني أخلد إلى الفراش مبكرًا لأني أحب أن أبدأ عملي باكرًا.

في إحدى العطلات الأسبوعية استأجرتُ فيلمًا بدأت في مشاهدته بالطريقة التي ذكرتُها.. قسمٌ صغير منه يوم السبت، وقسم آخر مساء الأحد. كان الوقت قد صار متأخرًا (على الأقل بالنسبة إليَّ!) فقلت لزوجتي "أفكِّر في الذهاب إلى النوم، وقد أنتهي من مشاهدة الفيلم يوم الاثنين."

فقالت لي ليزا: "كدتُ أنتهي من طي الملابس، ابقَ وشاهد أكثر قليلاً معي."

وافقتُ وتابعت المشاهدة لمدة خمس عشرة دقيقة إضافية، وكانت ليزا لم تنتهِ بعد من مهمتها.

فقلت مجددًا: "سأخلد إلى النوم، يمكنك مواصلة المشاهدة. سأعيده إلى الوراء لاحقًا لأكمل مشاهدته. فإذا أطلتُ السهر أكثر، سأستيقظ مستاءً منكِ في الصباح."

عمليًا لو أردتُ أن "أخدم" ليزا، أعتقد أنه كان بإمكاني أن أبقى

مستيقظًا إلى أن تنتهي من مهمتها. لكنني في الوقت عينه أعرف حدودي، وإذا بدأ الاستياء يتسلل إلى خدمتي، فلا يعود لله مكان فيها. إن الخدمة المسيحية الحقيقية تُقدَّم مجانًا.

الخدمة المسيحية الحقيقية تُقدَّم مجانًا.

تعلَّمتُ أن أحترز ليس لأعمالي كخادم فحسب، بل أيضًا لروح الخادم التي في داخلي. إذا كنتُ أخدم ليزا مع بعض النوبات من السَخط، وأتمتم في كل مرة أتحرك لمساعدتها، فأنا أُظهِر كبرياءً وتضحية مزيَّفة، بدلاً من اتجاه قلب يسوع المسيح.

أعود لأتخيَّل مشهد اليوم الذي غسل فيه يسوع رجلي يهوذا.. هل تعتقدون أن يسوع تعامل بخشونة خاصة مع يهوذا وهو يغسل أصابع رجليه؟ هل تعتقدون أنه لوى كاحل يهوذا قليلاً، ربما بما يكفي ليُعرِّفه أنه يعلم بما سيحدث؟

لا أعتقد ذلك!

إن فكرة الزواج كساحة تُقدَّم فيها الخدمة مجانًا، يفسح المجال لفهم أنه سيكون لكل شريكٍ في الزواج أدوار مختلفة وطرق مختلفة في الخدمة. في خلال خمسة عشر عامًا من الزواج، اكتسبنا ليزا وأنا بعض العادات التي وجدناها متوافقة بيننا.. في كل مرة عندما نرجع من أية رحلة، تتحقق ليزا من رسائل الهاتف الصوتية، بينما أُفرغ أنا ما في السيارة من أغراض.

هل تعتقدون أنه لوى كاحل يهوذا قليلاً، ربما يكفي ليُعرِّفه أنه يعلم بما سيحدث؟

كذلك، تكره ليزا أن تزود السيارة بالوقود؛ لذا قبل أن أقوم بأية رحلة بالسيارة أتأكد من تعبئة خزَّان الوقود. إذا علمت ليزا أنني عائد إلى

المنزل فهي تستخدم ما في السيارة من وقود بحرص حتى إذا بقي فيها مجرد قطرات من الوقود.

أنا لا أتضايق من هذا الأمر، وبدورها ليزا لا تتضايق من حقيقة أنها عادةً تقوم بطي الثياب فيما تشاهد فيلمًا بينما أكون جالسًا لا أفعل شيئًا سوى الاستلقاء على الأريكة للمشاهدة.

نحن لا نسعى فحسب إلى أن نقتدي بسلوك المسيح في بيوتنا، بل نريد أيضًا أن نُجسِّد روح المسيح واتجاه قلبه. هناك أوقات يجب أن نخدم فيها، وأوقات أخرى يجب أن نتلقى فيها الخدمة.

يكمن جمال هذا الالتزام بأنه يجعل منا ليزا وأنا شخصين متَّكلين على الله وليس على أحدنا الآخر. إذا كانت ليزا تخدمني بأمانة حين أكون في حالة مزاجية سيئة، وحين لا أحرص على إبداء تقديري لها، فإنها ستظل رغم ذلك تشعر بطمأنينة داخلية وبالشبع من الله؛ فلديها فرح الشهادة الداخلية التي تقول لها إن خالقها راضٍ عنها.

أن تصبح خادمًا يعني أن تصبح قويًا جدًا من الناحية الروحية. هذا يعني أن تتحرر من المطالب الضيقة الأفق، والشكاوى التي تدمِّر حياة العديد من الأشخاص وتحوِّلها إلى وعاء يغلي بداخله خيبة الأمل، والانحصار في الذات، والشعور بالشفقة.

هناك فرح حقيقي عندما تُقدَّم خدمة حقيقية من قلبٍ صادق بحق.

المال، المال، المال

تستلزم الخدمة أحيانًا أكثر من المساعدة في غسل الأطباق أو منح شريك الحياة فرصة لأن يستريح لليلة واحدة من رعاية الأولاد. إن روح

الخدمة ستضيف فعليًا نكهة لكل نواحي الحياة الزوجية، بما في ذلك كيفية إنفاق أموالنا وقضاء أوقاتنا. يتعرض «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان» لهذا الموضوع بشكل رائع، لدرجة أنني أريد أن أقتبس حرفيًا ما قالاه في هذا الصدد:

يُعتبر المال أداة السُّلطة، وفي أغلب الأحيان لا يتعلق الأمر بالمال بل بالسُّلطة. ولا ترتكز المعركة حول مَنْ هو الأجدر بالثقة بين الشريكين، أو أي منهما يرغب أكثر في التضحية في سبيل الآخر، بل ترتكز المعركة حول مَنْ يملك إمكانيات أكثر لتحديد جدول أعمال العائلة.

كذلك، يُصبح الوقت موضوعًا للخلاف. هل على الزوجة أن تعمل، ويصير بالتالي الزوج مُلزَمًا بالاعتناء بالأولاد بعد عوته من عمله؟ هل يصرف الزوج الكثير من الوقت مع زملائه في العمل ويُهمِل زوجته؟

هذه الخلافات حول الوقت والمال كثيرًا ما تخفي القضية الحقيقية: هل نحن مستعدون للتضحية من أجل صالح الآخر وسعادته؟ إن الشجار حول المال والوقت يعكس عادةً رغبتنا في "تملُّك" حياتنا عوضًا عن خدمة الآخر من خلال وجودنا وثروتنا. والمشاجرة النموذجية عن مَنْ سيأخذ الأولاد من المدرسة هي في الحقيقة مشاجرة حول مَنْ هو صاحب الوقت الأثمن، ومَنْ الذي يعمل بجهدٍ أكثر، ومَنْ الذي ينال تقديرًا أقل. ما من خطأ في تبادل المهام الروتينية، أو في توزيع المسؤوليات، غير أن ردود الفعل الجارحة غالبًا ما تعكس الاستعداد للصراع حول مسائل تافهة.[10]

عندما تتشاجر في المرة المقبلة مع شريك حياتك بسبب الوقت أو المال، توقَّف للحظات، وذكِّر نفسك أن صلواتك من أجل أن تنمو على شبه المسيح تُمتَحَن. كُنْ مستعدًا لتطرح على نفسك بصراحة السؤال التالي: هل أنا ألعب لعبة السُلطة التافهة، أم أنني أسمح للمواقف الحياتية المزعجة المؤقتة أن تشكِّل طبيعتي العنيدة لتصبح كطبيعة الخادم؟

كيف يستخدم كل من الزوج أو الزوجة المال والوقت للخدمة بدلاً من استخدامهما للتسلُّط على الآخر أو التلاعب به؟ هذا ممكن من خلال تقدير شريك الحياة، والسعي بالدرجة الأولى لفهمه، وعدم التمركز حول الذات؛ وعدم الافتراض فورًا أن مهمَّتك، ووقتك، واحتياجاتك الملموسة هي الأهم.

لقد شاهد العالم صورةً مثيرةً عن بشاعة الطمع عندما شاهد «الرابطة الوطنية لكرة السلة الأميركية» (National Basketball Association) تنفرط في عَداء مرير بين عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩ بسبب كيفية تقسيم ملياري دولار من العائدات. ربما تعتقد أن تقسيم ملياري دولار قد يكون أمرًا ممتعًا نوعًا ما، وأن هذا المبلغ الذي يُذهل العقل (مع عدد محدود نسبيًا من الأشخاص المتضمنين) قد يميل إلى خلق مشاعر جميلة كالامتنان والرغبة في عمل الخير والسخاء، غير أن الوضع كان غير ذلك. بدا الوضع بأكمله مشحونًا بالضغينة، والإدانة، والاتهامات المريرة، والهجوم على الأشخاص.

> كيف يستخدم كل من الزوج أو الزوجة المال والوقت للخدمة بدلاً من استخدامهما للتسلُّط على الآخر أو التلاعب به؟

وقد شاهدتُ ذات الضغينة والحقد عندما يتقاسم الأزواج والزوجات ٣٥,٠٠٠ دولار، أو ٥٠,٠٠٠ دولار، أو ١٠٠,٠٠٠ دولار. إن قيمة المبلغ

غير مهمة بقدر أهمية التوجه وراء كيفية استخدام المال. في حقيقة الأمر، إن عملية إنفاقنا للمال تثير لدينا دوافع، وأولويات، وتوقعات أساسية.

كيف يمكنني إنفاق أموالي بروحٍ من الخدمة؟ يمكنني ذلك عندما أتذكر أنني كمؤمن سأكون أكثر اكتفاءً عندما أستخدم كل ما عندي –بما في ذلك مالي ووقتي– كوسيلة لخدمة الآخرين، واضعًا شريك الحياة في قمة أولوياتي (بعد الله). مثل هذا الالتزام يضع حدًا لألاعيب السلطة التافهة! إذا كنت أقلِّل من شأن زوجتي من خلال الإشارة إلى مدى أهمية دوري في رفاهية العائلة من الناحية المادية، وإذا كانت تشير إلى ضعفي الكبير في القيام بالمهمام المنزلية؛ فنحن ببساطة لا نقلِّل من قدر أحدنا الآخر فحسب، بل أيضًا نقلِّل من قدر أنفسنا. نحن ندمِّر فكرة الشَراكة المسيحية بأكملها من خلال إنكارنا أن لكل عضو مكانه في جسد المسيح (١كو ١٢: ١٤– ٣١).

يمثل فراش الزوجية جانبًا آخر حيث تخضع مهاراتنا في خدمة بعضنا البعض للامتحان.

ليس بالضرورة أن يرد لنا شريك حياتنا مقابل أفعال التضحية الصغيرة، وربما لا يلاحظها أيضًا.. هذا ما يجعل تضحياتنا أصعب مع مرور الوقت. لكن إذا حفظنا قلبنا من تسرب المرارة والضغينة إليه، سنحصل على قبول ممَن يقدِّرنا ويهتم بنا أكثر من أي شخص آخر.. أبينا السماوي.

إن روح الخدمة تؤثر على الطريقة التي نتواصل بها جنسيًا مع شريك حياتنا، تمامًا كما تؤثر على الطريقة التي ننفق بها مالنا ووقتنا. ويمثل فراش الزوجية جانبًا آخر حيث تخضع مهاراتنا في خدمة بعضنا البعض للامتحان.

هل السلطة المطلقة تُفسِد أم تخدم؟

ذات مرة سأل صحفي «جاري بلاير» أسطورة الجولف ماذا سيفعل لو اضطر أن يختار بين زوجته «فيفيان»، وهما متزوجان منذ اثنين وأربعين عامًا، ونادي الجولف المفضَّل لديه. بدون أي دون تردُّد، أجاب «بلاير» "سأفتقدها حتمًا." وعندما عاد «بلاير» إلى الفندق وجد مضربه المفضَّل على السرير ملفوفًا بثوبٍ مثير.

من طبيعة الرغبة الجنسية أنها تمنح سلطة هائلة في العلاقة. والحياة الجنسية الوحيدة التي يمكن لشريك الحياة المسيحي أن يتمتع بها بشكل شرعي هي الحياة الرومانسية التي يختار الشريك الآخر أن يمنحه إياها. وهذا ما يجعل من الاستغلال والرفض مشاهدين دائمي الحضور في فراش الزوجية. وكل ما يُرفض جسديًا يصبح رفضًا مطلقًا، لأنه ما من وسيلة شرعية أخرى. (من جهة أخرى، إن إثقال كاهل شريك الحياة بأعباء جنسية لا تُحتَمل في محاولةٍ لتلبية احتياجات غير مسدَّدة يُعتبر سوء استخدام للسلطة يشوبه الاستغلال.)

إن القول المأثور "السلطة تُفسِد، والسلطة المطلقة تؤدي إلى فساد مطلق" صحيح تمامًا، وينطبق بشكل دقيق جدًا على الزواج. هناك القليل من الأشياء في الخبرة البشرية تماثل السلطة المطلقة التي تتمتَّع بها الرغبة الجنسية في الزواج. فإذا كنتُ في حالة مزاجية سيئة، فمجرد معرفتي أن زوجتي "متلهِّفة" إليَّ يغريني لأصبح بكل خبث غير مبالٍ بها. هذا إظهار مخزٍ واستبدادي للسلطة- "لديَّ ما ترغبين به، لكنك لن تحصلي عليه، للأسف!" هذا نوع من السلوك الاستبدادي داخل العلاقة.. استخدام السلطة للتدمير، والإدانة، والبغضة.

فإذا كنتُ في حالة مزاجية سيئة، فمجرد معرفتي أن زوجتي "متلهِّفة" إليَّ يغريني لأصبح بكل خبث غير مبالٍ بها.

من ناحية أخرى نرى بكل وضوح مثالاً مغايرًا يُجسِّد الاستخدام الملائم للسلطة في آخر ليلة قضاها الرب يسوع على الأرض. يُخبرنا يوحنا في الآية الثالثة من الأصحاح ١٣ من إنجيله أن «يسوع وهو عالمٌ أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه، وأنه مِنْ عند الله خرج، وإلى الله يمضي»، بدلاً من التصرف كمُستبد حقود، ترك العشاء وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه، وبدلاً من استخدام سلطته لكي يتجهَّم، ويعاقب، ويشمت بالآخرين استخدمها لكي يخدم.

يظهر الجمال الروحي للعلاقة الجنسية من خلال الخدمة، ومن خلال تلبية رغبات شريك الحياة واحتياجاته الجسدية بمحبة.. إذ يكمن المعنى الروحي للحياة الجنسية المسيحية في العطاء. إذا كنا نملك سلطة على الآخر، واستخدمناها بمسؤولية، وعلى نحوٍ ملائم ونافع، سننمو في المسيح، ونصير متشبهين أكثر بالله، ونعكس حقيقة أننا خُلِقنا لنحب الله من خلال خدمتنا للآخر.

لا نبالغ إذا قلنا أن حقيقة طباعنا الروحية تظهر وتتجسد في سياق العلاقة الجنسية.

بالإضافة إلى ذلك، بإمكان الجنس أن يكون تتويجًا لروح الخدمة أو نقطة خلاف.. وهذا يعتمد على نحوٍ كبير على عدم أنانية أحد الشريكين أو كليهما. وهكذا توفر العلاقة الجنسية فرصة ممتازة للزوجين المؤمنين ليختبرا امتحانًا لاستقامتهما بطريقة واقعية وعملية جدًا. لا نبالغ إذا قلنا أن حقيقة طباعنا الروحية تظهر وتتجسد في سياق العلاقة الجنسية.

تُصبح العلاقة الجنسية غير مشبعة روحيًا عندما تخلو من المشاركة. إن أحد المشاكل التي تبرز من خلال التوعية الجنسية بين المراهقين –وأيضًا التعلق بالميديا الإباحية وما شابه– هي أن هذه التوعية منفصلة عادةً عن مبدأ العطاء. سرعان ما يتمحور الأمر كله حول التجربة،

الاستقبال، ومحاولة فهم الغموض المحيط بالجنس.. في كلمة واحدة يتركز الأمر حول الأخذ.

من السهل جدًا، ولكن من المميت روحيًا، أن نأخذ طريقًا مختصرًا هنا. يزودنا الجنس بالقدرة على العطاء لشخص آخر بطريقة مدهشة وفريدة وذات طابع إنساني. وعلى الرغم من ذلك غالبًا ما يُستخدم الجنس للأخذ، والمطالبة، والإكراه، والإهانة، والإيذاء.

بكل صراحة اطرح على نفسك الأسئلة التالية: هل يمثل الجنس شيئًا أقدمه لشريك حياتي أم أمنعه عنه؟ هل أطلب الجنس أم أقدِّمه؟ هل أستخدم الجنس كأداة للتلاعب بالآخر، أو كتعبير عن الحب الباذل؟ لو لم ينظر الله سوى إلى حياتي الجنسية، هل سيراني كمؤمن أم كوثني تقريبًا؟

هناك العديد من الكتب التي تركز على إتقان فن الجنس، ولهذه الكتب قيمتها. لكن التحدي الحقيقي للجنس يكمن في الإتقان الروحي.

> لو لم ينظر الله سوى إلى حياتي الجنسية، هل سيراني كمؤمن أم كوثني تقريبًا؟

إن الحفاظ على حياة جنسية نامية، وسَوية، ومِعطاءة، وغير أنانية ليست بالأمر السهل، ومع ذلك فهي توفر إطارًا لنمو روحي هائل.

وبدون التركيز على روح الخدمة، يبدو الجنس وكأنه نقيض لحياة تتسم بالتقشُّف، والعفة، وضبط النفس. أما إذا نظرنا للجنس داخل سياق الخدمة، فإنه سيقودنا إلى ذروة النضوج الروحي.. أي سنصبح قادرين على اختبار أمر قوي جدًا كاللذة الإنسانية، ومع ذلك نستخدمها لنخدم الآخر بدلاً من الإلحاح عليه أو استغلاله أو إيذائه. يشير الفيلسوف الكاثوليكي «ديك وستلي» إلى "الحقيقة هي أنه عندما يكون النشاط

الجنسي ممارسة حقيقية للحب وعمل الروح، يصير مناقضًا للانغماس في الملذات، ويصبح قمة الزهد."[11]

أليس مدهشًا أن الله قادرٌ على استخدام أمر دنيوي وأرضي كالتوتر الجنسي والإحباطات المادية لكي ننضج روحيًا؟ أن نتعلَّم العطاء في الجنس بدلاً من الأخذ، كذلك أن نتعلَّم أن نقلِّل من مطالبنا ونصبح أكثر مراعاة لمطالب شريك الحياة.. هذه الخطوات البسيطة ستعود ببركات عظيمة على حياتك الروحية؛ لأنها ستعلِّمك كيف تنمو في إنكار الذات. أنت تتمثل بيسوع المسيح بينما تلبس روح الخادم، وهذه هي دعوتك كمسيحي مؤمن.

من الرائع أن يستمتع الزوج والزوجة بحياة جنسية غنية، ومرضية، ومثيرة أيضًا. وليس هناك خطأ إذا جعلت من هذا الأمر أحد أهدافك، لكن إلى جانب هذا الهدف، أو فوق هذا الهدف، يجب أن تأتي الرغبة في أن تصبح مؤمنًا أفضل. استخدم فراش الزوجية لتتعلَّم كيف تخدم الآخر، وكيف تنكر ذاتك؛ وستجد أن المكاسب الروحية ستكون كثيرة.

هذا الحافز بعينه قد يلقي بظلاله على جميع جوانب حياتك الزوجية.. كالأعمال المنزلية الروتينية، والحوارات، والوقت، والمال.. اُدخُل إلى مَواطن الاحتياج هذه في زواجك برغبة في النمو في نعمة العطاء. صلِّ كي يستخدمها الله ليقتلع جذور الأنانية، وليعلِّمك أن تصبح رقيقًا، وغفورًا، ورحومًا، ولطيفًا.

إن جوهر المسيحية هو أن نتشبه أكثر بالمسيح، ولا يمكن لأحد منا أن يقول، ولا بأي درجة من الصدق، أنه بلغ ذروة الخدمة. تقدِّم لنا زيجاتنا الفرص كل يوم لنخطو أكثر في هذا الاتجاه.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) متى كانت آخر مرة عبَّرت فيها عن محبتك لشريك حياتك بطريقةٍ كلَّفتك ثمنًا ما؟ ما الذي يمكنك فعله لشريك حياتك في الأيام المقبلة كي تحقق هذا المستوى من الحب؟

(٢) هل توافق «ديتريش بونهوفر» قوله بأن "الزواج المسيحي يتميز بضبط النفس وإنكار الذات"؟ كيف يمكنك مقارنة هذا الفكر مع وجهة نظرك التي كانت لديك قبل الزواج؟

(٣) يتحدث كل من «كاثلين» و«توماس هارت» عن "لغز الفصح" في الزواج.. أي عملية الموت والقيامة كنمط حياة للمتزوجين. ما هي الأمور التي يدعوك الزواج لأن تموت عنها؟ وما هي الأمور التي قد يدعوك لاختبار القيامة فيها؟

(٤) إذا رجعت بالذاكرة إلى السبب الذي من أجله قررت أن تتزوج، هل كانت دوافعك تميل إلى الأنانية؟ كيف؟ وكيف تغيَّرت هذه الدوافع (أو هل تحتاج أن تتغيَّر دوافعك)؟

(٥) هل تجد أحيانًا صعوبة في خدمة شريك الحياة من خلال السماح له بخدمتك أنت؟ ماذا يمكنك أن تفعل لتنمو في هذا المجال؟

(٦) ما هي بعض الرسائل التي يبعث بها العالم إلى الرجال ليمتنعوا عن خدمة زوجاتهم؟ ما هي بعض الرسائل التي يبعث بها العالم إلى السيدات ليمتنعن عن خدمة أزواجهن؟ كيف يمكننا إبطال مفعول هذه الرسائل في زيجاتنا؟

(٧) عندما تفكِّر في زواجك.. هل توافق على أن "الشجار حول المال والوقت يعكس عادةً رغبتنا في 'تملُّك' حياتنا عوضًا عن خدمة الآخر من خلال وجودنا وثروتنا"؟ كيف يمكنك استخدام المال والوقت لخدمة شريك الحياة على نحوٍ أفضل؟

(٨) هل يتسم موقفك تجاه العلاقة الجنسية بالخدمة، أم بالرغبة في السيطرة؟ ما الذي يمكنك فعله للنمو في هذه الناحية؟

(٩) في اعتقادك ما هو المكسب الأعظم لزواجك لو أصبحت أنت وشريك حياتك خدامًا أفضل لأحدكما الآخر؟

الفصل الحادي عشر

قدّيسون يمارسون الجنس

الجنس داخل الزواج يمكن أن يكون مصدرًا لبصيرة روحية وبناء الشخصية

على غرار كل الأمور العجيبة بحق، فإن الحب راسخ بعمق وبحق في هذا العالم وفي هذا الجسد.

– «كاثرين آن بورتر»

أجسادنا عطية من الخالق المُحِب، وليست عائقًا للنعمة. إذا تمكنا حقًا من قبول هذه الحقيقة، سيمكننا عندئذٍ أن نختبر الله حتى في المتعة المحيرة لحياتنا الجنسية.

– «إيڤلين» و«چيمس وايتهيد»

نحن نجد الله في تلامس أجسادنا، وليس فقط في أشواق نفوسنا.

– «إيڤلين» و«چيمس وايتهيد»

ذات يوم بينما كنتُ في المدرسة الثانوية، توجَّهت نحو مجموعة من الأصدقاء، وما أن رآني صديقي الحميم حتى ترك المجموعة ومنعني من الانضمام إليهم.

قال لي: "توقف، لا يجدر بك سماع ما نتكلم عنه."

فسألته: "ما الموضوع الذي تتكلمون عنه؟" وأنا أشعر بالضيق لأن هذا الصديق، من بين الجميع، دفعني بعيدًا.

فأجابني: "هذا الحديث لا يناسبك."

عَلِمت لاحقًا أن صديقي كان يحاول منعي من رؤية كتاب يتناقله التلاميذ في المدرسة، وكان يتعلَّق بالجنس -ومليئًا بالصور، وتشهد حوافه المطوية أنه كان يُخبأ بسرعة في الأدراج وتحت الفراش في العديد من منازل المراهقين.

يتعرَّف معظمنا على الجنس بطرقٍ مخزية. إن الاطلاع على كتب «غير نظيفة»، أو اختبار نوع من الإيذاء الجنسي على يد شخص بالغ يقودنا في وقتٍ مبكر إلى عالم المعرفة الجنسية. وتكون النتيجة أنه يتحتم على معظمنا التغلُّب على قلق مزمن متعلِّق بالجنس. إن مؤمنين كثيرين لا يرون الجنس على أنه هبة يجب أن يكونوا شاكرين من أجلها، بل ينظرون إليه على أنه عبء مليء بالذنب يجب حمله. من الطبيعي أنه يَصعُب النظر إلى أي أمر مرتبط على نحوٍ أساسي بالذنب على أنه سُلَّم يوصل إلى حياة القداسة.

يتعرَّف معظمنا على الجنس بطرقٍ مخزية.

بعض هذا الإحساس بالذنب، والذي يصفه عالم النفس «ويلارد جايلن» بأنه "الحارس الساهر على صلاحنا"[1] يكون مبررًا. فعندما ننحرف عن إرادة الله الكاملة، علينا أن نشعر بالذنب. لكن الشعور بالذنب قابل للخطأ، ولا ينطفئ من تلقاء ذاته عندما لا يعود فاعلاً.

بالرغم من الشعور بعدم الراحة الذي يصيبنا عندما نتحدث عن الجنس، يعلم مُعظم الأزواج المؤمنين أن الحميمية الجنسية تولِّد لحظات

من السمو المُطلَق.. لمحات عن الأبدية، قصيرة مثل غروب الشمس. في الجهة الأخرى لهذه النشوة نلمح طيف حقيقة روحية عميقة.

وبالتالي، نجد أنفسنا واقعين في حالة من الارتباك؛ لأن الجنس يمثِّل اللحظات الأفضل والأسوأ في حياتنا. وعلى الرغم من أن الجنس قد يولِّد أحيانًا لحظات تتسم بإحساسنا العميق بالخزي، إلا أنه يمكنه أيضًا أن يجعلنا مفعمين بالحياة أكثر من أي وقتٍ مضى.

أرغب من خلال هذا الفصل أن أتجاوز الأذى والشعور بالخزي الذي يسببه الجنس عندما يُمارَس خارج الجدران الحامية للفضيلة، واستكشاف كيف يمكن لهذه الخبرة الجسدية تمامًا أن تصقل حساسيتنا الروحية. إن كان الجنس سيقودنا نحو الله ونحو بعضنا البعض، فمن المهم جدًا أن نفحصه في ضوء المفهوم المسيحي. إن الروحانية المسيحية تخدمنا في هذه الجزئية من خلال ثلاث طرقٍ على الأقل: أولاً، تعلِّمنا أن الجنس شيء صالح، فيما تذكِّرنا أن ثمة أمور تفوق الجنس في أهميتها. ثانيًا، تتيح لنا فرصة اختبار المتعة دون أن تجعل من المتعة إلهًا في حياتنا. وأخيرًا، تعلِّمنا أنه يمكن أن يضيف الجنس مذاقًا على حياتنا، لكن في الوقت نفسه تذكِّرنا أنه لن يكون بمقدور الجنس أبدًا أن يشبع نفوسنا إلى التمام.

> إن كان الجنس سيقودنا نحو الله ونحو بعضنا البعض، فمن المهم جدًا أن نفحصه في ضوء المفهوم المسيحي.

ولكي نبدأ في النظر إلى الجنس بهذا المعنى الإيجابي، كمرآة لرغبتنا في التقرُّب من الله ولشغفنا نحوه، يجب أن تصبح منظومة الزواج غاية في الأهمية. إذا كنا نفكِّر في الجنس داخل حدود الزواج فحسب، وبالتالي نكون قد قدَّسناه حسب مشيئة الله، فالمعاني المتضمنة في الجنس التي

ستقودنا نحو الله، قد لا تبدو بعيدة المنال. من المؤكَّد أن الجنس داخل الزواج يتم أيضًا استغلاله؛ لذا دعونا نأخذ خطوة للأمام. أضف إلى هذه الفكرة، ما سبق وناقشناه، أنه يجب استخدام الجنس لخدمة شريك الحياة، وكذلك التشبيه أن رغبتنا المُلحة تجاه العلاقة الجنسية تعكس صورة لرغبتنا المُلحة تجاه الله، وتصبح قدرتنا على استخدام حياتنا الجنسية كوسيلة روحية أكثر منطقية.

لذا، بهدف الاستفادة من الأفكار الواردة في هذا الفصل، حاوِل أن تتجاوز مشاعر الألم، والخزي، والذنب، والفزع التي تربطها بالجنس بسبب الخبرات التي ربما تعرَضت لها، أو ما تكلمتَ عنه، أو ما شاهدته مُصورًا خارج نطاق العلاقة الزوجية. إن المثلية الجنسية، أو الجنس قبل الزواج، أو الاستمناء (العادة السرية) لمصاحبة الخيالات الجنسية، أو المشاهد الجنسية الفاضحة.. هذه الأمور جميعها لا تشكِّل "الجنس" كما نعرِّفه في هذا الفصل. لنعِد تعريف الجنس كما كان في جنة عدن، كما كان عندما "عرف" آدم حواء وبدءا معًا في تعمير الأرض. فكِّر في الجنس فقط في إطار هذه المعطيات، وبعدئذ فكِّر كيف يمكن أن يكشف الله عن ذاته لك في زواجك من خلال هبة المتعة الجنسية.

> فكِّر في الجنس فقط في إطار هذه المعطيات، وبعدئذ فكِّر كيف يمكن أن يكشف الله عن ذاته لك في زواجك من خلال هبة المتعة الجنسية.

قد يبدو ما سأشاركه الآن صادمًا، غير أنه صحيح: إن الله لا يحيد بنظره عن الزوجين عندما يذهبان معًا إلى الفراش. ويشكِّل هذا الأمر سببًا وجيهًا لنا كي لا نحيد بنظرنا عن الله عندما نتشارك لحظات حميمة مع شريك حياتنا.

الأسلاف ووجهات نظر متناقضة

على مدى قرون، نظر الكُتَّاب المسيحيون الروحيون إلى موضوع الجنس، على أحسن تقدير، على أنه معضلة. وتحاشت الكنيسة المسيحية التطرُّق لجوهر الجنس، محاولةً أن تكبح سلطته من خلال تنظيم أوانه- وأحيانًا بطريقة فكاهية تقريبًا:

في القرن الثاني، سمح إكليمندس السكندري بممارسة الجنس بدون التلذذ به، وبهدف الإنجاب فحسب خلال اثنتي عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة (أثناء الليل). لكن في العصور الوسطى، بشكل مناف للعقل كما يبدو الآن؛ منعت الكنيسة الجنس لمدة أربعين يومًا قبل الاحتفال الهام لعيد الميلاد أو الكريسماس، وكذلك أربعين يومًا قبل وثماني أيام بعد الاحتفال الأهم لعيد الفصح (القيامة)، وثمانية أيام بعد عيد العنصرة (عيد حلول الروح القدس يوم الخمسين)، والليالي السابقة للأعياد، والآحاد تكريمًا لذكرى القيامة، وأيام الأربعاء للتذكير ببدء الصوم الكبير، وأيام الجمعة تكريمًا لذكرى الصلب، وأثناء الحمل، وثلاثين يومًا بعد الولادة، (أربعين يومًا إذا كان المولود أنثى)، وأثناء الحيض (الدورة الشهرية)، وخمسة أيام قبل تناول عشاء الرب!

مجموع هذه الأيام التي يجب فيها الامتناع عن الجنس يبلغ ٢٥٢ يومًا، وذلك دون أن نضيف إليها أيام الأعياد. وإذا كان مجموع أيام الأعياد يصل إلى الثلاثين (وهذا تخمين قد يكون في الواقع على أقل تقدير)، يبقى أمام الزوجين ثلاثة وثمانون يومًا في السنة (وهذا بالطبع إذا

أخذنا بالاعتبار أن الزوجة ليست في أيام الحيض، أو ليست حبلى، أو ليست في مرحلة ما بعد الولادة، وبشرط أن يكون الزوجان يريدان الإنجاب)، يمكن فيها للزوجين إقامة العلاقة الجنسية (دون التمتُّع بها) وذلك بعد أخذ موافقة الكنيسة![2]

كل هذا يذكِّرني بالوقت الذي قضيناه أولادي وأنا على شاطئ البحر. كانت أمواج المد تتقدَّم نحونا –وكان الأولاد قد شيَّدوا قصرًا من الرمال، فناضلنا من دون جدوى لمدة خمس وأربعين دقيقة لإنقاذ القصر الرملي من ماء البحر. شيَّدنا حصونًا عالية حول القصر، كذلك حملنا ألواحًا خشبية لاستخدمها كحواجز، لكن في النهاية، بالطبع ربح البحر وتهدَّم القصر الرملي.

إن محاولة فرض قيودٍ وأعباء عديدة (حتى داخل الزواج) على قوةٍ جبارةٍ كالتعبير الجنسي لن يُجدي نفعًا في النهاية.. هذا الأمر أشبه بمحاولة ردعنا للبحر. إن الرغبة في تنظيم الجنس ضمن الزواج تكون إلى حد ما بسبب خوفنا منه. والمنطق السليم يقول إن الجنس مهم لاستمرار الذُرية البشرية.. إن وصية الله لآدم «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تك ١ : ٢٨) وصية واضحة تقتضي الدخول في علاقات جنسية، غير أن تشددنا الديني دفع بنا إلى الاعتقاد أن "الأكثر قداسة" فينا سيتجنب اللذة المصاحبة لهذه العلاقات. وهذا للأسف يعني أن أولئك الأقل قداسة فقط هم الذين يربّون الأطفال– مما لا يبشر بالخير بالنسبة إلى إيمان الأجيال القادمة.

هذا الخوف من الجنس بدأ في وقتٍ سابق، خاصة مع التفسير الخاص لسفر نشيد الأنشاد المثير للغرائز. والنتيجة الواضحة لما فعله

«أوريجانوس» (حوالى ١٨٥- ٢٥٤م) أنه لا مكان للمتعة الجسدية والنشوة في هذا العالم، وإنما "الملذات الروحية" فقط هي التي لها قيمة. يشير «دان آلندر» و«ترمبر لونجمان» إلى ما يلي: "لقد فسر أوريجانوس سفر نشيد الأنشاد بما فيه من تعبيرات مثيرة واضحة بطريقة مجازية وروحية، مُعامِلاً هذا الكتاب كما عامل جسده حين تناول سكِّينًا وأخصى نفسه".[3]

إن الرغبة في تنظيم الجنس ضمن الزواج تكون إلى حد ما بسبب خوفنا منه.

بعد مرور قرن من الزمان، في مجمع نيقية الشهير (٣٢٥م)، بدأ بعض المتشددين في اقتراح أنه على الأساقفة أن يكونوا من غير المتزوجين. فعارض «بافنوتيوس»، أحد الأساقفة النُسَّاك أصحاب المكانة الرفيعة، هذا الاقتراح بشدة؛ وأحسن القول بأن "العفة" بالنسبة إلى الرجل تتمثل في "تعايشه" مع زوجته.[4] كان من المثير جدًا أن أسقفًا متنسكًا قد تعهد بالعفة كان لديه الحكمة ليدافع عن هذا الموقف، فلم يكن لديه بكل وضوح أدنى مصلحة في الأمر. لكن «بافنوتيوس» كان بالتأكيد استثناءً، وسرعان ما دُفِن رأيه بسبب ثقل مقام أحد آباء الكنيسة المشهورين.. أوغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م).

علَّم أوغسطينوس -وهو أحد القلائل الذين أثَّروا في الفكر المسيحي- أن العلاقة الجنسية تنقل الخطية الأصلية، وبذلك (ربما عن غير قصد، ولكن للأسف بالطبع) ربط الخطية بالجنس لقرون عدة من بعده. وكنتيجة لذلك، واجهت الكنيسة صعوبة في التوفيق بين العفة والحياة الجنسية الناشطة. وتشير «ماري آن ماكفرسون أوليفر» إلى أن القليل من القديسين المعترف بقداستهم من قبل الكنيسة كانوا متزوجين، "ولم يتم تطويب أي من هؤلاء الأقلية كنموذج للفضيلة الزوجية."[5]

في القرن الرابع، وصف «أمبروسيوس» الزواج بالشيء المكرَّم، غير أنه قلل من شأن مديحه هذا عندما وصف العفة على أنها مكرَّمة أكثر. من ناحية المؤسسة الكنسية، لا يزال هناك شعور بأن العلاقة الجنسية "مبرَّرة" بشرط أن تتم من قِبَل الطرفين بهدف التناسل. أما بالنسبة إلى العلاقات الجنسية الأخرى داخل الزواج فهي تمثل خطايا "من الصغائر" التي لا تؤدي إلى الموت (تُغتفر، ومع ذلك تُعتبر علامة سوداء).

علَّم أوغسطينوس، وهو أحد القلائل الذين أثَّروا في الفكر المسيحي، أن العلاقة الجنسية تنقل الخطية الأصلية.

لكن تلك العصور لم تخلُ من لحظاتٍ تنويرية.. فهناك دلائل على أن الكهنة في العصور الوسطى كانوا يباركون العروسين حديثي الزواج في فراشهما الزوجي. ومن المثير جدًا للاهتمام أن البيوريتانيين (المتشددين) كانوا على خلاف العادة مرتاحين لفكرة قبول اللذة الجنسية. كتب «ريتشارد باكستر» أنه على الزوج والزوجة أن "يتلذذا" بحب بعضهما البعض، وعشرتهما معًا، وبتبادل الأحاديث فيما بينهما. وكتب أيضًا موصيًا الزوجين: "حافظا على استمرارية شعلة حبكما الزوجي وتوهجه"، وأضاف أنه ليس على الزوجين أن يسمحا لحبهما أن "يفتر".[6]

لكن معظم المكاسب كانت قصيرة الأجل بشكل عام. احتوى كتاب قديم للطقوس والشعائر (Sarum) (الذي على أساسه وُضع «كتاب الصلاة الأنجليكاني» في عام ١٥٤٩) على مجموعة من طقوس الزفاف ترجع إلى عام ١١٢٥م، وتضمَّنت هذه الطقوس الكلمات التالية: "بجسدي أعبدك"، وتُعتبر هذه الكلمات جريئة ومثيرة لأي حقبة من تاريخ الكنيسة، ناهيك عن العصور الوسطى. لذا قد لا يفاجئنا أن نعلم أن هذه الكلمات

شُطبت من «كتاب الصلاة الأنجليكاني» عام ١٧٨٦.

إن التوفيق بين الجنس وحياة القداسة لم يتم بالكامل حتى يومنا هذا، على الرغم من أن المجمع الفاتيكاني الثاني تخلى بعض الشيء عن فكرة أن المؤمنين المتزوجين مصنَّفون على أنهم مسيحيون من الدرجة الثانية. وفي وثيقة تحت عنوان «دعوة إلى الكنيسة بأكملها إلى القداسة»، الكنيسة الكاثوليكية الرومانية "تؤكد على أن شعب الرب بأكمله مدعو إلى ملء حياة القداسة المسيحية، وأن حياة القداسة متاحة للجميع في ومن خلال أشغالهم المختلفة."[7]

ومع هذا، إن المجموعة الصغيرة من القديسين (المعترف بقداستهم من قبل الكنيسة) المتزوجين في القرن العشرين، بحسب ما أشارت إليه «ماري آن ماكفرسون أوليفر»، كانوا عادة شهداء أو أفرادًا يحملون علامات للآلام من أجل المسيح، وأرامل أو مؤسِّسات لخدمات دينية، وأزواجًا تركوا زوجاتهم وأولادهم ليصبحوا مرسَلين أو يعيشوا حياة الوحدة والنُسك. لقد نال هؤلاء الأفراد المديح بالرغم من كونهم متزوجين، وليس لأنهم أظهروا التزامًا متميزًا بحياة القداسة داخل زواجهم.

قد نترفَّق إلى حد ما مع عدم ارتياح الأقدمين (نحن أيضًا) تجاه الجنس؛ لأن قلة منا يمكنهم أن ينكروا حقيقة أن "الجنس (إلى حد ما) يمثل حِملاً ثقيلاً ألقى به الله على كاهل البشرية."[8] وعلى الرغم من أنه ما من شك أن الكتاب المقدس تبنى نظرة مشجِّعة وإيجابية عن الجنس (راجع سفر نشيد الأنشاد على سبيل المثال)؛ غير أن كُتَّاب أسفار الكتاب المقدس كانوا يدركون بقوة فخ الخطية الجنسية، ونزعتنا إلى إفساد الهبة الصالحة التي أعطانا إياها الله.

إن الميل الإنساني هو بالتحديد السبب وراء أهمية مؤسسة الزواج بينما نسعى إلى الإبحار في بحر اللذة الجنسية.. الزواج هو السياق

الوحيد الذي يمكن أن تصبح الحياة الجنسية في كنفه ذات معنى ونافعة لحياتنا الروحية.

وضع الأساس لحياة جنسية ذات معنى روحي

وجهة النظر الكتابية للجنس

كما في سائر الأمور، فإن العقيدة السليمة حتى بين المسيحيين "العلمانيين" تمثل عاملاً جوهريًا إذا كنا نريد أن نتبنى نظرة كتابية كاملة عن الجنس تسمح لنا بدمج خبرة الحميمية الجسدية مع رؤية ذات مغزى روحي عن الإيمان. يمكننا نحن المسيحيين أن نتعلَّم بعض الأشياء من الأسس اليهودية الخاصة بإيماننا.

هناك أسباب لاهوتية تفسر مواجهة الكنيسة المسيحية لصعوبات في التعامل مع موضوع الجنس أكثر بكثير من أسلافنا اليهود.. فبالنسبة إلى اليهود ما من شيء كان يفوق في أهميته المحافظة على "سلسال" العائلة وعلى نقاوته. وبما أن بني إسرائيل كانوا "الشعب المختار"، فقد اعتبروا الطلاق في حالة العقم أمرًا مقبولاً تمامًا. وعمليًا كان أسوأ ما يمكنك اقترافه بحق شريك حياتك هو أن تحرمه أو تحرمها من إنجاب الأطفال؛ لأن الذرية كانت الوسيلة التي بها يستمر شعب الله المختار في نقائه العرقي.

> بالنسبة إلى اليهود ما من شيء كان يفوق في أهميته المحافظة على نسب العائلة وعلى نقاوته.

لقد تخطت نظرة اليهود للجنس مسألة التناسل والإنجاب.. فقد مُنحت النساء اليهوديات القديمات ثلاثة "حقوق أساسية" ألا وهي: الطعام،

واللباس، وما يُسمى «أونا» (Onah).. أي العلاقة الجنسية بعيدًا عن واجب الإنجاب. إن ديانة قائمة على سلسلة الأنساب من الصعب أن تقلل من شأن نشاط الإنجاب.

النص اليهودي القديم، الذي يحمل عنوان «الرسالة المقدسة» (كتبه «نهمانيدز» في القرن الثالث عشر)، ينظر إلى الجنس على أنه خبرة صوفية للقاء مع الله: "من خلال الاتصال الجسدي يصبح الأزواج شركاء مع الله في عملية الخلق. هذا هو اللغز الذي تكلم عنه الحكماء: 'عندما يتحد رجل مع زوجته في قداسة، تكون «الشاكينة» «Shekinah» (حضور الله) بينهما، في الغموض الذي يلف الرجل والمرأة'."[9] يصبح عمق هذا الكلام عجيبًا عندما تفكِّر بأن مجد الشاكينة هذا هو ذاته حضور الله الذي اختبره موسى عندما التقى به الله وجهًا لوجه (راجع خر ٢٤: ١٥- ١٨).

لقد خلق الله الجسد، وعندما خلق الله الجسد خلق به أحاسيس قوية رائعة.

وفي مقابل النواهي المسيحية في القرون الوسطى، يوصي «نهمانيدز» أن يمارس المتزوجون الاتصال الجنسي بانتظام في السبت كاحتفالٍ بإيمانهم. والسبب الذي يجعله يدافع عن رأيه هذا هو إيمانه الراسخ أن كل ما صنعه الله -ومن ضمنها الأعضاء التناسلية، وبالتالي الإحساس باللذة الجنسية- هو حسنٌ؛ لأن هذا هو ما أعلنه الله بنفسه (تك ١: ٣١).

ومع ذلك، بالنسبة إلى المسيحيين، لا يعتمد الخلاص على انتساب العائلة، بل على الإيمان الروحي. لم يَعُد التناسل الهدف الأسمى، بل الإيمان. وبالتالي، إذا تجنب شخصٌ ما الاتحاد الجنسي لتعزيز إيمان أعمق، غالبًا ما يُعتبر أنه اختار السبيل "الأسمى". ولكن لأن الجنس (في المنظور المسيحي) لم يعد يخدم الخلاص وانتشار ملكوت الله على

الأرض، فهذا لا يعني أن الجنس ليس لديه ما يعلِّمنا إياه في مسيرة التقديس (أو في النمو في القداسة). يمكننا الاستمرار في الاعتقاد أنه من أجل الخلاص يأخذ الإيمان حق الأسبقية على الإنجاب، بينما يستمر تقديرنا للنظرة اليهودية في السعي إلى اختبار مجد حضور الله (الشاكينة) في الفراش الزوجي.

لابد أن نتأسس في فكرنا اللاهوتي جيدًا حتى أننا ندمج في أسلوب تفكيرنا النظرة اليهودية للجنس، عندئذٍ سنتمكَّن من استخدام حياتنا الجنسية كتدريب روحي -لدمج الإيمان بالجسد، إن جاز التعبير. لقد خلق الله الجسد، وعندما خلق الله الجسد خلق به أحاسيس قوية رائعة. وبينما للعضو الذكري الجنسي وظائف متعددة، فإن البظر لدى المرأة له وظيفة واحدة.. ألا وهي اللذة الجنسية. لقد خلق الله متعمدًا عضوًا جسديًا لا وظيفة له إلا توفير النشوة الجنسية للمرأة. وهذه لم تكن فكرة الشيطان، وإنما فكرة الله. ورأى الله أن كل جزء صغير من خليقته «حسنٌ جدًا» (تك ١: ٣١).

تتناول «بيتسي ريكوتشي» هذه القضية من وجهة نظر نسائية: "في سياق عهد المحبة والخدمة المتبادلة، لا تُعتبر أي كمية من الشغف كمية زائدة. يُخبرنا الكتاب المقدس أنه ينبغي أن يكون التقارب الجنسي مبهجًا بشكل يؤدي إلى النشوة (أم ٥: ١٩)... صدِّق أو لا تصدِّق، نحن نمجِّد الله من خلال تنمية رغبة جنسية تجاه أزواجنا، ومن خلال الترحيب برغبتهم الجنسية تجاهنا."(10)

إذا كان الذنب لا الامتنان هو الذي يُلقي بظلاله على تعاملك مع الجنس، ابدأ أن تشكر الله على ما يتضمنه الجنس. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تصلي المرأة بكل انفتاح -لكن بكل قداسة: "أشكرك يا رب لأني أشعر بالإثارة عندما يداعب زوجي جسدي." ويمكن أن يصلي الزوجان معًا

شاكرين الله من أجل المتعة واللذة المصاحبة للقاء الجنسي. إن خطوة الشكر البسيطة هذه تقدِّس أمرًا يقوم العديد من المسيحيين بإبعاده عن حياتهم الروحية مع الله. والسبب أن الجنس يولِّد فينا شعورًا جميلاً هو أن الله صمَّمه لهذا الهدف.

بمجرد أن نقيِّم الأسس اللاهوتية التي نبني عليها نظرتنا للجنس داخل إطار الزواج، فإننا نحتاج أيضًا أن نراجع توجهاتنا العاطفية. في هذه الحالة، لابد لمشاعر الامتنان أن تحل مكان الشعور بالذنب.

لابد لمشاعر الامتنان أن تحل مكان الشعور الذنب

يحكي «هارولد بست» في كتابه «الموسيقى من خلال عيون الإيمان» (Music Through the Eyes of Faith) قصة حقيقية عن شاب تورَّط بشدة مع جماعة تمارس عبادة الشيطان. ويكتب «بست» أن "هذه لم تكن عبادة ارتجالية، بل عبادة لها أهداف عميقة وخطيرة". طوَّرت هذه الجماعة طقسًا دينيًا متقنًا ومعقدًا يدور حول المؤلفات الموسيقية للموسيقار «يوهان سيباستيان باخ».

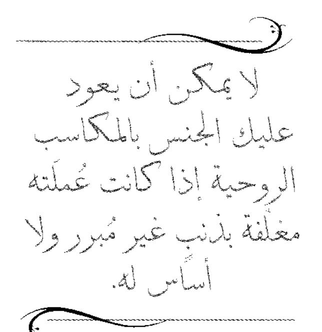
لاحقًا أصبح هذا الشاب مسيحيًا مؤمنًا، وبدأ يواظب على اجتماعات العبادة في كنيسة قريبة منه. وسارت كل الأمور على أحسن ما يرام إلى أن قام عازف الأورغن بالكنيسة بعزف مقطوعة للموسيقار «باخ». فإذا بالشاب يسيطر عليه شعورٌ بالخوف والفزع؛ حتى أنه فرَّ هاربًا من الكنيسة.

يكتب «بست» أن أعمال «باخ» "تمثِّل بعضًا من أرقى المقطوعات الموسيقية المستخدمة في العبادة المسيحية. لكن بالنسبة إلى هذا الشاب لم تكن هذه الموسيقى راقية على الإطلاق، لا بل كانت تمثِّل بصورةٍ مصغرة كل ما هو شرير ومريع ومعادٍ للمسيحية."[11]

وهكذا هو حال الجنس بالنسبة إلى بعض المسيحيين؛ فقد خلقت الخبرات ومشاعر الذنب التي تكونت في الماضي عقبات روحية خطيرة. وبينما قد تقول فئة قليلة من الناس أن موسيقى «باخ» شريرة في حد ذاتها، شعر هذا الشاب أنها هكذا بسبب الطريقة التي أُسيء بها استخدام أعمال «باخ» في خبرته السابقة. وبالطريقة ذاتها، يحاول بعض المسيحيين جاهدين ألا يؤمنوا أن الجنس شرير بطبيعته، ولكن بسبب خبرات سلبية سابقة يبدو الجنس شرًا مؤكدًا بالنسبة إليهم. لكن يُمكن التخفيف من تأثير هذه العقبات من خلال مفهوم كتابي صحيح للجنس، وكذلك من خلال ممارسة التوبة والاعتراف. إذا كان ماضيك يتضمَّن الإيذاء، يجب أن تفكِّر في اللجوء إلى المشورة كوسيلة لاكتساب نظرة إيجابية جديدة للجنس.

لا يمكن أن يعود عليك الجنس بالمكاسب الروحية إذا كانت عُملَته مغلَّفة بذنبٍ غير مُبرَّر ولا أساس له. إن مشاعر الامتنان نحو الله لأجل هذا الاختبار الرائع أمرٌ ضروري؛ وإلا فإن المشاعر القوية المرتبطة بالجنس ستقودنا إلى التركيز على ذواتنا.

وما يدعو للعجب، أن عبادة الجنس وكذلك الشعور الشديد بالذنب تجاه الجنس يحققان الأمر نفسه؛ فكلاهما يجعلان بؤرة التركيز على الذات، سواء كان ذلك بسبب المتعة أو الإحباط. غير أن مشاعر الامتنان تحوِّل قلوبنا إلى الله.



تَطلَّب الأمر فترة من الزمن لأدرك كم كنت أهين الله بشكل غير مقصود من خلال تردُّدي في قبول قداسة الجنس والمتعة المصاحبة له. ليس لديَّ أية

مشكلة في تخيُّل شخص يتقرب إلى الله من خلال تحمُّل مشقة الصوم، ولكن أي إله أتخيَّله إذا كنتُ أسمح للمشقة والألم ولكن ليس المتعة أن تكشف عن وجوده في حياتي؟ بدلاً من أن أكون متشككًا تجاه اللذة والحميمية الجسدية والروحية التي تنتج عن تواجدي مع زوجتي، عليَّ أن أتبنى توجهًا قلبيًا من مشاعر الامتنان والانبهار.[12]

بمجرد أن نعيد تقييم معتقداتنا وتوجهاتنا العاطفية، علينا أيضًا أن نعيد النظر في توقعاتنا.. أي نوعية الحميمية التي نسعى إليها.

انظر إلى شريك حياتك على أنه أكثر من مجرّد حبيب

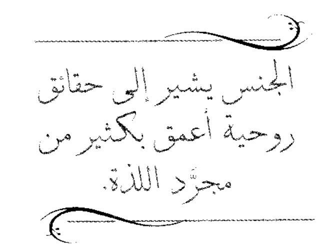
الخطوة الثالثة لتصبح مستعدًا بالكامل لاستخدام النشاط الجنسي كتدريبٍ روحي هي أن تتذكَّر أن في الزواج المسيحي الزوج والزوجة أكثر من مجرد حبيبين.. بل هما أخ وأخت في المسيح.

أثناء خطبتي مع ليزا أهديتها قصيدة بعنوان "أختي أنا، عروس المسيح"، وتكلمت فيها كيف أن الخطوة التي سنتخذها نحو الزواج هي خطوة شديدة الأهمية في هذا العالم، ولكن سبق وكان بيننا رابط أبدي أكثر أهمية سيدوم في الواقع أكثر من علاقتنا كزوج وزوجة: كوننا أخًا وأختًا في المسيح. هناك عمق لهذه العلاقة الروحية بين الأخ والأخت، وغالبًا ما يبقى هذا العمق دون أن يُكتشف.

يشرح «أوتو بايبر» الأمر بالطريقة التالية: "المؤمن الذي يعيش زواجه في الرب سيسعى ليجعل زواجه يتخطى مجرَّد النشاط الجنسي، وذلك من خلال تنمية علاقته الشخصية مع الله. بالتالي لا يعود شريك الحياة مجرد شريك في العلاقة الجنسية، بل فوق كل شيء يصبح أيضًا أخًا أو أختًا في المسيح. وبهذه الطريقة يُصبح الاشتياق الفطري الكامن في الحب حقيقيًا: فتتحوَّل حياتنا الأرضية إلى حياة مع الله."[13]

وهذا يعني أنه في حين أن المتعة الجسدية جيدة ومقبولة، لا يجب أن نختصر الجنس إلى مجرَّد خبرة جسدية؛ فالجنس يتعدى هذا الأمر- يتعداه كثيرًا. الجنس يشير إلى حقائق روحية أعمق بكثير من مجرَّد اللذة.

عندما يخبرنا الرسول بولس أن أجسادنا هي هياكل للروح القدس (١كو ٦: ١٩)، تكتسب تأملاتنا في أهمية الجنس معنى جديدًا تمامًا. ما يقدمه وما يسمح به كل من الزوج والزوجة في العلاقة الحميمة.. في الزواج المسيحي هذان جسدان مقدسان؛ أجساد يسكنها الله من خلال روحه القدوس؛ أجسادٌ تتلاقى وتحتفل، لكن في روح من المهابة والقداسة.



إذا كان بولس يقول لنا إنه لا يجدر بالرجل أن يلتصق بزانية لأن جسده هيكل مقدس.. وإذا كنا سنستخدم هذه الصورة المجازية لنتجنب الوقوع في الخطية؛ ألا يمكن للمؤمن أن يستخدم نفس هذه الصورة المجازية ليدخل في محضر الله بطريقة فريدة بينما يتحد جسده بجسد زوجته؟ ألا نجده بطريقةٍ ما يدخل هيكل الله.. أي يطرق على باب مجد «الشاكينة»، حينما يتحد برفيقٍ مؤمن؟ أليس هذا تشجيعًا ضمنيًا كي تفكِّر في الله حتى بينما يتحد جسدك بشريك حياتك؟

يحثنا «أوتو بايبر» على النظر إلى العلاقة الجنسية كصورة مادية لحقيقة روحية أعمق: "لقد اجتمعنا معًا [في الله]، فهو مَنْ دعانا، وبنينا عائلة، وخدمناه، وهو الذي يعيش في كلينا، ونحن الآن نعبِّر بطريقة جسدية عن الحقيقة الروحية التي صنعها.. فنحن لم نعد اثنين بل أصبحنا واحدًا."[14]

هذا الجانب الروحي للجنس يمثل أداة جوهرية لمساعدة الرجال على اختبار تحريرٍ كامل من جميع أشكال الإدمان الجنسي. عندما نحصر الجنس في اللذة وحدها، لا يمكن لأي زوجة أن تحقق توقعات زوجها؛ فاللذة بطبيعتها زائلة وعابرة. قرأتُ مقالاً كتبه أحد المؤمنين تغلَّب على إدمان خطير للأفلام والصور الإباحية، وأوضح أنه كان دائمًا بحاجة إلى مجلة "جديدة". ومع أنه كان يملك ما يكفي من صور لشاباتٍ عارياتٍ ليغطي جدران بيته بأكملها (أكثر مما يمكن الاطلاع عليه في يوم كامل)، غير أنه كان بحاجة إلى الإثارة التي تولدها صور "جديدة" لنساء "جديدات".

لا يمكن للزوجة أن تُعيد ابتكار نفسها يوميًا؛ لذا لا يمكن للرجل التخلُّص من إدمانه للصور الإيباحية بجعل زوجته تبدو كاللواتي تظهرن على صفحتين في منتصف المجلة. عليه أن يبحث عن شيء في فراش الزوجية مختلف تمامًا، وعليه أن يجده. يمكنه أن يسعى وراء شبع جنسي أعمق (لكن كثيرًا ما يكون أهدأ) من خلال علاقة جنسية ذات معنى روحي، باحثًا عن الله وعن الشركة المسيحية فيما وراء اللذة.. ليس الهرب من اللذة بكل تأكيد، لكن في نفس الوقت أيضًا عدم تحويل هذه الرغبة إلى إله.

لا يمكن للزوجة أن تُعيد ابتكار نفسها يوميًا؛ لذا لا يمكن للرجل التخلُّص من إدمانه للصور الإيباحية بجعل زوجته تبدو كاللواتي تظهرن على صفحتين في منتصف المجلة.

تذكَّر.. كل شهوة تغوينا في الجسد تمثل استغلالاً لاحتياج يمكن أن يسدده الله على نحوٍ أفضل؛ لذا فالسياق الوحيد للجنس بحسب مشيئة الله هو الزواج. والجنس غير المشروع هو طعام بدون قيمة غذائية روحية– حلوٌ في

البداية، لكنه في الوقت نفسه سيسمم شهيتنا الروحية حتى نشتهي ما سيقضي علينا في النهاية. إن الجنس غير المشروع لن يفيدنا بشيء، بل سيلاشي حساسيتنا للقداسة وللبر ولحضور الله في حياتنا.

إن التمتُّع العميق بالخبرة الجنسية جسديًا بدون الشعور بالذنب هو أمر ممكن، إلا أنه هناك شبع روحي أعمق عندما يشترك الرجل والمرأة في علاقة جنسية في إطار الزواج. لا تختزل الجنس إلى مجرد اختبار جسدي أو روحي؛ فهو يجمع الاثنين بشكل عميق للغاية.

والآن بعد أن راجعنا معتقداتنا اللاهوتية، وتوجهاتنا القلبية، وتوقعاتنا المتعلقة بالجنس، علينا أن نكون مطمئنين للهفة العجيبة المتكررة المتأصلة في الرغبة الجنسية.

التصالح مع قوة الجنس

الجنس ليس احتياجًا جسديًا كما هو الطعام؛ إذ يمكنك أن تعيش طوال حياتك من دون أن تختبر ولو لمرة واحد ذروة النشوة الجنسية (الشبق). غير أنه حتمًا غريزة فسيولوچية يمكن التنبؤ بها، وهي جسدية وعاطفية على حدٍّ سواء. والأهم هو أن هذه الرغبة الجسدية -التي تبدو أشبه بالاحتياج- التي يشعر بها الرجل والمرأة نحو بعضهما البعض هي من تصميم الله.. فالله هو الذي وضع هذا "الاحتياج" في داخلنا.

كيف ننظر إلى هذا النوع من الاحتياج من منظور مسيحي؟ قد يساعدنا أن نفهم إذا رأينا من بين سطور هذا التشبيه الإحساس بالاحتياج الذي يمثِّل شوقنا لله.. إذ نحن ناقصون بدونه، ونحتاج أن نتحد به مرارًا وتكرارًا. يقول «توماس هارت»: "إن افتتاننا بالجنس مرتبط على نحوٍ وثيق بافتتاننا بالله."[15]

لا يمكن للجنس أن يحل محل الله، ولن يكون الجنس كافيًا كبديل لله؛ لكن النظرة السليمة للجنس قد توفر تأملاً مثمرًا لحاجتنا لله وشوقنا إليه.. الإحساس بعدم الكمال، الذي يليه البهجة والشبع، الذي يجلب راحة لذيذة بعد أن قمنا أخيرًا بتقديم أنفسنا لشخص آخر.

إذا لم يكن الاحتياج عظيمًا، فسيكون الشبع أقل حلاوة.. عندما أكون جائعًا بحق حينئذٍ يمكنني فعلاً تقدير قيمة وجبة جيدة. قد يبدو الشغف أمرًا مخيفًا للبعض منا؛ فالإحساس بالشوق يذكِّرنا أننا لسنا كاملين في ذواتنا، لكن الحقيقة هي أن الله صنعنا غير كاملين. نحن بحاجةٍ إليه؛ ونحن بحاجة إلى الآخرين.

أتذكَّر أنني في فترة الشباب قرأت سفر نشيد الأنشاد، وأصابني شعور بعدم الراحة أثناء قراءته، وهذا في الغالب بسبب خوفي الشديد من أن أرغب في أحد الأيام في شخص ما بهذه الدرجة الشديدة، وعلى غرار هذين الحبيبين اللذين كانا يريدان بعضهما بعضًا. وعلمت وأنا في سن صغيرة أن مثل هذه الرغبة قد تؤدي إلى جُرح غائر، وخيبة أمل، وحزن عميق.

مِن المخيف أن نرغب في الله.. ماذا إذا لم يحضر؟ مِن المرعب أن نرغب في إنسانٍ آخر.. ماذا لو رفض بازدراء مبادرتنا، واستخدم رغبتنا كسلاح ضدنا؟

تكمن الصعوبة فيما يلي: ليس هناك شيء يضمن أن شريك حياتنا لن يستخدم رغبتنا ضدَّنا! لكن بينما تمثل رغبتنا نقطة منالمحتمل أن تُستخدم للتلاعب بنا، فهي أيضًا تزوِّدنا بوسيلة للنمو الروحي. يمكننا استخدام إحساسنا بهذا الاحتياج كوسيلة لننمو كخدام لبعضنا البعض. في إطار زواجٍ مسيحي سليم، يسعى فيه كل من الزوج والزوجة بمحبة

بينما تمثل رغبتنا نقطة من المحتمل أن تستخدم للتلاعب بنا، فهي أيضًا تزودنا بوسيلة للنمو الروحي.

لتلبية الرغبات الجنسية للآخر، يمكن أن يتعلَّم كلاهما أن الله سيخدمهما أيضًا. وكما يستخدم الرب يسوع مَثَل الأب الأرضي (مت ٧: ٩) الذي إذا سأله ابنه رغيفًا لا يعطيه حجرًا، ويشجِّع تلاميذه أن يثقوا بهذه الطريقة أن الله يهب عطايا صالحة؛ فبالتالي بإمكان الزوج أو الزوجة أن يفتح قلبه لله عندما يختبر كم كان شريك حياته سخيًا معه في تلبية احتياجه للتعبير الجنسي.

الحقيقة هي أنه بدون هذه الغريزة الفسيولوچية سينجرف ببطء الكثير من الأزواج بعيدًا عن بعضهم البعض. نحن بطبيعتنا مخلوقات أنانية نختبئ من بعضنا البعض، والحفاظ على سعي منتظم وتعاطف تجاه إنسانٍ آخر يتعارض مع ميولنا الشريرة والأنانية. لكن من خلال هذه الرغبة الجسدية التي خلقها الله فينا هو يدعونا لتعلُّم المشاركة مع شخص آخر، والدخول في عشرة معه، والدخول في حياته ونفسه بطريقة عميقة.

لقد قُصد من الأفكار السابقة إضفاء الصبغة الشرعية لاستخدام التعبير الجنسي كوسيلة للنمو الروحي. وقد يتطلَّب استكشاف هذا الموضوع كتابًا بأكمله، غير أننا في القسم التالي سنتناول بعض الأمثلة التوضيحية عن كيف بإمكان زوجين أن يستخدما جوانب الحميمية الجسدية بينهما للنمو في حياتهما الروحية.

النمو الروحي من خلال التعبير الجنسي

علَّم القديس «برنارد» مؤسس دير «كلارفو» (١٠٩٠- ١١٥٣) أن الحب الجسدي أو الأرضي هو في الواقع الخطوة الأولى في الخبرة البشرية التي تقودنا إلى محبة الله.. يشبه الأمر نوعًا ما روضة الأطفال، حيث نتعلَّم أن نتأقلم مع الآخرين، ونجلس خلف منضدة قبل أن تبدأ "المدرسة الحقيقية" في الصف الأول. لكنه أخذ الأمر خطوة أخرى عندما اقترح أننا كجسديين سيكون لمحبتنا لله في هذه الحياة عنصرًا جسديًا ملائمًا. حتمًا عندما تقرأ شهادات حياة الزاهدين، ستجد أن حبَّهم غير الخجول لله ينطوي على العنصر الجسدي المثير.

بدلاً من الهروب من عنصر التعبير الجنسي هذا، يمكننا توجيهه في الاتجاه الملائم. كتب سي. إس. لويس: "المُتع هي عصي المجد لأنها تضرب على حساسيتنا... لنجعل منها قنوات للعبادة."[16] في هذا القسم، نسعى للقيام بهذا الأمر: تحويل المُتَع الزوجية الدنيوية (والتحديات) إلى قنوات للعبادة المقدسة.

هناك العديد من الكتب التي تقدم نصائح عن الأوضاع الجنسية، وأساليب لإبقاء الجنس مفعمًا بالحيوية. أما هنا فأرغب في التطرُّق إلى الناحية الروحية للحياة الجنسية، والبحث في مسألة كيف يمكننا أن نتغيَّر روحيًا من خلال هذا العمل الجسدي البحت. سنحقِّق هدفنا من خلال السعي إلى تغيير مفهومنا عن الجمال، وتعلُّم كيف نعطي ما عندنا، والخروج عن ذواتنا، وتعلُّم أن نصبح متحمسين، وإتقان فن الاحتفال.

اكتساب نظرة الله لجمال الزواج

يأخذ الزواج قوة الجنس الجامحة ويربطها بالحميمية العاطفية،

والعشرة، والمسؤوليات العائلية، واستمرارية العلاقة. وبذلك يوفر الزواج إطارًا يشجِّع على النمو الروحي من خلال تشجعينا على تقدير الشخصية، والفضيلة، والتقوى بدلاً من الملامح الجسدية المثالية.

يوفر الزواج إطارًا تشجع على النمو الروحي من خلال تشجعينا على تقدير الشخصية، والفضيلة، والتقوى بدلاً من الملامح الجسدية المثالية.

قضت ممثلة عالمية شهيرة خمس ساعات يوميًا في صالة ألعاب رياضية تتمرن مع مدرِّب خاص، من أجل الاستعداد لفيلم سينمائي كبير تسود فيه مشاهد العري. وكان الهدف من هذه التمارين المكثفة إضافة تحسينات على عملية تجميل خضعت لها في وقتٍ سابق في حياتها. من خلال الوقت والمال الكافي، ومصفف شعر محترف، وفريق متخصِّص في الماكياچ يمكن لأي امرأة أن "تبدو جميلة".

لا أنكر أن أحد الأسباب التي من أجلها انجذبت لليزا هو أنني وجدتها جميلة. لكن ماذا إذا أصبحت ليزا مهووسة بجمال المنظر؟ هل يرى الله قضاء ثلاث ساعات في اليوم في صالة الألعاب الرياضية، والعمل بكل اجتهاد ضد واقع الطبيعة للحفاظ على معدة فتاة مراهقة (مع أرداف سيدة ناضجة وثديي أمٍ مُرضِعة)، استثمارًا صالحًا ومثمرًا للوقت؟

لا يتركنا بطرس تلميذ يسوع لنتكهَّن الإجابة.. فهو يقول بوضوحٍ تام أنه لا يجب على السيدات التركيز على الجمال الخارجي الذي يتطلَّب «الزينة الخارجية»، بل في المقابل أن يطمحن إلى جمال «إنسان القلب الخفي في العديمة الفساد، زينة الروح الوديع الهادئ، الذي هو قدام الله كثير الثمن.» (١بط ٣: ٣ و٤).

لاحظ أن السيدات في سعيهن إلى الجمال يتم توجيههن إلى البحث عن جمالٍ ذي قيمة أعظم في نظر الله. قد يركِّز الأزواج على الأمور الخاطئة، غير أن الرسول بطرس يحث الزوجات على توجيه أزواجهن إلى منظور الله عن الجمال. وهذا التعليم في غاية الأهمية لأسبابٍ عدة.

في كتاب «رسائل خُربر» (The Screwtape Letters) للكاتب سي. إس. لويس، ينتحب الشيطان «خُربر» لأن «عَلقَم» سمح للرجل الذي يتابعه بأن ينتصر على الإغواء الجنسي. وكانت خطوة خُربر التالية هي: "إن لم نستطع أن نستخدم رغبته الجنسية لنجعله غير عفيف، علينا أن نحاول استخدامها لحثه على زواجٍ مرغوب فيه." ضع في اعتبارك أن مصطلح "مرغوب فيه" من منظور شيطاني يعني أنه "كارثي" من منظور مسيحي. ويتابع «خُربر» حديثه مشيرًا إلى الأرواح الشيطانية:

> فمن مهام هؤلاء الأسياد العظام أن يُنشئوا في كل عصر تضليلاً عامًا في ما يمكن أن يُدعى "الذوق" الجنسي. وهم يقومون بذلك عن طريق استخدام الدائرة الصغيرة من مشاهير الفنانين، والخياطين، والممثلات، وخبراء الإعلانات الذين يحددون نموذج الأناقة. والهدف إبعاد أفراد كل جنس عن أفرادِ الجنس الآخر الذي يُرَجَّح جدًا أن يقيموا معهم زيجات نافعة روحيًا، وسعيدة، ومُثمرة ...
>
> أما بالنسبة إلى ذوق الذكور فقد وفرنا تنوعًا لا بأس به. ففي فترة زمنية معينة، وجَّهناه إلى نوع من الجمال الأرسطقراطي المفخم مازجين غرور الرجال بشهواتهم، ومشجعين على إنجاب النسل البشري بصورة رئيسية

من أكثر النساء عجرفة وإسرافًا. وفي زمانٍ آخر، اخترنا نموذجًا أنثويًا مُبالغًا، واهنًا وواهيًا وفاترًا؛ حيث تغدو الحماقة والجُبن، وكل ما يرافقهما عمومًا من زيف وقلَّة العقل، مرغوب فيها بأعلى سعر...

وليس هذا فحسب فقد عمدنا إلى زيادة كبيرة في الإباحة التي يجيزها المجتمع لإظهار العري الظاهري (لا العري الحقيقي)، وعرضه من خلال المسرح أو على الشواطئ. وذلك كله زائف بالطبع: فالأجساد التي تتعرى في الفن الشعبي مرسومة على نحوٍ مزيَّف، والنساء الحقيقيات في ملابس السباحة يتم عادة حصرهُن وضغطُهن لجعلهن يظهرن أصلب عودًا وأنحف قوامًا... أكثر مما تسمح به الطبيعة للمرأة الناضجة... ونتيجة لذلك نجتهد أكثر فأكثر في توجيه شهوات الرجال إلى شيء غير موجود.. أي جعل دور العين في النشاط الجنسي ذا أهمية متزايدة، وفي الوقت نفسه جعل مطالبها مستحيلة أكثر فأكثر. وما يتبع ذلك تستطيع أن تتكهَّن به بسهولة![17]

إن الواجب المسيحي المنوط بالرجال المتزوجين هو أن يتحركوا عكس هذه النزعة الطبيعية، ويقللوا من أهمية "دور العين في النشاط الجنسي"، فيما نتبنى الحقيقة الروحية لما يحدث. إن النظر سيكون دائمًا مهمًا بالنسبة إلى الرجل -فالله جعل ذلك جزءًا من تكويننا- غير أنه يمكننا أن ننضج في ما نتوق لرؤيته.. يمكننا خلق شهية جديدة. الثقافات المختلفة تستمتع بأنواع أطعمة مختلفة؛ لأن السكان قد تناولوا هذا النوع من الأطعمة طوال حياتهم. على سبيل المثال، سيقطِّب أولادي جبينهم لو

قدَّمت لهم زوجتي أرزًا عند على الفطور؛ وفي الصين سينزعج الأطفال لو قدَّمت لهم طبقًا من رقائق الذرة.

ويُعتبر المبدأ نفسه صحيحًا بالنسبة إلى الذوق فيما يخص الرغبة الجنسية.. فيقدِّر كل عصر أشكالاً مختلفة للنساء بسبب ما تروِّج له الموضة السائدة. بينما تميل العارضات الشهيرات اليوم إلى النحافة القصوى (مع ثديين لسيدة بالغة ومَعِدة وأرداف لفتاة مراهقة)، تصف كلمة قديمة من اللغة السنسكريتية («غاجاغاميني») جمال المرأة المثالي في الهند القديمة، وترجمتها الحرفية هي "المرأة التي لديها مَشيَة الفيل." لم يتوصَّل التاريخ إلى الجمال المطلق، ولن ينتهي أبدًا هذا الجدال. ما يتعلق به الرجال والسيدات في هوس شديد، وما يتخيَّلونه، وما يصبُّون تركيزهم عليه سيحدِّد ما يرغبون به.

إن الزواج الصالح يغيِّر منظورنا للجمال، ويجعلنا نركِّز على الصفات الداخلية. يناقش نص «الرسالة المقدسة» (The Holy letter) أنه متى قام رجل باختيار سيدة لأجل شكلها الخارجي فحسب "لا يكون اتحادهما من أجل السماء."[18] إن الجمال شيء رائع، غير أنه ليس القيمة الوحيدة أو الأهم عندما نسعى لزواجٍ مسيحي.

تواجه المرأة غير المتزوجة في الأغلب إغواءً شديدًا لتغيير شكلها إلى شكل المرأة التي يرغب الرجل في الزواج منها؛ وقد يتعارض هذا إلى حدٍ كبير مع المرأة التي تعيش حياة ملتزمة مع الله. ولكن الفتيات يعلمن أن الرجال ينجذبون إلى شكلٍ معين للجسم؛ لذا قد يَملن إلى بذل مجهودٍ أكبر ليعدلن من أجسَادهن بدلاً من التغيير الداخلي من خلال النمو في حياة التقوى. يمكن أن يحرِّر الزواج السيدات من هذا السعي

الزواج الصالح يغيِّر منظورنا للجمال، ويجعلنا نركِّز على الصفات الداخلية.

عديم الفائدة؛ وعندما يتزوَّجن يمكنهن آنذاك التركيز بشدة على جمالهن الداخلي الذي يجده الله جذابًا جدًا.

لا أقول إنه على الرجال أو النساء أن يتجنبوا الاهتمام بأجسادهم، ويصبحوا بدون لياقة بدنية. إن المحافظة على قوام مثالي هدية يمكن أن نقدِّمها لشريك الحياة. لكن كذلك نعمة القبول -خاصة من ناحية الأزواج- في إدراك أن العمر و(في حالة النساء) الإنجاب يغيِّران في النهاية شكل الجسم. يساعد الزواج على نقل الرجال من الهوس بأجساد "لا توجد في الحقيقة" إلى إعادة النظر في الأولويات والقيم.

على سبيل المثال، يدعونا الزواج إلى إعادة توجيه رغباتنا لتتركَّز على امرأة واحدة أو رجل واحد بشكل حصري وخاص بدلاً من التركيز على نظرة المجتمع للمرأة الجذابة أو الرجل الجذاب بشكل عام. نحن الرجال متزوجون بسيدات نعرف تفاصيل أجسادهن عن قرب، ومن هذه الأجساد وُلِد أبناؤنا. ويعطينا الله جسد أحدنا الآخر كعطية لنتلذذ بها؛ لكن متى قبلنا هذه العطية يجب ألا نشتهي عطية غيرنا.

في اليوم الذي تزوجت فيه بدأت أصلي كالآتي: "يارب ساعدني أن أُعرِّف الجمال من خلال جسد ليزا. شكِّل رغباتي فأكون منجذبًا لها وحدها. " وعلمت من خلال سفر نشيد الأنشاد أنه عليَّ أن أتلذذ بزوجتي، وليس بالنساء بشكلٍ عام. يقول كاتب هذا السفر: «ليكن ينبوعك مباركًا، وافرح بامرأة شبابك، الظبية المحبوبة والوعلة الزهية. ليروك ثدياها في كل وقتٍ، وبمحبتها اسكر دائمًا. فلم تُفتن يا ابني بأجنبيَّة، وتحتضن غريبةً؟» (أم ٥: ١٨- ٢٠).

لا يمكنني شرح ذلك بالكامل دون أن أسبب الحرج لزوجتي؛ لذا سأتكلم بشكلٍ عام. لقد استجاب الله صلاتي.. فالسمات الجسدية التي تُميِّز زوجتي هي الميزات التي أجدها الأكثر جاذبية في النساء الأخريات.

ولكن بنفس القدر من الأهمية تأتي الزوجة التي تعمل على جمالها الداخلي، والتي تجعل من السعي نحو القداسة سعيًا أعظم من الرغبة في أن يناسبها فستان ذو مقاس صغير. مثل هذا الجمال لا يصبح "موضة قديمة" أبدًا.

يساهم الجنس داخل الزواج في تشكيلنا روحيًا من خلال تبديل أولويات ما نقدِّره وما نضعه في مرتبةٍ عالية. لا يدرك العديد من بيننا مدى سطحية هذا العالم، ومدى سطحية القيم التي يبجلها. بإمكان أي رجل أو امرأة أن يصبح ثريًا للغاية ومشهورًا على نحوٍ لا يصدَّق -بغض النظر ما إذا كان صاحب سمعة حسنة، ولديه قيم رفيعة، أو حكمة مثالية- طالما كان (أو كانت) مستعدًا للظهور عاريًا في فيلم رائج من إنتاج هوليوود. والتأثير الواضح هو أن العديد من الأشخاص الذين لا يستطيعون أن تظهر أجسامهم بشكلٍ معين سيشعرون بأنهم أقل قيمة من غيرهم.

يساهم الجنس داخل الزواج في تشكيلنا روحيا من خلال تبديل أولويات ما نقدِّره وما نضعه في مرتبة عالية.

أنا مقتنع أنه بإمكاننا، بفعل روح الله الساكن فينا، أن نُفتَن بالأمور التي تفتن الله. إذا كبحتُ نفسي عن النزوات المنحرفة، وركَّزت وتغذيت على الأمور الصحيحة -بما فيه أن أكون "مأسورًا" بحب زوجتي- فإنني بذلك أدرِّب نفسي على اشتهاء ما يحق لي أن أشتهيه فقط. هذا لا يعني أنه ممنوع عليَّ أن أقدِّر جمال شخص آخر، بل يعني أنه يمكنني تقدير الجمال دون أن يصبح هذا الجمال هاجسًا. يمكنني أن أرى الجمال دون أن أرغب في التورُّط في علاقة جنسية أو عاطفية غير لائقة.

يتطلَّب النضوج أن نتبنى هذه الرؤية. يعبِّر كل من «إيڤلين» و«چيمس

وايتهيد» عن الأمر ببساطة وبقوة: "عندما يصبح الجسد مسكنًا للحب وحده، يصبح التغيير عدوًا."[19] ومن منظور مسيحي، التغيير ليس عدوًا، بل هو في الواقع الهدف من الزواج.. هذا إذا كان التغيير الذي نبغيه هو أن ننمو في القداسة. إذا كان قبولي لزوجتي مبنيًا على مشاعري تجاه شكلها الخارجي عوضًا عن صفاتها الداخلية، ستتآكل عاطفتي مع الوقت شيئًا فشيئًا.

إن الذين يعيشون في سبيل اللذة الجنسية والإثارة لا يعرفون إلا حياة محدودة؛ وعلى الأرجح يختبرون درجة عالية من الإحباط عندما يأخذ العمر حتمًا من جمال أجسادهم بسبب تقدُّم العمر. أما الذين يجدون معنىً واكتفاءً ليس في الجنس فحسب، بل أيضًا في تربية أبنائهم، وخدمتهم لله، والمواظبة في حياة صلاة ثابتة، والعيش في حياة الفضيلة، فيملكون أساسًا أكبر ينطلقون منه للتمتُّع بالحياة. والزواج التقي والمخلص سيقودنا في هذا الاتجاه.

أعطِ ما عندك

هل تتذكَّر المرة الأولى التي رأيتَ فيها شريك حياتك عاريًا؟ حاوَل صديقان مقربان لي أن "يسِّهلا على أنفسهما" الأمر ليلة زفافهما؛ لذا قرَّرا أن يستحما معًا مع إطفاء الأنوار. وللأسف، راح المغطس يمتلئ عن آخره. وتذكَّر أن المكان كان مظلمًا، لا تنسى؛ فلم يفهما ماذا كان يحدث مع هذه البالوعة غير المعتادة في مغطس الفندق. وللأسف الشديد اضطرا إلى إضاءة الأنوار، وبدءا يمسحان الماء عن الأرضية عاريين، وتحوَّل التمهيد في الظلام إلى كوميديا تحت الأضواء!

إنه لأمر خاص أن تقف عاريًا أمام شريك حياتك وممشوق القوام نسبيًا

وأنت في أوائل العشرينات؛ ولكن ماذا عن الأمر في أواخر الثلاثينات أو الأربعينات أو الستينات من عمرك؟ وماذا يحل بالزوجة بعد أن تنجب طفلها الأول (أو الثاني أو الثالث)؟ وماذا عن الزوج بعد أن تصبح عمليات الأيض (التحول الغذائي) عنده ضعيفة، تاركة حول خصره "إضافات ملحوظة"؟

إن استمرارك في تقديم جسدك لشريك حياتك، حتى عندما تعتقد أن جسدك أشبه "ببضاعة مَعيبة"، هو أمرٌ سيعود عليك بالكثير جدًا من الثمر الروحي. يولِّد هذا السلوك التواضع، والخدمة، والتركيز على الآخرين، وكذلك يمكِّنك من ترسيخ مبدأ روحي قوي جدًا: أعطِ ما عندك.

إن استمرارك في تقديم جسدك لشريك حياتك، حتى عندما تعتقد أن جسدك أشبه "ببضاعة مَعيبة"، هو أمرٌ سيعود عليك بالكثير جدًا من الثمر الروحي.

نجد أنفسنا مرارًا مدعوين للاستمرار في خدمة الله مع أننا نعلم أن الوضع أقل من أن يكون مثاليًا. ربما نريد أن نشارك بكلمة الرب مع أحد الجيران، لكننا نعتقد أننا لسنا أكفاء بما فيه الكفاية، أو أننا لا نعرف الكتاب المقدس بما يكفي. أو ربما نسمع عن جمعية خيرية ذات شأن، ونتمنى لو أمكننا التبرع بآلاف الدولارات في حين نجد صعوبة في تسديد فاتورة بقيمة عشرين دولارًا.

يعلِّمنا الزواج أن نقدِّم ما عندنا. وقد أعطانا الله جسدًا واحدًا، وأوصى الله شريك حياتنا بأن يتلذذ في هذا الجسد الواحد.. وهذا الجسد وحده. لذا أن تمنع جسدك عن شريك حياتك هذا إجحاف شديد. قد لا نجد جسدنا مثاليًا.. غير أنه الجسد الوحيد الذي يجب أن نقدِّمه لشريك حياتنا.

لا أقول إطلاقًا إنه من السهل أن نعطي، لكن ما أقوله هو أن الأمر يستحق أن نعطي. إننا سنُكافأ إذا قلنا: "أنا مستعد أن أعطيك أفضل ما عندي، حتى لو كنتُ أظن أن الأفضل الذي عندي ليس عظيمًا كما يكفي" يذكِّرني هذا النوع من الالتزام ببطرس الذي قال لرجل كان يستعطي في أورشليم: «ليس لي فضة ولا ذهب، ولكن الذي لي فإياه أعطيك: باسم يسوع المسيح الناصري قم وامشِ!» (أع ٣: ٦).

يتغافل الكثيرون عن أن يقدموا شيئًا لله أو الآخرين، وذلك ببساطة لأنه ليس بوسعهم تقديم كل ما عندهم. تعلَّم أن تقوم بخطوات صغيرة تعبِّر عن طاعتك –مقدِّمًا ما عندك بالرغم من عيوبه ومحدوديته– من خلال تقديم ما لديك لشريك حياتك.

دعوتنا إلى إنكار الذات

من أكثر المشاكل إرباكًا بالنسبة إليَّ عندما أفكِّر في الحياة الروحية المسيحية هي الاعتراف بمدى تأثرنا بالكيمياء. من المثير أن نرى شخصًا شُفي فعليًا من أمراض خطيرة من خلال إعادة الخلل الكيميائي الذي أصابه إلى وضعه الطبيعي.

أظهر العلماء أنه مع تقدُّم العمر ومع انخفاض مستوى هرمون التستوستيرون يصبح الرجال أكثر حبًا ورعاية، وتصبح النساء أكثر طموحًا بسبب ما يحدث لمستوى هرمون الإيستروجين من تعديلات. وفيما يتراجع دور الهرمونات، تبدأ الاختلافات بين الجنسين في الارتباك بعض الشيء (لكنها لا تصبح أبدًا مخفية عن الأنظار بالكامل).

إن نشاطنا الجنسي مرتبط على نحوٍ وثيق، وهي ذات طبيعة كيميائية. يمكنني الامتناع عن الجنس لوقت، لكن مع مرور الوقت تتغيَّر طبيعة هذا

الامتناع. لا أحب دائمًا فكرة أن صراعًا روحيًا يؤدي إلى راحة جسدية مثل هذه، لكن هكذا خلقني الله– وكذلك أنت.

لكن هناك طريقة أخرى للنظر إلى الموضوع.. قد يكون الجنس طريقة الله لدعوتنا للاتصال ببعضنا البعض. هذا الاحتياج للتعبير الجسدي سيدفعنا أحيانًا إلى العمل على حل الخلافات العاطفية والروحية. وهنا تبرز أهمية وجهة نظر الكتاب المقدس للطلاق والزواج الثاني. يبدأ العديد من المسيحيين في إجراءات الطلاق معتقدين أنه بإمكانهم الزواج مجددًا وتلقائيًا حالما تنتهي إجراءات الطلاق. لنقل إننا نقبل بوجهة نظر الكتاب المقدس، (وقوانيننا المدنية وقادة كنيستنا يدعمون هذا الأمر)، وغالبًا ما ستكون وجهة النظر هذه على الشكل التالي: "يمكنك اختيار الطلاق، لكن إذا فعلت ذلك لا يمكنك بعد ذلك أبدًا أن تقيم علاقة جنسية مع أحد بقية أيام حياتك." في هذه الحالة، سيجد معظم الرجال، أو حتى كلهم، طريقة ما للتصالح؛ ولن يختاروا البقاء دون زواج.

أتذكَّر مرة كنت أخبر رجلين مسيحيين بصراحة تامة عن مثاليات الزواج المسيحي. وقد انفجرا ضحكًا عندما سمعاني أعترف صراحة: "هل تصدقان أنني تغاضيت عن موقفي في بعض الجدالات، لأنني كنت أريد أن تمنحني زوجتي أمرًا معينًا في هذه الليلة." واعترف كلاهما بخجل بعض الشيء أنهما قاما بالأمر عينه. أنا لستُ فخورًا بفكرة أنني أكون أقل استعدادًا للدفاع عن مبادئي عندما أشعر "بالرغبة الملحة" –وبالأخص أنا لا أحب حقيقة أن ما يبدو كحاجةٍ جسدية يوجه مواقفي الروحية.. غير أنه يمكنني أن أتعلَّم أن أستخدم هذه الحاجة الجسدية للحصول على فائدة روحية.

قد يكون الجنس طريقة الله لدعوتنا للاتصال ببعضنا البعض.

باختصار، يمكننا أن نتعلَّم أن نستخدم الغريزة الجنسية لصقل شخصيتنا. يمكن أن يتعلَّم الرجال التعاطف والحنو من خلال حاجتهم إلى الحميمية مع زوجاتهم. وبإمكان الزوجات استخدام الحميمية الجسدية لجذب اهتمام أزواجهن بطريقة عاطفية. من الناحية المثالية، نحن نتحيَّن الفرص للنمو؛ لأن هذا ما نحن مدعوون إليه كمؤمنين. أما من الناحية الواقعية، ليس هناك ضرر إن كان لدينا حاجة جسدية تدفعنا بالاتجاه نفسه للنمو في شخصياتنا.

تذكَّر أننا جميعًا قديسون ساقطون، ومن المؤكَّد أن الله فدانا، لكننا لا نزال جميعًا ملطَّخين بالخطية، ولن يبلغ تقديسنا كماله هنا على الأرض. إن أمرًا مهمًا كالحفاظ على الزواج -خاصة في السنوات الأولى عندما يكون الأولاد صغارًا في السن، ويكون الاستقرار بالنسبة إليهم ذات أهمية قصوى- لا يمكن تركه للدوافع الأنانية فقط.

تدعونا الغريزة الجنسية حرفيًا إلى إنكار ذواتنا، وصب اهتمامنا على الآخر. سيكون هذا التدريب مثمرًا بشرط أن يكون هذا "الآخر" هو شريك حياتنا. فضلاً عن ذلك، إن هذا التدريب يعزِّز مبدأ "السقوط للأمام" الذي سبق وتكلمنا عنه في الفصل التاسع. وفيما نحن مدعوون إلى إنكار ذواتنا، نحن نعزز من الاعتمادية المتبادلة وحياة الشركة فيما بيننا.. وهما ممارستان مسيحيتان قيِّمتان جدًا.

ثمن العاطفة المتقدة

نستشف من سجلات أحداث حياة الملك داود ومن سفر المزامير أنه من الواضح أن داود كان رجلاً عاطفيًا بشكلٍ استثنائي.. عندما أخبره ناثان النبي قصة الرجل الغني الذي سرق النعجة الوحيدة الذي كان

يملكها جاره الفقير، استشاط داود غضبًا؛ وقال موبخًا: «إنه يُقتل الرجل الفاعل ذلك» (٢صم ١٢: ٥)، غير مدركٍ أن ناثان كان يتكلم عنه. وعندما يعبِّر داود عن شغفه تجاه الله، نراه يفعل ذلك بعاطفة متقدة لا مثيل لها تقريبًا: «عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي في أرضٍ ناشفةٍ ويابسةٍ بلا ماءٍ» (مز ٦٣: ١).

يمكننا أن نتعلَّم أن نستخدم الغريزة الجنسية لصقل شخصيتنا.

ما من شك أن عاطفة داود المتقدة هذه أوقعته في مشكلات عدة مرات.. من بينها قصة بثشبع الشهيرة– لكن لا نجد في الكتاب المقدس على الإطلاق ما يقول لنا أن نذهب إلى النقيض الآخر ونختار حياة خالية من الشغف والعاطفة. في الواقع، نقرأ في سفر الرؤيا أن الله يفضِّل أن نكون إما حارين وإما باردين، أي شيء بخلاف أن نكون فاترين فاسدين (رؤ ٣: ١٦).

يناقش الفيلسوف الألماني «مارتن هايدجر» أن الأمور التي نحن شغوفون نحوها هي التي تجعلنا في تناغمٍ مع هذا العالم. "في تناغمٍ مع هذا العالم".. فكِّر في هذا الأمر للحظات. إن الزوجة التي تتمتعِ بشبع ونشاط جنسي تشع طاقةً ملحوظة، والرجل المكتفي جنسيًا مع زوجته ينضح بإحساس من السعادة. إن العاطفة المتقدة أمر صحي جدًا.

بإمكان العاطفة المتقدة أن توسِّع تخومنا، تمامًا كما يفعل الحب.

بإمكان العاطفة المتقدة أن توسِّع تخومنا، تمامًا كما يفعل الحب. لا تنقص العاطفة في كل مرة نعبِّر عنها. في الواقع، العكس هو الصحيح؛ فكلما زاد شغفنا وعاطفتنا تجاه أمر معين، زاد شغفنا تجاه أمور كثيرة أخرى. إن الرجل الشغوف بزوجته

يمكن أن يصبح شغوفًا بالعدالة، أو بملكوت الله، أو بأولاده، أو بالبيئة. لكن من الناحية المقابلة، إذا كان الراجل يواجه مشكلات جنسية كبيرة في زواجه، قد تغطي غيمة داكنة من الشعور بالإحباط ونوع من الكآبة على عمله، وإيمانه، وعشرته بزوجته. على الأرجح أنه سيصبح منشغلاً ومركِّزًا على ذاته بشكل أناني.

لم تكن «الرواقية» (فلسفة كبت المشاعر) أبدًا فلسفةً مسيحية. في واقع الأمر، نحن نعبد إلهًا شغوفًا ذا مشاعر عميقة.

إن عاطفتنا هي ما تجعلنا أحياءً، والشخص فاتر الشعور شخص مثير للشفقة. وبينما نخاف كثيرًا من عاطفتنا لأنها قد تقودنا إلى علاقة غرامية خارج الزواج، أو إلى خلاف مع شريك الحياة، أو إلى سلوك آخر مدمِّر؛ فإن الحل لا يكمن في عيش حياة أقل شغفًا، بل بالبحث عن الأمور الصحيحة التي يجب أن ينصب شغفنا عليها.

يشهد التاريخ الذي عبَّر عنه الكتاب المقدس، والذي ظهر على مدى ألفي سنة من الاختبار المسيحي، أن الروحانية المسيحية تتمحور بصورة عامة حول عطشنا المستمر نحو الله، والحفاظ على عاطفتنا متقدة نحو الله ومشيئته في هذا العالم. نعم، بإمكان شغفنا أحيانًا أن يجرفنا بعيدًا عن الصواب، لكن الزواج المسيحي يعلِّمنا أن نتحكم في الأمور التي نحن شغوفون بها كسدود المياه الموجود في ولاية واشنطن. ففي هذه الولاية لا تكاد تقود سيارتك لمسافة مئة ميل حتى تصادف سدًا ما، وهذه العملية مألوفة لعائلتي. أحيانًا يقرِّر المسؤولون عن السد أن تجري المياه بحرية، وأحيانًا أخرى يغلقونه فيتحوَّل إلى مجرى هزيل.

هذا ما يعلِّمنا الزواج فعله.. أحيانًا من الصحي والجيِّد إطلاق العنان للعاطفة الزوجية حتى لو كنا نخشى أن تتجاوز الخط وتتحول إلى الشهوة. يخطئ بعض الناس أحيانًا إذ يعتقدون أن دواء تحَرُّقهم

العاطفي وجوعهم الجنسي يكمن في الانقطاع الكلي عن العلاقة الجنسية؛ وبذلك يكون موقفهم من الجنس كموقف فاقد الشهية: لا أريد الإفراط في تناول الطعام فأصبح بدينًا؛ لذا لن أتناول الطعام أبدًا.[20] هذا ليس موقفًا سليمًا، بل هو موقف مشوه.

الحياة السليمة هي حياة نقول فيها نعم ولا.. نقبل أشياءً ونرفض أشياءً. أنا أسافر كثيرًا؛ لذا تأتي علينا أوقات زوجتي وأنا نصوم فيها عن العلاقة الجنسية. إن الأزواج الذين لديهم أولاد، وبالأخص أطفال صغار، سريعًا ما يدركون أنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم جنسيًا كلما شعروا بالميل لفعل ذلك. وفي أوقات أخرى، قد يكون شريك حياتنا مريضًا أو منهك القوى، فمن الظلم والقسوة وضع توقعات جنسية عليه. ففي هذه الأحيان يُعتبر الصوم عن الجنس ملائمًا وضروريًا.

غير أن أوقات "الاحتفال" ضرورية أيضًا. في الواقع يجب وضع كل "لا" للجنس في سياق "نعم" مقابلة:

> الصوم عن العلاقة الجنسية لأن إيروس (إله الحب) شيطان لا يُعتبر تعليمًا مسيحيًا بل فرارًا غير مقدس وغير صحي من الخليقة. لا يكون الرفض للجنس في خلال فترة الصوم مثمرًا إلا عندما يكون لدينا أوقات قيِّمة حقًا نقول فيها "نعم" للجنس. إن تدريب الصوم المُجهِد يعطي شكلاً لاحتفالنا.. نحن بحاجة لأمر نصوم لأجله. وإذا لم يكن لدينا قيم ملزمة نسعى إلى تحقيقها أو للدفاع عنها، فليس هناك سبب لدينا لكبت الإثارة أو المشاعر.[21]

بكلمات أخرى، لا يمثِّل الامتناع عن الجنس طريقًا مسدودًا، بل هو "تحويلة" تصل بالطريق الرئيسي. إن ما يشجعني عندما أمتنع عن العلاقة الجنسية بينما أكون بعيدًا عن زوجتي هو ما يحمله لي المستقبل

> الحياة السليمة هي حياة نقول فيها نعم ولا.

لدى وصولي إلى المنزل. أنا لا أقول "لا" فحسب، بل بالأحرى أقول "انتظر". وبدلاً من أن أعيش رفضًا مطلقًا، أنا مدعو إلى توجيه الرغبة إلى المكان الصحيح. والامتناع عن العلاقة الجنسية بالنسبة إلى مَنْ اختاروا البتولية أو الرهبنة لديه هذه الطبيعة نفسها. يُنصح المراهقون أن ينتظروا؛ لأنه من خلال هذا الانتظار ستكون علاقاتهم الزوجية المستقبلية أجمل. كذلك الإخلاص يجعل فراش الزوجية أجمل وأكثر بهجة وإشباعًا.

لا أريد أن أفرط في وضع ثوب روحي للأمر، وليس علينا أن نفكر في أمور "روحية" بينما نتمتع بالعلاقة الزوجية. لكن العواطف المتقدة تدعونا إلى سبر أغوار الحياة واكتشافها. ويُعتبر الشغف جوهر وصية السبت، الذي هو عملة ذات وجهين: تعملون لمدة ستة أيام –تعملون بحيوية، وفي اليوم السابع تستريحون. اعملوا بجهد، ثم استريحوا جيدًا.. وكلاهما مهم لحياةٍ ذات معنى. في بعض الأحيان، سيكون للجنس معاني روحية إضافية، وفي أحيانٍ أخرى سيشكِّل احتفالاً بالمتعة الجسدية.. وكلاهما مقدس داخل الزواج.

إن الفكرة الرئيسة: إن لكلٍ من العاطفة المتقدة والمشاركة أهمية قصوى، ويجب تنميتهما داخل إطار الزواج، فيثمران لمدى الحياة.

الاحتفال

أميل شخصيًا لأن أكون جادًا بشدة في إيماني، لذا كان أمامي تحدٍ كبير عندما جاء أمامي كتاب كتبه «إلتون تروبلد» يحمل عنوان «حس الفكاهة عند المسيح». يكتب «تروبلد»: "إن أي مسيحية مزعومة تفشل

في التعبير عن ذاتها بابتهاج، في مرحلةٍ ما، تُعتبر زائفة بوضوح."[22] ويدعم هذه الفكرة بالكثير من الشواهد المستمدة من الكتاب المقدس. كان هناك على الأقل ثلاثة أعياد أساسية مذكورة في العهد القديم: عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال- بالإضافة إلى العديد من الأعياد الأخرى (راجع لاويين ٢٣؛ سفر العدد ٢٨ و٢٩). وقد تشمل هذه الأعياد تفاصيل دقيقة، فعلى سبيل المثال يتضمَّن عيد المظال سبعة أيام من الاحتفال بالعيد أوصى الله الإسرائيليين فيها أن يفرحوا ومَنَعهم عن مظاهر الحزن.

الحقيقة هي أن الله يستحق احتفالات لا نهاية لها. قال يسوع مرة إذا لم ترفع الشعوب حمدًا، فستصرخ الحجارة (راجع لوقا ١٩ :٤٠). ولا يسمح الله أن نُفضَح أمام كومة من الحجارة!

عليَّ دائمًا أن أكسر روتيني «الجاد». ببساطة، هذه طبيعتي؛ فأنا أميل إلى رؤية الاحتفالات كأمرٍ "سريع الزوال" أو "أقل احترامًا".. لكن هذا عيب شخصي أحاول التغلُّب عليه.

توفر الحياة الجنسية الزوجية سياقًا فريدًا من نوعه للاحتفال. عندما نتعرى في أحضان أحدنا الآخر، لا يهم ما إذا كنت تملك سندات مالية بقيمة مليون دولار، أو إذا كنت تصارع من أجل تسديد ديونك أو تعويض خسارتك. قد تكون مستلقيًا على سريرٍ فخم في آخر طابقٍ في أشهر الفنادق، أو تتمتع بليلة بعيدًا عن الأولاد في منزل بسيط. قد تتمتع بشهر عسل محتفلاً بالحياة وأنت في العشرينات أو الثلاثينات من العمر، أو قد تجدِّد عاطفتك محتفلاً بالحياة في الستينات أو في السبعينات. مهما كانت منزلتك الاجتماعية أو وضعك في الحياة، أنت تحتفل برقصة إنسانية عميقة،

الحقيقة هي أن الله يستحق احتفالات لا نهاية لها.

واختبار متسامٍ من تصميم عقل عظيم لا يقل عن أن يكون الله نفسه القادر على كل شيء.

للصوم وقت، و"لحمل الصليب يوميًا" وقت، و "للتلميح بنار" وقت؛ لكن ثمة وقت للانتقال فعليًا إلى عالمٍ آخر من خلال المشاركة الحميمة واستكشاف جسد شريك الحياة.

يحتاج بعضنا إلى أن يتذكر أن يحتفل بحماس؛ والبعض الآخر يجب أن يتذكَّر أنه هناك فسحة لرجاحة العقل العميقة، والوقار الهادئ، والالتزام المتعمد. توفر لنا علاقة الزواج اختبارًا إنسانيًا كاملاً، حساسًا، ومسؤولاً، وتفرض بالتأكيد مسؤولية، وإلى جانب هذه المسؤولية تقدِّم لنا استمتاعًا بالنشاط الجنسي الواقعي جدًا والدنيوي، وهو بمثابة احتفال قوي يذكِّرنا بهدوء بالحياة السماوية التي تنتظر أولاد الله جميعهم.

ما وراء التلامس

قد يستغرق بعض الأزواج شهورًا عديدة كي يستريحوا لفكرة أن حميميتهم الجنسية تمثل شكلاً من التعبير الروحي، والإيمان، والنضوج. للأسف، بينما يجب على المسيحيين أن يقودوا الآخرين في هذا الصدد، سبقنا أتباع ديانات أخرى في هذا المضمار على نحو واسع الانتشار. تسعى العديد من الكتب إلى دمج الفلسفة الشرقية وروحانية «التانتريك» مع الحياة الجنسية، لكن في معظم الوقت تستخدم هذه الكتب الروحانية لمضاعفة المشاعر الجسدية. نحن نقترح العكس تمامًا.. بإمكان المشاعر الجسدية مضاعفة حساسيتنا الروحية. إن المنظور المسيحي للعالم لا يستخف بالاختبار الجسدي، بل يحتويه؛ لكنه بذلك يذكِّرنا أن هناك قيمًا أسمى من المتعة الجسدية- ألا وهي أن

العالم سيزول، ولا يمكن إيجاد السعادة الحقيقية والاكتفاء إلا بالعلاقة مع الله والشراكة المقدسة مع أبنائه.

وكي نستوعب بشكل كامل الحياة الجنسية الزوجية وكل ما صممها الله من أجله، على الأزواج أن يأتوا بمسيحيتهم إلى فراش الزوجية أيضًا، ويهدموا الحاجز بين حميميتهم الجسدية والروحية. كتب «دونالد جورجان»: "إن الانقسام بين الحياتين الجنسية والروحية، وبين حياة العزوبية والحياة الزوجية، مدمِّر ولا يليق. يكمن التكامل في رؤية كيف يمكننا أن نكون جنسيين وروحيين معًا، ورؤية أن اختيار أحد الطريقين لا يفترض ضمنًا قلة أهمية الطريق الآخر."[23]

إن المنظور المسيحي للعالم لا يستخف بالاختبار الجسدي؛ بل يحتويه.

بالطبع يتركز الجنس يتركز حول التلامس الجسدي، لكنه يتعدى ذلك بكثير؛ فهو أيضًا يتركز حول ما يجري في داخلنا. إن تطوير حياة جنسية مشبعة يعني أن أُشغل ذاتي بالعطاء السخي والخدمة في الفراش بدلاً من إحضار خصر رشيق. هذا يعني أنني أرى زوجتي كهيكل مقدس لله، وليس مجرد جسد بشري مثير. كما يعني أيضًا أن يصبح الجنس نوعًا من الصلاة الجسدية.. صورة عن الحميمية السماوية التي تضاهي مجد الشاكينة في القديم.

يمكننا أن نجد إلهنا، الذي هو روح (يو ٤: ٢٤)، خلف التلهُّف الجسدي، والعرق، والتشابك الممتع لأطراف الجسد وأعضائه. الله لا يغض الطرف عن ذلك، بل يريدنا أن نختبر الجنس، بشرط أن نسعى إلى ذلك في ظل حضوره الإلهي، وأولوياته، وفضائله. إذا اختبرنا الجنس بهذه الطريقة، سنتغيَّر في فراش الزوجية بقدر ما سنتغيَّر عندما نجثو على رُكبنا للصلاة.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) كيف يؤثِّر ماضيك سلبًا على حياتك الجنسية؟ إلى أي مدى يمكن لطلب المشورة أو الرعاية الروحية أن يساعدك على التعامل مع هذا الماضي؟

(٢) هل صدمك إقرار «جاري» أن "الله لا يحيد بنظره عن الزوجين عندما يذهبان معًا إلى الفراش"؟ ما الشعور الذي تولده هذه الحقيقة في داخلك؟ تأمل هذه الحقيقة، وصلِّ مع شريك حياتك، شاكرًا الله بالتحديد على هبة الحميمية الجنسية.

(٣) هل يشكل الجنس عبئًا أكثر منه بركة في زواجك؟ هل كان الوضع دائمًا على هذا النحو؟ إذا لم يكن كذلك، ما الذي تغيَّر، ولماذا؟

(٤) إلى أي مدى نجحت في "اكتساب" شهوات مقدسة؟ كيف يؤثِّر هذا على حياتك الجنسية؟

(٥) هل منعك الخجل من تقديم ما عندك لشريك الحياة؟ ما الخطوة الصغيرة التي يمكنك القيام بها لتبدأ في مواجهة هذه الأنانية؟

(٦) إلى أي مدى تعتقد أن الأنانية تؤثر على الحياة الجنسية للزوجين؟ بأي طريقة يمكن لروح الخدمة أن تغيِّر اختبار الحياة الجنسية داخل الزواج؟

(٧) كيف يمكن للشعور بالامتنان نحو الاختبار الجنسي داخل الزواج أن يساعد الزوجين على التغلُّب على آثار خبرة جنسية حدثت قبل الزواج؟

(٨) بالنسبة إلى «جاري»: "لا يمثِّل هذا الامتناع عن الجنس طريقًا مسدودًا، بل هو «تحويلة» تصل بالطريق الرئيسي... أنا لا أقول «لا» فحسب، بل بالأحرى أقول «انتظر»." ما الذي يمكنك تعلُّمه من الإيقاع المتضمن في التعبير الجنسي الزوجي بين الامتناع والاستمتاع؟ وفي النواحي الأخرى للحياة الزوجية؟ وفي الحياة عامةً؟

(٩) كيف تنمو في الجانب الروحي من حياتك الجنسية (أي السخاء في العطاء وروح الخدمة)؟ في أي جانب تريد أن تكون أكثر صدقًا؟ وما هي الأشياء التي تريد التخلُّص منها؟

(١٠) ما هو الشيء الوحيد الذي يمكنك فعله في الشهر المقبل لتبرهِّن لشريك حياتك عن رغبتك في النمو فيما يتعلق بالجانب الجنسي؟

الفصل الثاني عشر

الحضور الإلهي

كيف يمكن أن يجعلنا الزواج أكثر إدراكًا لحضور الله

العائلة المسيحية هي إحدى ثمار حياة الإيمان، وتتيح لنا فرصة لا مثيل لها أن نغمر كل علاقة في حياتنا اليومية بروح الله. وبما أنه على شريكي الحياة أن يعيشا معًا وهما غير قادرين على الفرار أحدهما من الآخر، فكل لحظةٍ من اليوم وكل نشاط في المنزل يمثل تحديًا لنعيش في تناغم وفقًا للمشيئة الإلهية.

– أوتو بايبر

الصدق وحده لا يكفي!

اكتشفتُ هذه الحقيقة في بداية زواجي من خلال درس صعب. بعد مرور أسابيع معدودة على زواجنا حل عيد ميلاد زوجتي ليزا العشرين. وكنتُ آنذاك زوجًا حديث العهد.. غير مثقفٍ على الإطلاق في فنون المحادثات الزوجية الأنيقة، فعندما قالت لي ليزا: "لا تهتم؛ فعيد ميلادي ليس بالأمر الهام"، ارتكبت خطأً فادحًا..

لقد صدقتها!

ماذا كان بوسعي فعله؟ قال لي راعي كنيستي: "اسع وراء النساء التقيات"، وقد فعلت ذلك. وكانت ليزا بالفعل إحدى أكثر النساء التقيات اللواتي التقيتهن في فترة الدراسة. المشكلة الوحيدة أن الراعي لم يحذِّرني أبدًا من أن النساء التقيات يمكن أن يكذبن أحيانًا.

بناءً على ذلك، لم أبذل مجهودًا كبيرًا في ما يجب أن أُعده للاحتفال بعيد ميلاد ليزا. بالإضافة إلى ذلك، كنتُ أشغل وظيفة جديدة، وشعرتُ أنني مريض بعض الشيء، وفي النهاية لم أكن مستعدًا لأحقق التوقعات الكبيرة لأمر "ليس مهمًا".

في اليوم السابق لإتمام ليزا لعشرين عامًا مررتُ بمكتبة، واشتريت لها ثلاثة كتب. وباكرًا في صباح اليوم التالي، قدمتها لها مع ابتسامة على وجهي.

ومن الجيد أنني كنتُ مبتسمًا ذلك النهار؛ حتى يكون واحد منا على الأقل كذلك. كان عليَّ أن أتعلَّم أن تقديم كتب لليزا لمجرد أنني أنا شخصيًا أحب الكتب ليس تعبيرًا عن الحب. كلا، هذا رجاء! (يختلط هذان الأمران عليَّ أحيانًا.) الحب هو أن أختار لليزا شيئًا يُسعدها، ويُعلن لها أنني أعرفها، وأقدِّرها.

ارتكب صديق لي خطأً مماثلاً.. أحضر «جيم» مرة لـ «بيجي» زوجته كوبًا لقياس المقادير في عيد ميلادها. بالنسبة إلى «جيم» كان هذا الكوب.. الأعظم بين أكواب المقادير.. مكوَّن من عيارين، وله شكل فاخر. أما بالنسبة إلى «بيجي» فقد تكون هذه الهدية أعظم غلطة زوجية ارتكبها «جيم».

كلانا، أنا وجيم، كان علينا أن نتعلَّم أنه عندما يتعلَّق الأمر بحب زوجاتنا فإن "الصدق ليس كافيًا"؛ نحن بحاجة إلى أمرٍ ملموس.

يقول لنا يعقوب الرسول، كاتب الرسالة التي تحمل اسمه في الكتاب المقدس، إن الأمر نفسه ينطبق على علاقتنا مع الله. قد أضحت "الروحانية" كلمة شائعة في عالمنا، غير أن القيمة الأكبر التي يعطيها العديد من الأشخاص للروحانية في أيامنا هذه هي الصدق.. إذ وفقًا للرأي الشائع لا يهم ما نؤمن به، أو بمَنْ نؤمن، طالما نحن صادقون في إيماننا.

لكن هذا الاعتقاد لا يمثل حقيقة كتابية. يحسم الرسول يعقوب في الأصحاح الأول والآية ٢٧ الأمر مع الكثير من الكلمات الأخرى التي تقودنا إلى حقيقة الروحانية، إذ يقول: «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه...». إذا كان هناك ديانة مقبولة عند الله، فحتمًا هناك ديانة لا يقبلها الله. إذا كان لدى الله طريقة يريد أن يُحَب بها، بالتالي هناك طريقة حتمًا لا يريد الله أن يُحَب بها.

بتعبير آخر، الصدق وحده لا يكفي!

وليس الوقت مناسبًا الآن لتقديم تعريف قاطع ومفصَّل عن "الروحانية المسيحية"، غير أن أحد أهم مكونات هذه الروحانية متعلِّق بالجانب الخاص بالعلاقة الشخصية. ليست الروحانية المسيحية بحثًا عن استنارة روحية، أو اختبارات جديدة، أو حكمة محصورة بفئة معينة؛ وإنما بالأحرى هي متأصلة في سعي شغوف وتجاوب نحو كائنٍ روحي.. وهذا الكائن هو الله نفسه. أُحب التعريف التالي الذي أتى به الكاتبان «وايتهيد»: "يُمكن وصف الروحانية المسيحية بأنها جهودنا المستمرة للتجاوب مع مسرَّات حضور الله في حياتنا."[1]

> إحدى الطرق لوصف ممارسة الشعور بحضور الله كتدريب روحي في حياتنا هي "التحوُّل".

إن الكلمة الفعَّالة هنا هي «حضور». شدّد الكتَّاب المسيحيون العظام القدماء

على أهمية العيش في وعي دائم بحضور الله. فالذين تقدَّموا في الإيمان المسيحي تعلَّموا أن يكتسبوا ذاكرة عجيبة تجعلهم متناغمين مع حقيقة أن الله معهم باستمرار، ومستعدٌ دائمًا ليهمس بكلمات تحدٍ، وتشجيع، وقبول، وتوبيخ رقيق. الله يحفظنا دائمًا، ويهتم بنا دائمًا، ويستمع إلينا دائمًا.

إحدى الطرق لوصف ممارسة الشعور بحضور الله كتدريب روحي في حياتنا هي "التحوُّل". كتب فرنسوا فنيلون، أحد أعظم المتصوِّفين على الإطلاق، في القرن السابع عشر:

> أحد القواعد العامة للاستخدام الجيد للوقت هي أن نُعَوِّد ذواتنا على العيش في اتكال مطلق على روح الله، ونحن نقبل من لحظة إلى أخرى ما يحلو في عيني الرب أن يعطيه لنا، ونتحول إليه متى ساورتنا شكوك لا مفر منها، ونلجأ إليه في أوقات الضعف عندما يهرب الصلاح بسبب الإرهاق، داعين إياه ورافعين أنفسنا إليه عندما ينبهر القلب بالأمور المادية، ويجد نفسه يحيد عن الطريق تدريجيًا ناسيًا الله ومنجرفًا بعيدًا عنه.[2]

لعل التحفة الأدبية التي تتطرق إلى هذه الناحية من الحياة المسيحية هو كتاب الأخ لورانس، والذي يحمل عنوان «ممارسة حضور الله» (Practicing the Presence of God). لورانس، الراهب المتواضع، الذي كتب هذه التحفة الأدبية في القرن السابع عشر، تعلَّم أن يجد مسرَّة خاصة في حضور الله المتواصل، وكنتيجة لذلك شعوره بأنه قريب من الله بينما يقشِّر البطاطس في المطبخ تمامًا بينما يجثو عند المذبح للصلاة.

قال الأخ لورانس إنه علينا "أن نثبِّت أنفسنا في حضور الله من خلال التحدُّث معه بصفة مستمرة"، ويشير إلى أنه "لأمر مخجل أن

نسمح لأفكار تافهة أن تقاطع حديثنا مع الله". ويضيف مشجعًا إيانا بأن "نغذي أنفسنا بأفكار سامية عن الله، لأننا عندئذ سنجد فرحًا كبيرًا لوجودنا معه."

في البداية، تكون ممارسة حضور الله بصورةٍ عامة تدريبًا روحيًا؛ ومع الوقت تصبح هذه الممارسة أشبه بأمرٍ طبيعي. ويدرك الأخ لورانس أنه "في البداية نحتاج إلى مجهود متواصل لنكتسب عادة التحدُّث مع الله باستمرار... لكن بعد أن نُعير الموضوع بعض الاهتمام يُحضرنا حبه للتكلم معه من دون أي صعوبة."[3]

هذا السعي وراء التلذذ بحضور الله كان السبب الذي من أجله قصد العديد من الرجال والنساء أديرة الرهبان والراهبات. هذه النفوس المُخلصة آمنت أنه يمكنها اختبار التلذذ بحضور الله بشكل أفضل من خلال تبني حياة خالية من أعباء تأمين العيش والاعتناء بعائلة. ومع أن أنظمة الرهبنة القديمة كانت مختلفة بصورة ملحوظة، غالبًا ما كانت تُبنى حياة الراهب أو الراهبة حول التذكُّر الدائم لله –أي الإدراك الدائم لحضوره. كان يبدأ نهارهم وينتهي بالصلاة، ويتخلل النهار أوقات طويلة من الصمت الإلزامي. وكانت جماعة الرهبان أنفسهم يعملون على خلق مناخ يشجِّع مواطنيه على التطلُّع إلى الأمور السماوية.

وبدلاً من أن نسمح للزواج بأن يجمد أحاسيسنا الروحية، هل يمكننا استخدامه لنوقظ نفوسنا بطرق جديدة وعميقة؟

كيف يمكننا، كقديسين متزوجين، أن نستخدم صخب النشاطات اليومية وما يبدو كفوضى في الحياة العائلية كتذكير بحضور الله؟ مما لا شك فيه، أن أمامنا العديد من التحديات التي يجب أن نتغلَّب عليها، لكن هل هناك طريقة لاستخدام الزواج ليقرِّبنا من الله

بدلاً من أن نسمح له بأن يجعل أحاسيسنا متبلدة ويقودنا إلى إلحاد عملي، حيث نقدِّم من خلاله خدمة من شفاهنا لله بينما نعيش وكأن الله غير موجود؟ وبدلاً من أن نسمح للزواج بأن يجمد أحاسيسنا الروحية، هل يمكننا استخدامه لنوقظ نفوسنا بطرق جديدة وعميقة؟

في العهد القديم هناك صورة بديعة تُرينا أنه بإمكاننا فعل ذلك بكل تأكيد!

بين الكروبين

بُني تابوت الشهادة وعليه اثنان من الكروبين صُنعا صنعة خِراطةٍ من ذهب ووجهاهما كل واحدٍ إلى الآخر وأجنحتهما تتلامسان. عن وجود هذين الكروبين معًا قال الله: «وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك، من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة» (خر ٢٥: ٢٢).

أصبح حضور الله «بين الكروبين» صورة شائعة من العهد القديم. وفي عهد النبي صموئيل أراد شعب إسرائيل استرجاع التابوت، وقالوا: «تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم» (١صم ٤: ٤). ويكتب كاتب المزمور «يا راعي إسرائيل، أصغِ... يا جالسًا على الكروبيم أشرق» (مز ٨٠: ١)؛ ويستخدم إشعياء الصورة نفسها: «يا رب الجنود، إله إسرائيل الجالس فوق الكروبيم» (إش ٣٧: ١٦). وتشق هذه الصورة طريقها إلى العهد الجديد: «وفوقه كَروبا المجد مظللين الغطاء» (عب ٩: ٥).

يتجلى لنا حضور الله من خلال كائنين مُجتمعين، إذ «يسكن» الله وسط هذا الاتحاد.. هذه صورة جميلة!

هناك تقليد قديم الزمان للسعي نحو الله من خلال الانعزالية والوحدة، ولكن في الكتاب المقدس هناك أيضًا ضمانة واضحة لطلب الله من خلال

العلاقات والجماعة. تأمل كلمات الرب يسوع في إنجيل متى: « وأقول لكم أيضًا: إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السماوات، لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ١٩ و٢٠).

لاحظ أن يسوع يقول: «لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي...»؛ فالعائلة التي ستتمتَّع بحضور الله كجزء معتاد من اتحادهم هي عائلة مترابطة بالتحديد لأن الزوج والزوجة يريدان أن يدعوا يسوع للدخول إلى أعماق حياتهما الزوجية.. إنهما يجتمعان، ليس لمجرَّد الهرب من الوحدة، أو من أجل استثمار أموالهما، أو مجرَّد البحث عن مخرج لرغبتهما الجنسية؛ بل فوق كل هذه الأسباب المختلفة، لقد اتحدا معًا لكي يعيشا ويُعمِّقا إيمانهما بالله.

حتى ولو أقبلت على الزواج لغاية أخرى، يمكنك أن تتخذ قرارًا بالمحافظة على زواجك على هذا الأساس. وفي اليوم الذي تقوم بهذه الخطوة ستجد أنه بإمكان الزواج أن يكون مجرى متميزًا يأتي من خلاله حضور الله إلى حياتنا اليومية. الزواج يباركنا بحضور الله من خلال تحفيزنا على التواصل، وتذكيرنا ببشريتنا الضعيفة المتألمة، ومساعدتنا على حمل صورة الله، والسماح لنا بالاشتراك في الخلق.

الحوار

لطالما اعتقدتُ كشابٍ أن الصمت هو السبيل الأفضل إلى قلب الله. ذات مرة وضعت كنيستي التي كنت أواظب عليها في نشرتها الأسبوعية ملاحظة بما معناه: "رجاءً احرصوا على أن يكون لديكم توجُّه داخلي من التوقير بينما نُعد قلوبنا لوقت العبادة." وبالفعل، نجد في التقليد المسيحي جذورًا عميقةً تشهد للقيمة الروحية أن يظلوا صامتين. على سبيل المثال،

لأنه هناك التزام على رهبان الـ «ترابيست» يلتزمون بالصمت، فغالبًا ما يتواصل أعضاء هذه الرهبنة من خلال لغة الإشارة؛ وهناك قصص مكتوبة عن رهبان قدماء لم يتكلموا لثلاثة عقود أو أكثر.

تمامًا كما أن صمت هؤلاء الرهبان يمثل تدريبًا روحيًا يهدف إلى جذبهم إلى عالم القداسة، كذلك الحوار في الزواج يمكن أن يوجهنا نحو الله. في أوائل هذا القرن، تطورت في فرنسا فكرة أنه يجب النظر إلى الكلام على أنه تدريب روحي، ونتج عن ذلك ما عُرف بالفرنسية: بـ «le devoir de s'asseoir»، والذي يعني حرفيًا: "واجب أو التزام الجلوس".[4]

في الزواج من الواجب علينا أن نتواصل. من المؤكَّد أن كل زواج بحاجة إلى أوقات صمتٍ وتأمُّل؛ غير أنه في علاقتنا مع شريك حياتنا، يمثل التواصل شكلاً من أشكال الحب. يعكس تواصلنا مع بعضنا البعض تواصل الله معنا، وعندما يتواصل معنا نتعرَّف بشكل أفضل على حضوره وصفاته. وحقيقة أن الله يستخدم الأحلام في العهد القديم والعهد الجديد تكشف أنه يتواصل معنا ليلاً ونهارًا. ويعبِّر الله لنا عن محبته من خلال الكلمات، عوضًا عن أن يعانقنا بذراعين ماديين. يمكننا أن نحب أزواجنا وزوجاتنا من خلال هذه الكلمات نفسها، وفي خلال هذه العملية ننمو على مثال يسوع.

يرى الكاتبان آلندر ولونجمان أننا "مدعوون لرؤية المسيح في شريك الحياة من خلال قوة الكلمة المنطوقة".[5] كيف يمكن للكلمات أن تفعل هذا؟ بهذه الطريقة- على الأقل جزئيًا: "يُهدِّئ الكلام الحسن من حالة الفوضى، ويولِّد الفرح والحياة؛ أما الكلام السيء فيولِّد الفوضى ويقودنا إلى اليأس والموت."[6]

من هذا المنظور، لساننا هو الذي يجذب حضور الله أو يُبعده. وكل كلمة نتلفَّظ بها لفرد من أفراد الأسرة تمثل إما دعوة لاختبار القداسة أو لاختبار الفوضى.

تؤكد رسالة يعقوب على أن الكلام الرصين الهادئ هو أحد الفضائل المسيحية الأساسية:

> لأننا في أشياء كثيرة نَعثُر جميعنا. إن كان أحد لا يَعثُر في الكلام فذاك رجل كامل، قادر أن يُلجِم كل الجسد أيضًا. هوذا الخيل، نضع اللجم في أفواهها لكي تطاوعنا، فندير جسمها كله. هوذا السفن أيضًا، وهي عظيمة بهذا المقدار، وتسوقها رياح عاصفة، تُديرها دفة صغيرة جدًا إلى حيثما شاء قصد المدير. هكذا اللسان أيضًا، هو عضو صغير ويفتخر متعظمًا. هوذا نار قليلة، أي وقود تحرق؟ فاللسان نار! عالم الإثم. هكذا جعل في أعضائنا اللسان، الذي يُدنِّس الجسم كله، ويُضرِم دائرة الكون، ويُضرَم مِن جهنم. (يع ٣: ٢- ٦)

يرى الرسول يعقوب أن اللسان يعمل كترمومتر روحي: نظرًا لأن الكلمات التي يتلفَّظ بها اللسان تسجِّل حرارتنا الروحية تجاه الله.

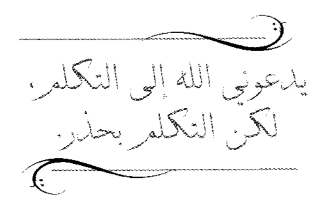
يمكن أن يكون اللسان قاسيًا من خلال طريقتين: إما من خلال التكلم بالسوء، أو من خلال الامتناع عن التكلم بالخير. علينا أن ندرك خبث سرطان الصمت داخل الزواج.. هناك وقت يكون فيه الصمت بلسمًا شافيًا، لكن في المقابل هناك نوع آخر من الصمت وهو الصمت الماكر. أنت تعلم دوافعك القلبية.. فإما أنك صامت لتعزيز الشفاء، أو أنك تتمحور حول ذاتك، في جبن أو مكر. عندما أمتنع عن الكلام من منطلق جبنٍ أو أنانية أو بسبب

> كل كلمة نتلفَّظ بها لفرد من أفراد الأسرة تمثل إما دعوة لاختبار القداسة أو لاختبار الفوضى.

الإرهاق والتعب، فأنا كإنسان مسيحي أتراجع خطوة إلى الوراء.

يدعوني الله إلى التكلم، لكن التكلم بحذر. كان عليَّ أن أتعلَّم كيف أتواصل مع زوجتي لأكتشف لماذا أثير أحيانًا غضبها عندما أمتنع عن الكلام أو عندما أتكلم معها بطريقة غير مقبولة. بتعبير آخر، كي نعيش زواجنا في ظل الحب، كان عليَّ أن أتعلَّم كيف أروِّض لساني.

يُلزمنا التواصل بالدخول إلى عالم الآخر.. كي أتواصل مع زوجتي عليَّ أن أتجاوز محدودية نظرتي للأمور، وأفهم كيف يمكن للكلمة نفسها أن تعني أمرين مختلفين بالنسبة إلى كل منا. هذا تدريب للخروج من الذات، ويثمر نفعًا روحيًا هائلاً.



يُمكن أن تسبِّب الكلمات التي تَصدُر عن مكر جُرحًا عميقًا.. فالكلمات يمكن أن تهدم جدرانًا، أو تصدعها، أو تبنيها. يذكِّرنا الكاتبان دان آلندر وترمبر لونجمان بهذه الحقيقة، ويشجعاننا على انتقاء كلماتنا بحذر:

> عليَّ أن أزرع الكلمات كالبذور لأحصد ثمرًا يمجِّد الله... علينا انتقاء كلماتنا وكأننا ننتقي أداة للحياة أو للموت. إذا كنا نعلم قوة الكلمات، فإننا حينئذ لن نرفض أن نتكلم بسبب الخوف، أو نتكلم كثيرًا ونزرع بذورًا هدامة. علينا أن نُطلق كلمات تشجيع نجتذب بها قلب الله إلى حياة مَنْ نحب؛ وعلينا أن نُطلق كلمات توبيخ لنعيق الميل الطبيعي لقلوبنا نحو التكبُّر والبر الذاتي.[7]

أما الناحية الأخرى للتواصل فهي تعلُّم كيفية الإنصات، وغالبًا ما أصارع بقوة في هذا الأمر. في كثير من الأحيان أكون تائهًا في أفكاري،

وبالتالي أستاء من فكرة أن زوجتي تريدني أن أتوقَّف عن التفكير لأشاركها أفكارها. لكن عندما تزوجتُ ليزا تعهَّدتُ أن أتواصل معها.

تُعتبر زوجتي قارئة عريقة لمجلة «جايدبوستز»، وهي تحب القصص المأساوية وشبه المأسوية، والتأثُّر إلى حد البكاء عند قراءة العامود المنتظم تحت عنوان: «طرقه الغامضة». وبالصدفة -صدقوني أنا لا أختلق الأمر- أنه بينما كنت أكتب هذه الكلمات، طلبت مني أن آخذ استراحة لكي تقرأ لي قصة من المجلة.

يدعونا التواصل إلى تخطي ذواتنا.

تعلم ليزا أن هذا ليس نوع القراءات الذي أفضِّل قراءته شخصيًا. أنا أقرأ ثلاثين إلى أربعين كتابًا سنويًا، والعديد من المجلات، لكن عادة لا أطالع الأعمال الأدبية التي تدور حول الخبرات الشخصية. ومع ذلك، فاستماعي لهذه القصص أصبح جزءًا من التزامي بالدخول إلى عالم زوجتي. إن الحب يمثل خطوة متعمَّدة تجاه الآخر.

كيف يستدعي الإنصات حضور الله؟ إن جزءًا كبيرًا من الصلاة يعتمد على الإصغاء إلى الله.

أعود إلى الفصل الثالث عندما استشهدتُ باقتباس للدكتور چون بارجر:

> عندما يحببن (النساء)، يحببن بصمتٍ؛ يعبِّرن وكأنهن يهمسن، وعلينا الاستماع بحذر وبانتباه، والاستماع إلى كلمات الحب الصادرة عنهن، والتعرف إليهن.
>
> ألا يتصرف الله معنا على هذا النحو أيضًا؟
>
> ألا يتدخل في حياتنا ناطقًا بهمساتٍ.. هذه الهمسات

تفوتنا إذا لم نستجمع ذواتنا ونولي انتباهًا كاملاً- وإذا لم نجاهد باستمرار لسماع همسات الحب الإلهي؟ من الفضائل الضرورية ليحب المرء زوجته بحقٍ وتبادله هي الحب: فضيلة الإصغاء، والصبر، والتواضع، والخدمة، والحب الصادق.. وهي نفسها الفضائل الضرورية التي يجب أن نتمتع بها لنحب الله ونشعر بهذا الحب المتبادل.

يدعونا التواصل إلى تخطي ذواتنا؛ وتعلُّم كيفية تحقيق هذا الأمر هو بمثابة شرط أساسي لبناء حياة صلاة ذات معنى، تمامًا كما هو أيضًا لبناء زواج ذي معنى. إن ممارسة التواصل تستدعي حضور الله إلى حياتنا اليومية. والحقيقة هي كالآتي: من خلال كلماتنا نستدعي حضور الله أو نُبعده بعيدًا.

الوجع المتسامي

في مرحلة معينة من علاقتكِ مع الشخص الذي أصبح شريك حياتكِ، كنتِ مستعدة أن تتركي كل الذين طلبوا الزواج بكِ، وتلتصقي بهذا الشخص لبقية عمركِ. كرجل أعزب أو كامرأة عزباء، تتوافر أمامك فعليًا خيارات لا تُحصى للارتباط بشريك حياة.. ومع ذلك، من بين مليارات الأشخاص في العالم اخترت هذا الشخص الواحد- شريك حياتك.

كتدريب روحي، ذكِّر نفسك من جديد، بغض النظر عن نتائج اختيارك، أنك اخترت عن طيب خاطر وبإرادتك هذا الرجل أو هذه المرأة. وبعد تفكير كافٍ، تقدمت لطلب الزواج من هذه المرأة- أو قد وافقتِ عندما طلبك للزواج. في ذلك الوقت، بدا قراركما منطقيًا جدًا؛ وكنتما مستعدين بكل معنى الكلمة أن تراهنا بحياتكما على هذا القرار.. وكان لديكما الأسباب الكافية لتصدِّقا أنكما

ستصونان زواجكما في السنوات القادمة إلى أن يفرِّق الموت بينكما.

إن علاقة الزواج تخلق لنا فرصةً لنتذكَّر حاجتنا إلى الله عندما يخيب أملنا بسبب عدم قدرتنا على الحصول على كل الحب الذي نحتاجه ونشتاق إليه من أحبائنا من البشر. يمكن أن تقودنا خيبة الأمل هذه، التي لا مفر منها، إلى عذاب الزيجات أو العلاقات المتتابعة (المتعددة). وبدلاً من أن ندرك أن الله وحده هو الذي يمكنه في النهاية أن يلبي حاجتنا الحقيقية، يستمر البعض في محاولة البحث عن الشبع في علاقات جديدة؛ لأنهم يعتقدون أن ما يحتاجونه فعلاً هو مجرَّد العثور على "الشخص المناسب".. وإذا ترجمنا هذا التعبير فهو يعني عادةً شخصًا جديدًا. لا تقودنا المسيحية إلى التركيز على العثور على الشخص المناسب؛ بل تدعونا لنصبح نحن الشخص المناسب.

استخدم عدم رضاك- أو حتى ضجرك من الحياة ومن العلاقات الجديدة- كبوصلة تُوجِّهك إلى قمة شغف قلبك الحقيقية: الله ذاته. ذكِّر نفسك أن العملية نفسها ستُكرر ذاتها حتمًا في سلسلة الزيجات أو العلاقات.. حماسٌ مفرط في البداية، يتبعه إثارة اكتشاف أحدكما الآخر، ثم وفي مرحلة معينة تأتي خيبة أمل قاسية ومتزايدة.

كل هذا يعود بي إلى التشبيه الذي ذكرته في الفصل الأول.. لا يفيد أن أستبدل الكمبيوتر القديم بآخر من الطراز نفسه. قد تبدو شاشته جديدة لأسابيع عدة، وقد تبدو ألوانه زاهية أكثر من ذي قبل، لكن في نهاية المطاف سأجد نفسي أعمل دخل نفس المحدوديات.

جميعنا نشبه هذا الكمبيوتر القديم الطراز، وقلبنا يتوق إلى الطراز الأحدث. في الواقع، لا يمكن لشخصٍ آخر أن يكمِّلنا. قد يبدو الشريك الجديد حديثًا لسنتين أو ثلاث، وقد يبدو زاهيًا أكثر مع تجاعيد أقل، لكن في النهاية سنكتشف أن محدوديات الشريك الجديد هي نفسها محدوديات

الشريك الذي "استبدلناه". لقد أصبح القول الشهير أوغسطينوس محفوظًا لدرجة أنني ترددت في اقتباسه، غير أنه لا يزال حقيقة أكيدة: "قلوبنا لن ترتاح إلا فيك (الله)."

أنبه هنا إلى أمرٍ واحد: مع أن قلوبنا لن تجد راحتها إلا عندما يكون الله جزءًا من المعادلة، نجد في الكتاب المقدس حقيقةً مذهلة.. وهي أنه بعدما خلق الله آدم سرعان ما أعلن التالي: «ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له مُعينًا نظيره» (تك ٢: ١٨)- على الرغم من أن الله وجد لذَّته مع بني البشر. من الواضح أن الله خلقنا وخلق فينا احتياجًا للاستمتاع بعلاقات أخرى بالإضافة إلى استمتاعنا بعلاقتنا معه حصريًا،[8] غير أن الله يجب أن يتربَّع على عرش قلوبنا الذي تُستَمد منه كل العلاقات الباقية.

اجعل لعلاقتك بشريك حياتك أن ترشدك إلى ما تحتاجه أكثر من أي شيء آخر: محبة الله وحضوره الحي في حياتك. والأهم من ذلك لا تُلقِ باللوم على شريك حياتك بسبب عدم شعورك بالشبع، بل ألقِ باللوم على نفسك لأنك لم تسعَ إلى علاقة مشبعة مع الله. إن الرهبان والراهبات الذين وجدوا مسرةً في سعيهم الانفرادي نحو الله يشهدون لحقيقة أن غياب الحميمية الجنسية لا يمثل سببًا مؤكدًا للتعاسة، ولا يمثل عائقًا للتمتع الروحي. عندما تكتشف هذه الحقيقة، سيكون من المدهش لك أن تكون مكتفيًا بغض النظر عن الشخص الذي تعيش معه.

> اجعل لعلاقتك بشريك حياتك أن ترشدك إلى ما تحتاجه أكثر من أي شيء آخر: محبة الله وحضوره الحي في حياتك.

إن الطريقة الأفضل للتعامل مع مشكلة عدم الرضا في الزواج، مهما كانت درجتها، هي من خلال الصلاة التالية: "لهذا السبب أنا بحاجة

إليك يا رب." هذا يذكِّرنا بوجع الاشتياق المتسامي في أرواحنا، والذي لا يمكن حتى لهذا الشخص المميَّز جدًا أن يخففه بمفرده. مهما بدا غريبًا ما سأقوله، فقد اكتشفتُ في حياتي الشخصية أن شعوري بالرضا أو شعوري بعدم الرضا داخل الزواج مرتبط إلى حد كبير بعلاقتي مع الله أكثر من ارتباطه بعلاقتي مع ليزا. عندما تصبح مشاعري فاترة تجاه الله، ستعاني علاقاتي الأخرى.. فإذا شعرتُ بالاغتراب في العلاقة ناحية زوجتي، أو بالنقص في العاطفة تجاهها، فأول ما يجب أن أفكِّر به هو شكل علاقتي مع الله. تشكِّل ليزا، بكل معنى الكلمة، الترمومتر الذي يُظهر حرارة علاقتي مع الله.

حمل صورة الله

أنام كل ليلة إلى جانب مرآه تعكس صورة الله.

يعلِّمنا الكتاب المقدس أن الله خلق الرجل والمرأة كليهما على صورته ومثاله (راجع تكوين ١: ٢٦ و٢٧). إن فهم هذه الحقيقة يجب أن يذكِّرنا دائمًا بحضور الله؛ لأنها تتيح لنا أن ندرك أن شريكنا يساعدنا لأن نجمع صورة أشمل عن طبيعة الله وشخصه.

يشير الكاتبان دان آلندر وترمبر لونجمان إلى مدى أهمية أن يجسد الرجل والمرأة أحدهما للآخر جوانب من وجود الله: "بما أن قوة الزوج تساعده على الإشارة إلى صفات الله القوية، فبإمكانه أن يساعد زوجته على رؤية هذا الجانب من وجود الله بوضوح من خلال تجسيده لهذا الجانب، مع أنه لا يقوم بالأمر على نحو كامل. من جهة أخرى، بمقدور المرأة بحنانها وعطفها أن يزيدا من وعي زوجها برحمة الله ورأفته (١بط ٣: ١ و٢)."[9]

لقد رجوت زميلاً لي في الكلية كي لا يتزوج؛ لأنه في خلال فترة مواعدته كان وصديقته يتشاجران طوال الوقت. ويعود السبب جزئيًا إلى أنهما كانا متناقضين من حيث طبيعة الشخصيات.. فهو كثيرًا ما يكون قاسيًا، وفظًا، وغير لبق على نحوٍ لا يُصدَّق؛ بينما صديقته كانت إحدى أكثر النساء اللواتي عرفتهن رقةً. في إحدى المرات، "واجه" ستيف لورا وصارحها بإخفاقها كحبيبة في سبعة أمور. وعندما عبَّرت عن شكي في أن ستيف يُلقي عليها الكثير من اللوم مرة واحدة، كان جوابه: "لكن يا جاري كان بإمكاني قول أكثر من ذلك بكثير!"

ومع ذلك، عندما نما كل من ستيف ولورا في علاقتهما مع الرب يسوع، تغيَّر كلاهما في كثير من الأمور الإيجابية. قد لا يكون ستيف قد نما من ناحية اللباقة، ولكن يُحسب له أنه بدأ في ممارسة فضيلة التواضع المسيحية، واختار طوعًا تعلُّم الرقة من لورا. واحترمت لورا بدورها جرأة ستيف على قول الحقيقة، بغض النظر عن العواقب، وأدركت أنه ليس من الجيد أن تفرط في رقتها في كل الظروف. وبعد ثلاث عشرة سنة من الزواج، أصبحا يتمتعان بعلاقة مدهشة.. يتمتعان في الواقع بإحدى أقوى العلاقات الزوجية التي رأيتها في حياتي. فلقد ساعد كل منهما الآخر أن يتقرَّب من صفات الله، فيما جسَّدا قوة الله وحنانه (بشكل واضح للغاية).

إن وضعنا كمتزوجين لا يذكِّرنا بطبيعة الله وصفاته فحسب، بل أيضًا يذكِّرنا بحقوقه الأدبية على حياتنا. إن إحدى مشاكل الروحانية المسيحية العظيمة على ما يبدو هي مشكلة النسيان. يطلب الله منا أن نتبنى بعض الأولويات ونسلك وفقًا لها، غير أننا "ننسى" أمر هذه الأولويات ونسلك كما يحلو لنا. إن الله معنا دائمًا، ومع ذلك "ننسى" حضوره المباشر، ونعامل زوجاتنا أو أولادنا بطريقة لم نكن سنعاملهم بها لو كان راعينا

أو أحد أعضاء الكنيسة جالسًا معنا حول المائدة.

إن وضعنا كمتزوجين لا يذكرنا بطبيعة الله وصفاته فحسب، بل أيضًا يذكرنا بحقوقه الأدبية على حياتنا.

إن الأزواج الأتقياء والزوجات التقيات يجعلون الله يبدو أكثر واقعية وحيوية في المنزل. لطالما أحببت الأفلام، غير أن الأفلام ليست بوسيلة ترفيه آمنة دائمًا؛ لذا تقوم ليزا في هذا النشاط إلى حد ما بدور الضمير بالنسبة لي. لسبب لست أفخر به، أشك أن معايير اختياري للأفلام ستكون منحطة قليلاً لو علمتُ أن ليزا ليست في الغرفة تشاهد الفيلم معي. حتى بعد خمسة عشر عامًا من الزواج، تبدو مشاهدتي لفيلم برفقة ليزا كأنني أشاهده برفقة الله. لا يمكنني أن أتخيلها تقول: "هل قمت باستئجار هذا الفيلم؟!"

أصاب ديتريش بونهوفر عالم اللاهوتيين بالصدمة عندما أصبح كلاهوتي لوثري في أوائل القرن العشرين يؤيِّد مبدأ أن يرجع البروتستانت إلى تأسيس ممارسة الاعتراف. لم يفعل ذلك لأنه شعر أن الاعتراف أمام شخصٍ آخر ضروري بهدف الحصول على المغفرة من الله، بل لأن للإيمان المسيحي غاية عملية -فهي تجعل خطيئتنا تبدو حقيقية أكثر بالنسبة لنا.

إذا شككت بحقيقة هذا الأمر، فاسأل نفسك إذًا لِمَ يبدو الاعتراف إلى الله أسهل بكثير من الاعتراف لراعي كنيستك؟ لماذا عندما ينكشف ضعفي أمام إنسان، خاطئ مثلي، أشعر بالخزي أكثر مما أشعر به عندما أعترف بنفس الضعف أمام الله كلي القداسة؟

هل يرجع هذا لأن حضور الله ضعيف جدًا في حياتنا؟ لو أننا حقًا نفهم جمال الله وقداسته ونقدِّرها، قد نرتجف أكثر عندما نقترب من

> من خلال شريك الزواج وفي شخصه، يصير الله ملموسًا لدينا في شكلٍ بشري.

الله.. غير أن عدم رؤيته غالبًا ما يخلق بيني وبينه ما يُسمى بمخفِّف الصدمة، وبالتالي يلطِّف وَقع حضوره عليَّ.

من خلال شريك الزواج، وفي شخصه، يصير الله ملموسًا لدينا في شكلٍ بشري. هناك شخص من لحم ودم جالس إلى جانبي تنفعل عندما ترى ما يجب أن يثير انفعالي لكنني لا أفعل؛ فأرى قلبي القاسي يُفضَح من خلال قلبها الرقيق.

بالطبع ينطبق هذا الأمر على كلينا.. أحيانًا أحاول مساعدة ليزا على أن تفهم كيف تبدو عندما تكون مرهقة، وتصيح في وجه الأولاد. وعندما ترى رد فعلي ظاهرًا على وجهي، تُدرك أنها سمحت لخطية الآخرين أن تدفعها إلى ارتكاب خطية من جانبها.

يمكننا أن نساعد بعضنا بعضًا لنصبح أكثر إحساسًا بحضور الله من خلال تشجيع أحدنا الآخر للنمو في حياة القداسة. ومع ذلك يجب أن نقوم بهذا الأمر بحذرٍ بالغ- نحن نريد أن نأتي بحضور الله لشريك حياتنا لا أن ندينه. ويُعتبر توجيه أحدنا الآخر إلى حضور الله حتمًا تدريبًا روحيًا أساسيًا في حياة الأزواج والزوجات.

إن الزواج الذي يتمتَّع بروح التمييز يمثل أداةً للتقديس؛ لأننا عندما ننظر إلى شريك حياتنا، فإننا نتذكَّر حضور الله وصورته. وفي حضور الله، نتوق لنصبح أكثر قداسة. يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحدٌ الرب» (عب ١٢: ١٤).

إن هذا التعاون في سبيل القداسة ليس بالتدريب السهل.. فأنا

أميل إلى إخفاء أخطائي بدلاً من العمل على تغييرها. كل يوم أختار إما أن أصرف طاقتي على إخفاء أخطائي ومحاولة الظهور بصورة زائفة براقة، أو أن أتوب وأتعاون مع الله لأصبح شخصًا أكثر قداسة. إن العيش إلى جانب امرأة على صورة الله يدعوني إلى الصدق وإلى التقديس، بشرط أن أسمح لزواجي أن يذكِّرني بحضور الله وبحقوقه على حياتي.

عملية الخلق

وقفتُ على مرتفعات ماري في مدينة فريدريكسبرج في ولاية فرجينيا، ونظرتُ إلى موقع لمعركة شنيعة وقعت خلال الحرب الأهلية عام ١٨٦٢، ولم أتوقف عن الهمس قائلاً: "يا لها من خسارة!" في هذا الموقع، حاولت قوات الاتحاد بحماقة أن تسيطر على جدار لا يُخترق، والتوجه صعودًا في محاولة للاستيلاء على المدينة. لم يكن هذا سوى هدف تدريبي للقوات الكونفدرالية. تعرَّض أول فوج لمجزرة؛ فاستدعى جنرال الاتحاد آمبروز أفيريت برنسايد فوجًا آخر. فرح الكونفدراليون بشجاعتهم، وانتظروا إلى أن اصطفت الجيوش ليطلقوا النار على كل واحد منهم، حتى أردوهم الى آخر جندي.

ومع ذلك أرسل الجنرال فوجًا آخر، فتعرَّض لنفس المصير. كل رجلٍ فُقِد كان ابنًا، أو زوجًا، أو خالاً، أو عمًا، أو أبًا، أو أخًا. لابد وأن كل نفس فُقِدت أحسَّ بها شخص واحد على الأقل. وتبددت هذه النفوس فعليًا بسبب مأمورية غبية.

أمور قليلة تُغضبني أكثر من حياةٍ تضيع سدى.. فعندما أسمع عن تلاميذ في المرحلة الثانوية كانوا يقودون بجنون، وانتهى بهم المطاف أمواتًا قبل أن يحتفلوا بعيد ميلادهم التاسع عشر؛ وطلاب في الكلية

يذهبون إلى حفلة شرب قاتلة، ويلقون حتفهم جراء تسممهم بسبب الكحول قبل أن يحتفلوا بعيد ميلادهم الواحد والعشرين؛ وعندما أقرأ عن خسارة حياة كان يمكن تجنبها.. أشعر بحزن غير عادي وعميق.

أمور قليلة تُغضبني أكثر من حياةٍ تضيع سدى.

ينبع هذا الشعور جزئيًا من عقيدة لاهوتية عندي.. بما أننا خُلِقنا على صورة الله، فعلينا مسؤولية، ألا وهي الخلق. سواء أسسنا عملاً، أو بنينا منزلاً، أو عائلة، أو ألفنا كتابًا، أو عشنا تاريخًا (من خلال الثقافة أو الطب)، أو مهما يكن ما نختار عمله، لا يجب أن نهدر حياتنا بل نعيشها على نحو مثمر.

يقودنا الزواج إلى دائرة الخلق.. من المؤكد أنه ما من طريقة مقدسة لإنجاب الأطفال ولخلق حياة جديدة خارج الزواج. إن الغموض والرهبة والعجب المُطلق الذي يرافق الولادة هو أمرٌ يتجاوز هذا العالم. عندما وضعوا بين ذراعي زوجتي طفلتنا الأولى العارية والمغطاة بالدم، خالجتني مشاعر لم أشعر بها من ذي قبل؛ وبين ليلةٍ وضحاها وضعتُ حدًا لسلبيتي. لم أُعد التفكير في توجهاتي العقلية تجاه المسيحيين الذين يشتركون في المعارك الحربية، لكني علمتُ في أعماقي أنني سأقوم بكل ما يلزم لحماية هذا الطفل والزوجة التي حبلت به.

إن خلق عائلة يمثل الخطوة الأقرب التي نملكها لمشاركة صورة الله. إن رؤيتك لطفلك الذي خلق "جزئيًا" على صورتك هو أمر مخيف عندما نقارنه مع فكرة أننا مخلوقون على صورة الله. اعتدت على "مشاكسة" الأولاد الصغار.. أحبُّ أن ألعب معهم، وأمارس حيلاً وخدعًا معهم. والآن يقوم ابني البالغ من العمر تسع سنوات بالأمر نفسه عندما يكون برفقة أولادٍ أصغر منه سنًا. ويُدهشني أنني عندما أختبر تجديدًا في

إيماني، فإنني أُفاجأ بأن أجد أن ابني اكتشف في نفسه عطشًا جديدًا نحو الله. إنه لأمر يثير التأمل أن أدرك أنني من خلال سلوكياتي أشكل حياة ثلاثة أطفال صغار.

لكن هذا النوع من الخلق يتطلَّب مجهودًا. زرتُ مرة منزل را عٍ، وأظهر أولاده سلوكًا حسنًا لا يُصدَّق. وبعد أن أظهرت ابنته سلوكها الحميد استدرت نحو صديق آخر وسألته: "هؤلاء بشر حقيقيون، أليس كذلك؟" فضحك صديقي.

لكن في صباح اليوم التالي، فيما كنت أتناول الفطور مع هذا الراعي، اعترف لي أنه بعد رحيلي من منزلهم ليلة أمس صرف أكثر من ساعة ونصف يتحدث حول أمر صعب مع ابنته. وكان يقوم بأمر مماثل مع ابنه بشكل يومي. فقد كانت تطرأ أمور تسترعي انتباهه كل يوم.

صدمني مقدار المجهود والوقت والمتعمد الذي كان يُغدق به هذا الرجل التقي على عائلته. كان منشغلاً أكثر مني، لكنه كان يضحي بأوقاتٍ هائلة من حياته الشخصية ليستثمر جهوده في المساعدة في بناء حياة أشخاص آخرين. وأدركتُ أن بناء العائلة ليس بهواية ثانوية، بل يتطلَّب طاقة هائلة، وتركيزًا كبيرًا، وإنكارًا شديدًا للذات.

عندما يُفقَد هذا النوع من الخلق يَفقِد الزواج بعضًا من سموه الروحي. يُخبِر الكاتبان دان آلندر وترمبر لونجمان قصة رجلٍ اسمه «چاك» ليسلِّطا الضوء على النتائج التي تتركها خسارة هذه القوة الخلاقة على العيش الهادف:

> رفض "چاك" أن يتخيل كيف سيكون حاله لو ملك الرب على أعماق قلبه. لكن رَفْض چاك أن يرى روحه على أنها

الميدان الرئيسي للعمل الخلاق، تركه بدون أي حلم تجاه زوجته وأولاده. لم يعد لديه أي رؤية لما هم عليه وعما كان يجب أن يصبحوا عليه، ولا حتى رؤية لنفسه. لقد أحبهم، لكنه لم يحلم بشأن حياتهم ووجودهم قط. كان خلاقًا في عمله، ولكن ليس من جهة عائلته. بالتالي، تُرِكَت عائلته في فوضى المرحلة الوسطى.. تتحرك بدون هدف، مُحاطة بالضجر والوحدة المُظلمة للوضع الراهن.[10]

إن كنا لا نكتسب حسًا روحانيًا بالإبداع والعمل الخلاق، فسنختبر شعورًا بالفراغ قد نُرجعه خطأً للزواج. ومع ذلك، ليس هذا الفراغ وليد زواجنا، بل هو نتيجة أننا غير منشغلين بزواجنا. نحن لا نستثمر هذه العلاقة القوية بهدف خلق شيء ما. في العديد من المؤتمرات التي أحاضر فيها أُخبر المستمعين أننا خُلِقنا لنَعبُد؛ وإذا كنا لا ننمو في عبادتنا لله، سننحدر إلى مستوى عبادة إله آخر.. السلطة، أو المال، أو سمعتنا، أو فريق رياضي، أو أي شيء آخر. بالطريقة نفسها، إذا كنا لا نمارس العمل الخلاق في زواجنا.. وإذا كنا لا نُشبِع نفوسنا من المعنى الذي يأتي من خلال القيام بما خُلِقنا لأجله، سنصبح أشخاصًا يصعب إرضاؤنا إلى حد كبير. إن الحصول على ترقية لن يملأ فراغ نفوسنا.. على الأقل ليس لوقت طويل. ومن المؤكد أن متابعة أحدث المسلسلات الدرامية أو المسلسلات الاجتماعية لن يولِّد فينا الشعور بالرضا أيضًا.

عندما يُفقَد هذا النوع من الخلق يَفقِد الزواج بعضًا من سموه الروحي.

هل سبق ولاحظت كم أن ثقافتنا تعيش على الإبداعات التي يقوم

بها الآخرون؟ فكر في عدد حفلات تقديم "الجوائز" التي تملأ محطات التليفزيون.. جوائز الـ «جراميز» (Grammys)، «جواز الشخصيات» (People's Awards)، «جوائز دليل التلفزيون» (TV Guide Awards)، «جوائز الأفلام أو الكتب الرائجة» (Blockbuster Awards)، جوائز «شبكة قنوات MTV»، «جوائز الكرة الذهبية»، جوائز الحمامة (Dove Awards)، جوائز الـ «إميز» (Emmys)– واللائحة طويلة.. هكذا تعيش ثقافتنا على إنجازات الآخرين وتكريمهم.

أنتَ خُلِقت كي تبدع بدورك. إذا كنت لا تبدع بكل طاقتك وتركيزك –سواء كنت تُعد الطعام، أو تزيِّن المنزل، أو تحقِّق حلمًا مهنيًا، أو تربي الأولاد بروح مسؤولية– ستشعر بأنك أقل من إنسان؛ لأنك في الواقع تسلك بنمط دون البشر. إن السير في طريقٍ مسدود، والعمل في وظيفة كئيبة، وقضاء الأمسيات أمام جهاز التلفزيون، وقضاء عطلات نهاية الأسبوع بطريقة "قتل الوقت" يبدو كالجحيم على الأرض؛ لأنه بالفعل كذلك. هذه حياة ضائعة، خالية من طاقة الله الخلاقة. لم يعرف تاريخ البشرية كلها زواجًا يُشبع نفسًا بلا غاية من خلال عيشٍ غير خلاق.

يدعونا الزواج إلى الإبداع والعمل الخلاق.. كل يوم دون استثناء، ويقودنا إلى أعمال خلاقة عديدة ومتنوِّعة. تحضر زوجتي حفلات لا تُصَدَّق من أجل أولادي.. مؤخرًا حضرت حفلة لابنتي الصغرى بمناسبة عيد الحب كان يجب عرضها في مجلة. يجب أن نستغل هذه الفرص، ونستخدمها دون أي تحفظ. عندما نفعل هذا، قد نتفاجأ بمشاعر الشبع والرضا اللذين يجلبهما العمل المبدع على حياتنا.

> أنتَ خُلِقت كي تبدع بدورك.

بالطبع يجب أن يكون للإبداع نقطة ارتكاز صحيحة.. تمجيد الله.

إن «الإبداع» في تنشئة أولاد مثلنا لا يساوي الإبداع في تنشئة أولاد ناضجين في الرب، يعيشون ليخدموه. إن تأسيس عمل لتكريم الله لا يساوي أبدًا صنع تمثال يذكّرنا بنجاحنا. يمكن اكتشاف كرم الضيافة المزيف بسهولة.. عندما يُقدَّم في الأساس لإثارة الإعجاب والحصول على التقدير- وهو بعيد كل البعد عن الخدمة الحقيقية.

إن ما يجعل الروحانية في الزواج صعبة هو غياب الهدف والغاية في الزواج.

لكن الرجل والمرأة اللذين يكرّسان نفسيهما لرؤية أحدهما الآخر ينمو وينضج مع الرب، ويربيان أولادًا يعرفون الله ويُكرمونه، ويرتبطان بعمل يساند عمل الله على الأرض ويُمارَس في سياق العلاقات والأمانة في كلٍ من الوقت والمال- هؤلاء المؤمنون يشاركون في العمل الخلاق الذي يولد في النفس السوية روحيًا فرحًا وغاية واكتفاءً لا يُقاس.

أعطانا الله الامتياز والفرصة لكي نضع أنفسنا وعائلتنا في «سعيٍ مجيد»[11]، ونصبح شركاء في الطبيعة الإلهية (راجع ٢بطرس ١: ٤)، لنعكس صورة يسوع المسيح الحقيقية. وعندما نقود عائلاتنا بجدية (وبنعمة) على درب التقديس التدريجي، يبدأ مجد الله في الانعكاس من خلالنا.

من الواضح أن الزواج يوفر مناخًا يقودنا مباشرة إلى العمل الخلاق.. هذا واجب روحي وانضباط من الطراز الأسمى.

زواج هادف

هذه الحقائق تقودنا إلى إدراك أن الزواج، في حد ذاته، لا يجعل

السعي وراء الله والاستمتاع بحضوره أمرًا صعبًا. إن ما يجعل الروحانية في الزواج صعبة هو غياب الهدف والغاية في الزواج. عندما لا نسعى للتواصل، وعندما نتجاهل وجع الاشتياق إلى الله اللامحدود، ونحاول تسكين هذا الوجع من خلال الاستئناس بالبشر وحدهم، وعندما نفشل في رؤية صورة الله في شريك الزواج، وعوضًا عن ذلك نعيش في حياة خدَّاعة؛ وعندما نصبح غير مرتبطين معًا كزوجين، ولا نستمتع بدعوة الزواج لنا لنبدع.. فهذا هو ما قد يقودنا في النهاية إلى الانفصال عن الله.

يشبه الزواج في نواحٍ كثيرة منحدرًا زلقًا. إذا لم نكن حذرين سنسقط بعيدًا عن العلاقة.

يشبه الزواج في نواحٍ كثيرة منحدرًا زلقًا.. إذا لم نكن حذرين سنسقط بعيدًا عن العلاقة. وإذا كنا بلا حمية، ستتجمد حساسيتنا الروحية. لكن إذا دخلنا الزواج على نحوٍ مدروس وهادف، ومع نوايا تقية، سيشكِّلنا زواجنا بطريقة مميزة نادرًا ما يمكن لاختبارات أخرى أن تحققها.. وسيُدخلنا زواجنا إلى محضر الله.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) كيف يمكن للزوج والزوجة أن يستدعيا بوعي أكبر حضور الله إلى زواجهما؟

(٢) هل كلماتك التي تتفوه بها تدعو حضور الله إلى منزلك أم تبعده؟

(٣) هل سبق واختبرت "الصمت الخبيث" في حياتك الزوجية؟ كيف يشكِّل صمتك هذا إهانةً للرب؟

(٤) كيف يؤدي الإصغاء إلى استدعاء حضور الله إلى منازلنا؟

(٥) كيف يمكن لعدم الرضا الزوجي أن يذكِّرنا بحاجتنا للشركة مع الله؟

(٦) هل توافق «جاري» حين يقول: "اكتشفتُ في حياتي الشخصية أن شعوري بالرضا أو شعوري بعدم الرضا داخل الزواج مرتبط إلى حد بعيد بعلاقتي مع الله أكثر من ارتباطه بعلاقتي مع ليزا"؟ كيف يكون ذلك؟

(٧) كيف يعكس شريك الحياة صفة من صفات الله تفتقر أنت إليها إلى حد ما؟ ما الذي يمكنك أن تتعلَّمه من هذا؟

(٨) يقول «جاري» لو أن راعي كنيستنا كان يعيش معنا لكنا عاملنا شريك الحياة على نحو مختلف في حضوره- غير أن الله حاضر دائمًا معنا! كيف يمكننا أن نصبح أكثر إدراكًا لحضور الله، ونوفر مناخًا بَناءً ومشجعًا أكثر في بيتنا؟

(٩) يحذِّر «جاري» قائلاً: "لم يعرف تاريخ البشرية كلها زواجًا يُشبع

نفسًا بلا غاية من خلال عيشٍ غير خلاق." هل منعتك انشغالات الحياة من الاندماج الكامل في بناء العائلة معًا؟ ما الذي يمكنك فعله لتصبح خلاقًا أكثر في عائلتك؟

(١٠) "العائلة التي ستتمتَّع بحضور الله كجزء معتاد من اتحادهم هي عائلة مترابطة بالتحديد لأن الزوج والزوجة يريدان أن يدعوا يسوع للدخول إلى أعماق حياتهما الزوجية." ما هي الجوانب المستترة في زواجك التي لم تفكّر أبدًا في دعوة الرب يسوع إليها من قبل؟ كيف ستبدأ في دعوته إليها؟ وما هي النتائج المتوقعة من هذه الخطوة؟

الفصل الثالث عشر

مهمة مقدسة

بإمكان الزواج أن ينمي دعوتنا الروحية، ورسالتنا، وغايتنا

لوقتٍ طويل دعتنا المسيحية إلى هذه الحقيقة: يجب أن يتركز الزواج على شيء أكثر من الزواج نفسه؛ لأن المحبة التي لا تخدم الحياة تموت.

– إيڤلين چيمس وايتهيد

سألتُها باللغة الإسبانية: "«إيستا» ليزا؟"

ومن ثَمَّ سمعتُ ثرثرة باللغة الإسبانية لم أفهم منها شيئًا.

فكررت باللغة الإسبانية: "«إيستا» ليزا؟"، آمِلاً أن تفهم السيدة المكسيكية شيئًا مما أقوله، وتصلني بحبيبتي على الهاتف.

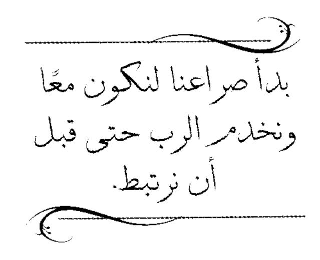
أخيرًا حضرت ليزا على الطرف الثاني من الخط، لكن مكالمتنا لم تكن مبهجة على الإطلاق. وبكل صراحة، تخلل المكالمة تنهُّد طويل ومتبادل، ونبرة من الإحباط.. من جانب كل منا. أتت هذه المكالمة في الصيف الذي

سبق خطبتنا، وكانت ليزا في رحلة إرسالية في المكسيك. وقد فترت العاطفة في رسائلها قليلاً خلال هذا الصيف، وبدأت مشاركاتها عن نفسها وعن مشاعرها تقل تدريجيًا؛ بينما أكثرت من مشاركتها عما كانت تقوم به في عملها، وعن ذلك الشاب القوي الذي كان يساعدها، والذي كانت تمضي الكثير من الوقت معه.

إن عدم ذِكرها لأي شيء تقريبًا عن علاقتنا في رسائلها، أو أي شيء يدل على أنها تفتقدني جعل القلق يتسرب في داخلي. ثم ذكرت ليزا بشكل عرضي أنها تفكِّر في تمديد رحلتها لسنة كاملة، فكان الأمر مؤلمًا بشكل مضاعف، وبحسب ما أذكر كان الشاب الذي يساعدها يفكر في الشيء نفسه.

لم يسبق لي أن اتصلت بليزا قبل هذه المرة. كان هذا في الأيام التي تمتَّعت فيها شركات الهواتف باحتكار مطلق، وكانت الاتصالات الدولية مكلفة على نحوٍ رهيب، خاصة بالنسبة لطالب جامعي شبه معدم مثلي. كانت الرسائل الإلكترونية لا تزال دربًا من الخيال العلمي آنذاك، على الأقل بالنسبة لعامة الشعب.

لا أعلم كيف بدأت المكالمة الهاتفية، لكن تخللها بعد مضي نصف الوقت صمت طويل استمر لأكثر من دقيقة على الأقل. ومن ثَمَّ كسرتُ الصمت بسؤالٍ لا ينم عن الكثير من اللطف (ولا عن الكثير من الفطنة): "هل لديك أدنى فكرة كم يكلفني هذا الصمت؟!"



بدأ صراعنا لنكون معًا ونخدم الرب حتى قبل أن نرتبط. كنت أريد

أن تخدم ليزا الرب- طالما كانت تقوم بذلك برفقتي، وآنذاك لم أكن منفتحًا لأي احتمالات أخرى.

كان من الممكن أن أتعلَّم بعض الأمور من أحد أبطالي آنذاك، وهو القس الألماني «ديتريش بونهوفر»، الذي كان مرتبطًا وينوي الزواج عندما دخل زنزانته في سجن «تيجل» بعد القبض عليه لأنه كان جزءًا من مكيدة للإطاحة بأدولف هتلر. من المؤكَّد أن بونهوفر بحماسه لحب جديد، وطمأنينته لمبادلة هذا الحب، كان تحت ضغط أن يعيد التفكير في النتائج القاسية التي ستترتب على مهمته الشخصية بإيقاف هتلر بأي ثمن. ولو ألغى مهمته هذه، لكان توقَّع حياةً أسهل وأكثر متعةً، ولكان تزوَّج من ماريا، وعاش بقية عمره كأستاذ في الجامعة. غير أنه خاطر طواعية بحياة هادئة نسبيًا، واختار الانخراط الثوري بما له من نتائج غير مضمونة.

طرح «بونهوفر» أسئلة صعبة وجوهرية وهو منعزل في زنزانته. في إحدى قصائده التي كتبها خلال حبسه طرح السؤال التالي: "مَنْ أنا؟" وتأمَّل كيف كان الناس يمدحونه دائمًا بسبب لطفه وبشاشة وجهه وقبوله؛ غير أنه في أعماق نفسه كان يختبر شعورًا مختلفًا عن هويته. وفي وسط عذاب النفس راح يطرح على نفسه أسئلة تفطر القلب:

مَنْ أنا؟ هذا أم ذاك؟
هل أمثِّل اليوم شخصًا، وغدًا أكون شخصًا آخر؟
هل أنا الاثنان معًا؟ هل أنا منافق أمام الآخرين وأمام نفسي شخص مُحتَقَر وكئيب وواهن؟...
مَنْ أنا؟ أسئلتي هذه هي مَنْ تهزأ بي.
أيًا مَنْ كنتُ، أنتَ تعلم يا رب أني خاصتك.[1]

أريد التركيز على السطر الأخير: "أيًا مَنْ كنتُ، أنتَ تعلم يا رب أني خاصتك."

إن حميمية العلاقة الزوجية أمرٌ يرغب معظمنا في الحصول عليه، لكن كيف ندخل هذه الوحدة بدون أن نتخلى عن دعوتنا الشخصية أمام الله؟ كيف نتعهَّد أننا سنكون أمناء، ونستمر في "السقوط إلى الأمام" باتجاه شريك الحياة دون أي تحفُظات، في الوقت الذي سبق وتعهَّدنا بأن نكون متاحين بدون تحفظُات لخدمة الله؟

ليس من السهل تحقيق التوازن بين ما تتطلبه علاقة بشرية قوية، ودعوة روحية أشمل وأكبر. إن إحدى تحديات الزواج العظمى (والتي غالبًا ما لا تُكتشف) هي الحفاظ على الإحساس بالإرسالية الشخصية بينما تعيش داخل علاقة تعاون.

> معظم الكتابات المسيحية القديمة تفترض أن يبقى المؤمنون المخلصون "بحق" بدون زواج.

لم يُكتب الكثير عن هذا الموضوع لسببٍ بسيط.. وهو أن معظم الكتابات المسيحية القديمة تفترض أن يبقى المؤمنون المخلصون "بحق" بدون زواج. لكنني وجدتُ كاتبًا مسيحيًا كلاسيكيًا طرح هذا التحدي بشكل رئيسي.. وهو الكاتب «فرنسيس دو سال» (١٥٦٧- ١٦٢٢). درس «دو سال» الحقوق واللاهوت، وقام بإدارة خدمة إرشاد روحي فعَّال عبر المراسلة، وهو ما جعله «آن لندرز» القرن السابع عشر. تبدو نصائحه عميقة جدًا، وعملية ومفيدة؛ لذا أخصص جزءًا كاملاً من هذا الفصل لأجوبته عن رسائل بعث بها مؤمنون مخلصون يعيشون "في العالم".

رسائل لأشخاص يعيشون في العالم

ذات مرة كتَبت سيدة متزوجة لفرنسيس تعبِّر عن مخاوفها من

تعارض أمانتها الزوجية مع أمانتها الروحية. قام «دو سال» بنفي هذا القلق تمامًا، مشجِّعًا إياها بقوله: "لنظل على حالنا، ولنفعل ذلك جيدًا." بتعبير آخر، إذا كنا متزوجين فنحن متزوجون، ولا يجب أن نعيش على أننا غير ذلك. وأشار فرنسيس أننا إذا عشنا بهذه الطريقة فنحن "نُكرم السيد الذي نحن عمل يديه."[2]

إن قبول هذه النصيحة يستلزمنا ألا نقترف الخطأ الذي اقترفه چون ويسلي الذي تزوج ثم رفض تكييف حياته وفقًا لهذا القرار. قال ويسلي إنه كان مصرًا بألا يسمح لزواجه بأن يؤخر حياته، ولو على حساب عظةٍ واحدة. هذه الرؤية غير واقعية بالمرة، وحتى غير منصفة لشريك الحياة. للزواج واجبات.. قد يكون بعضها صعبًا بشكل ملحوظ بالنسبة للذين هم بطبيعتهم طموحون بشدة. هناك أوقات يجب فيها أن أُضحي بطموحي كي أنجح في خدمة الله؛ فأكون حاضرًا ومندمجًا بالتمام في حياة زوجتي وأولادي. بالتأكيد سيقودنا الصراع لطرح السؤال التالي: "إن كنت أتجاهل ابن/ ابنة الله (زوجي/ زوجتي) بهدف القيام بعمل الله، فهل أنا أُكرم الله بسلوكي هذا؟"

قد يكون الرجال المسيحيون مجربين أكثر من غيرهم بالسماح لطموحهم أن يضعف إخلاصهم الزوجي، لدرجة استخدام التعابير الدينية لتبرير خيانتهم لشريك الحياة. لكن «دو سال» حذَّر أنه حتى الإخلاص الروحي قد "يتخطى حدود المقبول". عندما نتزوَّج نقطع وعدًا محدودًا لشريك الحياة مفاده أننا سنكرِّس جزءًا ضخمًا من طاقتنا، ومبادرتنا، ووقتنا لبناء هذه العلاقة وتنميتها. وبالتالي عندما ندخل العلاقة الزوجية ثم نعيش كرجل أعزب أو كامرأة عزباء فهذا بمثابة خيانة روحية.

أما نصيحة فرنسيس لسيدة أخرى كان لديها مخاوف مشابهة –أي كانت تتوق لتصبح راهبة لكنها تشعر أنها واقعة تحت نير زواجها– أن

"الله لا ينظر إلى خُدَّامه بحسب كرامة الوظيفة التي يشغلونها" بل بحسب أمانتهم في ممارستهم إياها. سواء كانت السيدة تُشرف على مستشفى، أو مسؤولة عن منهج تعليم منزلي، فلا يُحدِث هذا فرقًا في عيني الله، طالما أن السيدة أمينة في دعوتها الخاصة في الحياة.

وكتب فرنسيس لسيدة أخرى كتبت له عن مواجهتها لصعوبة كبيرة في تحقيق الانسجام بين زواجها وعبادتها ما يلي: "تتعدَّد الوسائل التي تساعدك للوصول إلى الكمال بحسب اختلاف دعوة الحياة: الراهبات، الأرامل، والمتزوجون، عليهم جميعًا أن يسعوا إلى هذا الكمال، لكن ليس بالوسائل ذاتها." لقد شجَّع السيدة باقتراحه تدريبات روحية عديدة، ولكن من ثَمَّ حذَّرها "في خضم كل هذا، احرصي على نحوٍ خاص ألا يتألم زوجك، أو خدامك، أو والداك بسبب بقائك طويلاً في الكنيسة، أو خلواتك الطويلة (في الصلاة)، أو بسبب إغفالك بالاهتمام بأهل بيتك... لا يكفي أن تكوني تقية وتحبي العبادة، بل عليك أيضًا أن تجعليها محبَّبة للجميع."[3]

نحن لا نُحسن خدمة الله إذا كنا في خلال سعينا نحو حياة التقوى ننحي جميع مَنْ حولنا جانبًا

نحن لا نُحسن خدمة الله إذا كنا في خلال سعينا نحو حياة التقوى ننحي جميع مَنْ حولنا جانبًا. وأكَّد فرنسيس لها أنه "يجب أن نترك إلهنا أحيانًا بهدف أن نُرضي الآخرين محبةً في الله."

تقابلتُ مع سيدات يشعرن بإحباط لأنهن لا يستطعن الاشتراك بالكامل في الحياة الكنسية كما يتمنَّين؛ لأنهن متزوجات من أزواج غير مؤمنين. كان فرنسيس يشجع النساء للتعايش مع هذا النوع من الإحباط، وكان ينادي بأنه ليس أفضل شيء في حياة التقوى أن تغلب واجباتنا الروحية على التزاماتنا الزوجية.

إن أحد أعظم تحديات الزواج بالنسبة إليَّ هي الواجبات التي تبدو وكأنها لا تنتهي، والتي ترافق الحياة الزوجية. كيف لي أن أختبر السلام والسكينة، وأركِّز على حضور الله، وأكرِّس نفسي للعبادة بينما يجب ترتيب المنزل، والتخلص من النفايات، وقضاء وقت بمفردي مع الأولاد، وغسل الثياب، وطبخ وجبات الطعام، وإصلاح أعطال السيارة...

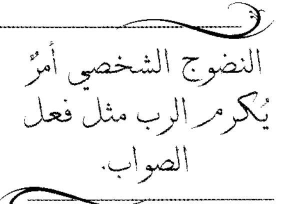
كانت هناك امرأة لها المخاوف نفسها، فكان فرنسيس رقيقًا معها، ولم يُدنها، وكتب إليها: "أتذكَّر أنك قلتِ لي كم هي مُرهِقة أعمالك الكثيرة"، وبدلاً من أن ينتقدها قام بتشجيعها قائلاً: "هذه فرصة جيدة لاكتساب الفضائل الحقيقية والراسخة."

في رأي فرنسيس، كثرة هذه الهموم في الواقع تغذي نمونا الروحي بدلاً من أن تفرغه، وذلك إذا تعاملنا معها بنكران مستمر للذات وتركيز على النمو الداخلي: "إن كثرة الانشغالات هي استشهاد دائم.. فكما تسبِّب الحشرات الطائرة ألمًا وتهيُّجًا للبشرة للذين يسافرون في الصيف يفوقان تعب السفر نفسه، فهكذا يسبِّب تنوع الانشغالات وكثرتها ألمًا يفوق الألم الناتج عن الإرهاق بسبب الانشغالات نفسها."

كتب «دو سال»، بافتراض رائع نفتقده في عالمنا اليوم، أنه كلما زاد الأمر صعوبة وجدناه مفيدًا روحيًا وبنَّاءً لشخصيتنا. من الطبيعي أننا عندما نواجه هذه المسؤوليات أن تطلب نفوسنا الراحة، لكن فرنسيس يحثنا على الخروج بأكبر قدر ممكن من المكاسب من هذه المسؤوليات المتراكمة بالسعي نحو تعلُّم الصبر والفضيلة والنمو على مثال المسيح.

إليكم أغرب ما في الأمر: لا يتشكل الصبر إلا في بوتقة الإحباط.. مما يجعل الزواج، بمتطلباته الكثيرة، أحد أفضل مدارس الصبر على الإطلاق. يحثنا «دو سال» أن نقرِّر أن نتمسك بالصبر في داخلنا خلال النهار في كل مرة نشعر فيها أننا مشتتون.

لقد شجَّع هذه المرأة أن تمارس أكثر "إماتة الجسد" من خلال عدم تضييع "أي فرصة، مهما كانت صغيرة لإظهار لطف القلب تجاه الآخرين." إن ممارسة فضيلة اللطف ليست بالأمر السهل (واعترف فرنسيس أن مَنْ أرسلت له الرسالة لن تنجح إلا بمعونة الله)، لأن القيام بالصواب شيء، والقيام به بدافع صحيح شيء مختلفٌ تمامًا- وستخضع دوافعنا وشخصيتنا حتمًا للاختبار خلال الزواج.



ويسترسل فرنسيس في الشرح قائلاً: "أنا أتكلم عن 'الاجتهاد الرقيق'، لأن الاجتهاد العنيف يُفسد القلب والعلاقات، وهو لا يُسمى اجتهادًا بل تعجلاً وتعبًا."

قَبِل فرنسيس بالافتراض القائل بأن النضوج الشخصي أمرٌ يُكرم الرب مثل فعل الصواب. بلا شك يُحد الزواج مما يمكننا فعله، لكنه يضاعف ما يمكن أن نصبح عليه. إذا ركَّز الرجل أو المرأة على نموه الروحي بدلاً من تركيزه على الإنجازات، سيجد أن علاقة الزواج توفر له/ لها مناخًا رائعًا لإتمام الرسالة المسيحية.

عالمًا أن التنقُّل بين انشغالات عديدة قد يصبح عبئًا، شجَّع فرنسيس الأم على المثابرة من خلال تذكُّر الأبدية:

> قريبًا سنبلغ الأبدية، وسنرى كيف تبدو انشغالات هذا العالم أمورًا صغيرة، ولا يهم كثيرًا ماذا كانت ستؤول إليه... عندما كنا صغارًا، كم كان شغفنا عظيمًا بينما كنا نجمع أجزاءً صغيرة من الطوب، والأخشاب، والطين لنصنع منها بيوتًا وبنايات صغيرة! وإذا قام أحدهم بهدمها، كنا نحزن ونبكي كثيرًا؛ لكننا الآن نجد أن الأمر لم يكن ذات

أهمية كبيرة. يومًا ما سنختبر الاختبار نفسه في السماء عندما نرى أن همومنا في هذا العالم كانت حقًا بمثابة لعب أطفال.

سرعان ما يوضح فرنسيس أنه لا يقول إن انشغالات هذا العالم لا قيمة لها على الإطلاق، وإنما يقول: "أنا لا أريد أن أُبعد عنكم الاهتمام الذي لابد أن نوليه تجاه هذه الأمور الصغيرة؛ لأن الله ائتمننا عليها في هذا العالم لنتدرَّب، غير أنني فعلاً أرغب أن أزيل الألم والقلق اللذين يسببهما هذا الاهتمام."[4]

وفي مناسبة أخرى خاطب «دو سال» سيدة حُبلى كانت مُحبطة للغاية بسبب الثقل الذي تشعر به في روحها، لكن فرنسيس طمأنها بقوله: "إن جسدًا رقيقًا يُثقله عبء الحمل، وتُضعفه متاعب الحمل بطفل، وتُقلقه آلام كثيرة، لا يسمح للقلب أن يكون في منتهى النشاط والقوة؛ ولكن هذا لا يؤثر سلبًا بأي طريقة على وظائف الجزء الأسمى من النفس."[5]

وحذَّرها بلطف قائلاً: "يا ابنتي العزيزة، لا يجب أن نكون غير عادلين، ونطلب من ذواتنا ما ليس في وسعها... اصبري على نفسك."

تسبب الهموم الزوجية حتمًا تقلبات عاطفية أكثر مما تفعله حياة العزوبية. أتذكَّر صباح أحد أيام الأحد على وجه الخصوص.. في الليلة السابقة لذلك الأحد كنتُ قد وعظتُ خلال أحد الاحتفالات، وفي اليوم التالي كان مقررًا لي أن أعظ في أربع خدمات متتالية في إحدى الكنائس. وقرر يومها اثنان من أولادي أن يشنا الحرب العالمية الثالثة في مطبخ منزلنا. كانت ليزا تستعد للذهاب إلى الكنيسة، وكان عليَّ أن أهتم بتجهيز الأولاد؛ وكنت منهكًا لدرجة أنني فقدت أعصابي.

أردتُ أن أصرخ: "هذا رائع! كيف يُفترض بي أن أعظ وأنا أعيش وسط هذه الفوضى؟!"

ذهبتُ إلى الكنيسة وأنا محطم عاطفيًا، وطلبتُ من العديد من الأشخاص أن يُصلوا من أجلي بعد أن شرحتُ لهم ما حدث.

لم أشعر بأني مستعد إلا بعد انتهاء الخدمة الأولى. وفيما كنتُ أتمنى لو أن الأمور لم تسِر على هذا المنوال في ذلك الصباح، فإنني أتذكرها الآن وأرى أن الاختبار ككل كان مفيدًا لي على المدى البعيد (من ناحية نمو شخصيتي)، مع أن الوضع لم يمثل استعدادًا جيدًا قبل «الأداء».

يتحدّاني «دو سال» دائمًا بقدرته المدهشة على رؤية كل صعوبة في الحياة على أنها فرصة للتقدُّم الروحي. عندما راسلته سيدة كان زوجها يصارع مع المرض، رد فرنسيس على مشاعر الوجع التي تكتنفها بالقول: "حقًا، لو كانت المحبة تسمح، لكنتُ أحببتُ أمراض زوجك العزيز لأنني أراها نافعة لكِ إذ أنها تساهم في إماتتكِ لعاطفتكِ ولمشاعركِ... كم من مرة يدعو العالم ما هو شرير صالحًا وأحيانًا أخرى أكثر بكثير يدعو ما هو صالح شريرًا!"

يمكننا أن نتبيَّن من خلال هذه الرسائل وغيرها أن «دو سال» لم يرَ الزواج كنوع من التنازل عن رسالتنا أمام الله، وذلك بالتحديد لأننا إذا انقدنا إلى الزواج، فحينئذٍ يصبح الزواج عنصرًا أساسيًا في رسالتنا. من المؤكَّد أنه ليس رسالتنا الوحيدة، لكن على الأقل يشكِّل الخطوط الأساسية التي تنطلق منها دعوتنا. يمكننا التوصُّل إلى هذا الاستنتاج لأن الرسالة لا تتضمن ما

> إن الرسالة لا تتضمن ما نفعله فحسب بل ما نصبح عليه. إن المسيحية هي واحدة من الديانات النادرة التي تربط الحقيقة الداخلية بالطاعة الخارجية.

نفعله فحسب بل ما نصبح عليه. إن المسيحية هي واحدة من الديانات النادرة التي تربط الحقيقة الداخلية بالطاعة الخارجية.

لا يمكننا ببساطة أن نركِّز على الالتزام الخارجي؛ فقد كان هذا هو الخطأ القاتل الذي ارتكبه الفريسيون. لكن من جهة أخرى، فإن التقوى الداخلية التي لا تُظهر اهتمامًا بالخدمة في العالم تمثل شيئًا منفرًا بنفس القدر. في الواقع، ستتقوى زيجاتنا عندما تكون نقطة التركيز خارج ذواتنا.

ارتباط خارجي

لديَّ صديق اسمه «مايك»، وهو شخص موهوب على نحو غير عادي. هو أحد أفضل الأشخاص الذين عرفتهم في فن التواصل اللفظي، وهو واحد من هؤلاء الأشخاص الذين بإمكانهم أن يجعلوك تضحك حتى تتوجع؛ ثم ينتقل بسلاسة إلى تحدٍ روحي عميق.. وكتاباته أيضًا تتمتع بمستوى رائع من الإتقان.

لقد أسس خدمة لطلاب الجامعة بدأت مع ستين مشتركًا، ووصل عددهم الآن لما يتعدى ٦٠٠ طالب في غضون سنوات قليلة. وبعد ذلك فاجأ العديد من الأشخاص بتخليه عن الخدمة وبدئه بعمل ناجح جدًا في مجال الإدارة والاستشارات. إلى جانب ذلك يقوم بإصدار نشرة لخدام الطلاب الجامعيين، وينظِّم المؤتمر الوطني للرعاة المسئولين عن الطلبة الجامعيين، ويكتب مقالات، ويؤلف كتبًا، ويرسم رسومًا متحركة.

لقد فهمتم الأمر– إنه رجل قدير جدًا!

أتذكَّر مرة، منذ عدة سنوات، أنه دخل إلى مكتب الكنيسة (كنت مساعدًا له آنذاك) وهو يتكلم بحماس مفرط عن زوجته. وقال بحماس: "كان يجب أن تراها ليلة أمس، كنت فخورًا جدًا بها!"

يبقى الزواج الحي روحيًا زواجًا بين فردين في سعي وراء رؤية مشتركة خارج ذواتهما.

طرحت «شيري» زوجته على مجلس الكنيسة فكرة للخدمة بين الأمهات الشابات. قالت «شيري» إنه إذا لم تُربَح النساء للرب خلال المرحلة الجامعية، فالوقت الذي قد يكن فيه أكثر انفتاحًا لقبول مشيئة الله لحياتهن هو عندما ينجبن طفلهن الأول. وانطلاقًا من هذه الفكرة، قامت بإعداد خطط تقوم من خلالها الكنيسة بإرسال هدية صغيرة ورسالة لكل سيدة في مجتمعهم أنجبت طفلاً مؤخَّرًا، وتتضمن الرسالة دعوة للمشاركة في الصلاة في الكنيسة، والانضمام إلى شعبها إذا لم يكن لديها كنيسة تواظب على الحضور فيها. وطالما أن كل ولادة يتم نشرها في الجريدة، فهذه الخطة ستكون سهلة التنفيذ بشكل مدهش.

من خلال تركيز «شيري» على امتداد ملكوت الله، ربحت قلب زوجها. إنه لأمر غريب، لكنه صحيح، أن «شيري» كانت تقوم بخدمةٍ خارج نطاق زواجها ساهمت في تقوية زواجها.

يبقى الزواج الحي روحيًا زواجًا بين فردين في سعيٍ وراء رؤية مشتركة خارج ذواتهما.. لطالما كان هذا الأمر صحيحًا عبر التاريخ. لقد تأثرتُ على نحوٍ خاص عندما قرأتُ رسائل أحد الأبطال الألمان وهو «الكونت هلموث چيمس فون مولتك»- الذي على غرار «ديتريش بونهوفر» كان متآمرًا على النازيين.

بدا شغف «فون مولتك» تجاه زوجته واضحًا في رسائله. تأملوا الآتي:

> أنتِ لست واحدة من العاملين مع الله لتجعلي مني ما أنا عليه، بل أنتِ ذاتي. أنتِ الفصل الثالث عشر من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس... ففي اتحادنا -أنتِ وأنا- نشكِّل

إنسانًا كاملاً. نحن... فكرة خلاَّقة واحدة.

وبينما أَحب «فون مولتك» زوجته بعمق، كانت حياته بالقدر نفسه مثقلة بمهمة تحقيق عمل الله على الأرض. وقبل ساعات من إعدامه كتب «فون مولتك» رسالة عاطفية أخرى لزوجته. لكن قبل أن تقوم بقراءة رسالته، اطرح على نفسك السؤال التالي: "ما الذي قد أكتبه لشريك حياتي لو علمتُ أن هذه ستكون آخر رسالة لي؟"

> زوجتي العزيزة، إن حياتي تقترب من نهايتها، ويمكنني بصدق أن أقول عن نفسي: 'لقد شبعت من السنين ومن اختبارات الحياة'، لكن هذا لا يعني أنني ما كنت سأفرح بالاستمرار في العيش، أو أنني ما كنت سأفرح بالسير برفقتكِ على هذه الأرض. ولكن لتحقيق ذلك أنا بحاجةٍ إلى مهمة جديدة من الله، بما أنني تمَّمت الرسالة التي خلقني من أجلها.[6]

وبالرغم أنه كان يتمتع بعلاقةٍ زوجية غنية ومشبعة بالعاطفة والسعادة، فإنه قال إنه بحاجة إلى مهمة جديدة من الله للاستمرار في العيش. يا له من كلام رائع يصدر عن رجل سيُشنق بعد بضع ساعات! إن ما جعل من زواج «فون مولتك» غنيًا إلى هذا الحد هو أن هذا البطل نظر إلى ما هو أبعد من زواجه ليجد معنىً. هذا المعنى أضفى معنىً أعمق في زواجه بشكل في منتهى الغرابة.

في بداية هذا الكتاب تكلمتُ عن مدى ضرورة أن نشير إلى أنفسنا داخل الزواج بضمير المتكلم «نحن» بدلاً من الإشارة بالضمير «أنا». لا يمكننا الوصول إلى صيغة «نحن» من خلال ذوبان شخصية أحد الشريكين في الآخر. إن الرسول بولس واضح في قوله إن كل واحد بيننا حباه الله بمواهب خاصة، ومنحه دورًا خاصًا يجب أن يقوم به لصالح

الله (راجع رو ١٢: ٤- ٨؛ ١كو ١٢: ١- ١١). يجب أن يكون كل واحد منا مكرَّسًا تمامًا وبأمانة وحماس في خدمته الخاصة به.

إن الزواج الناضج ينظر إلى ما هو أبعد من الزواج نفسه؛ فلا يهزم استبداد الرغبات الفردية فحسب، بل يخرج أيضًا من دائرة الراحة لدى الزوجين. يصف هذه العملية كانتقال من «نحن نكون» (we are) إلى «نحن نهتم» (we care).. ويتأكد هذا الانتقال تدريجيًا. إن حياة الزوجين الجنسية والترفيهية تتغيَّر جذريًا عندما يولد الأطفال؛ حتى عمل بسيط كالاستعداد للذهاب إلى الكنيسة يصبح عملاً مضنيًا؛ إذ يحتاج الطفل إلى تغيير حفاضه وتعبئة حقيبته بالحفاضات. إن أنانية الإعجاب في بداية العلاقة وعالم الحب الحالم للشباب لابد أن يفسح مجالاً لهذا الضيف الجديد الصغير الذي لا تنتهي طلباته.

في المراحل الأولى من تربية الأولاد، يبدأ الزوجان تدريجيًا في تعلُّم قيمة الخدمة، وتصبح الأمور التي يستطيعون القيام بها خارج المنزل محدودة. ولكن، فيما يصبح الأولاد مستقلِّين بحياتهم، سيواصل الزوجان مرة أخرى اسهامهما في تنشيط الخدمة. وعندما يتحرَّر الزوج والزوجة من مطالب تربية الأطفال سيُتاح لهم التركيز على عالم أوسع.

لقد رأيتُ والديَّ يمران بهذا الأمر. في عمر السبعين كان والدي يُكمل السنة العاشرة بعد تقاعده، لكن تحرره من أعباء العمل أصبح في الواقع بمثابة إعادة توجه للخدمة. وينتهي الأمر بوالديَّ كخادمين متاحين حتى في أيام العطلات.

قمنا مرة بزيارتهما في أحد معسكرات الخدمة البعيدة، وسردا لنا كيف أمضيا ساعتين ونصف الليلة الماضية وهما يعزيان رجلاً فَقَد زوجته مؤخرًا. لم يسبق لهما أن التقيا بهذا الرجل، لكنه شعر أنهما من النوع

الذي يصغي، وقبلا بسرور العدول عن حضور «الحفلة الموسيقية» التي سيقيمها أفراد المعسكر، وفضَّلا أن يبقيا ليخففا من أحزان الرجل.

وبعد ذلك بوقت قصير، كان أحد الشباب قد خرج للتو من جناح الأمراض النفسية في المستشفى، وانتقل إلى المعسكر بصحبة مع عائلته. والتصق هذا الشاب بوالديّ تقريبًا على الفور، لدرجة أنه صار يدعوهما "جدّي" و"جدّتي" حتى قبل أن تنتهي مدة إقامته.

قد يولِّد التقاعد الشعور بالوحدة، غير أن والديَّ اندفعا بدون تردُّد لجعل هذه المرحلة من حياتهما السنوات الأكثر ربحًا وانشغالاً. مع أنه من المناسب لهما أن يتمهلا، ويتمتعا بعطلة أو برحلة بحرية من حين إلى آخر، لكنهما بشكل أساسي وجدا معنى الحياة والشعور بالرضا من خلال الخدمة المتواصلة. لطالما علق والدي قائلاً: "لا أعرف متى كنتُ أجد الوقت لأعمل!"

بدون هذا الانخراط في الخدمة والالتزام بها، سرعان ما ينغمس الزواج في الشعور بالوحدة. إن الزواج الأناني زواج يتسم بالسطحية. فنحن خُلِقنا لنخدم الله، وما من عاطفة بشرية يمكنها أن تُشبِع هذا الجوع لوقت طويل.

رؤيتان وحياة واحدة

من الطموح ما قتل!

انضم «لو كاسيسشك» إلى حملة دعائية لتسلُّق قمة إفريست في ربيع عام ١٩٩٦. وكان «لو» شاهدًا لأسوأ كارثة تسلُّق عرفها التاريخ.. هذه الفاجعة احتلَّت أخبارها وسائل الإعلام حول العالم عندما تُوفي العديد من الأشخاص على أعلى قمة في العالم. عندما انقضى ذلك النهار

المميت، رفض العديد من المتسلقين العودة، على الرغم من أن بقاءهم على هذا الارتفاع في هذا الوقت المتأخر كان يُعتبر سخافةً. وقد قرر «لو» أن يعود بمفرده، ومن المؤكد أن هذا القرار أنقذ حياته.

على الرغم من أن «لو» كان جادًا بشأن وصوله إلى القمة، لكنه لم يكن مستعدًا أن يجازف بحياته للوصول إليها. وشرح السبب على النحو التالي:

> لم أعتقد أنه بإمكاني الوصول إلى هناك والعودة حيًا، وفي أحسن الأحوال قد أفقد بعضًا من أصابع يديَّ أو رجليَّ. الأمر الآخر هو... لم أكن حقًا معرَّضًا للعديد من الضغوط الماثلة... فمن وجهة نظري للأمور، لم يكن الأمر مسألة حياة أو موت، ولم يكن الأمر هو الأهم بالنسبة لي في العالم، كذلك لم يكن في نيتي أن تكتب الصحف قصصًا عني. وكان الإعلام والشهرة والثروة والأرقام القياسية العالمية، وكل الأمور التي من هذا القبيل، نوعًا من الجوائز... بالنسبة إلى العديد من المشتركين في حملتنا... وهذه الأمور كانت تهمني كثيرًا، ولا أدَّعي عكس ذلك. لكن... طموحي للوصول إلى القمة لم يخنق كل فكرة أخرى في عقلي.[7]

إن الجملة الأخيرة تحديدًا "طموحي... لم يخنق كل فكرة أخرى في عقلي" توضح الكثير من المعاني. لقد رأيتُ رجالاً ونساءً أعماهم طموحهم- حتى طموحهم الروحي، وهذا النوع من الطموح الأعمى يميل بالفعل إلى خنق كل شيء وكل شخص من حولهم. هم لا يرون الثمن الذي يجعلون محبيهم يدفعونه بسبب سعيهم الأعمى

> من الطموح ما قتل!

والمسيطر عليهم، وإذا لم يجارِهم شريك الحياة في هذا السعي يحدث غالبًا نوع من الجريمة الروحية. هناك شيء سيموت حتمًا.. إما الحب، أو العلاقة، أو الفضيلة. من المؤكد أن تحدث خسائر.

إن مزج الطموح والعلاقة أشبه بمزج النار بالديناميت.. فالانفجار محتَّم. إذا كنا سنتعلَّم كيف نعيش رسالتنا داخل الزواج، يجب أن نتعلَّم كيف نكون أقل أنانية، وعلينا أن نصبح أكثر ارتباطًا أحدنا بالآخر. وعلينا أن نتذكَّر أن شريك الحياة له دعوة مثلنا أيضًا، ويجب أن نكون مهتمين بما فيه الكفاية بدعوته لنعرف ما الذي يحفزه ويزوده بالطاقة.

عندما تزوجنا ليزا وأنا، كنا نسعى لتحقيق رسالتين تبدوان غير متناغمتين.. كنت أريد أكثر من أي أمرٍ آخر أن أصبح كاتبًا. والكُتَّاب المحترفون جميعهم يقولون للكُتَّاب الطموحين ما أقوله أنا لمثل هؤلاء: "إذا أردتَ أن تصبح كاتبًا، فلابد أن تتزوج من شريك حياة يمكنه دعمك لعشر سنوات!"

عندما تزوجنا ليزا وأنا، كنا نسعى لتحقيق رسالتين تبدوان غير متناغمتين.

لم ترغب ليزا أبدًا في العمل خارج المنزل.. كانت متفانية في تعليم برنامج التدريس المنزلي، وخلق مناخ منزلي يعمل على نمو الأبناء عقليًا وثقافيًا وروحيًا.

ظاهريًا يُمكنك بوضوح أن ترى أسباب التوتر في العلاقة، أليس كذلك؟ وبعملي ككاتب لم أكسب عشرة بالمئة من المبلغ الذي تحتاجه ليزا لتحقيق أحلامها. وكشريكة حياة غير مرتبطة بعمل خارج المنزل، لم تكسب ليزا أي أموال لمساعدتي على تأسيس عمل خاص أدعم ذاتي من خلاله.

أكون كاذبًا لو أوحيتُ إليكم أن هذا الأمر لم يتسبب في بعض النقاشات الحادة بيننا. عندما أرجع بالذاكرة إلى الوراء، يمكنني النظر إلى هذه "الاختلافات الشديدة" على أنها مكمِّلة لكل منا، خاصة عندما لم يصر أي منا على أن "يخسر" الآخر المناقشة. من خلال احترامنا لدعوة الله لكل منا تمكنَّا من إحراز تقدم، وإن كان ببطءٍ عما كنا كلانا نفضل. ومع ذلك، كلما نظرنا مجددًا إلى الوراء، نجد أن افتقارنا إلى التقدم السريع قد ساعدنا على اكتساب فضيلة الصبر والكثير من عدم الأنانية في داخل كل واحد منا.. وهما صفتان روحيتان رائعتان وقيِّمتان.

تكمن المشكلة في أن كلاً منا كان يعتقد أنه يعلم الأفضل -يا رب، لم لا تسمح للأمور أن تسير كما أريدها أن تسير؟- لكن قد تكون افتراضاتنا أبعد من أن تكون جيدة. قد يكون لما نريد القدرة على تدميرنا. إذا كانت أعيننا مثبتة على قمة إفريست لدرجة أننا ننسى أنه علينا أن نعود أدراجنا فيما لا يزال أمامنا الوقت الكافي للنزول، فقد نطعن أنفسنا بسهام رغباتنا.

قبل ألفي سنة، قام حاكم شاب من حكام إسبانيا بزيارة تمثال الإسكندر الأكبر، وبكى عنده في العلن. لقد بلغ هذا الحاكم الثلاثين من عمره، وكان العار يتملكه عندما قارن إنجازاته مع الإنجازات التي حققها هذا الفاتح العظيم عندما بلغ العمر نفسه. قد يظن العديد من بيننا أنه ما من شيء يدعو إلى الشعور بالعار عندما يصبح المرء حاكم إسبانيا وهو في الثلاثين من عمره، غير أن هذا الحاكم كان محطَّمًا.

وبعد أقل من ثلاثة عقود أصبح الحاكم -المعروف باسم يوليوس قيصر- أحد أقوى الحكام والقادة العكسريين الذي شهدهم التاريخ. في الواقع، أصبح قويًا جدًا لدرجة أن أقرب أصدقائه ومستشاريه تآمروا على قتله. لقد فكَّروا أنه خطرٌ جدًا أن يكون لرجل واحد -وإن كان من النبلاء- كل هذا القدر من القوة.

> قد يكون لما نريد القدرة على تدميرنا.

وتمت محاولة الاغتيال على أيديهم جميعًا كي لا يتم إدانة أحد بالجريمة (إن القضاء على أحد الحكام ليس بالأمر السهل!)، ووافق كل متآمر أن يطعنه على الأقل طعنةً واحدة. قام المهاجمون بتضييق الحلقة حول يوليوس، وسكاكينهم موجهة في وضعية الطعن، لكن قيصر حاربهم بشراسة، مما أدى إلى إصابة البعض منهم. كان قيصر قويًا مما جعل البعض من المتآمرين يدفعون غاليًا ثمن خيانتهم.

ظل قيصر يقاوم ويقاتل حتى استدار ورأى صديقه المقرَّب بروتس. إن ألم تعرفه عليه جعل الشجار يتوقَّف؛ وحلَّت لحظة صمت غريبة. وفي هذا السياق تلفظ قيصر كلماته الشهيرة التي نعرفها اليوم: "حتى أنت يا بروتس؟" وعندما رأى يوليوس قيصر بروتس أمامه، لم يجد دافعًا للمقاومة. إن الخيانة من قِبَل الزملاء شيء، أما الخيانة من أقرب الأصدقاء أمر مختلف تمامًا. توقَّف قيصر عن مقاومته، وغطى نفسه بعباءته، ووقع أرضًا وسمح للمتآمرين عليه أن يطعنوه كما يحلو لهم.

عندما طمح يوليوس قيصر إلى شهرة مماثلة، لم يتصوَّر أبدًا أن هذا الطموح سيجعل أعز أصدقائه يطعنه في الظهر. يمكنني أن أتخيل أمورًا قليلة قد تسبب ألمًا أكبر من الألم الذي قد أشعر به عندما يهاجمني أقرب وأعز صديق لي ويخونني.

بلا شك، يُعتبر الطموح نضالاً عنيفًا.. فإن ما نضحي بكل شيء لبلوغه قد يلتف حولنا ويقتلنا في اللحظة التي نبلغه فيها. قد يكون الله قد أعطانا العلاقة الزوجية ليهدئ من أحلامنا ويعيد توجيهها. وعندما نُرغَم على المساومة، نتعلَّم أن نعيد تقييم الأشياء وفقًا لأهميتها. المطلوب

منا هو إعادة التفكير في أولوياتنا، والتمهل بما يكفي لننظر إلى آراء الآخر واحتياجاته.

قلما قرأتُ أمورًا مُحزنة أكثر من السير الذاتية الثلاث لـ «دونالد ترامب». لا تسألوني لماذا قرأتها كلها- أنا نفسي لست متأكدًا من معرفتي السبب! لكن في نهاية السيرة الثالثة تتضح صورة رجل سعى على نحوٍ أعمى وراء أحلامه المادية، وفَقَد الحميمية التي تجعل من هذه الأحلام أحلامًا ذات معنى. فقد كانت إحدى مشكلاته مع زوجته الأولى «إيفانا» أنها كانت تريد أن تتكلم عن عملها في المنزل، وكان دونالد يريد أن يرتاح. وما أن قطع علاقته بها، تزوج بشابة اسمها «مارلا»، ولم يكن لهذه الأخيرة أي اهتمام بإدارة الفنادق، وكانت ترغب في بناء منزل. لكن في هذه الحالة، أصبح دونالد قلقًا برفقة زوجةٍ تريده أن يحضر إلى المنزل في موعد العشاء.. وهذا هو الشيء الغريب.

> قلما قرأتُ أمورًا مُحزنة أكثر من السير الذاتية الثلاث لـ "دونالد ترامب".

بدلاً من التنازل واكتشاف ما كان بوسع زوجتيه أن تعلِّماه إياه، قام دونالد بتغيير زوجاته. لقد استثمر في طرفي المعادلة –طموح العمل والحياة المنزلية– ووجد أن كليهما كثير المطالب. على المرء أن يتساءل عن إلى أي مدى جعلته هذه المباني والكازينوهات التي يملكها أن تشعره بالدفء عندما كان يخلد إلى الفراش متأخرًا وحده، أو مع امرأةٍ لا يربطه بها أي تاريخ يُذكَر.

تدعونا الالتزامات الزوجية إلى الخروج عن ذواتنا كي تساعدنا على تذكُّر أن رؤيتنا ليست الرؤية الوحيدة في العالم. إن الله بصدد بناء كنيسة كاملة، وكل عضو فيها يُعتبر ذا أهمية بالغة.. العين، واليد، والساق، والفم لكل منها دور تقوم به (راجع ١كو ١٢: ١٤- ٣١). نحن

أشبه بتروس في آلة –وبكل صراحة، بإمكان الله أن يستبدل أي واحد منا بدون أي تردد.

عندما كنتُ في الجامعة، حزنتُ كثيرًا لموت «كيث جرين» بطريقة مأساوية؛ إذ كان مرنمًا وملحنًا مسيحيًا فعالاً على نحوٍ مدهش في الوصول إلى المراهقين. كيف يسمح الله بأن يموت شخص مثله؟ اندهشتُ للأمر. ولكن «ديتريش بونهوفر»، الكاتب والمعلِّم الألماني العظيم؛ و«بلايز باسكال»، المفكِّر اللامع والمدافع عن الدين المسيحي، لم يبلغا عمر الأربعين. الرب يسوع نفسه لم يعِش لأربعين سنة على هذه الأرض.

تعلِّمني هذه الحقيقة بوضوح أن أمانتي مهمة، في حين أن خدمتي ليست ضرورية. ستتابع الكنيسة المسيحية مسيرتها على نحوٍ جيِّد إذا لم أكتب أي كتاب آخر أو أعظ في أي خلوة روحية أخرى.. لن تخسر الكنيسة أي تقدُّم.

كنت أتمنى أن أوفر لليزا منزلاً كما كانت تحلم، وأعلم أن ليزا كانت تتمنى لو أنني بدأتُ مهنتي ككاتب منذ بداية زواجنا. وكلانا على الأرجح ضعيف؛ لدرجة أنه لو أُعطينا الخيار قد نرجع إلى الوراء ونسلك الطريق الأسهل. لكنني لستُ متأكدًا من أن هذا كان ليصب في النهاية في مصلحتنا. وعلى غرار قيصر، فإن تحقيق طموحنا مبكرًا ربما كان ليقضي علينا.

> تعلِّمني هذه الحقيقة بوضوح أن أمانتي مهمة، في حين أن خدمتي ليست ضرورية.

النظر إلى ما هو أبعد من الزواج

إن أهمية الخدمة –إذا نظرنا إلى ما هو أبعد من الزواج– ضرورية؛

لأن الزواج نفسه ليس أبديًا. عندما يعطينا الله شريك حياة، ما من ضمانة أنه سيبقى معنا لمدى الحياة. حتمًا نأمل أن يبقى معنا لمدى الحياة، لكن قليلة هي الزيجات التي تنتهي بموت الشريكين في الوقت نفسه. إن الزواج مُعدٌّ لهذا العالم، وهذا العالم زائلٌ، ولكل واحدٍ منا وقت مختلف عن الآخر.

يقترح «أوتو بايبر» أن "فقدان شريك الحياة ليس مجرَّد حدث طبيعي يتسم بالحزن... بل هو تدخُّل إلهي ينتهي من خلاله الزواج كي يتمكَّن الشريك الذي بقي على قيد الحياة من تكريس نفسه بالكامل لخدمة الله في الكنيسة."[8] أصغِ جيدًا لما يختتم به: "وبالتالي، إن كل مرحلة من نمو الفرد جنسيًا تعتمد على كونه عرضة لناموس الله، وكذلك عرضة لتحقيقٍ جزئي من خطة الله الفدائية."

عندما يأخذ الزواج موضعه في سياق خطة الله للخلاص، فإننا نبقى متزوجين، بقدر ما يعتمد الأمر علينا، كوسيلة للتعبير عن التزام الله بشعبه. وعندما ينتهي الزواج بترتيب من الله –من خلال وفاة أحد الطرفين– لا يتغيَّر هدفنا الأسمى. على الأرجح نحن الآن "أحرار" لنخدم الله بفعالية أكبر من خلال تعريف الآخرين بخطَّته الإلهية للخلاص.

عندما يصبح الزواج سعينا الرئيسي، فإن الخوف والرغبة في التملُّك والتمحور حول الذات سيعوقنا عن التلذذ بالعلاقة. نحن خُلقنا لنُعجَب بشخص ونحترمه ونحبه، ويكون لدى هذا الشخص غاية أكبر من ذواتنا، غاية ترتكز حول عمل الله غير المضني والذي يقتصر على دعوة الأشخاص إلى ديارهم.. أي إلى قلبه المُحب.

عندما يصبح الزواج سعينا الرئيسي، فإن الخوف والرغبة في التملّك والتمحور حول الذات سيعوقنا عن التلذذ بالعلاقة.

نسمح للزواج أن يقودنا إلى أبعد من حدوده عندما نقبل مهمتين رئيسيتين: أن نحقق كشعب ما خلقنا الله من أجله، وأن نقوم بالعمل الذي أوكله الله لنا. إذا تبنينا -وليس إذا قبلنا فحسب، بل إذا تبنينا بإيجابية- هاتين المهمتين، سيكون لدينا حياة.. حياة غنية، حياة ذات معنى.. حياة ناجحة. لكن المفاجأة هي أننا سنحصل على الأرجح على زواجٍ سعيد، لكن هذا سيكون كنتيجة ثانوية مباركة لأننا وضعنا كل شيء في نصابه الصحيح.

أسئلة للتفكير والحوار

(١) قبل أن تتزوج، ما الذي جعلك تشعر أن الله يريد أن يفعل شيئًا في حياتك؟ ماذا كانت رؤية شريك حياتك للحياة بشكل عام قبل أن تتزوجا؟ كيف أثَّر هذا الزواج على رؤية كل منكما للحياة؟ ما شعورك حيال هذا الأمر؟

(٢) هل اقترفت ما يسميه «جاري» «التزوير الروحي»- أي الاتفاق على الزواج ومن ثم التصرف بعد الزواج كرجل أعزب أو كسيدة عزباء؟ ماذا تحتاج أن تفعل لكي تتوقف عن فعل هذا الأمر؟

(٣) كيف يمكننا تحقيق التوازن الصحيح بين الأمانة تجاه دعوتنا والأمانة تجاه عهود الزواج؟

(٤) هل تدرك أن طموحك أو طموح شريك حياتك قد يخنق علاقتكما؟ إذا كان الأمر كذلك فما هي الطريقة الأفضل لمواجهة هذا الأمر؟

(٥) فكِّر بصدق كيف كان بإمكان طموح سابق -لو تحقق- أن يؤذيك أو يؤذي زواجك؟

(٦) ما هي الخدمات التي تشارك فيها في كنيستك أو في مجتمعك؟ ما الخدمات التي يشارك فيها شريك حياتك؟ ما هي الخدمات المشتركة بينكما؟ كيف يكون زواجكما أقوى (وأضعف) بينما تخدمان في دوائر بعيدة عن منزلكما؟

(٧) فكِّر في التأثيرات التي قد تكون لهذه المراحل من الحياة الأسرية على خدمتك:

- زوجان حديثان، ليس لديكما أبناء.

- متزوجان ولديكما أطفال في سن المشي.
- تربيان أبناءً في سن المراهقة.
- تعيشان وحدكما في المنزل بعدما كبر أبناؤكما.

(٨) ما هي مميزات كل مرحلة من الحياة وتحدياتها عندما يتعلق الأمر بتحقيق دعوتك في الخدمة؟

(٩) برأيك، ما الذي يحل بالزواج إذا ركَّز الزوجان على اكتفائهما العاطفي لا غير، واستبعدا كل مشاركة أو خدمة في عمل الله؟

(١٠) كشخص متزوِّج كيف شكَّل وقوَّى زواجك الطريقة التي تشارك بها في الخدمة؟

إنّ زواجك أكثر من مجرّد عهد مقدّس مع شخص آخر.

إنه تدريب روحي مصمم ليساعدك أن تعرف الله على نحوٍ أفضل، وتثق به بالكامل، وتحبّه بحرارة.

يُصنف كتاب «الزواج المقدّس» للكاتب جاري توماس كأحد الكتابات الكلاسيكيّة المعاصرة. إنّ وجهة نظره الفريدة والمُلهِمة عن الزواج كتدريب روحي قد أثّرت في نفوس قادة كنائس مشهورين، ومعلّمين معروفين، وآلاف القرّاء حول العالم.

لا يخبرك هذا الكتاب كيف تبني زواجًا أفضل.. فقد سبق وتولّت العديد من الكتب هذه المَهمَّة. عوضًا عن ذلك، يُظهر لك هذا الكتاب كيف يمكن أن يساعدك زواجك على تعميق علاقتك مع **الله**.. بدءًا بممارسة الغفران، مرورًا بنشوة ممارسة الحب، وصولاً إلى التاريخ الذي تصنعانه أنت وشريك حياتك.. فكلّ ناحية من زواجك تمتلئ بالقدرة على اكتشاف وتقديم شخص المسيح.

بفضل أسئلة المناقشة المُلحقة بكا فصل، والموجّهة للأزواج والمجموعات الصغيرة، بإمكان هذا الكتاب أن يغيّر زواجك جذريًّا.. وحتمًا سيجري تغييرًا في داخلك. لأنه سواء كان زواجك مُبهجًا أو صعبًا يمكنه أن يصبح مدخلاً لمسيرة أكثر حميميّة مع **الله**.

”كم تمنيّت لو أن هذا الكتاب صدر عندما تزوّجت بزوجي ريك! أنا أنصح به بكل حماس لكل شخصين يعتزمان الزواج، أو تزوجا بالفعل.. فالزواج هو أكثر أدوات **الله** فاعلية لتشكيلنا وتغييرنا على صورة ابنه.“
–كاي وارين، معلّمة وواعظة

”ما من كتاب، من دون أي استثناء، أصدق وأقوى يعالج تحديّات الزواج وأفراحه كما يفعل هذا الكتاب!“
–كارين بال، كاتبة الكتاب الأكثر مبيعًا The Breaking Point

جاري توماس ألّف عدّة كتب باللغة الإنجليزيّة، ترجمت إلى اثنتي عشرة لغة، وحصدت العديد من الجوائز، منها: Authentic Faith, Sacred Parenting, Sacred Pathways, Sacred Influence. إلى جانب مئات المقالات في المجلات المسيحيّة. وهو ضيف دائم في برنامجين إذاعيين بالولايات المتحدة. إنه حاصل على درجة الماجستير، والدكتوراه الفخرية. يعيش جاري مع زوجته وأولاده في ولاية واشنطن.



